تاريخ المصريين ٢٠٣

الصراع الدولى على عدن والدور المصرى

فتحى أبو طالب



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

إهـــــداء ٢٠٠٦
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

الصراع الدولى على عدن والدور المصرى

بقلم/ فتحى أبو طالب



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



تقديم

يتناول هذا الكتـاب الذى بين يدى القـارئ الصراع الدولي على عدن والدور المصري الذى كتبه الأستاذ فتحي أبوطالب ؛ وهويقدم رؤية لتـاريخ هذا الجـزء من الوطن العـربى لم تلق علية أضواء كافية

وقد تناول فية المؤلف احتلال بريطانيا لعدن وضمها لاملاك الإمبراطورية البريطانية، ونشأة المقاومة للاحتلال من الداخل فى منطقة الشيخ عثمان، ثم احتلال شبه جزيرة عدن الصغرى وأهميـة عدن لبريطانيا فى الحرب العالمية

الأولى، وموقف مصر من هذا الاحتلال، وتعرض لتجارة السلاح بين القبائل اليمنية وازدهارها بعد الاحتلال البريطاني لعدن، كما تعرض لأهمية ميناء عدن التى اعتبرها لؤلؤة اليمن، وتعرض لحادثتي ردفان الأولى والثانية.

وهو مكتوب بأسلوب أدبى قد يكون مختلفا عما تعود عليه قارئ الدراسات التاريخية.

وأملى أن يجد فيه القارئ ما ينشد من فائدة ومتعة.

رئيس التحرير

د. عبدالعظيم رمضان

المقدمة

يقولون أن التاريخ له آذان ولكن ليس له عيون بمعنى أن التاريخ يرادف الماضى ومن شاهد أحداثه صار من الماضى أيضاً فالرؤية للأحداث تتطلب الوجود فى وقت الحدث ولكن وجود من يرى الأحداث وقت حدوثها أمر نادر بل منعدم فى معظم أحداث التاريخ ولذلك يأتى جيل لاحق على حدوث جزء من التاريخ ويستند إلى الإستماع لمن سبقه ويضيف بعض الإضافات حسب الاجتهاد والتصور لتسلسل الأحداث وقد يحذف أجزاء لا يقتنع بها أو يصيغها مع المبالغات ولذلك يتم نقل أحداث التاريخ مشمولة بالاجتهاد ومن يقوم بالنقل يكون سنده فى ذلك الاستماع والمقارنة والتلوين والحذف والإضافة لأنه فى ذلك يفتقر إلى أسانيد الرؤيا الحقيقية للحدث أثناء وقوعه.

ولذلك تتلقى الأجيال بعضها من بعض بالاستماع لما ورد ولما تم تسجيله بغض النظر عن نقص بعض هذه التسجيلات للأسانيد والبراهين المؤكدة هكذا يصفون التاريخ بأن رؤية الحدث شبه معدومة

أو تفتقر إلى الدليل ولكن ما ورد في سرد الأحداث في كتاب الصراع الدولي على عدن والدور المصرى مختلف عن عمومية أن التاريخ يفتقر إلى الأعين التى ترصد الحدث أثناء وقوعه فإن معظم الأحداث بعد مضى أكثر من ثلاثين عامًا على حدوثها كانت تحت نظر ورؤية بعض من بقى على قيد الحياة وشاهد عن قرب وتابع فى مراحل مختلفة التحضير لوقوع الحدث وخطة التنفيذ ونتيجة الحدث.

ولذلك فإن محتوى هذا الكتاب بما يتضمنه يشمل الرؤيا بالأعين المبصرة بالإضافة إلى الأذان التى سمعت ونقلت بأمانة وإن ما يحتويه هو جزئية من الحدث خاصة فى الفترة من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٦٨ وهو تاريخ خروج القوات البريطانية من عدن ويبرز الكتاب وضوح الرؤيا للهدف المشترك والمساعدة فى إستخدام الوسائل والأساليب المتاحة فى ذلك الوقت لتحقيق إخراج البريطانيين من عدن - أما خلاف ذلك فلم يكن واردًا ولم يكن معلومًا فالهدف المشترك يحتاج إلى تركيز فنى عالى ومخلص ومعاونة صادقة مخلصة هادفة ومحددة.

وأحب أن أوضح للقارىء العزيز بما لا يدع مجالاً للشك ويقطع خط المزايدة والمراهنة على إحتمالات وتخمينات وتحليلات بعيدة عن المضمون ومهما قد يقال أو يثار من شك وريبة فيما إذا كان الأخ الكبير (ويعنى مصر) كان يسعى لأكثر من المساعدة تحت مزاعم شتى وإدعاءات وإجتهادات ممن يسعون لتفسير الحدث وتحليله سندهم فى ذلك آذانهم وأهوائهم وكثيرًا ما تتجاوز هذه الأهواء عن

الحقيقة المجردة وتنحرف إلى المتاجرة والمزايدة ولو على حساب الحقائق ورغماً عن كل الأسانيد والدلائل الواضحة.

كان الهدف بين الأطراف واحدا ووسيلة تحقيق الهدف هو المقاومة باستخدام القوة الذكية والإمكانات المتاحة البسيطة فى مواجهة قوة أعظم وإمكانات أقدر وأشمل ومقاييس لو تم رصدها وعيارها لفاقت بكثير ما لدى الوطنيين آنذاك وليس من العدل وضع مقارنة منصفة بين المقاومة والبريطانيين ولكن حدث ما كان بعيد المنال وغير وجه الواقع ونجحت المقاومة إلى جانبها مصر ورحل الاحتلال من البلاد.

هذه الجزئية من الأحداث فى عدن فى فترة محددة حاسمة والتى تم رصدها فى هذا الكتاب كان من الضرورى الاستعانة بما سجله التاريخ فى فترة سابقة وعن كيفية إحتلال البريطانيين لعدن وتعاملهم مع المواطنين والقبائل وكيفية إستفادتهم الفائقة من موقع قواتهم فى عدن أثناء الحرب العالمية الثانية لحماية مصالحهم وتحقيق إنتصاراتهم ولم تشمل الأحداث الجانب السياسى ولا التيارات الحزبية ولا الأفكار العقائدية المختلفة بل والمتضارية فى بعض الأحيان ولم يكن فى مضمون هذه الجزئية من الحدث التفاعلات الداخلية بين المواطنين المثقفين ولا بين القبائل المختلفة المتصارعة فى كثير من الأحيان فيما بينها وصراعات القبائل صراعات محددة إما على زعامة أو على أرض أو نتيجة أخذ بالثأر أو سوء ظن.

كما أن الجزئية لم تقترب من التيارات الفكرية التى كانت تهب على عدن من الشرق ومن الغرب ومن الجيران العرب ولم تهدف إلى تحليل

أفكار وأطماع هذه القوى الخارجية ولا الأهداف التى ترمى إلى تحقيقها ولكن جزئية الأحداث التى وردت خاصة هذا الجزء الذى كان يقع تحت دائرة الرؤيا بالنظر والاستيعاب بالسمع. ذلك الجزء السابق الاشارة إليه منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٦٨ يركز تسجيل أحداثه على فترة توحدت فيه أهداف المتناقضات التى كانت موجودة فى عدن ولم تطفو الصراعات بعد والتى كانت كامنة فى النفوس بل كان الهدف للجميع واحد وهو إخراج البريطانيين من عدن وإنهاء الأحتلال الأجنبى والحدث أيضاً يستدعى الدقة والإيضاح فى أن مصر الأخ الكبير كما يسميها أهل عدن كانت لها نفس الهدف أما ما خفى عن هذا الهدف الواضح فهو خارج سرد هذه الأحداث والوقائع والأخ الكبير عندما مد يد المساعدة كانت أدواته إلى تحقيق ذلك بعض الرجال المختارين للمساعدة الفنية والتدريب ولم يتجاوز دورهم أكثر من هدف إخراج البريطانيين من عدن وهو نفس الهدف لابناء البلد ولذلك فما ورد فى هذا الكتاب ليس مرسلاً للاجتهادات المتباينة والمتعارضة والتطورات والتحليلات المتناقضة والمبالغ فيها فى كثير من الأحيان فالمقصود فى سرد هذه الجزئية تستند إلى ما جعل الأحداث تجعل البريطانيون يتمسكون بموقعهم الهام فى عدن وتزداد أهمية عدن لإستمرارها تحت نفوذهم مع مرور الأيام.

وكما كان البريطانيون أقوياء وذوى سلطان وجبروت ونفوذ عظيم فى فترة سابقة من الزمان بعد إحتلالهم موقعهم الهام فى عدن كان الوطنيون فى عدن رغم ظروف حياتهم القبلية ومدارك معظمهم المحدودة وقلة الامكانات المتاحة لديهم وفقر مواردهم الطبيعية إلا أن

المقــاومــة للوجــود البــريطاني بدأت منذ اللحظة الأولى لـلاحــتـلال البريطاني لعدن وتعددت أشكال المقاومة وتنوعت درجاتها ولذلك فإن مقاومة الاحتلال ليست وليدة فترة محددة ولا حبيسة مكان معين بل كانت تملأ صدور الكثيرين من الوطنين الرافضين لمبدأ وجود الغريب على أراضيهم حتى أن الامام اليمنى فى صنعاء أعلنها أكثر من مرة برفض إحتلال جزء من أرض أبائه وأجداده ولذلك فالمقاومة المسلحة فى عدن ليست وليدة المصادفة ولا نتيجة حدث بعينه ولا حالة مؤقتة من العـصـيـان والتـذمـر ولكنها صـفـة مسـتـمـرة ودائمة منذ وطىء البـريطانيـون أرض البـلاد ولكنهـا كـانت فى حـاجـة مـاسـة للمـؤازرة وحسن التنظيم كانت المقاومة لكى تكون فا:ىة وتثمر فى حاجة لتدعيم قـوى يؤازرها ويشـاركـهـا الهدف بأمـانة ورغم الجـهـد الذى بذله الوطنيون من قبل ضد الوجود البريطانى والأدوار الماكرة التى لعبها البريطانيون فى حفز الصراع الداخلى بين القبائل بعضها مع بعض والتناحـر بين الأفـراد آلا أن كل هذه المتناقضـات ومـا صـاحـبـهـا من أهواء توحدت وتناصرت وإعتصمت بعضها البعض بعد أن وجدت من يمـد يد العـون إليـهـا لا باغـيـا ولكن ناصـرًا فى جـانب الوطنيـين إلى تحرير الأرض وهـادفًا إلى طرد المحتل ومـشـاطرًا أبناء الوطن الهدف إنهـا يد العـون من الأخ الكبـيـر التى بذلت الكثـيـر وقـدمت العظيم من خلال إطار محدد الهدف.

ولذلك فليس من العدل الابتعـاد عن إنصـاف دور المقـاومـة المسلحـة للوطنين فى عدن.

ولا تجاهل فاعلية دور مساعدة الأخ الكبير فى فترة كان الوطنيون الصادقون الهادفون فى مسيس الحاجة إلى هذا العون الذى كان يشد من أزرهم وساعدهم على الصبر والانتصار.

فرحمة إلى من قضى نحبه وسلام لكل من عمل فى صمت وتقدير لكل من ساعد وعاون حتى خرج آخر جنود الاحتلال من عدن.

التمهيد

قام البريطانيون باحتلال عدن عام ١٨٣٩ وكانت دوافعهم إلى هذا الاحتلال عديدة ولكن علاقة البريطانيون بعدن وإهتمامهم بالمناطق المتاخمة لها لم تبدأ بتاريخ هذا الإحتلال. بل كان الاهتمام من جانبهم سابقًا هذا التاريخ بفترة زمنية طويلة ويمكن إعتبار تزايد المصالح البريطانية الاستعمارية فى الهند إعتبارًا من عام ١٦٠٠ وهو بداية إنشاء شركة الهند الشرقية البريطانية وقد وقعت الملكة اليزابيث الأولى وثيقة إنشاء هذه الشركة فى ٣١ ديسمبر من عام ١٦٠٠ وليس يخفى الغرض الرئيسى من إنشاء هذه الشركة وهو الهيمنة البريطانية التجارية على شبه القارة الهندية والمساعدة فى الاستغلال الأمثل إقتصاديًا لهذه المنطقة. وهذا كان السبب الجوهرى لإنشاء هذه الشركة إلا أن السبب الآخر هو العمل على إمتداد النفوذ الاستعمارى البريطانى إلى بلاد الشرق، وقد اصطدمت المصالح البريطانية وتعارضت فى كثير من الأوقات مع المصالح الاستعمارية الهولندية

وكذلك المصالح الاستعمارية الفرنسية التى لم تتردد فى إنشاء شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤.

إلا أنه بعد حرب السنوات السبع بين عامى ١٧٥٦ و ١٧٦٣ أصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية أوفر قوة ونفوذاً وزادت مصالحها الاقتصادية بحيث أصبحت الأعظم قوة.

وتعاظمت قدرات هذه الشركة ونفوذها خاصة بعد أن تنازلت فرنسا لبريطانيا على أساس معاهدة باريس فى فبراير ١٧٦٣ تنازلت عن كل ممتلكاتها فى شبه جزيرة الهند فيما عدا بعض المراكز القليلة الأهمية مثل «بندشيرى» و «سندر ناجور» وقدمت الحكومة الفرنسية فى ذلك الوقت تعهداً بعدم قيامها بإنشاء أى مراكز حربية فى هذين المركزين.

ورغم وجود بعض المراكز البرتغالية فيما يسمى بالهند البرتغالية، وهى مناطق صغيرة قليلة الأهمية على الساحل الغربى للهند وتشمل «ديو» و «زامان» و «جوا» شمال بومباى. إلا أن تأثيرها على المصالح البريطانية لا تذكر ورغم سيطرة شركة الهند البريطانية دون منافسة من الفرنسية والبرتغالية وهيمنتها العسكرية والتجارية على شبه القارة الهندية وعلى المواصلات والتجارة إلى أوربا إلا أن البريطانيون لم يستشعروا حتى ذلك الوقت بضرورة تأسيس محطة أو محطات أو مراكز ثابتة لهم على الطرق المؤدية من وإلى أوربا مثل المناطق المطلة على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية مثل عدن والساحل الشرقى لافريقيا مثل الصومال وكينيا كما حدث لاحقاً.

وكان إهتمام البريطانيون فى ذلك الوقت هو حماية وتأمين الطرق الموصلة بين أوروبا والهند وحماية التجارة والمصالح الاقتصادية البريطانية فى منطقة المحيط الهندى وقد إكتفى البريطانيون بأن لجأوا إلى محاربة أعمال القرصنة فى الخليج العربى حتى لا تهدد مواصلاتهم وتجارتهم مع إيران والعراق وتقوض مصالحهم الاقتصادية ولم يغفل الاستعمار البريطانى عن عدن وموقعها الفريد فموقع عدن عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وفى أقصى الجنوب لشبه الجزيرة العربية وإطلالها على الساحل الشرقى لافريقيا . وكذلك إطلالها على المحيط الهندى مما جعل بعض المؤرخين يضعون أهميتها فى هذه المنطقة إنها العين الساهرة بشبه الجزيرة العربية فى ذلك الوقت.

ولم تبدأ علاقة البريطانيون بعدن منذ إحتلالها عام ١٨٣٩ ولم يغفل البريطانيون عن أهمية عدن منذ إنشاء شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠ .

فقد أرسل البريطانيون بعد إنشاء هذه الشركة بتسعة أعوام أى فى عام ١٦٠٩ السفينة البريطانية اسينشون Ascension بقيادة الكابتن الكشندر شاربى A. Sharpy بغرض إقامة علاقات تجارية بين بريطانيا وبلاد اليمن وعندما وصل شاربى إلى عدن استقبله حاكمها فى البداية إستقبالا طيباً إلا أن العثمانيون شكوا فى أن النوايا ليست مقصورة على الأغراض التجارية فاعتقلوا شاربى وصادروا حمولة السفينة ثم أطلقوا سراح الكابتن وأبعدوه إلى ميناء المخا اليمنى.

. وهذه الحادثة تعتبر أول محاولة بريطانية مبكرة للتدخل فى شئون عدن والوصول إلى البحر الأحمر. وقد فشلت هذه المحاولة فشلاً ذريعًا إلا أن شركة الهند الشرقية البريطانية - قامت بعد سنتين من المحاولة الأولى - أى فى عام ١٦١٠ فارسلت ثلاث سفن بريطانية إلى عدن بقيادة سير هنرى ميلتون Henry Middelon.

وعندما وصلت السفن إلى عدن حيث كان يتولى زمام أمورها الحاكم العثمانى جعفر باشا وقد إطمأن السير ميدلتون نسبيًا بعد أن إستشعر أن إستقباله فى عدن لم يكن عدائيًا فترك إحدى السفن راكية فى ميناء عدن وتوجه إلى الشمال إلى ميناء المخا اليمنى بقيادة السفينة دارلينج Derlling حيث إستقبله حاكم المخا رجب أغا العثمانى بترحاب لم يدم طويلاً، وقام بعض الجنود العثمانيون بمهاجمة سير ميدلتون ورجاله وأوقعوا بهم خسائر كبيرة وإقتادوا سير ميدلتون أسيرًا إلى صنعاء هو ومن بقى معه احياء ومن ناحية أخرى قام العثمانيون بمهاجمة سفنه الراسية فى ميناء المخا.

وحدث قتال شديد بينهم وبين البريطانين - إلا أن العثمانيون لم يتمكنوا من الاستيلاء على السفنتين وللاستدال على المشاعر المعادية أبدى الوالى العثمانى فى صنعاء تعجبه الشديد من جرأة هؤلاء الصليبين الذين يحاولون الاقتراب من الجزيرة العربية والاماكن المقدسة الاسلامية إلا أنه ورد من الأستانة تعليمات بإطلاق سراح الأسرى وتركهم يعودون من حيث أتوا وقد تم إنذار البريطانين بعدم العودة مرة أخرى إلى شبه الجزيرة العربية وتم تهديدهم بعواقب أشد

وأقسى أن واتتهم الجرأة مرة أخرى سواء هم أنفسهم أو مجموعات أخرى من جنسيتهم بالعوده وهكذا رجع سير ميدلتون ورفاقه وسفنه دون أن يتمكنوا من تحقيق أى من أهدافهم.

إلا أن شركة الهند الشرقية البريطانية لم تستلم لما حدث من قبل وعاودت الكرة مرة أخرى فى عام ١٦١٢ بالقيام بأعمال إستطلاع وجس النبض على الساحل ما بين عدن والمخا. فقد أرسلت بعثة بريطانية بقيادة القبطان «جون ساريز» John Saris وتتكون من ثلاث سفن وذلك بغرض زيارة ميناء المخا اليمنى وكان من نصيب هذه البعثة تحقيق بعض النجاح فقد تم إستقبالهم فى ميناء المخا مقابلة طيبة ومن مظاهرها تقديم إعتذار عما حدث لبعثة السير ميدلتون حتى أن الوالى العثمانى فى اليمن أصدر تعليماته بالسماح للأجانب بحرية التجارة على السواحل اليمنية على السفن الهندية كما سمح أيضاً بشراء كل ما يلزمهم ويحتاجونه من بضائع أو تموين للسفن من فحم ومياه.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن البريطانيون قد حققوا بذلك بعض النجاح فيما كانوا يهدفون إليه وكان مصدر النجاح بالدرجة الأولى يرجع إلى تساهل العثمانيون الذى كان مرده إلى الرغبة فى زيادة الحركة الاقتصادية وتبادل المنفعة مع الأجانب برواج التجارة وإزدهارها. ورغم أن جون ساريز لم يحقق الكثير مما كان يأمله خاصة وأن الظروف المحيطة لم تكن لتشجع على الاستمرار بتنمية

الأعمال التجارية مما جعله يقرر العودة والرحيل بعد أن حقق بعض النجاح الإضافى للإتصال بالمنطقة.

وقد عاودت شركة الهند الشرقية البريطانية إرسال بعثة أخرى عام ١٦١٨ بقيادة القبطان شلنج Captain Shiling على ظهر السفيننة البريطانية ان رويال Anne Royel وكانت هذه البعثة هدفها واضحاً ومحدداً فى إنشاء وكالة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية.

وكانت للسياسة العثمانية التى إتسمت باللين والتعاون مع الأجانب من العوامل الرئيسية التى على أساسها قبل العثمانيون السماح للبريطانين بمزاولة نشاطهم التجارى فى الموانى اليمنية.

من هذا الاستدلال وتكرار المحاولات البريطانية على زيارة عدن والمخا.

والتمكن أخيراً من تنمية تجارتهم وإتصالاتهم كان دليلاً مؤكداً على إصرار البريطانيون للحصول على موطىء قدم لهم ولو كان فى البداية والظاهر يكون هذا الموطىء بغرض التجارة وتنمية الاتصالات.

إلا أنه بمرور الوقت نتيجة الوهن الذى أصاب حكم الأئمة فى اليمن بعد أن كان قد إزدهر وقويت شوكته فى عهد الإمام إسماعيل بن القاسم فى عام ١٦٤٤ فشمل حكمه عدن ولحج وبلاد البيضاء ويافع وحضرموت وتهامه والمخلاف السليمانى فى شمال اليمن فقد ضعفت قبضة الأئمة مما شجع بعض الحكام المحليين فى أنحاء اليمن على الاستقلال بأنفسهم والإنفصال مثلما حدث فى حضرموت ولحج حيث أعلن شيخ قبيلة العبادلة نفسه مستقلاً فى لحج عام

١٧٢٨ كما تمكن من السيطرة على عدن بعد أن نجح فى التحالف بقوة مع جاره سلطان يافع وإتفقا على أن يتبادلا معًا خراج عدن بالمناوبة وذلك فى عام ١٧٣٥ وبعد فترة زمنية لا تتجاوز الستة أشهر نقض شيخ العبادلة تحالفه مع سلطان يافع وأعلن نفسه سلطانًا على لحج وعدن.

وقد حقق البريطانيون بعض النجاح فى الاقتراب من عدن وموقعها المتميز إلا أنه بدأت نظرة الفرنسيين تتطلع إلى الحصول على نصيب من كعكة الاستعمار فى منطقة البحر الأحمر فلقد أسست فرنسا شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ ونجحت مع غيرها من الشركات الفرنسية فى تحقيق بعض النجاح وتوطيد علاقاتها مع الهند هذا بالإضافة إلى ما حققته فى بعض موانى جنوب البحر الأحمر وعلى الساحل الشرقى لافريقيا.

والإتصال الفعلى الفرنسى بسواحل البحر الأحمر وخاصة ميناء عدن بدأ ذلك فى عام ١٧٠٩ عندما تقدمت بعثة فرنسية برئاسة دى ميرفيل De Marveile على ظهر السفينتين كيرييز Curieuse وديلجينت Diligent التابعتين لشركة سانت مالو Sat Malo.

وعندما وصلت البعثة إلى عدن قابل دى ميرفيل حاكم عدن وكان الاستقبال طيبًا هذا بالإضافة إلى نجاح دى ميرفيل فى عقد معاهدة مع حاكم المخا وكان أهم بنود هذه المعاهدة تعطى الفرنسيين الحق بالقيام بالأعمال التجارية فى الميناء اليمنى أثناء النهار إلا أنه كان يشترط عليهم العودة إلى سفنهم ليلاً هذا بالإضافة إلى السماح

للفرنسيين برفع علمهم فوق وكالتهم التجارية كما حددت الضرائب الجمركية على البضائع المباعة بنسبة لا تزيد عن ٣٪ بالإضافة إلى السماح للفرنسيين بمزاولة طقوسهم الدينية أثناء وجودهم فى الأراضى اليمنية.

وكما أن النجاح يولد النجاح فقد استثمر الفرنسيون النجاح الذى تم تحقيقه على يد دى ميرفيل وقامت شركة الهند الفرنسية بتوجيه بعثة أخرى عام ١٧١١ برئاسة دى لالاند Dale Landa وبريكولين Bric-olaine إلى سواحل البحر الأحمر وميناء المخا على وجه الخصوص ورغم الاستقبال الودى والطيب إلا أنه حدثت خلافات بعد أن زاد حاكم المخا قيمة الضرائب وقد غادر الفرنسيون والهولنديون وكالاتهم فى اليمن عام ١٧٦٢ وإنفرد الإنجليز دون أحد سواهم بتجارة التصدير باستثمار مصالحهم الاقتصادية وزاد إهتمام البريطانيون بطريق الملاحة عبر البحر الأحمر وإستفادوا كثيراً من تفردهم النسبى.

بالمنطقة إلا أن التنافس التقليدى بين البريطانيين والفرنسيين ظل مشتعلا على من يهيمن على منطقة البحر الأحمر حتى إنتقل هذا التنافس على منطقة مفتاح البحر الأحمر فى الشمال بمعنى التنافس على السيطرة على مصر.

إلا أن النوايا الفرنسية إزاء طريق البحر الأحمر وأهميته الاستراتيجية ظهرت واضحة من خلال التصريحات التى نادى بها القنصل الفرنسى فى مصرآنذاك وهو مسيو ماجلون Magailon الذى

عبر صراحة عن مدى أهمية البحر الأحمر بالنسبة لفرنسا وذلك بقوله «إذا صار الفرنسيون سادة للبحر الأحمر فإنهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين وأن يطردونهم من الهند عن طريق السويس خلال فترة مناسبة يمكن إرسال عدد من القوات الفرنسية إلى الهند بواسطة عدد قليل من البواخر ولا يحتاج الجنود الفرنسيون فى هذا الطريق أن يبقوا فى البحر أكثر من ستين يوما بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح الذى يستغرق قطعة والمرور فيه ما يقارب الستة شهور وعن طريق السويس لن يكون الفرنسيون معرضين لخسارة أكثر من ١٪ من رجالهم بينما خسارتهم فى طريق رأس الرجاء الصالح لن تقل عن ١٠٪ فى أضعف الأحوال.

وقد كان القصد الرئيسى للفرنسيين من وراء غزو مصر تحقيق الهدف الأبعد مدى باستغلال هذا الطريق القصير والأكثر أمنًا والموصل للهند عبر البحر الأحمر وحرمان بريطانيا من إستخدامه وبذلك يمكن ضرب بريطانيا فى مستعمراتها فى الشرق قبل أن تتمكن من إتخاذ أى إجراء مضاد لدرء هذا العدوان وصده وهنا يبرز تناقض واسع فيما بين المقولة بأن الحملة الفرنسية على مصر فى شهر مايو ١٧٩٨ لم تكن وليدة عبقرية بونابرت وأطماعه أو وليدة الثورة الفرنسية ذاتها.

وكانت هذه المقولة فى الحقيقة يجانبها الصواب ولكن المقولة الحقيقية المطابقة للهدف الرئيسى أن غزو مصر كان بمثابة النتيجة الطبيعية والمنطقية لنمو وتطور جيل من الساسة ورجال الاقتصاد

الفرنسيين فى الشرق وكان تحقيقًا لأطماع إختمرت فى نفوسهم مدة طويلة من الزمن حتى وجدت الظروف المناسبة سواء فى أوربا أو فى الشرق مواتية لتنفيذها وإخراجها إلى حيز الوجود.

إلا أنه مادام الشىء بالشىء يذكر فإن الصراع الذى نشب بين البريطانيون والفرنسيون على زعامة السيطرة على البحر وعلى الموانى الحاكمة عليه خاصة عدن كان هذا الصراع قائم ولكنه غير معلن عنه وغير صريح إلا أنه تعتبر حملة بونابرت على مصر فاتحة الصراع العلنى بين إنجلترا وفرنسا حول طريق البحر الأحمر وقطع طريق بريطانيا إلى الهند عن طريق الشرق الأوسط فإنه لا يفوت التاريخ أن يذكر بأن هذه الحملة كانت فاتحة التطلع الصهيونى نحو استعمار فلسطين وما يؤكد ذلك أن نابليون كان قد أصدر بيانًا فى عام ١٧٩٩ يدعو فيه يهود أسيا وأفريقيا أن يسارعوا تحت رايته إلى دخول أورشليم وإعادة بناء الهيكل وكان البعض يرى أن بونابرت كان يهدف من وراء ذلك إلى تجنيد فرق من يهود حلب لمساعدته فى فتح فلسطين والوقوف إلى جانبه ضد بريطانيا - إلا أنه فى ذلك الوقت لم يلق هذا النداء الذى أطلقه نابليون إستجابة من اليهود الذين كانوا مستمرين على ولائهم للدولة العثمانية وكانوا يتمتعون بحماية بريطانيا لهم فى أراضيها إلا أن الدعاية الصهيونية تشير إلى هذا النداء الذى وجهة نابليون لليهود رغم إنعدام وافتقار أثره من الناحية الفعلية يشير إليه أنه بمثابة الإعتراف الأوروبى بحقوق اليهود فى فلسطين وبداية التعاون بين الحكومات الأوربية واليهود على حساب العرب إلا أن خطة الفرنسيين ورغبتهم فى إزاحة البريطانيين من طريقهم وذلك

باستخدامهم لمصر من الشمال للسيطرة على طريق البحر الأحمر وبذلك يتم توجيه ضربة حاسمة وقاتلة لبريطانيا فى الهند.

على أن فشل خطة الفرنسيين صار واضحًا ومؤكدًا وذلك بعد هزيمتهم البحرية فى أبى قير وتمكنت بريطانيا من تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير على يد قائدها نلسون فى ١٧٩٨ بالإضافة إلى تحطم آمال الفرنسيين على أسوار عكا فى الشمال حيث أصر حاكم عكا «الجزار» على مقاومة العدوان الفرنسى وساعده على ذلك الاسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط.

ورغم هزيمة الفرنسيين فى أبى قير وعند أسوار عكا إلا أن البريطانيون لم يطمئنوا وزاد إهتمامهم بمنطقة البحر الأحمر من عدن فى أقص الجنوب إلى مصر فى أقص الشمال.

ويتضح من ذلك الأهمية المتزايدة التى أخذ البريطانيون يولونها إلى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر.

وكانت البداية العملية للسيطرة على عدن حتى تحت مسميات مختلفة كمحطة لإمداد السفن أو مخازن للفحم أو كمرفأ عبر الطريق من وإلى شركة الهند الشرقية البريطانية ففى شهر إبريل عام ١٧٩٩ تقدمت قوة بحرية قوامها ثلاثمائة أوربى وهندى ويقودها جونن موراى John Murray تجاه المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وقامت هذه القوة بإحتلال جزيرة بريم Perim الواقعة فى أضيق نقطة ببوغاز باب المندب والذى يصل البحر الأحمر بخليج عدن.

غير أن البريطانيون تبينوا أن المضايق فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر لا يمكن السيطرة عليها من جزيرة بريم بواسطة المدفعية الساحلية ومداها المحدود فى ذلك الوقت كما أن مناخ الجزيرة ردىء للغاية فهو حار رطب تكثر فيه الحشرات وغير متوافر فيه مياه للشرب ولهذا سحب موراى قواته من جزيرة بريم خاصة بعد إطمئنانه إلى حسن نوايا سلطان لحج وعدن الذى أبدى موافقته المبدئية على بقاء البريطانيين مؤقتًا فى عدن خلال الفترة التى يحتاجونها ورغم فشل موراى فى عقد إتفاقية تحالف مع سلطان لحج وعدن إلا أنه أقام علاقات ودية معه وتبع ذلك عدة بعثات بريطانية غرضها بالدرجة الأولى الاستقصاء ودراسة الأماكن الحاكمة فى جنوب شبه الجزيرة العربية.

وعلى وجه الخصوص العين التى لا تنام فى جنوب شبه الجزيرة العربية وهى عدن وقد حاول الفرنسيون أن يحصلوا على موطىء قدم لهم ويكون لهم بعض النفوذ بجانب النفوذ الغالب فى ذلك الوقت وهو نفوذ البريطانيين.

وأصبح التنافس البريطانى الفرنسى شديدًا ومتزايد فى منطقة البحر الأحمر خاصة عند المدخل الجنوبى عند عدن أو فى شماله فى مصر، وصار كل من بريطانيا وفرنسا تبذل قصارى جهدها كل .. الأخرى فى سبيل تهديد المصالح المضادة عبر الطرق المؤدية ... ومن بينها طريق البحر الأحمر وكانت بريطانيا تخشى بالدرجة الأولى

أن تنجح فرنسا أو حتى تفكر فى إستغلال الطريق الملاحى عبر البحر الأحمر لتهدد المصالح البريطانية فى الهند.

وعندما غزت فرنسا مصر إتضحت بجلاء نوايا فرنسا للسيطرة على طريق البحر الأحمر وخرجت من حيز التفكير إلى حيز الاعلان . وكان الهدف المقصود بالدرجة الأولى من غزو مصر تحقيق الهدف الأبعد مدى والأكثر أهمية وهو إستغلاله الطريق القصير الموصل إلى الهند عبر البحر الأحمر وحرمان بريطانيا من إستخدامه ورآت فرنسا أن إحتلالها مصر هام إذا كان لها أن تجعل لمراكزها فى المحيط الهندى قيمة يعتد بها حتى أن نابليون بونابرت صرح فى ذلك الوقت بقوله «لكى يتم تحطيم بريطانيا يجب أن تسيطر فرنسا على مصر.

وقد كانت الحملة الفرنسية على مصر فاتحة الصراع العلنى الفرنسى البريطانى حول طريق البحر الأحمر وقطع طريق بريطانيا إلى الهند عبر الشرق الأوسط بوجه عام.

ألا أنه بالأشارة إلى مستجدات هامة ومؤثرة فإن هذه الحملة الفرنسية على مصر كانت تعتبر فاتحة التطلع الصهيونى أيضًا نحو استعمار فلسطين حيث أنه وردت رواية عن نابليون بعد غزوه إلى مصر بأنه أصدر بيانًا رسميًا يدعو فيه يهود أسيا وأفريقيا أن يسـ ارعوا تحت رايته إلى دخول أورشليم وإعادة بناء الهيكل، وقد زت الدعاية الصهيونية إلى أن ذلك البيان هو بمثابة الأعتراف ى بحقوق اليهود فى فلسطين وبداية للتعاون بين الحكومات لاوربية واليهود على حساب العرب فى ذلك الوقت المبكر على أن

فشل خطة الفرنسيين بعد هزيمتهم فى أبى قير وإنسحابهم من بلاد الشام يخفى حنين لم يقلل من الأهمية التى أصبحت بريطانيا توليها لطريق البحر الأحمر خاصة الأماكن الحاكمة حتى أن حكومة بومباى البريطانية قامت بنشاط باستخدام قواتها الهندية للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وللتصدى لأى تحفز فرنسى أو تخطيط للسيطرة على الهند.

وفى شهر إبريل من عام ١٧٩٩ تقدمت قوة بحرية يقودها جون موراى وتحت قيادته ثلاثمائة هندى وأوربى وإتجهت القوة إلى جزيرة بريم وإحتلتها وهى الجزيرة الواقعة فى أضيق نقطة فى بوغاز باب المندب الموصل ما بين البحر الأحمر وخليج عدن.

ويبدو تزايد إهتمام حكومة الهند البريطانية الملاحى عبر البحر الأحمر من خلال ما قاله اللورد فالنتينا Lord Valentin والذى وصل إلى الهند على رأس بعثة بريطانية فى عام ١٨٠٥ وقد أشار فالنتينا إلى أهمية وضرور إحتلال عدن التى إعتبرها جبل طارق الشرق كما أوصى بإنشاء وكالة تجارية فى عدن كما أوضح فى تقريره أن إحتلال الهند لن تحقق المكاسب السريعة والفائدة لبريطانيا على النحو الذى يمكن أن تحققه عدن للمصالح البريطانية.

إلا أن الحوادث تطورت بسرعة فى وقت لاحق. فبعد تعرض الضابط البريطانى دومنكيتى Domincette للإهانة من قبل حاكم المخا فى جنوب اليمن إستغلت بريطانيا ذلك وبعد مضى ما يقارب السنتين من هذه الحادثة قامت قوة بريطانية وحاصرت ميناء المخا بقطع

الاسطول البـريطانى واضطر نتـيـجـة لذلك أمـام اليـمن إلى تـوقـيع المعاهدة التى إقترحتها بريطانيا في ١٥ يناير عام ١٨١٢.

وهكذا يمكن القول بأن بريطانيا أصبحت لها اليد العليا والقابضة على المدخل الجنوب للبحر الأحمر ونجحت في تدعيم نفوذها ونالت شركة الهند البريطانية الشرقية مكانه ممتازة في المنطقة وبذلك إستحوذ البريطانيون بشكل شبه كامل على مزايا تجارية هامة ومفيدة لهم تضمنت هذه المزايا معاهدة رسمية اضطر أمام اليمن للتوقيع عليها تحت تهديد مدفعية قطع الأسطول البريطانى التى تواجدت بصورة كبيرة في البحر الأحمر.

هذا بالإضافة إلى النجاح الآخر الذى حققه البريطانيون بعقد معاهدة الصداقة والتجارة مع سلطان لحج وعدن في عام ١٨٠٢ وكانت هذه المعاهدة بمثابة البداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع أهالى المنطقة لضمان المصالح البريطانية على الطريق البحرى عبر البحر الأحمر.

وهكذا إستمر التنافس البريطانى يتزايد تدريجياً في منطقة البحر الأحمر حتى إكتمل النجاح للبريطانيين بإحتلالهم عدن في عام ١٨٣٩.

التمهيد لاحتلال عدن

كان للبريطانيين دوافع متعددة ونوازع متباينة الأهداف فى إحتلال عدن. كنقطة إرتكاز حاكمة عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر.

ولسنا بصدد إبراز الدوافع الحاكمة. فهذا المجال واسع وطويل.

ولكن ما يمكن الإشارة إليه هو أن البريطانيون كانوا يهدفون إلى إحتلال عدن لأهداف سياسية وقومية واستراتيجية لبريطانيا هذا علاوة على الهدف والمصالح الاقتصادية المتعددة والتى ستتحقق لهم بمزايا إحتلال والسيطرة على عدن.

خاصة وأن نجم محمد على والى مصر فى هذه الفترة بدأ يرتفع ويعلو وفى تقييم البريطانيون آنذاك ظهور عنصر تهديد لمصالحهم الضخمة سواء عبر طريق البحر الأحمر إلى الهند أو عبر الخليج العربى.

إلا أن هذه الأهداف الجوهرية لبريطانيا من إحتلال عدن كانت تختفى خلف الهدف الجوهرى الغير معلن ـ وهو أن ميناء عدن يجب إستخدامه محطة لتخزين الفحم ومرفا لتوفير الخدمات للسفن التجارية والحربية البريطانية ـ خاصة وأن الاسطول البريطانى فى ذلك الوقت سواء كان الاسطول التجارى أو الاسطول الحربى كان من أضخم الأساطيل البحرية.

إن لم يكن أضخمها وأعظمها فى هذه المرحلة.

ورغم إستخدام أوربا طريق رأس الرجاء الصالح والبدء فى إستخدامه البحرى بين الهند وأوربا وعلى الأخص بريطانيا ورغم تطور وسائل تسيير السفن عبر البحار باستخدام البخار ـ فإن الطريق الأقصر والأوفر هو طريق البحر الأحمر. كانت الاستراتيجية البريطانية هو العمل على أحياء وإثراء طريق البحر الأحمر الذى كان يبدأ من غرب أوربا إلى الاسكندرية ومن رشيد قرب الاسكندرية بطريق النيل إلى القاهرة ثم من القاهرة عبر الصحراء الشرقة بالقوافل حتى السويس وبعد ذلك تستخدم البواخر عبر البحر الأحمر وبحر العرب إلى الهند.

وكان الوقت اللازم لعبور هذا الطريق لا يزيد عن أربعة أسابيع لتستكمل الرحلة بين غرب أوربا والهند فى حين أن الوقت الذى كان يتطلبه إستخدام السفن عن طريق رأس الرجاء الصالح من بريطانيا إلى الهند قد يصل إلى ستة أشهر كاملة.

ورغم إتجاه البريطانيون لفترة محدودة إستخدام ميناءى المخا والمكلا ويرجع ذلك إلى قلة الأيدى العـــاملة في عـــدن وإلى رفض المواطنون العمل.

إلا أنه بعد مضى فترة قصيرة قررت أن تلجأ حكومة الهند الشرقية البريطانية إلى التركيز على إستخدام ميناء عدن. نظرا لموقع عدن الممتاز فى منتصف المسافة بين بومباى والسويس هذا علاوة على تميز عدن بخليجها الهادىء الذى يتيح لهذا الميناء إستقبال السفن المتنوعة وتأمينها تأمينا كاملاً أثناء عمليات الشحن والتفريغ طوال فصول العام.

وقد وقع إختيار حكومة الهند البريطانية على الضابط البريطانى هينز للقيام بعملية مسح جغرافى للساحل الجنوبى بشبه الجزيرة العربية والتركيز بصفة خاصة على ميناء عدن والجزر الغربية منه بغرض إستكشاف الطرق الملاحية الصالحة خاصة بعد إزدياد أحجام السفن البحرية.

وقامت بعثة هينز بدراسة الأعماق للبحر فى تلك المنطقة وقام برسم خرائط هامة أوضح عليها الأعمال والأماكن الهامة باللغة العربية واللغة الإنجليزية والحق يقال بأن هذا العمل الذى قام به الكابتن هينز مهد بطريقة عملية لسيطرة البريطانيون على عدن والمنطقة المحيط بها خاصة وإن هذا المسح الجغرافى قد نبه البريطانيون إلى مدى الأهمية والميزات المتعددة التى يمكن تطويعها لخدمة المصالح البريطانية وفى هذه المرحلة كان ميناءى المخا والمكلا

يستعملان كمحطتين لتموين البواخر البريطانية بالفحم وإنعكس ذلك على ميناء عدن في هذه الفترة فلم يكن موضع إعتبار الكثيرين فى ذلك الوقت حيث أن ميناء المكلا كانت تعتبر الميناء التجارى الرئيسى على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية. ولكن ميناء المكلا كان إستخدامه لا يوفر المميزات الكافية لسرعة وإنتقال السفن التابعة لحكومة الهند البريطانية ولذا تطلعت حكومة الهند البريطانية إلى إكتشاف وتجهيز ميناء أنسب في جزيرة سوقطرة والتى تبعد عن عدن مسافة كبيرة تجاه الشرق وقد قام الكابتن هينز باستطلاع الجزيرة بعد أن رسا فى ميناء «قشن» الواقع على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية شمال سقطرى وكانت قبائل المهرة تحكم هذه الجزيرة وسمحوا بالنزول والاستطلاع والمسح الجغرافي للسواحل. وقد شمل هذا المسح مائة ميل تقريباً وقام الكابتن بزيارة ميناء «تاما ريدا» وهو الميناء الرئيسى فى جزيرة سوقطرى وبعد إتمام مهمته عاد الكابتن هينز إلى الهند ليعرض نتائج رحلته على الحكومة هناك.

ولاستكمال باقي الأعمال هناك كلفت حكومة بومباى مرة أخرى الكابتن هينز للذهاب مرة ثانية إلى جزيرة سوقطرى وكان الغرض الأساسى هو التفاوض مع سكان الجزيرة من المهرة بغرض شراء الجزيرة لصالح حكومة بومباى بمبلغ مائة الف ريال «ماريا تريزا» إلا أن هذا العرض قابل رفضاً قاطعاً وعنيفاً من جانب سلطان المهرة فى ذلك الوقت وأنهى السلطان التفاوض مع الكابتن هينز بمقولته القوية «أسمع يا قبطان هينز» بحق رب العرش لا افرط فى ذرة واحدة من أرض الجزيرة فلقد حباها الله المهريين فقط وستبقى نتوراثها صغارنا عن كبارنا إلى ما شاء الله».

فلجأ البريطانيون إلى القوة وإحتلوا جزيرة سوقطرة بالقوة والسلاح المتفوق وقد واجهوا مقاومة عنيفة وصعبة وطويلة من أهل الجزيرة إلا أن فى النهاية تغلبوا على المقاومة. ولم يسهل المقام للبريطانيين فى جزيرة سوقطرة فلقد واجهوا بالإضافة إلى المقاومة العنيفة من أهلها أمراضاً متعددة وظروف بيئية مميتة اضطرتهم فى النهاية إزاء هذه الصعوبات الجمة والخسائر الفادحة المستمرة إلى الجلاء عن الجزيرة فى شهر إبريل عام ١٨٣٥ وإنصرف بذلك البريطانيون عن فكرة الإقامة فى هذه الجزيرة وإستمروا فى البحث والاستطلاع حول المنطقة فى أنسب الأماكن التى يمكن أن تستخدمها حكومة بومباى كمخزن ومحطة لتمو.. السفن التجارية بالفحم اللازم لها.

وكانت بداية إهتمام حكومة بومباى الفعلى بعدن هو ذلك التقرير الذى كتبه كابتن هينز بعد زيارته إلى عدن وإستكشافه المنطقة المحيطة بها وإستطلاعه الحركة التجارية فى الميناء ودراسة أحوال السكان فى عدن إلا أن ميناء عدن شد إنتباه كابتن هينز وكان له بعد نظر مميز وتفكير متقدم لكل ما يفيد ويخدم شركة الهند البريطانية أو ما يسمى بحكومة بومباى وقال هينز عن ميناء عدن فى تقريره الذى بعث به لحكومته وذلك فى عام ١٨٣٥.

كان من أقوال هينز لحكومته بخصوص ميناء عدن «إن هذا المرفأ العظيم يمتلك من القدرات والإمكانات ما لا يملكه ميناء آخر فى الجزيرة العربية وإن إزدهار ذلك المرفأ دون شك سيكون من شأنه أن

يقضى على ميناء المخا وعلى بعض موانى البحر الأحمر فهو يحتل مركزًا تجاريًا ممتازًا ومن المؤكد أنه أنسب الموانى الموجودة فى المنطقة بالنسبة لمواصلات الإمبراطورية عبر البحر الأحمر وهو فى وضعه الحالى صالح لاستقبال البواخر وتموينها فى كل فصول السنة».

وقد سبق ذلك إهتمام أحد الرواد البريطانيين فى مطلع القرن التاسع عشر وهو «لورد فالنتيا» عن زيارته إلى عدن وإعتبرها فى ذلك الوقت مثلها مثل جبل طارق جنوب أسبانيا وأطلق على ميناء عدن جبل طارق الشرق إلا أن التقرير الحماسى والذى تم تأسيسه على نتائج إستطلاع غير قصيرة وثقة حكومة بومباى فى الكابتن هينز لأنه كان متحمسًا فى خدمته لحكومته علاوة على حسن تقديره للأمور وبعد بصيرته. لعب هذا التقرير دورًا خطيرًا وحاسمًا فى أن تتوجه حكومة بومباى إلى التفكير عمليا فى السيطرة على عدن خاصة أنه جاء فى تقرير هينز بعد المسح البحرى والأرضى لمنطقة ميناء عدن بأنه ميناء أمن وصالح لرسو السفن التى يسهل دخولها إليه ليلاً ونهارًا كما أنه ميناء رحب فسيح بدرجة كافية تمكن السفن الكبيرة فى الرسو بيسر وأمان.

هذا بالإضافة إلى أن عدن ميناء يتوسط بين بومباى والسويس. بما يحقق إزدهار هذا الخط الملاحى والذى كانت تسيطر عليه الحكومة البريطانية فى معظم أجزائه كما ننوه إلى أن تقرير هينز لم يكتف بالفوائد العسكرية التى تعود على حكومة بومباى إلى أن

السيطرة على عدن يعود بفوائد اقتصادية ضخمة ومن ضمنها تجارة البن اليمنى الذى كان مركزه الرئيسى فى ذلك الوقت فى ميناء المخا فإذا ما ضمنت حكومة بومباى السيطرة على ميناء عدن فيمكنها نقل التجارة الرئيسية لليمن من المخا إلى عدن. ويكون لها اليد الطولى فى السيطرة على تجارة البن والقضاء على المنافسة الامريكية على تجارة البن فى ميناء المخا وكان صدى تقرير هينز الحماسى ليس فقط فى حكومة بومباى ولكنه إنتقل إلى الدوائر البريطانية فى لندن مما أدى إلى إجتماع لجنة أخرى جديدة منبثقة عن مجلس العموم البريطانى للنظر بجدية فى إنشاء وتأسيس خط ملاحى تجارى بين بريطانيا والهند عبر البحر الأحمر وقد كان من المتحمسين لتركيز الحكومة البريطانية على ميناء عدن دون غيره فى المنطقة القنصل البريطانى فى مصر عام ١٨٣٧ «الكولونيل كامبل» الذى أرسل تقارير تفصيلية عن أن سيطرة بريطانيا على عدن ستفتح المجال أمامها للإستفادة من موقعها المتاز وإمكاناتها الطبيعية لكى تكون محطة ومخزنًا رئيسيًا لتموين السفن التجارية البريطانية وذلك بهدف الوصول إلى تحقيق حلم إقامة خط مواصلات بحرى بين بومباى والسويس عبر البحر الأحمر وقد أشار كامبل بمحاذير من محاولة محمد على فى مصر مد فتوحاته إلى ما وراء البحر الأحمر والعمل على إيقاف توسعاته فى شبه الجزيرة العربية بل أن بعض المؤرخين يرجعون أسباب وصول قوات محمد على إلى اليمن عام ١٨٣٣ بعد إنتصاره على الوهابيين إلى رغبته هو الآخر فى السيطرة على تجارة البن اليمنى المربحة آنذاك وكذلك عندما رأى البريطانيون إهتمام

المصريون بميناء عدن أثناء وجودهم فى اليمن خاصة بعد أن إستقر حكمهم فى تهامه ركز البريطانيون جهودهم المختلفة لتصفية النفوذ المصرى فى الجزيرة العربية بأكملها لإبعادها بصفة خاصة عن ميناء عدن الحيوى ولا أحد ينكر بعض الحوادث العرضية التى يكون من نتائجها خدمة أهداف بعيدة المدى مثل حادثة نهب السفينة الهندية «دوريا دولت» التى جنحت بالقرب من عدن فى اليوم الرابع من يناير عام ١٨٣٧ ورفض السلطان محسن الفضلى سلطان لحج وعدن تقديم ترضية كافية للبريطانيين مما أسرع بهم إلى إحتلال عدن وفى ذلك يشير بعض المؤرخين البريطانيين المرموقين «الاستاذ جراهام أستاذ تاريخ الامبراطورية البريطانية بجامعة لندن فى تفسير حقيقة حادثة السفينة المذكورة فقد قال أنها حادثة خدمت الأهداف البريطانية خدمة ممتازة وأنها من نوع الأحداث التاريخية التى تضع حدا لأى تردد وتفرض الحسم السريع للأمور.

"Grahan g. s op. cit. p. 293"

إلا أن من المؤكد أن إنتباه الحكومة البريطانية فى لندن بدأ يأخذ منحنى مركز للسيطرة على عدن وإن لزم يكون ذلك بالطرق العسكرية ويوضح الأستاذ جراهام ملقياً مزيداً من الضوء على إتجاه الحكومة البريطانية للإستيلاء على عدن بقوله:

«إنه من غير المحتمل أن يكون قد أتخذ قرار الاستيلاء على عدن لمجرد الحاجة إلى محطة للتموين بالفحم للبواخر البريطانية فإن القيم التجارية والحربية متشابكة فيما بينها ومن الصعب الفصل بين إحتلال عدن وسياسات الامبريالية التجارية فمن الحقيقى أن عدن

كانت محطة مهمة لتموين السفن بالوقود ونقطة تجمع فى الشرق الأوسط غير أن تجارة بريطانيا الخارجية فى حاجة إلى خط مواصلات مضمون وذلك بدوره يعتمد على وجود قواعد ساحلية يحسن إختيارها ويقوم بحراستها الاسطول الملكى البريطانى الضخم - إن عدن تتبوأ محورًا حيويًا على طريق البحر الأحمر المؤدى إلى الهند وقد أرادتها بريطانيا بسبب صلاحيتها كمحطة وكقاعدة عسكرية وإن كانت قد أرادتهابصورة رئيسية من أجل منع أى قوى أخرى من السيطرة على تلك المنطقة الاستراتيجية الحيوية».

Graham g.s I bid 301.306

وتجمعت الخيوط كلها سواء اقتصادية أو عسكرية لدى القيادة البريطانية بضرورة الإستيلاء على عدن وصار ذلك فى دائرة شبه القرار الاستراتيجى للحكومة البريطانية التى كانت فى هذا الوقت هى القوة العظمى الأكبر والأقوى فى العالم وأصبح من العسير إخفاء أو تعليل الدوافع البريطانية التى أكدها الواقع فى تلك الفترة وكان لابد من التمهيد وإفتعال الأسباب والمبررات للإستيلاء على عدن. وإن كان بعض المصادر التاريخية ونتيجة تحليلات بعض المؤرخين - يذكرون حادثة السفينة دوريا دولت وجنوحها على سواحل ابين على مسافة عشرة كيلو مترات من عدن فى عام ١٨٣٧ وهروب طاقمها وغرقه فيما بعض أثناء محاولة النجاة. وأما ركاب السفينة الآخرين فلقد حاولوا الوصول إلى عدن بمساعدة بعض الألواح الخشبية وهاجمهم بعض المواطنين هناك بغرض السلب والنهب إلا أنه يذكر أن أحمد العيد روس وهو من رجال عدن المرموقين فى ذلك

الوقت أحضر الركاب الناجين من السفينة إلى عدن وقدم لهم المساعدة والإيواء وهنا جاءت الفرصة الذهبية لحكومة الهند الشرقية فى بومباى لبدء سلسلة من الضغوط السياسية والعسكرية إستناداً لما أصاب السفينة على يد العدنيين فى ذلك الوقت حتى إن مذكرة حاكم بومباى البريطانى فى ١٤ أغسطس ١٨٣٧ كانت مذكرة شديدة اللهجة موجهة إلى السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن وجاء فى هذه المذكرة «إن الإعتداء الشائن الذى إرتكبته سلطات عدن ضد الأشخاص والممتلكات فى سفينة تحمل العلم البريطانى وتتمتع بالحماية البريطانية يحتاج إلى إهتمام سريع وإجراءات حاسمة».

وفى نفس الوقت طالبت حكومة بومباى السلطة فى عدن بسرعة إرجاع البضائع التى تم نهبها من السفينة الجانحة «دوريا دولت» بالإضافة إلى ضرورة تقديم تعويض مناسب للحكومة فى بومباى عما لحق بالسفينة والركاب الذين كانوا عليها.

ولا يخفى أن حكومة بومباى لغرض فى سياستها محورة إحتلال عدن.

كالت بمكيالين فى حادثة السفينة دوريا دولت مع حوادث مشابهة لجنوح بعض السفن على السواحل الصومالية ولم تتجاوز حكومة بومباى تلك الحوادث لإحتلال بلاد الصومال ولكن إقتصرت على عمل معاهدات مع الصوماليين بأن لا تتكرر عملية النهب والسلب للسفن الجانحة وذلك كما حدث أخيراً عندما جنحت السفينة

البريطانية ماريان وقتل بحارتها على مقربة من ميناء بربرة على الساحل الصومالى.

وذلك يلقى ضوءاً على تركيز الحكومة البريطانية لإحتلال عدن.

وقد أرسل حاكم بومباى إلى حاكم الهند العام جاء فيه «إن إنشاء خط مواصلات تجارى يخترق البحر الأحمر مرة فى الشهر يحتم علينا العمل على تدبير محطة خاصة بنا على ساحل بلاد العرب وإن ما وجه إلى العلم البريطانى من إهانة فى عدن جعلنى إقرار دون ريب وبلا تردد إنه يجب علينا أن نضع أيدينا على ميناء عدن».

كما أن هذا التقرير أشار إلى أهمية عدن وموقعها الاستراتيجى وفائدتها الكبيرة لخدمة الإمبراطورية البريطانية حيث جاء فى نفس الرسالة فى تحليل الأسباب قوله «إن رأس عدن الممتدة فى البحر تشكل مرتفعاً صخرياً يمكن إعتباره كجزيرة لا تتصل بالأرض الداخلية إلا عن طرى شقة ضيقة من الأرض على هيئة شريط ضيق تغمره المياه خلال فترة من السنة ويمكن لعدد قليل من الرجال أن يحافظوا عليه ضد أى هجوم. أما مدينة عدن نفسها فهى محاطة بالجبال ويكفى للدفاع عنها قوة صغيرة وفى مواجهتها جزيرة طولها ١٢٠٠ ياردة وعرضها ١٧٠٠ ياردة وإرتفاعها حوالى ٤٣٠ قدماً ويمكن بناء إستحكامات للقوات العسكرية عليها.

وبمتابعة ما جاء فى التقرير أشار حاكم بومباى تفصيليا عن مدى إمكانية الإستفادة من موقع عدن إقتصادياً فيقول فى جزء آخر من تقريره وتحليله.

وتمتاز مياه الشرب فى عدن بأنها جيدة ومناخها صحى وتدل الآثار وبقايا الخزانات التسعة الموجودة بها على أنها كانت منذ القدم مدينة ذات أهمية عظيمة.

ويمكن لميناء عدن إذا نظمت إدارته أن يصبح ميناء هامًا لتصدير حاصلات بلاد العرب من بن وصمغ وتوابل كما يمكن من هذا الميناء التحكم فى الطريق البحرى الذى تمر من خلاله المنتجات البريطانية والهندية فضلاً عن كونه مركز للتبادل التجارى بين المناطق الغنية فى اليمن وحضر موت كما تعد ميناء عدن سوقًا رائجة تتجمع فيها البضائع الواردة من الساحل الشرقى لأفريقيا أما من ناحية صلاحية عدن لتكون مخزنًاومحطة للفحم فإنه لا يوجد على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية مركزًا أكثر ملاءمة منها لتحقيق هذا الغرض وذلك نظرًا لوقوع عدن فى منتصف المسافة بين بومباى والسويس ويمكن للبواخر أن تدخل الميناء حتى أثناء الليل وأن تفرغ شحنتها فى أمان تام ثم تتزود بحاجتها من الفحم والماء».

وفى الرسالة التى بعث بها الحاكم العام للهند أسدى النصيحة لحاكم بومباى بأن يطلب من سلطان لحج وعدن تقديم الترضية المناسبة لحكومة الهند وأن يبذل محاولة منه لكى يتم الاتفاق على أن يكون ميناء عدن مخزنًا للفحم ومحطة للسفن البريطانية العابرة.

وإستند الحاكم فى بومباى إلى رسالة الحاكم العام للهند وسارع إلى إرسال الضابط البحرى البريطانى «هينز» إلى عدن على ظهر السفينة التجارية «برنيس» على أن يطلب من السلطان تقديم الترضية

المناسبة والكافية ويقوم بإجراء مفاوضات معه بشأن إنشاء محطة للفحم فى ميناء عدن.

وقد وصل هينز إلى عدن فى يناير عام ١٨٣٨ ومعه بعض الهدايا لتقديمها للسلطان الذى قام برد مماثل لهدايا ممثل الحاكم العام للهند وقد طالب هينز السلطان بتسليم باقي حمولة السفينة دورياً دولت التى جنحت على الشاطيء وكذلك ضرورة قيام السلطان بدفع تعويض ترضية لحكومة الهند عما تعرضت له السفن من السلب والنهب وإعتبر السلطان طلبات هينز طلبات مجحفة خاصة عندما طلب هينز من السلطانن أن يكون التعويض إثنى عشر ألف ريال (ماريا تريزا) واردف مستر هينز موجها كلامه إلى السلطان فى تهديد شبه مستتر بأنه فى حالة عدم تنفيذ هذه الطلبات فعليه إعادة جميع مكونات الشحنة التى كانت على السفينة الجانحة والتى تعرضت للنهب والسلب على يد أفراد تحت أمرته وسلطانه ووصل التهديد المباشر إلى أن هينز شدد فى طلبه التعويض وإصرار حكومته على إسترجاع هذا المبلغ بأى وسيلة سلمية كانت أو قهرية ولم يجد السلطان بديلاً عن تلبية مطالب مستر هينز أو بمعنى أدق هذه المطالب تحت التهديد المباشر الذى صرح به مستر هينز للسلطان وأشارت الوثائق التاريخية إلى أن السلطان رد على مستر هينز رسالة تضمنت «ومن ثم أطعنا تعليمات الحكومة وأعدنا كل ما عثرنا عليه من شحنة السفينة وبلغت قيمة ما عثرنا عليه ٧٨٠٩ ريالات وعندما طالبنا الضابط البحرى هينز بالباقى أعطيناه صكًا به قيمته ٤١٩١ ريال على أن يتم دفع تلك القيم على مدى عام واحد....»

ولم يكن ذلك كل ما فى جعبه الضابط البحرى هينز فلقد لوح للسلطان بإغراءات لكى يتنازل السلطان عن ميناء عدن مقابل راتب سنوى مقداره ٨٧٠٠ ريال تقدمه له حكومة الهند ـ كما تفعل بصفة مستمرة مع مهراجات وأمراء الهند.

وأوضح مستر هينز من ناحيته ضعف قيمة ميناء عدن وعدم نفعيته للسلطان مع إحتمال تعرض الميناء للإستيلاء عليه من إحدى الدول الأخرى المحيطة وبالتالى يصير الأمر بالغ الخطورة على أملاك السلطان فى الداخل.... وكان ما يعنيه مستر هينز على وجه التحديد مصر التى وصلت قواتها إلى جنوب غرب الجزيرة وإلى سواحل الخليج العربى وكان السلطان يأمل أن تصله نجدة من المصريين فتطرد البريطانيين من عدن.

ومما تقدم يتضح أن السلطان وقع تحت ضغوط شديدة من حكومة الهند والذى وصل إلى درجة مباشرة إستخدام القوة فى تحقيق مطالبها فى عدن وأن السلطان لا قبل له بمواجهة القوات البريطانية.

ووجد السلطان نفسه بين شقى الرحى وبين نارين كلاهما مر ومدمر فأما أن يعترض ويرفض طلبات حكومة بومباى وما يترتب على ذلك من إحتمالات تدخل القوات العسكرية التى لا يستطيع مواجهتها وإما أن يوافق على هذا الطلبات وفى ذلك تفريط فى حق بلاده وأهله ووضع وطنية السلطان للقيل والقال، ورغم غضب السلطان كمواطن يمنى من طلبات الحكومة الهندية المفروضة عليه والمدعمة بالتهديد بإستخدام قوة السلاح.

ولذا فقد وافق على طلبات مستر هينز على أمل أن يجد المساعدة التى تجعله يتحرر يومًا من هذه الموافقة حتى ولو كان ذلك على يد المصريين الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية ومن واقع المفاوضات وملابساتها والظروف المحيطه بها يتضح أن السلطان كان مرغمًا وتحت التهديد المباشر والشديد.

وكانت البداية لإحتلال عدن عقد إتفاقية مع السلطان محسن وبادر مستر هينز فى أول الأمر باختيار الموقع المناسب فى عدن لإقامة محطة الفحم لإمكانية تزويد البواخر البريطانية العابرة بالوقود وقد إختار هينز «رأس ابن جاربيان» أو «الشيخ حامد» لتكون مخزنًا ومحطة للفحم وقد علق أحد الضباط الإنجليز الكبار فى ذلك الوقت على ما قام به هينز والاتفاقية التى توصل إليها مع السلطان بقوله «إن تلك المفاوضات تطلبت كثيرًا من اللباقة لأن السلطان إمتاز بمكره وحذره كشرقى أصيل وكان خوف السلطان من رجال قبيلته هو الذى منعه من تسليم عدن بصورة مكشوفة لأن رجال القبيلة ربما إعترضوا على ذلك أو أن بعضهم قد يطالب بحصته من الثمن».

وكان فكر هينز فى ذلك الوقت أن العدنيين لن يعترضوا عند رفع العلم البريطانى فى عدن. بل إنه بلغ به الثقة أن السكان سيرحبون بذلك وذكر هينز فى تقاريره إلى حكومة الهند البريطانية وجهة نظره التى كانت تؤكد أن أهالى عدن لن يشكلوا أى عقبة أو معارضة أو حتى غضب فى حالة رفع العلم البريطانى على مدينتهم.

والحق يقال أن تفاؤل مستر هينز وأحلامه لم تكن منصفة لأهالى عدن. بل كانت بعيدة عن الواقع بدليل تلك المقاومة الشديدة والدفاع المستميت الذى قام به العدنيون فيما بعد عند قيام البريطانيون فى عدن أو فى أى مدينة فى اليمن كما سيتضح ذلك.

ورغم ذكاء مستر هينز ودهائه ومراوغاته وتحليلاته العديدة إلا أنه غفل بصورة مؤكدة عن الدوافع المتأصلة فى كيان المواطن العربى لرفض الهيمنة والسيطرة عليه ومقاومته لذلك بكل ما لديه من غال ونفيس وإن حدا به أن يضحى بنفسه إن لزم الأمر.

وللحقيقة التاريخية فإن إتفاق السلطان مع هينز يتضمن فحسب على تحويل أية مكان من أرض عدن تصلح كمخزن ومحطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمؤن اللازمة غير أن الأطماع البريطانية بدأت تتضح أكثر عندما طلب مستر هينز فى يناير ١٨٣٨ أنه بناء على رغبة حكومته فقد فوضته فى عمل إتفاق مع السلطان على شراء ميناء عدن والمنطقة المحيط بها والتى تمتد شمالاً حتى خور مكسر وتتصل بموانى جوبه التواهي وبندر سيره وبندر دوراس وخلجان صبرة الصغيرة وبقية الجزر المجاورة وأوضح مستر هينز للسلطان المخاطر الكثيرة التى تتعرض لها سلطنته خاصة خطر القوات المصرية الزاحفة فى شبه الجزيرة العربية وكذلك كان سلاح هينز هو التهويل من الأخطار الشديدة إذا قامت دولة أخرى بإحتلال عدن وصار ذلك شوكة شديدة فى ممتلكات السلطان وإنه من الأفضل للسلطان أن يوافق على مطالب البريطانيين لتدافع عنه وعن ممتلكاته وعن أى طامع من الدول الأخرى فى ميناء عدن.

وكانت محاولات هينز فى التأثير على السلطان الترغيب والترهيب الشديد وأبدى موافقة حكومته على دفع أية مبالغ يطلبها ثمنًا لتلك الأراضى المحيطة .بميناء عدن بالإضافة إلى الميناء وصور التحايل والمراغة والتلاعب بالألفاظ والإحتمالات كانت من أسلحة مستر هينز حتى أنه عرض على السلطان بأنه فى حالة موافقته على شراء عدن وما حولها.

فإن السلطان سيعامل من قبل حكومة صاحبة الجلالة بكل مظاهر الإحترام والتبجيل التى تليق بمكانته وإن السلطان مطلق الحرية فى الإقامة فى عدن مع إحتفاظه بملكيته لعقاراته وبيوته فى المدينة.

إن سياسة مستر هينز التى يعبر عنها الخطوة خطوة والتقدم قدمًا بعد قدم فى مفاوضاته وفى تحقيق تعليمات حكومته. وأسلوب المكر والخداع الذى إتبعه ومارسه سواء بالإغراء أو بالتهديد. كان غير خاف على نفسية السلطان وعلى تقديره للموقف المتربص به وببلاده. فإن وراء هذه المفاوضات والإلحاح المستمر من ناحية مستر هينز هدف محدد ووحيد يسعى وراءه هذا الهدف هو النجاح فى نقل ملكية عدن وتوابعها إلى بريطانيا بعد أن كان الهدف فى بادىء الأمر وجود مكان مناسب لتخزين الفحم ولإمداد السفن بالمؤن.

ولم يخفى الكثير مما كان يبطنه مستر هينز أو بالأحرى الحكومة البريطانية ولكن تحت ضغط القوة والظروف الغير مواتيه للسلطان وافق من ناحية المبدأ.

فى حالة الاتفاق أن تستمر سيادة السلطان على رعاياه فى عدن وعلى رجال القبائل المحيطة بها على أن تكون السيادة البريطانية أيضًا على رعاياها فى حالة الموافقة على إنتقال الملكية إليهم.

ونظرًا لإستمرار المفاوضات وطول الفترة وإختلاف الآراء وعدم دقة نقل وإستقبال المطالب رأى مستر هينز النزول إلى عدن للتفاوض مباشرة مع السلطان.

ولم يخف ما يدور بين مستر هينز والسلطان على شباب عدن ومشايخها وإن لم تكن التفاصيل واضحة إلا أن الإعتقاد لديهم بأن هدف البريطانيون النهائى هو إحتلال والسيطرة على عدن وتوابعها. وكان الرفض عامًا بين أفراد عدن والقبائل المحيطة بها فيما عدا المقيمين اليهود فى عدن وكان عددهم فى ذلك الحين ٢٥٠ مائتان وخمسون عملوا فى السر والعلن فى تلك الفترة كطابور خامس لمستر هينز حيث أنهم كانوا مؤيدون له وراغبون فى أن يتحقق هدف البريطانيون ويقومون بالاستيلاء على عدن على الرغم أن مشاعر الغضب والرفض كانت تسرى بين العدنين والقبائل المجاورة لها.

للهيمنة الأجنبية وأسلوب التدخل البريطانى فى شئونهم.

ومن دلائل هذا الغضب قيام الأمير أحمد بن محسن مع صهرة فى القرية المجاورة لعدن بعقد اجتماع وأقسم معه جميع الحاضرين على القيام باسر مستر هينز والإستيلاء على جميع المستندات التى جمعها منذ وصوله إلى بلادهم ورتب الأمير أحمد مع رجاله. لوضع حد لكل تطلعات مستر هينز وحكومته فى إمتلاك والسيطرة على بلادهم. وتدل

الوثائق على أن مائة رجل أقسموا مع الأمير أحمد وتوجهوا إلى عدن بينما أقسم مائة وخمسون آخرون.

وإستعدوا عند منطقة الشيخ عثمان لنجده الأمير أحمد إذا دعت الضرورة وإذا ما تدخلت السفن البريطانية الحربية الراسية فى الميناء.

ورتب مستر هينز بعض رجاله للنزول إلى عدن ومقابلة السلطان محسن لإستكمال المفاوضات لإتمام التفاصيل فى حالة الموافقة.

وكان الأمير أحمد بن محسن ورجاله يهدفون إلى أسر مستر هينز عند نزوله إلى عدن وإيقاف كل تفاوض ثم الإستيلاء على كل المستندات التى حصل عليها مستر هينز.

إلا أن بعض أعوان مستر هينز فى عدن أبلغته قبل نزوله الميناء بأنه توجد مؤامرة تحاك ضده لأسرة وإن وراء هذه المؤامرة الأمير أحمد بن محسن مما جعل مستر هينز يعود إلى سفينته متربصاً بالأمير أحمد بن محسن مستخدمًا الخديعة والمكر وكاتبه يطلب مقابلته على ظهر سفينته إلا أن الأمير أحمد بن محسن رفض أن تكون المقابلة على ظهر السفينة البريطانية ووافق أن يقوم هينز بنفسه بالنزول إلى عدن ومقابلة الأمير وعندما لم يحضر هينز لمقابلة الأمير فى عدن قام الأمير بإرسال رسالة شديدة اللهجة إلى مستر هينز جاء فيها».. إذا كنت تريد أن تمتلك عدن فأن أهل عدن لا يريدونكم وصدقنى فإن ما أقوله هو الحقيقة.. «وأشارت بعض الوثائق أن الأمير أحمد هدد مستر هينز برسالة أخرى جاء فيها.. «إن كلمتى

هى العليا فإذا جئت إلى باب عدن لمقابلة السلطان فتحنا لك الباب وقطعنا رأسك بالسيف وكانت هذه العادة هى المتبعة عند الاعراب..».

وإنه لمن الانصاف أن السلطان محسن العبدلى لم يكن متخاذلاً حتى يسمح للبريطانيين برفع علمهم على عدن رغم الضغوط الشديدة والإغراءات الكبيرة التى مارسها مستر هينز عليه. بل نستطيع أن نقول أن السلطان محسن لم يكن يبدى إعتراضاً على إندفا ع وحماسة إبنه الأمير أحمد ورجاله. بل لن نتجاوز القول إنه كان يؤيدهم ويساندهم وإن كان ذلك فى الخفاء وبعيداً عن أعين مستر هينز ورجاله وإنه كان لا يقفل باب التفاوض مع البريطانيين ولا يجهر لهم بالشدة والعنف لأنه كان يتمتع بحكمة الشيوخ وحذرهم وكان يعطى الموقف الذى تتعرض له بلاده من مخاطر حجماً كبيراً يتناسب مع هذه المخاطر ويعلم إن وراء مستر هينز قوة لا قبل له بها.

ولتأكيد ذلك ما ورد فى الوثائق البريطانية ونشر فى مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة العدد الأول مارس ١٩٦٩ ص ٢١٦ وقد إستند الأستاذ محمد رفعت كاتب المقال إلى سجلات وزارة الخارجية البريطانية.

فقد بعث السلطان محسن العبدلى رسالة إلى الحاكم العام للهند لخص فيها قصة جنوح السفينة قرب عدن وجاء فى الرسالة.

«بعد ذلك وصل إلى أسماعنا أن فى عزمكم رفع العلم البريطانى على الميناء.. وسألنا هينز عن معنى ذلك.. فقال أن الأرض ستبقى ملكنا.. أما الميناء فلكم.. ألا فلتعلموا جنابكم أنه يهون على العربى أن

يبيع حتى أمه على أن يقبل مثل هذه الصفقة.. فإذا كان لجنابكم مصلحة عامة أو دائمة فى عدن فإننا على إستعداد بأن نتطلع بها نيابة عنكم فأصدقاؤكم أصدقاؤنا وأعداؤكم أعداءنا ولكن علينا أن نعيش كل تحت علمه وأن تتركونا نعيش تحت علمنا فإذا ما هاجمتمونا براً وبحراً فأمرنا لله القوى العظيم»).

من ثنايا هذه الرسالة المؤكدة ومن الأنصاف أن تقول أن السلطان محسن الفضلى كان رافضاً لأن تقوم بريطانيا برفع علمها على عدن. بل إنه من المستحيل أن يتم ذلك من خلال صفقة مهما كانت الإغراءات وذلك بتشبيهه الموافقة على الصفقة المعروضة عليه كأنه يبيع أمه وهذا أمر غير وارد على الأطلاق بالنسبة للعربى ولا يخفى مدى وطنية السلطان وحرصه وتضرره وتقديره للأمور حيث أن محاربة بريطانيا لا قبل له بها ولكنه سيدافع وسيعمل كل جهده مع رجاله فى المقاومة إذا حدث العدوان على عدن ويعتمد على الله القوى العظيم.

وقد تطلع السلطان حوله ليبحث عن قوة تؤازره فى هذه المحنة ونجدة حليفة تقف فى صفة وتشد من عضده فى مواجهة التهديد البريطانى القوى ولم يجد إلا طلب العون من الله القوى العظيم.

ولم يكن الغضب الغامر والحماس للمقاومة تقتصر على ابن السلطان أحمد وزوج إبنته سيد محمد حسين إلى جانب رئيس قبائل الحوشبى وهو صهر الأمير أحمد ورجالهم ولكن من الواضح أن الغضب الشديد كان يشمل السلطان وإن كان أقل قوة وشدة

وللإنصاف فإن السلطان كان يكظم غيظه وضعفه على مستر هينز وحكومتة. إلا أنه كان ينظر إلى الموقف من شتى أبعاده وإحتمالاته الخطرة والمحيطة ببلاده ولذلك كان السلطان يتفاوض مع مستر هينز وداخله بركان يفور حتى ظن مستر هينز بعد تعدد المفاوضات مع السلطان أن الاستيلاء على عدن عمل سهل وبسيط وإن الصعوبات التى تواجه نقل ملكية عدن للحكومة البريطانية ليس مصدرها السلطان نفسه ولكن المحرك الرئيس لها إبنه الأمير أحمد كما ظن مستر هينز عند تقديره الموقف وتقديم تقريره لحكومته بأن أهالى عدن لن يشكلوا أى عائق أمام الرغبة البريطانية ولن يلجأ معظمهم إلى المقاومة إذا قررت الحكومة البريطانية الاستيلاء على عدن.

كانت تقديرات مستر هينز التقليل عن حجم المقاومة بل حتى ومن مشاعر الغضب لدى أهالى عدن عند إحتلال بريطانيا لبلدهم.

وإستند مستر هينز فى تقديره إلى ما توهمه من أن السلطان يبدى مرونة وليونة فى المفاوضات خاصة عندما كانت تدور المفاوضات حول الترغيب والعروض المادية وكانت المحاورات بين مستر هينز والسلطان يعترضها شد وجذب وإسترخاء وتراكمت التقارير لدى الحكومة البريطانية ولعب الموقف المحيط بعدن دورًا حاسمًا فى القرار منها إن القوات المصرية فى أرض شبه الجزيرة العربية وإحتمال قيام هذه القوات بإحتلال عدن وارد فى دراسة وتحليل الموقف وما يترتب على هذا الإحتلال المتوقع من ردود أفعال وصعوبات شديدة أمام الحكومة البريطانية خاصة وإن القوى الأوروبية المنافسة لبريطانيا فى ذلك

الوقت كانت متيقظة وتعمل على تحجيم بريطانيا العظمى التى كانت لها السيادة فى هذا الوقت كل ذلك جعل إتخاذ القرار أكثر سهولة وقررت الحكومة البريطانية إنه من الضرورى إحتلال عدن حتى لو تم هذا الإحتلال بإستخدام القوة المسلحة.

وأورد مستر هينز فى تقريره إلى حكومته بضرورة التمهيد بالاتصال بقبائل الفضلى واليافعى لإجتذابهم إلى صفوت البريطانيين أو على أقل تقدير تحديد موقفهم عند هجوم القوات البريطانية والسبب فى ذلك أن مواقع هذه القبائل محيطة بعدن.

وقد يسببون عقبات شديدة تعرقل إستيلاء البريطانيين على عدن. ورغم الخلافات القبلية التى مبعثها السيطرة على الأرض ومصادر المياه. ورغم موافقة الحكومة على رأى مستر هينز بشأن هذه القبائل والبدء فى تنفيذ المخطط التمهيدى إلا أنه للانصاف لم تظهر أى بوادر لدى القبائل هذه لتأييد أو حتى الوقوف على الحياد عند قيام البريطانيون بالهجوم على عدن.

وقد حدد مستر هينز فى تقريره عدد القوات والمعدات اللازمة لإحتلال عدن. وكان تقديره مبينا على الاستهانة بتوقع مقاومة الأهالى وحياد قبائل الفضلى والعبدلى.

وكانت حكومة بومباى لا تطمئن إلى تحقيق مصالحها معتمدة على السلطان محسن وإبنه الأمير أحمد وكان مرجع عدم الإطمئنان إلى المماطلة والتسويف فى توقيع إتفاق صريح بنقل ملكية عدن إلى بريطانيا ويعزز ذلك القلق وعدم الاطمئنان بسبب المؤامرة التى تم

تدبيرها لإختطاف ممثلها مستر هينز فى عدن عن طريق الأمير أحمد وأعوانه وبمباركة من السلطان وإن كانت هذه المباركة فى الخفاء.

وتعمقت قناعة حكومة بومباى فى ضرورة الاستيلاء على عدن بالقوة المسلحة خاصة نائب حكم بومباى فى ذلك الوقت «جيمس فارس» ولم يكن يلوح فى الأفق أية عوائق تحول دون ذلك وتفرض عدم إستعمال القوة - فلقد كانت ردود الفعل المتوقعة من الدول الأوروبية المنافسة لبريطانيا ردود فعل سلبية هذا بالإضافة إلى القناعة لدى حكومة بومباى بأنها لن تواجه أية معارضة من قبل وإلى مصر آنذاك محمد على باشا وكانت القوى الكبرى الأوروبية المنافسة للهيمنة البريطانية فى ذلك الوقت هى روسيا وفرنسا والنمسا وكان متوقعًا أن يعترضوا بصورة أو بأخرى على إحتلال البريطانيون لعدن ويكون لهم موقع قريب ويهدد ميناء المخامن ناحية أخرى وكان رأى مصر فى أن عدن ليست منطقة مستقلة يمكن بسهولة الإستيلاء عليها دون معارضة بل كانت جزءًا تابعًا للإمام فى صنعاء.

قرار احتلال عدن

ورغم الاعتراضات المتوقعة سواء من الدول الأوروبية الكبرى أو من مصر فإن القرار تم إتخاذه بالاستيلاء على عدن وإستعانت حكومة بومباى البريطانية بالتحايل وإستخدام أساليب الضغط بالسلاح لإقناع السلطان محسن وإبنه الأمير أحمد بالتنازل عن عدن لبريطانيا. وأرسلت مستر هينز مرة ثانية إلى عدن لتكرار المحاولة بالترغيب والترهيب بل كانت لدى مستر هينز تعليمات من حكومته بإستخدام أسلوب شديد اللهجة والتهديد لإرهاب لسلطان وإنذاره إنذارًا نهائيًا بأنها ستقوم بعمل عسكرى لا قبل له به للإستيلاء على عدن حتى لوتم ذلك رغمًا عنه.

ويوضح إصرار البريطانيون الكبير على إحتلال عدن أنها زودت مستر هينز بتعليمات صريحة فى حالة قيام قوات مصر بالزحف إلى عدن والإستيلاء عليها وإذا وجد مستر هينز القوات المصرية فى طريقها لإحتلال عدن فعلية أن ينذر القائد المصرى بأن إحتلال القوات

المصرية لعدن أو حتى التقدم بالقوات فى إتجاهها تعتبر عدوانًا مباشرًا على أراضى بريطانيا وقد وضعت حكومة بومباى فى إعتبارها هذا الموقف الذى يعكس خشيتها وتحسبها لقيام القوات المصرية بالتوجه إلى عدن للإستيلاء عليها.

والنية أصبحت واضحة ومبيتة فى إحتلال عدن. بعد أن كلفت مستر هينز إلى ذهابه للمرة الثانية إلى عدن ومعه مهندس متخصص فى دراسة الحصون فى عدن وحولها وكذلك عمل مسح لعمق المياه لدراسة مدى سماح هذا العمق برسو السفن البحرية فى الميناء.

ووصل مستر هينز إلى عدن فى اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٨٣٨ وإستشعر الخطر الأمير أحمد بن محسن فقام على رأس رجاله بالتحرك من لحج إلى عدن للوقوف فى وجه الغزو المتوقع لبلاده وكان الشعور السائد على معظم أهالى عدن خليط من الغضب والسخط والفزع.

وطلب مستر هينز من السلطان محسن بالتنازل عن ملكية عدن للحكومة البريطانية إلا أن الأمير أحمد بن محسن وجه خطابا شديد اللهجة مفعمًا بالإصرار والتحدى بأنه صاحب الكلمة الأولى فى عدن بعد والده السلطان وأوضح لمستر هينز فى خطابه بأن أى هجوم من البريطانيين على المدينة سيواجه بالعنف والضراوة البالغة لمقاومة هذا الغزو الظالم ويبلغه ما معناه أن أهالى عدن يملأهم الغضب والحنق على هذا الغزو ويقفون خلف أميرهم وقفه رجل واحد وإن عبر موقف الأمير أحمد عن شىء فهو تعبير دقيق للمشاعر العربية آنذاك

بالرفض القاطع والغضب البالغ عن هذا الغزو البريطاني الاستعماري لبلادهم.

وكان موقف الأمير أحمد واضح وقاطع وصلب. رغم عدم تكافؤ القوى والإمكانات والقدرات بين الطرفين. ومن جهة أخرى فإن السلطان محسن آثر أسلوب المماطلة وإن كان لا يظهر للبريطانيين العداء جهرًا حتى يأمن شرهم وجبروتهم وإن كان في أعماق أعماقه مقتنعًا ومؤمنًا بموقف إبنه الأمير أحمد وبعدالة قضيته والجرأة والحزم الذي أظهره في مواجهة مندوب حكومة بومباي البريطانية وكان مستعدًا للتضحية بالروح في سبيل سلامة وإستقلال بلاده.

وبلغ الغضب حدًا كبيرًا إبتداء من السلطان وإبنه الأمير إلى أهالي عدن وإتضح هذا الغضب عندما رفض السلطان محسن بأن يتم تزويد سفينة مستر هينز بالمياه والأخشاب والمؤن اللازمة لها. وتفاقم الموقف إلى توتر بالغ حتى إن مستر هينز هدد بعنف واصفًا موقف السلطان بأنه إعلان للحرب على الحكومة البريطانية وفي هذه الحالة يمكن قطع كل وسائل الاتصال بين عدن والمحيط الخارجي مما يؤدي إلى شلل الحركة التجارية ويترتب على ذلك نتائج إقتصادية مؤلمة على السلطان وإتباعه ولم يستسلم السلطان لهذا التهديد المكشوف وكذلك الأمير أحمد الذي أخذ يجمع رجاله ويحشدهم بقدر ما تسمح به موارده وأصبح العداء مكشوفًا ومعلنا بين الأمير أحمد ومستر هينز مما جعل مستر هينز إلى اللجوء إلى طريق أسلوب المكر والخداع في العمل للوقيعة بين السلطان وإبنه فقد أعلن أنه لا تعامل

مع الأمير أحمد ولكن تعامله مع سلطان البلاد. وإزداد تفاقم الأمور بسرعة حدت بالسلطان بتفويض إبنه الأمير أحمد ليكون ممثلاً له في كل الأمور معللا ذلك بمرضه.

ووضع مستر هينز أمام الأمر الواقع بعد أن كان من قبل يؤكد عدم شرعية الأمير أحمد في موقفه العدائي للبريطانيين وإضطر مستر هينز لبدء المفاوضات مع الأمير أحمد وإن كان يعتبر المفاوضات لا تنطبق على هذا الموقف ولكن هينز كان في الحقيقة يكرر شروط البريطانيين لضم عدن والإستيلاء عليها ولذا فكلمة مفاوضات ليست مناسبة والحالة واضحة لفرض الهيمنة.

وإن كان ذلك مغلفًا بأساليب من الترغيب والترهيب الشديدين.

وواجه الأمير أحمد الموقف بحزم وجرأة استغرب لها مستر هينز وبل إستكثرها عليه ولم يوهن التهديد المتكرر والوعيد الظاهر والمعلن من همة الأمير وغضبه ودفاعه العادل عن بلاده مهما كلفة ذلك وكان الأمير أحمد في ردوده على مستر هينز منطقيًا متوازنًا وقد بدأ ذلك واضحًا في رده على هينز وتأكيده بأنه مستر هينز لم يأت إلى عدن كصديق كما أن الأسلوب الذى تحدث به لم يكن يدل على أن حكومته حكومة صديقة وعن قضية تحويل عدن إلى ملكية للحكومة البريطانيين فهو أمر يتنافى ويتعارض مع طبائع العرب التى لا تقبل الذل مهما كلفها ذلك حتى الحياة تهون أمام هذا الهوان والذل.

وإذا كان مستر هينز إدعى فى رسائله بأنه سبق الاتفاق مع السلطان محسن والارتباط معه إرتباطًا مبدئيًا بالتنازل عن عدن

وتحـويلـهـا إلى ملـكيـة الحكومـة البـريطانيـة ولـم يثـبت فـى أى من السـجـلات لـحكومـة الـهند البـريطانيـة مـا يؤيد أو حـتى يشـيـر إلى إدعـاءات مسـتـر هينز وإن ذلك ليس له أى أسـاس من الصـحـة حيث تضمنت الوثائق والسـجـلات مكاتبات عديدة فى العصـر ولكن لم يكن من ضـمنـهـا مـا يشـيـر إلى هذا الاتفـاق المبدئى بين السلطان مـحسن ومسـتـر هينز وبالعكس فلقد أثبـتت كـثـيـر من المراسـلات والـوثائق بتـحدى السلطان لإدعـاءات مسـتـر هينز المغلوطة والكاذبة ومطالبـتـه مستـر هـينز بإظهـار مـثل هذا الخطاب المصدق عليه مبديـا إستـعداده للإلتزام.

بما جاء فيه إذا ثبتت صـحته.

ولم تخف مناورات مستر هينز على السلطان محسن ولم يغب عنه ألاعيبه فقد أوضح عيانًا جـهارًا بأن ما يقصده المبعوث البريطانى هو تحـقيق رغبة حكومـتـه بإمـتـلاك عدن وأردف السلطان فى خطابه بأن ذلك لن يكون ولن يتم (إلا فـوق رقـاب أهلهـا) وبهـذا التـعـبـيـر كـان السلطان مـحـسن ورجـالـه يسـتـعدون للمـقـاومـة رغم عـدم التكافؤ الواضـح وإن بذل الروح أهون من الذل والهـوان وترتب علـى ذلك أن تجاوب السلطان مع موقف إبنه وظهر ذلك بوضـوح لمسـتـر هينز حتى أن مستـر هينز إتهم السلطان بأنه أهان الحكومة البريطانية بإمتناعه عن تقديمه المياه والمؤن اللازم للسفن التابعة لها. كمـا أن إبنه الأمير أحـمـد رفض إعـادة بضـائع السـفـينة الـهندية دوريًا دولت ورفـضـه الموافـقـة سلـميًا على التنازل عن عدن لبريطانيا فى مـقـابل العـروض

السخية التى قدمها مستر هينز وبأسلوبه اللين المبطن بالتهديد وجه مستر هينز النصح للسلطان بأن يكون أكثر حرصًا والإبقاء على صداقته للحكومة البريطانية وأن يسعى السلطان من جهته بالعمل على إرضائها وتحقيق رغباتها حتى تستمر العلاقة فيما بينهما ودية والصداقة قائمة.

ورغم براعة مستر هينز فى المناورة والكلمات المعسولة والترغيب تحت عباءة الترهيب والوعيد وبعد أن أفرغ كل ما فى جعبته من دهاء ومكر والتواء إلا أنه وجد إصرارًا وصلابة شديدتين ورفضًا قاطعًا وغضبًا عارمًا من السلطان فى التنازل عن أرضه أو التفريط فى أى جزء منها.

وإستقر رأى مستر هينز بأنه لا بديل عن إستخدام القوة العسكرية للسيطرة على عدن بعد أن فشل فى تحقيق غايته بالترغيب والملاينة والمراوغة وحتى إستخدام أسلوب التهديد العسكرى ووجد أنه لا مناص من ضم عدن للحكومة البريطانية بالقوة فأرسل لحكومتهه بهذا المعنى وطالب الإسراع بإمداده بالقوات والمعدات اللازمة حتى يتمكن بسرعة من السيطرة على عدن قبل أن يستطيع السلطان محسن وإبنه الأمير أحمد تجميع رجاله والإستعانة بالقبائل المجاورة بعد فض الإختلافات فيما بينها وزيادة حجم التصالح لتوحيد الكلمة ولمؤازرة اليد التى تدافع عن البلاد ضد الغزو المتوقع من حكومة بومباى البريطانية.

وأثناء فترة إنتظار هينز للإمدادات والقوات المؤهلة لإحتلال عدن

فلجأ إلى أسلوب إستخدام الحصار الاقتصادى حول الميناء كأجراء إحترازى حربى فعال للتأثير على معنويات الأهالى ومنع وصول المؤن اللازمة لهم عن طريق البحر وإستغل إحدى الجزر الحاكمة لمدخل الميناء ووضع مدفعًا من مدافعة عليها لمنع تهريب المؤن إلى أهالى عدن خاصة تمر الخليج الذى كان بمثابة الزاد الرئيسى لهم مع لبن الماعز والبعير.

من ناحية أخرى لجأ هينز إلى أسلوب فرق تسد الشهير لإختراق القبائل المحيطة بعدن والعمل على عزل السلطان محسن وكما هى عادة القبائل فى ذلك الوقت لا تخلو ولا تتوقف الخلافات فيما بينهما لمختلف الأسباب وكانت قبائل الحواشب القاطنة فى المنطقة الشمالية الشرقية من عدن فى صراع وخلاف مستمر مع قبائل العبادلة كما أن قبائل الفضلى على خلاف مع قبائل العبدلى حتى أن الصراع كاد أن ينشب بين سلطنة الفضلى واليافعى وبدأ هينز فى مكاتبه سلطان قبائل الفضلى العدو اللدود لقبائل العبادلة المجاورة لها. ونجح هينز فى إستمالة سلطان الفضلى ووافق الأخير على إمداد السفينة الراسبة تحت أمره هينز بالمؤن اللازمة نكاية فى السلطان محسن.

ورغم عودة الاتصال فيما بين السلطان محسن وهينز تحت ضغط إحتمالات قيام سلطان الفضلى بالالتفاف والاتفاق فيما يعرض اللحجية للمصاعب خاصة أن قبائل الفضلى بدأت بالفعل بالتوغل فى أراضى العبدلى من جهة الشرق مما إضطر السلطان محسن إلى

محاولة التفاهم مع البريطانيين لتهدئتهم حتى لا يواجه عدوين فى وقت واحد.

وكانت سياسة الحكومة البريطانية تصعيد الخلافات القبلية والعمل علّى تأجيج نيرانها حتى تمزق الجبهة الداخلية وتفكك روابط الاتحاد بين القبائل فى حالة غزو عدن والإستيلاء عليها وعمل هيننز على إذكاء حدة الصراع وتقليب النزاعات نظرًا لما فى ذلك من إضعاف لقوتهم وتفريق لشملهم ليسهل المهمة المكلف بها فيما بعد ومن المؤسف فى ذلك الوقت لم يكن العرب أهالى البلاد الأصلية على درجة كافية من الوعى واليقظة والإدراك عن مدى ما يتهدد بلادهم من خطر داهم ولم يكونوا على مستوى الإرتقاء عن خلافاتهم القبلية المعتادة لكى يتم التضامن وتماسك الجبهة الداخلية أمام المحاولات المستمرة للإستعمار للسيطرة على بلادهم والتحكم فى مقدراتهم ورغم أن المشاعر العربية واحدة تجاه العدو المشترك إلا أن الخلافات المتباينة والأطماع القبيلة باعدت بين هذه المشاعر العربية الواحدة تجاه العدو المشترك وفرقت بين الأخوة وسهلت مهمة المعتدى فيما بعد.

احتلال البريطانيون لعدن

تجمعت خيوط الموقف الشامل فى عدن وما حولها لدى حكومة بومباى البريطانية ففى عدن لا يزيد عدد الأهالى فى ذلك الوقت عن ألف شخص منهم مائتان وخمسون من الأهالى اليهود الذين يعملون كطابور خامس نشط لإبلاغ كافة المعلومات عن حالة الأهالى وحالة الحصون الموجودة فى عدن أولاً بأول. حتى تجمعت لدى الحكومة البريطانية التفاصيل المحددة المستمرة حتى بعد مغادرة هينز للميناء حيال فشله فى إرغام السلطان محسن على توقيع صك التنازل عن عدن للحكومة ابريطانية وتبينت الحكومة البريطانية إنها قد إستنفذت كل الأساليب الممكنة من ضغط سياسى وضغط حربى وترهيب وتهديد وإغراء على السلطان محسن إلا أنه إتضح أن السلطان لم يكن يقل وطنية عن إبنه الأمير أحمد رغم ما إتصف به السلطان محسن بن فضل العبدلى سلطان لحج وعدن من سعة الأفق والقدرة على المناورة والحذر الشديد والمرونة الكبيرة فى تفاوضه مع هينز لأنه يعرف بأن

بريطانيا تسيطر على جميع البحار وليس هناك قوة تستطيع الوقوف أمامها فما بالك بقوات السلطان وقدراته المحدودة. ولذا كان أكثر هدوءًا وأكبر كياسة فى تعامله مع هينز لأنه يعرف جيدًا أن غاية البريطانيين هو الاستيلاء على عدن ذات الموقع الحيوى الهام فتحقق بريطانية مصالحها الاستعمارية المختلفة فى منطقة البحر الأحمر وتجعلها تتحكم بصفة شاملة فى هذا الممر البحرى الدولى الهام.

وسقط فى يد هينز وأصبح لا مفر أمامه من إبلاغ حكومته برفض السلطان لكل ما عرضه عليه ولم يقبل بأى تفاهم ودى حتى تحت الإغراء أحيانًا وتحت تهديد السلاح والقوة الغاشمة أحيانًا أخرى وقدم هينز تقريره إلى حكومته التى بدورها رأت أنه لا مفر من إستخدام القوة المسلحة خاصة وأنه فى تقرير سابق أوضح هينز أنه يستطيع الإستيلاء على عدن بقوات محدودة وإقترح هينز أن تتكون القوات الغازية من ٣٠٠ جندى من المشاة البريطانيين و ٢٥٠ جنديًا من المشاة الهنود و ٣١٠ جنديًا من المدفعية وأربعة سفن حربية تحمل ١١٤ من البحارة البريطانيين و ٣٥ من البحارة الهنود وبعد دراسة متأنية قررت الحكومة البريطانية الإستيلاء على ميناء عدن على مرحلتين وتشمل المرحلة الأولى عملية إرهاب ووعيد وبث الخوف فى نفوس الأهالى بعمل مناورات حربية قرب سواحل عدن.

والمرحلة الثانية هى هجوم القوات البريطانية لإحتلال عدن فعليًا والسيطرة عليها شاملة ورغم قرار حاكم بومباى البريطانى بضرورة إحتلال عدن إلا أنه أشار إلى ضرورة أن تكون الخسائر بأقل قدر ممكن.

وقد تشكلت الحملة العسكرية من قوات بريطانية وقوات هندية وسفن حربية وسفن تموين محددة حتى أنه خوفًا من عدم صلاحية المياه المنقولة مع السفن من بومباى إلى عدن وذلك لطول المسافة وطول الوقت إقتضت الدراسة أنه في حالة الحاجة إلى مياه صالحة أن يتم الحصول عليها من ميناء المخا في شمال عدن.

وأصبح هينز هو المسئول الأول عن نجاح الغزو وإحتلال عدن وبالتالى صارت القوات الغازية في الحقيقة تتبع التعليمات التى يصدرها هينز... ووضعت حكومة بومباى البريطانية في إعتبارها جميع الإحتمالات والمواقف الغير متوقعة فزودت الحملة بقوات إضافية وقوات إحتياطية وخاصة من المدافع القوية التى لا شك ستثير الخوف والذعر بين المدافعين من أهل البلاد.

وأصبح لمستر هينز السلطة السياسية العليا للحملة الغازية وأن يخضع لقراراته قائد الحملة العسكرية وذلك حسب المسئولية الملقاة على عاتق هينز وهى مسئولية نجاح القوات في إحتلال والسيطرة على عدن وتأمين ما حولها ورغم أن القوات البريطانية التى تم تجهيزها للغزو كان حجمها أكبر من المقدر بكثير إلا أن حكومة بومباى البريطانية رأت تعزيز هذه القوات بسفينتين إضافيتين من السفن الحربية القوية آنذاك وهى السفينة فولاج وعليها ٢٨ مدفعًا والسفينة كرويزر وعليها ١٦ مدافعًا وقد تم سحبها من المهمة التى كانا يقومان بها في نهر السند - ولكن تم إصدار تعليمات بإنضمام هذه القوات الإضافية إلى القوة الغازية لعدن.

المرحلة الأولى للإحتلال - الحصار والمناوشات:

لم يفقد حاكم بومباى الأمل فى إمكانية السيطرة على عدن وذلك بوسائل الضغط السياسى والترهيب وإشعال نار الفتنة وتأجيج التشاحن والتقاتل بين القبائل المحيطة بعدن وكذلك التركيز على بث نزعة الغيرة وحب التملك والمباهاه بين السلاطين حول عدن فالمنازعات والترويج للدسائس بين أهل البلاد والعزف على وتيرة النعرات القبلية كانت عوامل كلها أجادها البريطانيون وودوا لو تكون قطف ثمارها فى النهاية الإستيلاء على عدن دون قتال وصدام مسلح.

ورغم معاودة إتصال البريطانيين بالسلطان محسن وترغيبه فى عمل راتب شهرى له بالإضافة إلى ضمان مظاهر التبجيل والإحترام له ولرجالاته إلا أن إصرار السلطان على ضمان سلامة بلاده من الغزو وتكرار رفضه لإغراءات حكومة بومباى - أصبحت الخطابات الموجهة للسلطان من حكومة بومباى أكثر شراسة وأكبر حدة وأبعد إصرارًا على ضم عدن إلى بريطانيا لسالف ما أوضحناه فى سياق سابق.

والسلطان محسن الفضلى قاوم إحتلال بلاده بشراسة هو ورجاله ورفض الإذعان والإنصياع. لم يكن ذلك مدعاة لأن يقول التاريخ كلمته بأن السلطان محسن قد لبس عباءة البطولة والوطنية ولكن الشواهد ما كان يفعل ذلك إلا أن الأصالة العربية والعزة الوطنية والتمسك ببلاده وبيئته هى السمة الأساسية التى دفعت السلطان وإبنه الأمير أحمد للوقوف بشتى الوسائل أمام قوات ضخمة لا قبل لهم بمحاربتها

ولكن هذه هى العادة العربية والهوية العربية التى لا تقبل الضيم ولا ترض بالذل والهوان فلا يعدوا أن يكون ذلك إلا مثل قيام السلطان محسن بالدفاع عن بيته وأهل بيته ضد الغرباء الغزاة هذا ما يجب أن نذكره ويذكره له التاريخ بأنه لم يفرط فى حقه ولا حق أهله ولم يبادل وطنيته وعروبته الأصيلة بثمن بخس دراهم معدودة.

وكانت حكومة بومباى قد جهزت حملة كبيرة مجهزة بسفن ضخمة وقوات كثيرة ومدافع ذات عيارات شديدة قذائفها لها مدى بعيد فى ذلك الوقت وقد وضعت حكومة بومباى فى إعتبارها الإحتمالات المحيطة بعدن وذلك فى حالة قيام السلطان محسن سلطان لحج والعبدلى بتجميع وطلب العون من القبائل المحيطة والقريبة خاصة سلطان الفضلى وتحسبا لأن القوات المصرية المتواجدة فى تهامه فى ذلك الوقت قد تسارع إلى مد يد العون إلى السلطان محسن ورجاله وتقوم بمؤازرته والدفاع معه جنبًا إلى جنب بما يعزز القدرات الدفاعية للعدنين وتحسبا لذلك لم تغفل حكومة بومباى فى أن تتضمن الحملة بالإضافة إلى السفن المحلمة بالجنود والمدفعية سفنًا أخرى ذات قاع عميق لتخزين الفحم والمؤن وكذلك سفن قوية التجهيز لتقف كإحتياطى للقوات الغازية إن لزم الأمر وكانت تعليمات حكومة بومباى الصريحة لقوات الغزو البرية التى كان يقودها الميجور توماس بيلى أن يضع قائد هذه القوات نفسه تحت رئاسة السلطة السياسية التى يقوم بها مستر هينز كما أكدت الحكومة على أن يتم تعزيز المواقع الدفاعية فى عدن لإمكان التصدى لأية أخطار أو مفاجآت تؤثر على سلامة القوات المحتلة.

وظهرت القوات الغازية بالقرب من عدن. وكان هينز على إحدى سفن القيادة وتحركت السفن فترة حول ميناء عدن وأمام الأماكن المأهوله بالسكان حتى يمكن للأهالي رؤيتها والتأكد من ضخامتها وقوتهاوأطلقت إحدى السفن طلقتين من مدافعها الضخمة فسقطت بالقرب من بئر الشيخ أحمد الذى يغذى عدن بالمياه وسقطت الطلقة الأخرى على مسافة بضع مئات من الأمتار من مكان الطلقة الأولى وكان هينز يهدف من وراء ذلك إرهاب الأهالى وإشعارهم بفاعلية ومقدرة الأسلحة البريطانية. وبطبيعة الحال رغم إنه لم تحدث خسائر فى الأرواح عند إنفجار هذه القذائف إلا أن إنفجارها وسهولة وصولها إلى هذا المكان البعيد نسبيًا قد سببا بعض الهلع والذعر عند بعض الأهالى وزاد خوفهم مما قد تسببه الحرب التى لا قبل لهم بها.

وقامت القوات البريطانية بحصار لشواطىء عدن ومنع الدخول والخروج منها وكانت التجارة مع بربرة وزيلع على الساحل الصومالى وإتصال قبائل اليمن وقبائل الصومال هى بمثابة الرئة الأساسية التى تهب وتبث الخير وتنعش التجارة فى عدن.

ومادام الحصار مستمراً وما يترتب على ذلك من زيادة الصعوبات أمام أهالى عدن فلابد أن تحدث مناوشات ومحاولات للتسرب والهرب من هذا الحصار الشديد وحدثت إحتكاكات متعددة بين القوات البريطانية القائمة بالحصار وبعض الوطنين ورأى مستر هينز ان يحصل على إحتياجاته المختلفة من ميناء بربرة على الساحل

الصومالي وأرسل هينز أحد القوارب لجلب هذه الاحتياجات من ميناء بربرة إلا أنه تعرض لهجمات أهالي عدن الذي زاد غضبهم وحنقتهم يومًا وراء يوم خاصة ما كانت تقوم به القوات البريطانية بسبب حصارها بقطع سبل العيش أمام هؤلاء المواطنين.

وقام الأهالي بإطلاق النيران على القارب المتجه إلى بربرة من السفينة (كوت) لإحضار المؤن المختلفة والاتفاق مع التجار في الصومال لتوفير طلبات القوات البريطانية من المؤن ورغم عدم حدوث خسائر بشرية لركاب القارب إلا أن هذه البداية كانت إعلانًا من أهالي عدن بوجود إرادة رافضة غاضبة من إعتداء القوات الغازية البريطانية وعاد الأهالي مرة أخرى بإطلاق نيران بنادقهم على قارب آخر بالقرب من الشاطيء كان يركبه بعض الضباط البريطانيين إلا أن من في القارب رد على مصادر إطلاق النيران هذه بطلقات من مدفع هاون وبعض الأسلحة الصغيرة.

وقد وصلت معلومات إلى السلطان محسن بأن السفينة كوت ستتجه إلى ميناء زيلع لتحصل على ما تحتاجه من مؤن ومياه فأرسل من طرفه مندوبين ليطلب من قبائل تاجورة الصومالية أن تمتنع عن تموين السفن المعادية والمحاصرة لعدن بالمؤن والمياه التي تلزمها ولسوء الحظ وقع هذا المكتوب في يد رجال مستر هينز فثارت ثائرته وإزداد حنقه وغضبه ولجأ إلى سياسة التأديب والقوة وإستخدام قذائف الهاون في قصف وسط مدينة عدن لزيادة الإرهاب بين المواطنين وتلقينهم درسًا لكي لا يعلو فوق القوة والقدرة الغازية

أى مقاومة أو معارضة ولما وجد الأهالى الغاضبين وقوع القذائف وسط مدينتهم عدن. أسرعوا يحملون بنادقهم ويعتلون قمم التلال المحيطة بميناء عدن وأطلقوا أسلحتهم ضد مصادر القذائف إلا أن البنادق التى كانت بيد الأهالى المدافعين كانت ضعيفة وقصيرة المدى ولم يتمكنوا بذلك من القضاء على مصادر النيران للبريطانيين بل أن بنادقهم لم تكن مؤثرة بأى حال من الأحوال.

وإزداد غضب الأهالى المدافعين لعجزهم عن التأثير على مصادر النيران وفارت حميتهم فنزلوا من التلال التى كانوا يعتلونها مندفعين بحماس الحانق الغاضب وتقدموا فى إتجاه البريطانيين الذين كانت مصادر إطلاق نيرانهم مستمرة ومؤثرة وحينما إقترب الأهالى وليس معهم سوى البنادق الضعيفة إنهالت عليهم النيران المؤثرة من الأسلحة القوية المستخدمة من قبل القوات الغازية وأصابت العديد من المدافعين مما جعلهم يرجعون إلى أماكن أكثر أمنًا ومناعة دفاعية بعد أن جمعوا القتلى والجرحى وحملوهم معهم بعيدًا عن أرض النيران المؤثرة.

وذلك الموقف المؤثر يؤكد أن أهالى عدن وعلى رأسهم السلطان محسن وإبنه الأمير الثائر لم يتخاذلوا منذ اللحظة الأولى فى المقاومة رغم عدم التكافؤ وقلة الأسلحة وضعف قدراتها التى كانت فى أيديهم.

وأصبح الموقف بعد هذه الاحتكاكات المباشرة موقفًا يمثل ارادتين أحدهما غازية قوية مدعمة بكل ما هو حديث من السلاح وباعداد من الجنود يفوق عدد المدافعين وإرادة القوة المدافعة والسلاح ليس

في يدها بقدر ما هو في قلبها من غضب وجنون وثورة ضد الغزاة إنها إرادة الرفض للاذلال والاستكانة حتى لو كانت القوة المعتدية قوة مهلكة.

ومهما كانت شدة وفاعلية الحصار البريطاني لسواحل عدن إلا أن هذا الحصار الممتد على مئات الأميال حول عدن - لم يقف عثره من آن بعض القوارب كانت تتسلل تحت جنح الظلام من عدن إلى الصومال وبالعكس ولم يغب ذلك عن فكر هينز ولا عن أعين رجاله فبعث ببعض رجاله الأكفاء للالتفاف حول عدن وأن يقوموا بالقوة بمنع تبادل التهريب التجارى المنظم فيما بين الصومال وعدن إلا أن هذه القوات تعرضت لعشرات القذائف المحكمة التصويب من قذائف مدفعية كانت مؤثرة على هذه القوات بأسلوب جيد ومحكم مما جعل هينز يبعث لحكومته بأن القوات المصرية في تهامة بدأت تدخل في المناوشات الحربية بسبب أسلوب جديد في إستخدام السلاح وفاعليته وفي تقديره أن يكون ذلك جديد على اليمنيين ومجهول بالنسبة لهم مما جعله ينوهم بأن القوات المصرية في الشمال تدخلت في القتال وهذا الاعتقاد الذى أورده هينز لحكومته كان بعيداً عن الصواب إلا أن بعض المصادر أشارت إلى أن القوات المصرية في الشمال قامت بتدريب العدنيين وجيرانهم على إستخدام المدفعية حتى يتمكن العدنيون من الصمود في وجه القوات البريطانية الغازية وذلك كانت في مصلحة مصر بطبيعة الحال وتقدير الموقف الصائب لوالى مصر محمد على.

وكان إطلاق نيران المدفعية على القوات البريطانية المكلفة بالالتفاف حول ميناء عدن ودقة التصويب منعطفًا في سير المناوشات بين الارادتين وتصاعد التوتر بين الطرفين بعد أن وقع أحد القوارب المتسللة التي خرجت من عدن في طريقها إلى سواحل الصومال في يد البريطانيين وتم أسر ركابه ومصادره حمولته ورفض البريطانيون إرجاع الحمولة على أنها غنيمة حرب وإنها وأصبحت ملكًا للقوات البريطانية.

ولطول فترة الحصار حول عدن بدأ ذلك يظهر على أهالي عدن من حيث تزايد المصاعب وقسوة الظروف المعيشية فالتجارة شبه متوقفة ذلك المصدر الذي يتخذه معظم أهالي عدن مصدرًا للرزق ولا تخلوا الأيام من إحتكاكات بين القوات القائمة بالحصار والأهالي والخوف المستمر من إطلاق قذائف الهاون التي أقامها البريطانيون على إحدى الجزر القريبة من عدن بما يمكن القذائف من الوصول إلى وسط عدن كل ذلك دفع بعض أشراف عدن للاتصال بمستر هينز لفتح باب المفاوضات لوقف إطلاق النار وعلى رأس هؤلاء الأشراف السيد زين العيدروس الذي ينسب إليه دور هام ومشهود في محاولة تخفيف وطأة الحصار وفتح مسار المفاوضات لعقد هدنة حتى يتهيأ الجو وتخفيف حدة المواجهة فيما بين الارادتين.

ومن جهة أخرى كان مستر هينز يكاتب حكومته لسرعة إرسال القوات الداعمة لقوات الحصار وفي تقدير هينز أن في يديه زمام الموقف الأقوى ولديه ما يجعله يتشدد في مطالبه في أن تتحول عدن

إلى ملكية الحكومة البريطانية ولا يتخلى عن هذا المطلب قيد أنملة لأن هذا هو الهدف الأساسى لحشد هذه القوات والمهمة التى كلفها به حاكم بومباى البريطانى وحملة المسئولية الكاملة لإنجاحها.

وكلما مرت الأيام على الحصار إزداد غلو مستر هينز وتشدده ورفضه لأى وساطة من أشراف عدن وكان بذلك يمثل إرادة البطش وجبروت القوة المتصلبة ورغم إستمرار العرب فى المناوشات إلا أن ذلك لم يؤثر التأثير المؤلم على القوات المحاصرة.

وبلغ الغضب والحنق مبلغًا عظيمًا برجال الأمير أحمد حتى إنه يحكى أن ثلاثة من رجاله تطوعوا للذهاب إلى الجزيرة التى يقبع عليها مدفع الهاون ذو القذائف المؤثرة حتى وسط عدن ودون إعلام الأمير بخطتهم وفى ليلة غير مقمرة حملوا بنادقهم وما توفر لديهم من ذخيرة وبعض الأسلحة البيضاء وقاموا بالعوم تارة والغوص تارة أخرى عبر المياه لكى يتمكنوا من الوصول إلى موقع المدفع القاتل وكانت المسافة فيما بين الجزيرة وشاطىء عدن تتجاوز مئات الأمتار. إلا أن المناضلين تحاملوا على أنفسهم ووصلوا إلى شاطىء الجزيرة ونظرًا لجهلهم بموقع المدفع ولا مواقع الأعداء خلف هذا المدفع فوجئوا بأن العدو يحيط بهم وساعد الظلام على عدم تداركهم الموقف بدقة وقتل أحدهم فى أشتباك سريع وأصيب آخر وتم أسر المقاتل الثالث ولم يبزغ الصباح إلا وكان العدنى المصاب توفى متأثرًا بجراحه.

وإن كانت هذه المحاولة فى حكم الفاشلة إلا أنها عبرت عن أن الإرادة لدى العدنيين كانت متأججة وشدة الغضب تملأ نفوسهم حتى الوصول إلى حافة المغامرة والتضحية بالنفس.

وكان مستر هينز وضباطه يحسبون حساباتهم أثناء فترة الحصار ويقدرون نوعية الأسلحة وأماكنها وإعداد الرجال المدافعين عن عدن وقد سبق أن ذكرت أن يلجأ مستر هينز فى إطلاق بعض عيونه من الطابور الخامس فى عدن.

ووجد أن الأسلحة المتوافرة لدى المدافعين مختلفة الأنواع والعيارات نتيجة وصول قذائف هذه الأسلحة على مسافات متباينة.

وقام هينز بأسلوب تصعيد قتالى فأرسل بعض رجاله إلى جزيرة أخرى قريبة من قوات السلطان التى كانت متمركزة فى لحج وقامت هذه القوة بتركيب مدافعها فى الجزيرة وحساب أماكن التصويب بدقة مما أثر ذلك تأثيراً شديداً وأصاب أهدافاً قاتلة بين قوات الأمير أحمد وسقط العديد من القذائف فى وسط عدن فى المنطقة التجارية زاد من خوف وغضب الأهالى وجعل بعضهم يذهب إلى قمم التلال للإحتماء بعيداً عن المناطق التى تسقط فيها القذائف وأكثر الأهالى ذهبت إلى السلطان وإبنه الأمير أحمد تطلب الحماية وتطالب بالسلاح للدفاع عن مصالحهم التى صارت مهددة بسبب القصف البريطانى.

ولجأ السلطان مرة أخرى إلى محاولة فتح المفاوضات مع مستر هينز بغرض كسب الوقت وتخفيف حدة القصف على المناطق الآهلة بالسكان فى عدن وأرسل مبعوثية إلى البريطانيين لفتح صفحة جديدة من المفاوضات بما يعود على الطرفين بما يفيد إلا أن محاولات السلطان كانت تصطدم بتصلب هينز وتشدده فى ما طلبه بأن يتم التنازل عن عدن.

وإتجه السلطان محسن إلى جارة وغريمة السلطان حامد ابن عبد الله سلطان قبائل الفضلى المجاورة حتى يقوم بدور الوساطة بينه وبين مستر هينز وتم إجتماع فى منطقة الشيخ عثمان إلا أن هذا الاجتماع لم يكتب له النجاح بسبب حدوث مشاحنات طارئة بين قبائل الفضلى وقبائل لحج والإختلاف فيما بينهما على قيمة التعويض المطلوب للطرف المتضرر وخلال هذه الفترة كان البريطانيون يقومون ببعض أعمال القصف المتقطع لإرهاب الأهالى وبث الذعر والخوف فى قلوبهم وذلك يجعلهم بصفة مستمرة تحت ضغط التهديد والقصف.

وبادر إثنان من أشراف عدن وهما السيد العيدروس عبد الله والشيخ حامد بن عبد الله العذيبى إلى الاتصال بمستر هينز بغرض تهدئة الموقف والاتفاق على هدنه تمهيداً لإحلال السلام فى المنطقة وعمدوا إلى الإشارة لقيام السلطان محسن بتقديم الإعتذار مكتوباً لمستر هينز فى مقابل صرف النظر عما قام به السلطان وإبنه الأمير أحمد ضد القوات البريطانية.

إلا أن مستر هينز كان متغطرساً ولديه قوات كبيرة وكافية وشديدة التجهيز الحربى بما يكفل لها الغلبة عند إستخدام القوة. ومن ناحية أخرى كان عليه تنفيذ التعليمات الصادرة إليه من حكومته بضرورة النجاح وتحقيق الهدف من هذه الحملة وهو الإستيلاء على عدن وضمها لبريطانيا.

نتيجة هذه الغطرسة تشدد مستر هينز بصورة إستفزازية وكتب صيغة للإعتذار مهينة للسلطان ولأهالى عدن رفضها السلطان رفضاً

قاطعًا وأضاف على ذلك أن مستر هينز كاتب السلطان يهدده فيه ورجاله وينذره بأن القوات التى تحت أمرته كافية لإحتلال عدن فى أيام قليلة هذا بالإضافة أن السلطان سيكون فى هذه الحالة فى موقف لا يحسد عليه ولن ينال أى شىء من بريطانيا بل سيتعرض للإهانة البالغة.

وعندما زاد تأزم الموقف وضاقت السبل أمام السلطان محسن لجأ إلى جاره اللدود سلطان قبائل الفضلى ليتفاوض معه لكى يؤازره ويعضده فى مقاومته للغزاة والعمل على إتحاد القوى الوطنية وتجميعها فى مواجهة الغاصبين القادمين من الخارج وكرر سلطان العبادلة للسلطان الفضلى طلبه فى أن يكونا يدًا واحدة أمام عدو مشترك فهذا العدو اليوم يهاجم العبادلة والعدنيين وغدًا سيهاجم قبال الفضلى ويشتت باقى القبائل بعد أن يستقر به الحال عند إحتلاله لعدن.

ونتيجة للتشدد الواضح فى لهجة مستر هينز وإبتزازه الواضح مع السلطان محسن ونتيجة النية المؤكدة لعزم البريطانيون على إستخدام القوة سواء كانت هناك مفاوضات أو لم تحدث أى مفاوضات ولكن مظاهر تشديد حصارهم ومناوشاتهم المستمرة.

كان كسبًا للوقت حتى وصول الإمدادات الإضافية من حكومة بومباى وكان كل ذلك لا يخفى على السلطان ولا على عيونه فى أماكن كثيرة بالقرب من القوات الغازية.

وخلع السلطان رداء اللين والصبر.. وبات أمام خيار وحيد ضد ما

يضمره العدو القادم لإحتلال بلاده فأعلن بيانًا جهارًا بأنه يؤيد ويتبع كل خطوات إبنه الأمير أحمد وزعماء القبائل التابعة له.

وأعلن الجميع بكل إصرار وعزم بعدم التسليم مهما كانت الضغوط ومهما كلفهم ذلك من أرواح وإتخذوا قرارًا بالتركيز على إستعمال كافة الإستعداد وترتيب القبائل وتنظيم مواقعها الدفاعية لأنه فى نهاية المطاف فإن الغزو سيحدث اليوم أو غدًا ولا مفر من ذلك ولا دافع لهم عنه إلا الاعتماد على قدراتهم رغم ميل كفة الميزان شديدًا تجاه الغزاة وقدراتهم المتفوقة بشكل كبير غير متكافىء.

وما يدعو للتسجيل والإعتزاز أن قبائل الفضلى والتى كانت فى خصام مستمر مع العبادلة ومشاكسات وإختلافات على طول الوقت هذه القبائل إنضم بعضها برغبته التطوعية إلى قبائل العبدلى وتحت قيادة السلطان محسن والأمير أحمد إنضموا للمعاونة وقتال العدو المشترك.

وكما تطوع كثير من رجال قبائل الفضلى للدفاع مع السلطان محسن. جاء كثير من الرجال من القبائل القريبة من لحج وعرضت تطوعها للمشاركة فى الدفاع ضد الغزو المرتقب.

ولجأ السلطان محسن إلى أماكن الدفاع من أبراج وقلاع خاصة فى منطقة الصبرة الحاكمة وأخذ يدعم دفاعاته ويجمع الزاد للمعركة من سلاح ومؤن ويشرف ومع ساعده وابنه أحمد فى ترتيب الدفاعات وتركيب المدافع القليلة المتاحة لديه ولم يغفل السلطان إرسال مندوبيه إلى قبائل تاجورة الصومالية لمنع تزويد السفن الغازية بالمؤن خاصة

المياه. ووجد مستر هينز تزايد القوات المدافعة وموقف التأهب للحرب الذى ظهر عليه السلطان ورجال قبائله المجاورة كما أن الذهاب إلى ميناء زيلع ومصوع على الساحل الصومالى أصبح أكثر صعوبة فلم يجد التعاون الكافي من رجال القبائل الصومالية الذى وضح تعاطفهم مع السلطان محسن العبدلى.

وظهرت لمستر هينز مشكلة عدم وجود كميات كافية لمياه الشرب مع قواته على السفن وصعوبة تزويد السفن بالمياه وإن كل يوم يمر على هذا الحال يزداد الموقف صعوبة فالقوات المدافعة يزداد دعمها وقدراتها يومًا بعد يوم نتيجة تطوع رجال القبائل وإنخفاض حتى وتلاشى حدة المشاكل والخلاف التى كانت سمة دائمة ومستمرة بين القبائل.

كل هذه العوامل جعلت مستر هينز بمجرد وصول قوات الدعم له من حكومته أن يسارع بالهجوم للسيطرة على عدن. بعد أن فقد كل أمل وبارقة ضوء فى الوصول إلى هدفه عن طريق الترهيب والترغيب الذى مارسه لفترات طويلة.

وكان الهجوم العاصف للقوات البريطانية على عدن بعد أن سارع مستر هينز بتقديم الأنذار النهائى لسلطان عدن ولحج يتوعدهم بالإستيلاء على عدن وضمها للحكومة البريطانية بعد أن وصلت إليه تعزيزات مقاتلة لا قبل بالعدنين واللحجين بها وما ستلحقه من دمار شديد ومصرع المئات من الأهالى وإن الإستيلاء على عدن يتم بالسرعة الغير متوقعة قبل غروب الشمس لنفس اليوم الذى تسلم فيه

السلطان وتضمن إنذار هينز تهديداً مبطناً بالوعود إنه فى حالة ما إذا وافق السلطان على التنازل عن عدن وأرسل إليه ثلاثة من زعماء العبادلة كرهائن وتدليلاً على حسن النية على تحويل عدن إلى الملكية البريطانية فسوف يسمح للسلطان ولزعماء القبائل التابعة له بالإنسحاب بأسلحتهم وأمتعتهم الشخصية من المدينة مع وعده بمعاملة أهالى عدن بكل إحترام. وكان هذا الإنذار فى اليوم السادس عشر من يناير عام ١٨٣٩.

ورأى السلطان محسن أنه فى حاجة إلى بعض الوقت الإضافى لإستكمال استعداداته الدفاعية وتجهيز رجاله ورجال القبائل المتطوعين لمعاونته ومتطلعاً إلى مساندة من جيرانه الأبعد نسبياً من قبائل اليافعى ولذا طلب من هينز مهلة بعد وصول الإنذار إليه.

ذلك الإنذار الذى لم يفت فى عضد السلطان ولا عضد رجاله بل كان بمثابة قوة إضافية دافعة لهم لزيادة الأصرار على الدفاع عن بلادهم وزاد لهيب الغضب فى قلوبهم ضد الغزاة والمهاجمين.

إلا أن هينز لم يوافق على إعطاء المهلة المطلوبة إلى السلطان والتى لم تكن تتجاوز ستة أيام بما يسمح للسلطان من مشاورة القبائل فى عدن المحيطة بالمدينة فى شأن هذا الإنذار وإكتشف هينز أن المماطلة وطلب السلطان مهلة زمنية كان وراءها هدف إستكمال دفاعاته وتجهيز الحصون وتجميع باقى رجاله للدفاع.

وكما فى كل وقت من التاريخ يظهر فى غفلة من الزمن أصابع الخيانة وكما يوجد الوطنيون المؤمنون بعدالة قضيتهم يوجد بعض

الخونة الذين يتعاونون مع أعداء بلادهم وكان على رأس هؤلاء الخونة عميل القوات البريطانية وفى نفس الوقت ممثل السلطان محسن فى المفاوضات وإسمه رشيد.

لقد كان رشيد هذا خائنًا وعميلاً وكان ثقة السلطان فيه فى غير محلها إذ جعله من ضمن المفاوضين مع هينز وعن هذا الطريق نقل إلى هينز الاستعدادات التى كانت قائمة على قدم وساق وكشف مواقع المدافع الكبيرة ونقط تمركزها كما أماط اللثام عن سرية تجمع القوات المدافعة وعن عددهم التقريبى وكذلك كشف رشيد الجهد الجبار الذى كان يقوم به السلطان محسن لكى ينضم له رجال آخرون من القبائل المجاورة ومحاولة عقد مصالحة مع بعض قبائل الفضلى تحت مقولة عفا الله عما سلف ولنكن عصبة أمام العدو المشترك.

نقول أن رشيد من موقعه نقل إلى هينز الموقف والتحركات العربية أولاً بأول وكان لوجود هذا الخائن أبلغ الأثر على تطور الأمور والأحداث في هذا الوقت الدقيق وفى هذه الحقبة التاريخية الحاكمة فى تاريخ البلاد ومدى هذا التأثير على تاريخ المنطقة العربية كلها.

رفض مستر هينز إعطاء مهلة للسلطان محسن وحسم قراره بضرورة الإسراع فى قصف الساحل فى عدن والبدء فى العد التنازلى للهجوم الشامل للسيطرة عليها وأعطى التعليمات لقادة السفن الحربية لرفع الإستعداد للدرجة القصوى ووضع خطة الهجوم موضع التنفيذ وبدأ القصف لعدن صباح يوم التاسع عشر من يناير ١٨٣٦.

عدن جزء من أملاك الإمبراطورية البريطانية

تقع عدن على ساحل خليج الذى يطل على المحيط الهندى وتقع غربيها جزيرة بريم عند باب المندب وشرقها بلاد الفضلى. كما يحيط بعدن من الشمال والغرب قبائل العبادلة اما على الساحل الشرقى وشمال عدن فتقع لحج وتتكون عدن من شبه جزيرة رأس عدن التى تمتد غربا على هيئة هلال يحيط بها ما يسمى بالخليج العربى. ورأس عدن منطقة تلال ومرتفعات تبدأ من الساحل وتستمر إلى الداخل تحصر فيما بينها بعض الوديان الصغيرة خاصة فى غرب المنطقة وفيها تقع منطقة بوابة اليمن والمعلا والتواهى وطارشين وهى مناطق فى هذا الوقت قليلة السكان لندرة كلأ المراعى ولبعد المياه اللازمة للشرب أما شرق رأس عدن وكانت تتميز بأن التلال القريبة من الساحل أقل ارتفاعا وعددها قليل ويتدرج ارتفاع هذه المنطقة شرقا إلى ساحل رملى مخفض مغطى بالاعشاب فى اجزاء منه ويقع شمال هذا الساحل الشيخ عثمان وفيها يعيش اكثر اهالى عدن حيث يقع

بجوارها بئر أحمد الذى يمدهم بما يلزم للشرب وكذلك تكثر جنوب هذا البئر الحشائش الطويلة التى تتناثر على الكثبان الرملية الممتدة حتى الساحل الجنوبى للخليج العربى.

والمرسى الرئيس فى عدن هو الميناء الشرقية قرب الساحل الممتد المنبسط شرق رأس عدن كما يوجد فى هذه المنطقة خور مكسر وهى منطقة وادى يتوسط تلال على جانبه ويعتبر عنق الزجاجة من الشرق لرأس عدن كما توجد منطقة كريتر جنوب خور مكسر وهى منطقة مرتفعة قلعة صغيرة حاكمة لما حولها وتقع أمام كريتر جزيرة صيرة وهى جزيرة صغيرة يقع بها مرتفع حاكم يسيطر على الميناء الشرقى لعدن كما يوجد فى جزيرة سوقطرة قلعة قوية ويضع حصون مجاورة لها تقع فوق المرتفع فى وسط الجزيرة ويحكم موقع جزيرة سوقطرة فإنها تشرف على الميناء الشرقى وتتحكم فى الدخول والخروج من الميناء.

وعلى امتداد الساحل الشرقى الرملى المنخفض وعلى مسافة لا تتجاوز مائة كيلو متر تقع مدينة لحج وبها قصور السلطان محسن وكبار رجال السلطنة ويقيم قبائل العبادلة فى الشمال من عدن والشمال الغربى وكان السلطان محسن هو سلطان العبادلة ولحج وعدن وصاحب الكلمة النافذة على زعماء القبائل واشرافهم كما يتميز بقدر كبير من الحكمة وحزم شهد له الجميع بذلك وكان محل ثقة الاهالى.

ولم تكن هناك حدود مرسومة للقبائل المختلفة مثل الفضلى والعبادلة والعوالق واليافعى والحواشب وغيرهم فهى مناطق تقريبية حيث المهنة الرئيسية لهذه القبائل كانت الرعى والترحال من مكان إلى أخر سعيا وراء المياه والمرعى ولكن لكل قبيلة من ينتسب إليها ويدافع عنها وان كان الجميع من عرق واحد الا أنهم كانوا ينحدرون من اصلاب مختلفة.

كانت منطقة الساحل شرق رأس عدن منطقة منبسطة مكشوفة لا تحكمها مرتفعات ولا تعوقها كثبان رملية عالية كما ان السيطرة على هذه المنطقة يجعل من السهل فيما بعد تهديد لحج وقبائل الفضلى والحواشب.

وكانت خطة هجوم البريطانيون التركيز على الميناء الشرقية فى عدن وجزيرة صيرة المتحكمة فى هذا الميناء وحيث توجد أقوى القلاع الدفاعية واكبر عيار مدفعية وكذلك يقع فى الشرق خليج صغير يسمى خليج حقات شمال شرق الخليج العربى.

وتمركزت السفينتان ذات التسليح القوى وهما فولاج ذات الثمانية والعشرين مدفعا وكروزر ذات الستة عشر مدفعا بمجموع اربعة واربعون مدفعا ذات عيار كبير ومدى كبير بالنسبة لهذا الوقت وخلفهم جنود مدربون على تصوبب المدفعية وكان خلف قوات المدفعية الجنود المشاة ثلاثمائة جندى بريطانى واربعمائة جندى هندى يقودهم ميجور بيلى بالاضافة الى ان السفينتين مزودتين بقوارب انزال للاستيلاء على الارض والتمسك بها وذلك حسب النظم العسكرية

المعمول بها اذ من الضرورى توفير الجنود المشاه اللازمين للاستيلاء واحتلال الارض امام السفن وبواسطة تسليحها القوى فانها تمهد بمدفعيتها قبل النزول على الشاطى وتدمر الحصون والقلاع وتشتعل الحرائق فى مهمات وذخائر القوات المدافعة ونظرا لدقة المعلومات التى توافرت لمستر هينز عن طبيعة المنطقة وكذلك ما صدر من تعليمات سابقة لحكومة بومباى بأن يكون ميجور بيلى قائد قوات المشاة وكذلك الكابتن سميث قائد القوات البحرية الغازية بان يكونا رهن التعليمات التى يصدرها مستر هينز وكان نجاح العملية العسكرية مرهون برأيه ومشورته وعلى هذا الاساس اعطى مستر هينز تعليمات للسفينة الحربية كوت بان تلقى مراسيها على ساحل حقات حيث لا توجد قوات دفاعية كما اعطى التعليمات للسفينة ما هى بالاقتراب من جزيرة صيرة حيث أقوى الحصون الدفاعية.

ونتيجة للمعلومات التى وفرها لمستر هينز بعض عيونه فى عدن فان القوات المدافعة كانت مرتكزة فى المواجهة فى جزيرة صيرة حيث يوجد بضع مدافع ذات عيار كبير فى اماكن متفرقة من القلعة الحاكمة فى جزيرة صيرة وبالاضافة الى العاملين على هذه المدافع كان يوجد بضع عشرات من العرب المدافعين مستخدمين بنادقهم ورابضين فوق المرتفعات وحول جبل صيرة.

اما القوات الرئيسية المدافعة فكانت تحت قيادة السلطان محسن الفضلى وابنه الامير احمد وصهره وتمركزت فى مناطق الاعشاب ما بين الساحل والشيخ عثمان وكانت القوة الرئيسية هى الاقرب الى

منطقة الشيخ عثمان اما المقدمة فكانت الى الشرق من عنق الزجاجة في خور مكسر وكان عدد المقاتلين مع السلطان لا يزيدون على سبعمائة مقاتل مجهزين بالبنادق.

واحتفظ مستر هينز بقوات احتياطية بعد ان وصلة الدعم من حكومته ووقفت سفينتين وعليهما القوات الاحتياطية خلف السفن المهاجمة للتدخل السريع عندما يلزم الامر.

الا انه عندما صار من المؤكد انه لا بديل عن حرب مع القوات الغازية ارسل السلطان محسن يطلب المتطوعين من قبائل الفضلي بسرعة الانضمام الى قواته المتمركزة بالقرب من الشيخ عثمان وكان قد سبق ان اعلن اكثر من الف ومائتين من قبائل الفضلي مؤازرتهم لموقف السلطان محسن في الدفاع عن البلاد رغم ماكان بين قبائل الفضلي والعبادلة من خلافات ونزاعات مستمرة ولكن وقت الشدة يظهر المعدن العربي الحقيقي فهو معدن اصيل يبرق ويلمع وقت الشدائد واخذ المتطوعون من رجال الفضلي يعدون انفسهم للتقدم والانضمام الى السلطان محسن.

وفي ذلك الوقت وصل الى علم مستر هينز قيام المتطوعون من الفضلي وحتى بعض القبائل المجاورة في تجهيز عدتهم وسلاحهم للاشتراك في محاربة الغزاه.

ووجد مستر هينز ان انسب وقت للهجوم هو أن يكون ذلك قبل اتمام تجهيزات باقي المتطوعين واستغلال فرصة النفر القليل نسبيا اللذين كانوا مع السلطان.

وامر مستر هينز قواته ببدء الهجوم وذلك فى حوالى الساعة التاسعة صباح يوم ١٩ يناير ١٨٣٩ .

وتقدمت السفينة فولاج اقوى السفن المهاجمة واكثرها تسليحا ناحية اقوى الحصون فى المراكز الدفاعية على الساحل. وتقدمت بعد مدة قصيرة السفينة كوت الى الموقع المحدد لها فى خليج حقات ووجهت السفينة كوت مدافعها الى مراكز تجمع القوات المدافعة اما السفينة كروزر فقد قصفت مدافعها القوية قلعة صيرة واماكن المدافع المتمركزة فى الجزيرة.

وفى التوقيت المحدد انطلقت المدفعية البريطانية فى وقت واحد على جزيرة صيرة وعلى القلاع الساحلية جنوب الشيخ عثمان وعلى تجمعات القوات المدافعة والمتمركزة قليلا الى الداخل .

ونتيجة لضرب المدفعية المكثف وانطلاق جميع القذائف من مصادرها فى وقت واحد بالاضافة الى تركيز المدفعية على الاهداف المحددة لها من قبل وقيام رجال المدفعية المهاجمة والمدربين جيدا على دقة التهديف بتنفيذ مهامهم فقد اصابت القذائف معظم اهدافها فدمرت القلعة والحصون الرئيسة على الساحل وكذلك تم تدمير القلعة الرئيسية فى جزيرة صيرة واشتعلت النيران والحرائق فى أماكن متعددة من الحصون السابق تجهيزها على الساحل وفى جزيرة صيرة.

ونظراً لأن المدفعية المهاجمة كانت محملة على السفن المتحركة فاكسبها ذلك الكثير من كفاءة المناورة وتركيز اقواس النيران واصابة التجمعات المدافعة قرب الساحل.

وكانت المدفعية مع العدنين ثابتة وغير متحركة مما قلل كثيرا من كفاءة المناورة وتركيز اقواس النيران واصابة التجمعات المدافعة قرب الساحل.

وكانت المدفعية مع العدنيين ثابتة وغير متحركة مما قلل كثيرا من كفاءة المناورات الدفاعية بالاضافة الى قلة خبرة العاملين على هذه المدافع حتى ان القذائف التى كانت تنطلق من حصون جزيرة صيرة كانت تخطىء الاهداف فى معظم الاحيان ونتيجة للمناورة بتحركات السفن المهاجمة واقترابها كثيرا من الساحل حتى انه يذكر ان السفينة ما هى تقدمت الى ساحل جزيرة صيرة بما لا يتجاوز الخمسين مترا مما جعل كثير من قذائف القوات المدافعة تنطلق وتعبر فوق السفن المهاجمة وتستقر فى النهاية فى المياة خلف مواقع السفن دون اصابتها وتسقط اخيرا فى البحر واخذت غلالات المدفعية المهاجمة تمشط المنطقة امامها يساعدها فى ذلك قدرة المدفعية على الحركة وكان تركيز القوات المهاجمة على منطقتين دفاعتين الاولى منطقة الحصون الساحلية الى الشرق من جزيرة صيرة والقلاع الموجودة فى جزيرة صيرة تلك الجزيرة المهيمنة على الميناء الشرقى الرئيسى فى عدن.

وتحت حماية غلالات المدفعية المهاجمة والنجاح في اشعال الحرائق في الحصون الساحلية وفي جزيرة صيرة نزل جنود المشاة المهاجمة في قواربهم وتقدموا لاحتلال الشاطيء.

عندما دمرت القلعة الرئيسية فى جزيرة صيرة واشتعلت النيران فى الحصون الاخرى واصابت مدفعية للبريطانيين مباشرة القوات

المدافعة وسكتت نيران المدفعية المدافعة اما لتدميرها أو وجودها فى اماكن اشتعال النيران او اصابة طاقم التشغيل الخاص بها فكان صمت مدفعية جزيرة صيرة ايذانا ببدء هجوم المشاة للقوات الغازية.

الا أن القوات المدافعة ورغم حرج موقفها وسكوت مدافعها لم تيأس من الدفاع خاصة ان وازعها الاول هو الدفاع عن حرمة المقدسات وهى اراضيهم وبلادهم فتجمع المدافعون فى جزيرة صيرة حول جبل صيرة ورغم قلة حيلتهم واستمرار اصابات المدفعية المعادية لمواقعهم كانوا يطلقون بنادقهم الضعيفة على السفن المهاجمة ولم تؤثر هذه الطلقات فى السفن نظرا لبعدها عن مدى هذه السفن وكذلك لوجود دروع السفن الواقعية تمنع من قدرة اختراق الطلقات الا أن المدافعين نجحوا فى اصابة بعض القوارب المهاجمة والتى رست على ا لساحل وبدأت الجنود المهاجمة تتقدم تحت حماية الكثبان الرملية القريبة من الساحل وكذلك الحشائش المنتشرة وقد زادت مهمة القوات المدافعة صعوبة وحرجا بعد نجاح القوات الغازية باحتلال الشاطىء واستمرار المدفعية فى فرض غلالاتها المدمرة فى انحاء ومختلف اتجاه الاماكن فى الجزيرة.

ولم يواجه احتلال البريطانيون لشاطىء جزيرة صيرة الا مقاومة ضعيفة وغير مركزة نتيجة انفلات زمام القيادة من القوات المدافعة واحتمائهم خلف جبل صيرة ولم يمض ساعتين ونصف الساعة على بدأ الغزو الا وتمكنت القوات المهاجمة من السيطرة على قلعة صيرة واسرت من تبقى فيها للدفاع.

وتقدمت القوات المهاجمة إلى الجيوب الدفاعية المتبقية وبسقوط قلعة صيرة وما حولها فى يد البريطانيين صارت السيطرة على جزيرة صيرة امرا محتوما.

اما من الناحية الاخرى فإن القوات الرئيسية المدافعة خلف الحصون الساحلية خاصة فوق جبل كريتر ومرتفعات خور مكسر فقد تعرضت لنيران مدفعية مكثفة ومتحركة ومركزة وكانت السفن المهاجمة ترسم اقواسا محددة للنيران فى الغلالات المدمرة من جهات مختلفة نظرا لاختلاف اماكن السفن المهاجمة وتغير اماكنها بما يسمح لها من تحقيق الاصابات المباشرة وكان نتيجة هذا القصف المركز وقوع خسائر جسيمة بين القوات المدافعة وتدمير شبه كامل للحصون الساحلية واشتعال النيران فى اماكن عديدة قرب الحصون ومما ضاعف من حرج موقف السلطان ورجاله هو تاخر وصول القوات المتطوعة من رجال الفضلى وصعوبة تعويض الذخائر والمؤن التى تلف معظمها واشتعلت فيها النيران نتيجة القصف المستمر حتى ان قصر السلطان فى عدن لم يسلم من بعض القذائف والحقت به بعض الاضرار.

وبلغ السلطان سقوط جزيرة صيرة ورفع العلم البريطانى على قلعتها وبذلك صار جزءا كبيرا كان يحمى اجناب القوات المدافعة صار فى يد العدو وانكشفت قوات السلطان بل وصارت فى مرمى نيران العدو القوية الدقيقة.

فى ذلك الوقت الحرج وبحماس بالغ قام احد اشراف عدن ومعه عدد من رجاله المقاتلين الاشداء فى التقدم نحو احد القلاع القوية

على الساحل لمحاولة الاستيلاء عليها من يد المهاجمين حيث ان هذه القلعة كانت تتحكم فى منطقة خلفية مكشوفة ومنبسطة تسهل الدفاع لمسافات بعيدة وتعرقل تقدم القوات الغازية لبعض الوقت على امل كسب الوقت حتى وصول القوات المتطوعة من قبائل الفضلي وبموافقة السلطان تقدمت هذه القوة فى اتجاه القلعة الا أنها وقعت فى كمين نصبه البريطانيون خاف القلعة فقتل منهم عدد كبير واثر ذلك فى باقى المقاتلين المهاجمين وكان الأمل فى نجاح هذه القوة هو الأمل المتبقى لقوات السلطان المتبقية حوله لكى يؤمن احد الاتجاهات الهجومية المؤثرة على عدن وعلى قواته ولأن القوات المهاجمة كانت عالية التدريب فكانت قذائف المدفعية يتم رفع غلالتها كلما تقدم الجنود المهاجمين حتى لا تصيب احد منهم وكان استمرار الانفجارات والحرائق نتيجة القصف تأثير سيء وشديد على باقى رجال السلطان. وخاصة بعد ان زادت خسائرها وتأخر وصول الامدادات اليهم فجمع السلطان محسن سلطان لحج وعدن ما تبقى حوله من رجال واشراف القبائل وقرر الانسحاب من مواقعه الدفاعية متجها الى لحج الا أن الفترة الزمنية التى لازالت امامه محدودة ولا تمكنه من الابتعاد عن مكان المعركة الا مسافة قصيرة لا توفر له وقتا للحماية وتطوع عدد من الرجال للاستمرار فى المواقع الدفاعية للعمل حتى آخر طلقة معهم لتعطيل تقدم القوات الغازية اطول فترة ممكنة مما يمكن السلطان ورجاله من الابتعاد عن اماكن الخطر بمسافة مناسبة حتى ان بعض المدافعين العدنين قد جمعوا بعض المخلفات الخشبية والورقية وصبوا عليها الزيوت لاشعالها عند الوقت الحرج

الذى يتهددهم ولكن الفكر الذى سيطر عليهم هدف كبير هو تعطيل تقدم الغزاه بأى وسيلة وحتى لو كان ذلك على اجسادهم لاعطاء فسحة من الوقت للسلطان ورجاله بالابتعاد والتمكن من الذهاب الى لحج.

ولكن مهما كان الغضب ومهما كانت الحمية والحماس ومهما كان التصميم والشجاعة امام قوات متفوقة عددا وعدة وفنا قتاليا فإن المقاومة لها وقت محدود وزمن قصير ولكن الرجال قاموا بمهمتهم كاملة وتمكن السلطان فيما بعد من الوصل مع من بقى من رجاله الى لحج.

وبعد الظهر بقليل كان العلم البريطانى يرتفع فوق قصر السلطان فى عدن.

بعد ما ارتفع العلم على قلعة صيرة من قبل ذلك بساعة او اكثر.

ويذكر ان من ضمن المدافعين الاقوياء الذين صمدوا ليؤمنوا للسلطان فسحة من الوقت الشيخ رجب العذيبى احد زعماء القبائل وكذلك على سلام قريب السلطان قتل الاثنان فى اخر المعركة بعد ان وقفوا بشدة وقدموا ارواحهم مع من معهم من الرجال فى سبيل وطنهم.

وقد شهد هينز ببساطة وحماس وقوة المقاومة العربية فى عدن فقد ورد فى تقرير هينز (لو كانت خطة دفاعهم احسن تنظيما مما كانت عليه لاصلونا نارا حامية خاصة وان المدافع التى كانت بحيازتهم كبيرة وتستطيع فيما لو كانت متحكمة ان تلحق بالسفن الغازية

خسائر فادحة وهى تقترب من جزيرة صيرة) وكما اشرنا قبل ذلك بأن جزيرة صيرة هى من المفاتيح الحاكمة والمؤثرة لمن يريد الاستيلاء على عدن وظل هؤلاء الرجال صامدين ومسيطرين على الجزيرة حتى بعد ان اسقطت مدفعية البريطانيين معظم قلاعهم ورغم ذلك استمر التراشق الغير متكافىء بالنيران مما جعل احدى السفن المهاجمة للجزيرة وهى السفينة ما هى الى الاقتراب الى سواحل الجزيرة بمسافة لا تبعد عن خمسين مترا مما عرض بعض القوات المحمولة على هذه السفينة للنيران المباشرة للاسلحة الصغيرة من المدافعين العرب الا ان المعاونة والتنسيق بين النيران الصادرة من السفن المهاجمة والغلالات الكثيفة التى كانت تنطلق من السفن فولاج وكروزر وكوت على القوات المدافعة كانت فاصلة وارغم المدافعين العرب الى التقهقر والاحتماء خلف جبل صيرة وظلوا يقاتلون ببنادقهم ضد قوات الإنزال البريطانية المحمولة فى القوارب المجهزة على الساحل تلك القوات الأكثر عددا وتنظيما والتى تحميها قذائف المدفعية المؤثرة من السفن من اتجاهات مختلفةتجعل من العسير الاحتماء من هذه القذائف وحتى بعد الاستيلاء على قلعة صيرة القوية ورفع العلم البريطانى عليها استمر دوى التراشق بالنيران بين المدافعين العرب والمهاجمين حتى اصبح لا مفر امام باقى المدافعين من اللجوء الى بعض السنابك المستخدمة للصيد والعبور الى رأس عدن.

وتوقفت قذائف المدفعية من السفن المهاجمة بعد رفع العلم البريطانى على قصر السلطان فى عدن وبات الدور على المشاة والقوات التى عبرت الى الشاطىء فى استكمال تطهير عناصر

المقاومة وارهاب باقى الاهالى حتى انه فى نهاية يوم القتال وهو يوم ١٩ يناير ١٨٣٨ وجدت القوات البريطانية كثيرا من المواطنين البسطاء يحتمون فى مسجد العيدروس بعدن وكذلك فى باقى المساجد كان المواطنون فى عدن من البساطة والقناعة ان الاحتماء الى بيت الله خير عاصم ومنقذ لهم من النيران البريطانية.

وعندما توقفت النيران كانت حصيلة الخسائر فى المقاتلين العدنيين ما يقارب مائة واربعون من الرجال وثلاثون من الجرحى الذين كانت اصاباتهم خطيرة وقد ورد تقارير مستر هينز ان خسائر البريطانيين لم تتجاوز ستة عشر قتيلا وجريحا من القوات الغازية.

وانتشرت القوات البريطانية فى ارجاء مختلفة فى عدن واستولت على ما تبقى من القلاع عند عدن وفى جبل كريتر وخور مكسر وتم الاستيلاء على عدن بالقوة بعد ان فشلت وسائل المفاوضات مع السلطان ورفض الشرفاء فى عدن ان يتم الاستسلام تحت اى شرط او تهديدات برغم التأكد من فارق القوى وعدم التكافؤ بين القوات المهاجمة والمدافعين.

ورغم هزيمة العدنيين فى هذه المعركة الا ان ارادتهم لم تهزم واستمرت الارادة فى قلوبهم حتى لو لم يظهروا هذه الارادة لفترة من ا لزمن الا انها ظلت موجودة فى النفوس تطفو احيانا وتظهر فى صور كتعبير عن الرفض وعن الغضب على استمرار الاستعمار لوطنهم وهذه الارادة من المنصف انه ظل يتوراثها الانباء عن الاباء وعن الاجداد حتى تبلورت الارادة وخرجت قوتها من قمقمها ونجحت

فى ان تحـارب المحتل مـرات عـديدة وفى مـواقف ومواقـع شـتى حـتى كتب الله لهذه الارادة النصـر وتحرير الارض وهذه الارادة مـا سنقوم بابرازه عبر حقبة الاحتلال الطويلة وحتى خروج اخر جندى من عدن تلك الارادة التى لـم تمت فى يـوم من الأيام وان كـانت مـسـتكينة فى القلوب مترقبة يوم الخلاص.وقد عبرت هذه الكلمات لاحد الشعراء فى عدن عن عقيدة هذه الإرادة الحره

ولدت حــــرا يوم مـــولدى ** وملكت ارادتى حـتى الردى

ولن استكين لعدو مهما بغى ** فارادتى حية على طول المدى

الغضب يعم عدن

كانت تعليمات حكومة الهند البريطانية لستر هينز ان يترك المناطق الداخلية المحيطة بعدن على شأنها وان لا يصطدم بأهالى هذه المناطق وان يجعل همه الرئيسى فى عدن تلك المدينة التى وصفها هينز بعد احتلالها مباشرة بأنها عبارة عن قرية صغيرة فقيرة يسكنها مجموعة من الأهالى التجار والصيادون وكما اسلفنا فيهم عدد من اليهود الذين كان لهم دور متعاون مع قوات الغزو وذكر هينز ان عدد المبانى البسيطة لا يتجاوز الستمائة.

وعدن تحيط بها جبال محصنة بقلاع وابراج قديمة خاصة فى كريتر وخور مكسر وقد دخلها البريطانيون فكانت هذه القلاع فى حالة ضعيفة وبعضها متهدم والاخر اصبح غير صالح نتيجة القصف المدفعى اثناء الغزو وكان اهم القلاع الموجودة قلعة (درب الحوش) وحصن (درب الحربى) والذى يقع فوق بوابة اليمن.

وكذلك بعض القلاع والحصون المتهدمة على طول السور العثماني القديم والمسمى (الخندق) والمواجه لساحل ابين.

وكانت نظرة الحكومة البريطانية عند غزو عدن لا يهمها التوغل في المناطق حول عدن مادامت عدن الهدف والمقصد لا تقع تحت التهديد المباشر لاى قوات معادية ولا أى قلاقل فالامام الزيدى في صنعاء ضعيف وعلى خلاف مع كثير من القبائل ويقع باستمرار مناوشات بينه وبين حاكم منطقة تهامة بعد ان تركتها القوات المصرية في فترة لاحقه من الغزو (عام ١٨٤٠).

وكان الهدف من الغزو في بادئ الامر هو السيطرة على عدن وتوفير مكان مناسب لايواء السفن البريطانية في الخط البحرى بومباى السويس وتزويدها بالوقود والمؤن ومن ناحية اخرى الحد من امتداد نفوذ مصر التى كانت في تهامة اثناء غزو عدن وخوفا من قيام المصريون باحتلال عدن ومنع البريطانيين من السيطرة عليها وكذلك منع المصريين من السيطرة على البحر الاحمر حيث انه كان بمثابة بحيرة مصرية في ذلك الوقت وحيث ان بريطانيا كانت الدولة الاعظم والاكثر نفوذا فكان مقصدها الثابت من احتلال عدن هو الحد من اطماع الدول الاخرى المنافسه لها مثل فرنسا وروسيا وكذلك الدولة العثمانية قبل اضمحلالها.

بدأ مستر هينز بعد الاستيلاء على عدن وهو مقيم سياسى بريطانى العمل بأسلوب مرن وطموح بالتقرب الى الاهالى واتخذ من كريتر مكانا يستخدمه بعض اطباء البحرية في معالجة المواطنين

وتقديم ما يمكن من الخدمة الطبية واخذ مستر هينز يسجل اسماء الاهالى فى عدن بعد الاحتلال مباشرة الا ان هذا التعداد لم يكن يطابق الحقيقة فكثير من الاهالى هربوا الى الداخل حيث القبائل شمال وشرق عدن وكثير اخرون لم يذكروا الحقيقة وذلك باخفاء الذكور خوفا من ان تقوم وحدات الاحتلال باستخدامهم فى الجيش

الا أن السياسة البريطانية فى عدن وذكاء مستر هينز فى التقرب الى الاهالى بتقديم الخدمات الطبية للجرحى وصرف بعض التعويضات لهم عن الخسائر التى لحقت بممتلكاتهم واعمالهم فى فترة اقتحام القوات البريطانية للمدينة ومثال ذلك ما اولاه هينز من عناية طبية للشيخ رجب العذيبى بعد اصابته اصابة بالغة فى القتال والدفاع عن بلده حتى ان هينز كان يجامل ابن الشيخ العذيبى ويصف اباه بأنه بطل وشجاع ووطنى له التقدير والاحترام لدى القيادة البريطانية والشيخ رجب العذيبى فى ذلك الوقت من اشراف العبادلة والذى عاضد السلطان محسن وناصره فى موقفه الشجاع واستمرارا لسياسة هينز البعيدة اللبقة قرر صرف منحه سنوية لعائلة الشيخ رجب بعد استشهاده وكان لهذه المواقف تاثير كبير على رجال العذيبى البسطاء ذوى النقاء الفطرى فتجاوبوا مع القوات البريطانية وقدموا لهم الجمال للمساعدة فى حمل عتاد ومهمات البريطانيين من السفن المحاصرة لعدن. بل ذهب بعض هؤلاء الاهالى الى التودد للبريطانيين والتعاون معهم حتى ان عشيرة العذيبى فى اول سنة للاحتلال البريطانى لعدن ارتبطت بمعاهدة صداقة وتعاون مع البريطانيين وكان ذلك مؤشرا لنجاح سياسة هينز ولما استشعر هينز

تجاوب بعض الاهالى وحقق بذلك نجاحا بارزا اتصل بالقبائل المجاورة لعدن وأخذ يدعو المواطنين الذين تركوا عدن عند بدء الاحتلال بالعودة وممارسة اعمالهم وزيادة نشاطهم بل والتعاون مع البريطانيين الذين على حد قول هينز فى رسائله انه يمد يد الصداقة والتعاون اليهم ونظرا لبساطة وطيبة معظم الاهالى فى ذلك الوقت وما عرفوه من ان لدى البريطانيين قوات كبيرة لا قبل لهم بها وسفن شديدة البأس بمدافعها ونظامها وان هذه السفن الجبارة تحيط بعدن وفى قدرتها استخدام القوة عند اى معارضة أو مقاومة فاكبروا فى البريطانيين موقفهم المتواضع على حد الفهم العام لهم وان البريطانيون يمدون لهم يد الصداقة وهم فى موقف القوة وان مثل هذه الاعمال لم يسمعوا مثلها فى المعارك والمناوشات فيما بين القبائل بعضها مع بعض نتيجة التباين فى الرغبات.

ومن ناحية اخرى استغل هينز بعض التجاوب الذى لمسه وارسل الرسائل الى القبائل المحيطة مخاطبا شيوخ وزعماء هذه القبائل مثل قبائل السلمى وقبائل العقربى والحوشبى بعد أن أطمأن لمعظم قبيلة العذيبى وكان رد فعل هذه القبائل التى تقع فى شمال والشمال الشرقى من عدن ايجابيا ووافقوا على اقرار السلام والتعاون وتبادل المنافع بينهم وبين القوات البريطانية فى عدن.

ولم يغفل مستر هينز ان يرسل الى السلطان محسن عدوه السابق يدعوه لاقرار السلام والتعاون وفهم السلطان ان هذه الرسائل المرسلة اليه من موقع القوة بعد هزيمته لا يمكن تجاهلها ولا من الحكمة أن

يظهر غضبه وحنقه بعد الهزيمة التى منى بها ولكنه استجاب لرسائل مستر هينز كنوع من انواع المهادنة وكسب الوقت يعيد فيها ترتيب أوراقه وتقييم موقفه مع رجاله ورجال بعض القبائل المجاورة ولذلك اجاب السلطان محسن على خطاب مستر هينز مبديا استعداده للتعاون واقرار السلام ولدرجة انه ابدى اسفه لما حدث وأشار فى احدى رسائله بأن ما حدث هو قضاء الله ومشيئته.

وابدى مستر هينز للسلطان محسن تأكيد حكومته انه سوف يعامل بكل كرم وسيتم تقديم الاحترام اللائق كما ان رجاله والقبائل المحيطة المتعاونة معه يمكنها القيام بتصدير واستيراد بضائعهم ومنتجاتهم الى ومن عدن. وأشار هينز فى كتاباته للسلطان بأنه ليس في نية حكومته أن تمد نفوذها وسيطرتها على اى بوصة اضافية عن الخط الفاصل بينهما والذى سبق الاتفاق عليه.

وكان هدف هينز من كل ذلك اقرار الامن والهدوء في عدن والتفرغ بتجهيز المخازن والمنشآت لكى تكون عدن ميناء هاما لتموين السفن البريطانيه بما تحتاجه من الفحم والتزود بالمواد التموينية الاخرى وركز هينز همه فى تشجيع الحركة التجارية فى عدن حتى تصبح المنفذ الوحيد التجارى لليمن بكامله هذا بالاضافة الى تشجيع الاهالى من القبائل المجاورة لممارسة نشاطهم فى عدن حتى تضاعف سكان عدن مرات فى سنوات قليلة بعد الاحتلال البريطانى.

وتحولت التجارة عن الموانى الاخرى مثل المخا وزيلع ومصوع فاصابها الاضمحلال نتيجة ازدهار عدن وتركيز النشاط التجارى

والبحرى بها. حتى دفع ذلك هينز فى احدى تقاريره لحكومته بقوله.

(اننى سعيد اخطركم بأن جماهير عدن والعامة من سكانها قد شرعوا فى بناء حوانيت جديدة دائمة ومنازل مستقرة ثابتة مما يؤكد اتجاه اهالى عدن الى الاستقرار فى مدينتهم وانصرافهم الى ممارسة نشاطهم التجارى مما سيؤدى الى ازدهار المدينة وانتعاشها).

ويتضح من ذلك ان مستر هينز كان متفائلا باستمرار الهدوء والاستقرار فى عدن حتى انه بناء على تقارير مستر هينز وافقت حكومة بومباى على وضع خطة شاملة لإعادة بناء مدينة عدن على النمط الحديث والمتطور وبدأت تسمح بتمليك الأراضى فى المدينة لكل من يقبل لدفع ايجار الأرض الى المقيم البريطانى فى عدن لصالح الحكومة البريطانية بل انها راعت فى ان تكون الأسعار مناسبة وفى متناول يد الكثيرين لزيادة النشاط والاستقرار فى عدن حتى أن التعليمات وصلت الى هينز من حكومته الى التساهل فى تقديم الأراضى دون مقابل لكل من يرغب فى اقامة المساجد الجديدة من المسلمين حفاظا على المشاعر الدينية وأحتراما لحرية العبادة لسكان المدينة من المسلمين.

ولجأ هينز الى تجميع خيوط الادارة لعدن فى يديه متسما بالحزم والقدرة والمبادرة واللباقة فى تعامله مع الجميع وكان مكان هينز فى كريتر قرب القلعة الرئيسية هناك وامام جزيرة صيرة وبجوار الميناء الشرقى لعدن وكانت عدن تمثل درة مميزة فى تاج الامبراطورية

البريطانية حيث ان عدن كانت أول منطقة يتم ضمها الى الامبراطورية في عهد الامبراطوره فيكتوريا وبعد توليها مباشرة.

وتوهم هينز بعد النجاح الذى احرزه فى ادارة عدن ان الهدوء سيكون مستديما ويستتب الأمر لحكومته دون اية اضطرابات عرقية أو أى مواقف معادية للوجود البريطانى من الاهالى ومما رسخ هذا الاعتقاد فى ذهن المقيم البريطانى هو لجوء بعض الأهالى اليه حتى فى اصلاح ذات البين بينهم وسعى هينز جاهدا الى اشراك اهالى عدن فى ادارة شئون المدينة ولم يمانع فى ان يستمر العدنيون فى استمرار تنفيذ الادارة وفق الاعراف التى كانت سائدة من قبل الغزو والتى تعودوا عليها بحكم العرف بين القبائل والافراد بعضهم مع بعض، بل لجأ الى ما هو أكثر من ذلك الى الاستعانة ببعض اهالى عدن فى المحافظة على الأمن واستقراره وارسل بعضهم الى بومباى للحصول على التدريب المناسب لهذا الغرض وكان هدفه من كل ذلك تقريب الأهالى اليه واسترخائهم تحت حماية الامبراطورية البريطانية وضمان الاستقرار والأمن فى البلاد دون قلاقل او مضايقات.

ألا أن ظواهر الاشياء ليست دائما تقارن ببواطنها فهناك نفوس غاضبة وهناك رجال يطلبون الثأر عن اعزاء قتلوا اثناء الغزو وهناك قبائل تتمسك بعروبتها وعدم خضوعها للاحتلال الأجنبى وهناك سلاطين وشيوخ القبائل المجاورة لعدن المستنيرين منهم يعارضون الاحتلال فى السر ويعملون على تعزيز قوتهم للانقضاض على وجوده وطرده من البلاد.

تلك بعض صور المعارضة الصامته والتى كانت تختفى تحت سطح الهدوء الظاهرى ولم تنجح عباءة التودد البريطانى لأكتساب محبة أهالى البلاد.

وكانت قرية الشيخ عثمان تقع فى شمال عدن وهى قرية صغيرة فى ذلك الوقت يقع غربها بئر احمد الذى عليه تعتمد معظم المنطقة فى التزود بمياه الشرب حتى مدينة عدن بكاملها.

وكان الاتفاق مع سلطان العبدلى ان يمر الخط الفاصل الوهمى جنوب الشيخ عثمان فاصلا لمواقع الجنود البريطانيين وكانت تعليمات الحكومة البريطانية بعدم التوغل داخل البلاد وحصر الوجود البريطاني في عدن لخدمة الأغراض المطلوبة للأمبراطورية البريطانية فى ذلك الوقت ألا أن الشيخ عثمان رغم أنها كانت قرية صغيرة محدودة السكان كانت تقع على محاور رئيسية الى عدن والى لحج وشبوه والحواشب فى الشمال وكذلك اماكن قبائل الفضلى وكانت تكتسب اهميتها فى كونها مكان حاكم على هذه المحاور مجتمعة خاصة ان المنطقة المحيطة بها كان من الصعب ايجاد بدائل لطرق التحرك والانتقال بسبب المرتفعات الصعبة المحيطة بهذه الطرق أو الأماكن الساحلية الرخوة والصعبة ذات الملوحة العالية مما يؤذى أقدام الجمال ووسائل الحمل الأخرى عند سيرها وتغوص فى التربية ويتعذر بذلك استمرار السير.

ورغم ان هينز كان يتطلع الى التقدم الى الداخل بما يجعل قواته فى موقع متقدم يهدد تهديدا مباشرا قبائل لحج والفضلى ألا أن

تعليمات حكومته كانت تطلب منه تأمين عدن كموقع استراتيجي وتمويني هام وان لا يتعدى ذلك حتى لا يكسب عداء القبائل لعدن.

ولذلك استمر في هذه الفترة المتقدمة من الاحتلال لعدن تواصل التقرب من هينز الى الأهالي والى مشايخ القبائل المجاورة واقتراب بعض افراد هذه القبائل وشيوخها الى القوات البريطانية وازداد هذا التقارب بعد ما شرع هينز في عمل مخصصات مالية سنوية لبعض ذوي الشأن ولجوء البعض الأخر من الأهالي بتقديم خدماتهم للقوات البريطانية وابداء رغبتهم في التعاون وتبع ذلك ازدهار عدن وتضاعف عدد سكانها وزادت المباني فيها راجت فيها التجارة واصبحت عدن منطقة جذب لمن حولها ليس من اليمن فحسب ولكن من الصومال والهند.

وبعد احتلال القوات بمدة لا تتجاوز عشرون يوما قام احد الأهالي بطعن جندي بريطاني عند بوابة اليمن وفر هاربا ورغم قيام القوات البريطانية بتمشيط المنطقة ألا انهم لم يعثروا على الجاني وعندما وصل هينز ذلك الخبر اعتبره واقع محتمل ولم يعوقه ذلك على الاستمرار في التقرب وكسب ود الاهالي بشتى الوسائل ألا أنه بعد ثلاثة اشهر من الاحتلال قام بعض الأهالي باختطاف رقيب من البحرية كان يتجول في السوق الوطني مع رفيق له نجح رفيق الرقيب في الهرب والاحتماء في أحد محال التجار في عدن. وتمكن فيما بعد من الرجوع الى وحدته ألا ان الضابط المسئول عن الأمن في عدن تتبع المعلومات من بعض عيونه وعلم ان الافراد الذين قاموا

بخطف الرقيب ينتمون الى قبائل العبدلى.. ووردت المعلومات عن ان اسباب الخطف كانت اخذا بالثأر بعد استشهاد احد الأقارب من القبيلة اثناء الدفاع عن البلاد فى ١٩ يناير ١٨٣٩ ... ولجأ ضابط المخابرات البريطانى الى المساومة مع الخاطفين عن طريق بعض المتعاونين معه من الأهالى وبعد طول اخذ ورد تم استرجاع الرقيب البريطانى بعد ان تم دفع دية مالية لشهيد ابناء العبدلى.

وقامت الحكومةالبريطانية فى بومباى بتعين قائد عسكرى لحامية عدن وكان اسمه الكولونيل كابون (Capon) ... وكان كابون مختلفا فى تصرفاته عن هينز فمن وجهة نظره ان استخدام القوة هو خير وسيلة لمنع وقوع اعمال معادية للبريطانيين فى عدن.

وقد تم تعيين قائد حامية عدن فى سبتمبر عام ١٨٣٩. واعتبر قائد الحامية نفسه ليس مسئولا عن الادارة العسكرية فحسب بل عن الادارة المدنية ايضا ولذلك عندما اكتشف لدى احد المقيمين فى عدن وفى مكان خلف محل تجارته بعض رءوس الحراب ومجموعة من الخناجر المختلفة الأنواع والاحجام. اسرع كابون باصدار قرار عاجل بنزع السلاح من كل سكان المدينة بل انه اصدر تعليماته يحظر على اى فرد من اهالى عدن حمل السلاح مهما كانت نوعية هذا السلاح وانه بموجب هذا القرار وتلك التعليمات سيتم تقديم اى شخص يقع فى هذا المحظور الى المحاكمة العسكرية البريطانية.

ومما يشير الى خطورة هذه القرارات ان الاهالى سواء كانوا فى عدن او القبائل المجاورة كانوا يحملون خناجرهم واسلحتهم كشعار

وطنى لا يمكن المساس به - بل ان نوعية الخنجر ونوعية الجراب الذى يحفظ فيه الخنجر كانت تشير الى منزلة صاحبه ومن المتعارف عليه فى ذلك الوقت ان حمل السلاح بين الافراد خاصة افراد القبائل والعشائر امر طبيعى وظاهرة وطنية.... بل مدعاه للتفاخر والتباهى بين الافراد بعضهم مع بعض - فكيف يصدر مثل هذه القرارات التى تنال من الكرامة وتحط من شأن المواطن.

وتصاعد الغضب بسرعة وتزايد الاستنكار بين الأهالى والاصرار على رفض مثل هذه القرارات التى ان دلت على شىء فإنها تدل على التدخل الزائد عن الحد فى اخص الخصوصيات للأهالى وتمنع قاعدة متعارف عليها وتتعارض مع العرف السائد بين الأهالى.

حتى ان هينز ارسل لحكومته بعد اعتراضه الشديد على قرارات قائد الحامية فى عدن بأن الاهالى ازداد تذمرهم وفار غضبهم وبدءوا يتساءلون عما سوف يحدث من البريطانيين ضدهم بعد مضى الوقت اذا كانت بداية الاحتلال فرض قوانين ضد طبيعتهم وضد ما طبعوا عليه منذ نشأتهم.

ولم يخفى عن المواطنين سواء كانوا فى عدن أو فى لحج والفضلى والحواشب وهى مناطق القبائل القريبة من عدن وجود خلاف بين قيادات القوات البريطانية واستشعروا ان هذا الخلاف لابد ان يكون فى صالحهم وقوة اضافية ارسلها الله لهم.

وكان اكثر المتفهمين السلطان محسن ورجاله فسارع الى جاره اللدود سلطان الفضلى واتفقا على نبذ خلافاتهم والتعاون فيما بين

رجالهم يدا واحدا فى سبيل طرد البريطانيين من عدن مهما كلفهم ذلك ومهما كانت صعوبة القوة التي يواجهونها وكأن ذلك يعنى التنسيق الكامل فيما بين سلطان لحج والعبدلى وسلطان الفضلى وتجميع الرجال والسلاح والقيام بهجوم مركز على القوات البريطانية فى عدن بهدف واحد هو طردهم من البلاد وان دل ذلك على شىء فإن العرب لم يكونوا من السهل ان يستكينوا وان ارادتهم واقع قائم رغم العدو الذى انقض على جزء من بلادهم واستولى عليه ويشير هذا التعاون بين القبائل المجاورة لعدن على الحماس الذى لم تنطفئ جذوته فى مقاومة البريطانيين رغم الاغراءات التى قدمها هينز والرواتب السنوية والمخصصات العينية لبعض القبائل والعشائر والشيوخ رغم هذه الاغراءات والتودد والتسامح الذى اظهره هينز فى بداية الاحتلال.

ألا أن المقاومة ولدت لديهم لتبقى ولتورث لمن بعدهم وصارت حركة المقاومة والرفض والغضب من احتلال جزء من البلاد هى السمة المميزة للسنوات الاولى للاحتلال وسنرى بعد ذلك ان جذوة المقاومة وان باتت شديدة ومتميزة فى فترة ما بعد الاحتلال وان خفت حدتها احيانا وزادت قوتها احيانا اخرى الا أن الشىء المؤكد ان جذوة المقاومة ولهيب الغضب فى نفس الوطنيين من اهل البلاد لم تخف حدتها فى النفوس وان كانت تخف حدتها على أرض الواقع فى احيان اخرى.

ورغم الهزيمة التي لحقت بالسلطان محسن الفضلي وانتهت باحتلال البريطانيون لعدن ورغم ان السلطان اضطر الى مهادنة ومصادقة البريطانيين ازاء ضعف قوته ونقص سلاحه وتواضع نوعيته وتحت هذه الظروف ارغم السلطان على ابرام اتفاق سلام وتعاون مع قوة الاحتلال الا أنه لم يمض عشرة اشهر على هزيمته في عدن الا واخذ على عاتقه معاودة الكرة ومهاجمة القوات البريطانية ونبذ الخلافات القديمة وتحالف مع السلطان احمد عبدالله الفضلي سلطان ابين ونجح في تجميع قوات مشتركة تبلغ خمسة ألاف مقاتل تحت قيادته ورغم قلة الذخائر المتوافرة وتواضع نوعية السلاح خاصة المدفعية الا أن حماس الرجال وايمانهم بأن قتالهم في سبيل الله وان الله سينصرهم كان يعوضهم بعض الشيء عن ضعف السلاح الذي بحوزتهم.

تمركزت القوات البريطانية في كرتير وخور مكسر وبوابة اليمن ومنطقة السور العثماني حيث كانت القوات البريطانية الرئيسية وقسم السلطان محسن قواته الى ثلاث مجموعات وكانت القوة الرئيسية في الوسط تحت قيادته وكانت القوات على جناحه الايمن بقيادة ابنه الامير احمد ويساعده زوج ابنته اما القوات على يساره وما سمي الجناح الايسر تحت قيادة احد اشراف رجال السلطان احمد الفضلي.

ولم تغفل القيادة البريطانية عما كان يدور في المناطق القريبة من عدن فقد صار لها اعين تخبرها بالمعلومات الجديدة ولم يكن هينز

رغم اتفاقه مع السلطان محسن مطمئنا اليه ولذلك كانت القوات البريطانية قد نصبت مدافعها فى القلاع والحصون فوق قمم المرتفعات حول عدن وقد تم اصلاح هذه الحصون وتجهيزها بالمؤن والعتاد ورسم قائد حامية عدن خطته الدفاعية بأن جعلها تتمركز تحت حماية المدفعية الموجودة فى القلاع والحصون على المرتفعات كانت مدفعية السفن المحيطة بعدن والتى كانت مستعدة لاطلاق الغلالة الثانية والتى تستطيع مدى مدفعيتها تغطية كل مناطق عدن.

وتقدمت قوات السلطان على الطريق بين لحج وقرية الشيخ عثمان ثم اتجه الهجوم الى عدن وزحفت قوات السلطان فى اتجاه تمركز القوات البريطانية قرب بوابة اليمن.

وكانت القوات البريطانية قد سبق لها تجهيز مواقعها الدفاعية فى صورة خنادق ونقط قوية حاكمة تحميها غلالات نيران الدفعية من الحصون العالية ونيران مدفعية الاسطول البريطانى وما كادت مقدمة القوات الزاحفة تقترب الى منطقة خندق جبل حديد فى رأس عدن ألا وانهمرت عليهم نيران المدفعية الكثيفة من الحصون حول بوابة عدن ولسوء حظ القوات المهاجمة انها كانت معرضة بشكل مباشر للقصف المدفعى حيث ان المنطقة التى وصلوا اليها امام خندق جبل حديد كانت منطقة منبسطة معدومة التلال والسواتر الطبيعية ولذلك نجحت المدفعية البريطانية فى الحاق خسائر كبيرة بين قوت السلطان فيما جعله تحت شدة الضرب المباشر يتقهقر الى الجنوب من قرية الشيخ عثمان وهناك واصلت مدفعية الاسطول اطلاق نيران اضافية مما

تسبب في زيادة خسائر القوات الوطنية حتى وصلت الى ما يزيد على المائتين قتيل وجريح اثناء المعركة التى لم تستمر اكثر من الساعة ونصف الساعة ولما رأى السلطان خسائره العالية وتفكك جناحيه نتيجة القصفات للمدفعية تقهقر عائدا الى منطقته فى لحج والفضلى بعد هزيمته هزيمة ثقيلة وفى المقابل كانت خسائر القوات البريطانية تعد على اصابع اليدين بين قتيل وجريح وترتب على هذه الهزيمة للقوات الوطنية ان فرض الاسطول البريطانى الحصار حول عدن وقصفت المدفعية طول ساحل ابين نكاية فى سلطان الفضلى الذى تحالف مع سلطان لحج والعبدلى.

هذا رغم ان ساحل ابين كان المصدر الرئيس لامداد القوات البريطانية فى عدن بالمشتريات من المواد الغذائية والاخشاب اللازمة لقوات الاحتلال.

وتنصل البريطانيون من ارتباطاتهم التى عقدوها مع كل من سلطان لحج والعبدلى وسلطان الفضلى وقطعوا الرواتب والمخصصات التى كانت تدفعها قوات الاحتلال لهم ولرجالهم وقام قائد حاميه عدن بعد هذه المعركة بتشديد الحراسات على الأماكن المختلفة فى عدن وخاصة أماكن تمركز قوات الاحتلال وكذلك تشديد الحراسة على مناطق إقامة بعض المتعاونين مع البريطانيين خاصة اليهود فى عدن.

وللإنصاف فإن الغالبية العظمى من الأهالى الوطنين وعلى رأسهم السلطان محسن الفضلى كانوا يرفضون احتلال جزء من بلادهم

وكان غضبهم وحنقهم يتزايد على الوجود البريطاني وهذه هي طبيعة العرب التي تأبى الضيم والذل والهوان وتأثر السلطان محسن تأثرا شديدا بهزيمته والخسائر الضخمة التي لحقته.

وكانت المواد التموينية للقوات البريطانية تأتي برا الى عدن عن طريق مناطق الحواشب والفضلي متجهة الى بوابة اليمن والمواد الاخرى كانت تأتي عن طريق ميناء شبوه ولكن البريطانيون وضعوا هذا الميناء تحت الحصار ومنعوا استمرار التبادل التجاري مع رجال قبائل الفضلي نتيجة تعاونهم مع سلطان لحج والعبدلي وخلال الفترة التي تلت هزيمة الوطنين زادت بصورة ملحوظة الهجمات على قوافل الامدادات التي كانت تأتي من الشمال الشرقي الى عدن وغض الطرف رؤساء القبائل عن هذه الاغارات ولم يحاولوا منعها واخذ السلطان محسن والسلطان احمد يراجعون حساباتهم ويعيدون تقدير موقفهم وكانوا يرون انه في حالة قيامهم بهجوم مفاجئ ومركز على قوات الاحتلال فلن تتمكن هذه القوات من الحصول على تعزيزات وتدعيم من حكومتهم في بومباي بالسرعة المناسبة خاصة وان المفاهيم السائدة في هذا الوقت بطء سرعة الحركة بواسطة السفن البريطانية ولكن في ذلك الوقت كانت تستخدم البخار وسرعتها كانت سرعة عالية اكثر مما ظنوا ومن ناحية اخرى ازداد الخلاف بين محمد علي والي مصر والبريطانيون وان ذلك مدعاة بأن تنشغل الحكومة البريطانية عن عدن ولا تعطيها الاهتمام الكافي مما يحقق للقوات الوطنية الفرصة المواتية لطرد البريطانيين من عدن.

ألا ان تقدير الموقف لدى الوطنيين في عدن كان يجانبه الصحة والدقة فالسفن البريطانية سريعة بما فيه الكفاية وانشغال البريطانيون ببعض المشاكل في مصر وفي الشمال جعلت تقدير الموقف ان يزداد تمسكهم بمكانهم في عدن وان يكون اشد واقوى من قبل ورغم الغضب في نفوس الوطنيين من الاحتلال وحماس السلطان محسن الفضلي وحليفه السلطان احمد لطرد المحتل وتقديرهم للموقف تقديرا خاطئا ظهرت الخيانة فيما بين صفوف الوطنيين في لحج وعلى رأسهم الشيخ حسن الخطيب الذى عينه البريطانيون وكيلا لهم في لحج ولسوء الحظ كان الشيخ حسن الخطيب من المقربين الى السلطان يحضر جلساته ويتابع اخباره اولا بأول ويتابع تقديراته لموقف المحتلين وكانت كل هذه المعلومات يتم نقلها أولا بأول الى قيادة المخابرات البريطانية في عدن والى هينز الداهية كما ان عمليات التجسس المستمرة التى كان يقوم بها بعض العملاء واليهود الذين يقومون بأعمال الصيرفه ومسك الحسابات لدى بعض الشيوخ في لحج كانت عاملا مهما من خلالها يتعرف منه البريطانيون على نيات السلطان في لحج ورجال الفضلي ولما كان اليهود يعملون مع الشيوخ في لحج والفضلي وعن قرب من مجالسهم فكانت المعلومات التى ينقلونها لا تنضب يمكن القول بأنهم كانوا بمثابة الأعين لقوات الاحتلال التى لا يمكنها ثبور غور ما يبطنه المواطنون وقادتهم وهكذا كان يهود اليمن جواسيس البريطانيين على الشعب اليمنى واستفاد هينز من استخدام اليهود استفادة عظمى واستغل هينز اليهود في عدن للحصول على المعلومات اولا بأول خاصة من قيادة شبكة

التجسس اليهودية فى عدن تحت سيطرة منها كن وشوماديل الذين كانت تصلهم الرسائل بالمعلومات مكتوبة باللغة العبرية التى لا يعرفها العرب وتصل الى هينز وجهاز استخباراته حتى ان حكومة بومباى استفسرت من غزارة المعلومات حول احوال القبائل اليمينة والاماكن المحيطة بقواتها فى عدن فذكر هينز صراحة بأن هذه المعلومات المفيدة كانت تصل اليه عن طريق اليهود.

وحاول يهود عدن التجمع مع يهود الداخل بحيث يكون تمركزهم فى عدن ويضعون خدماتهم رهن اشارة هينز الا انه رفض ذلك وقد عرض زعيم اليهود المبشر ضامويل اقامة مدرسة لابناء اليهود فى عدن ألا ان حكومة بومباى كان لها رأى ثان فى اتباع سياسة الحياد وعدم التدخل فى الامور الدينية.

نعود مرة اخرى للشيخ حسن الخطيب الخائن الكبير وموقعه القريب من السلطان ودور المعلومات والشائعات التى كان ينقلها ويبثها بين المواطنين البسطاء وعندما عقد السلطان محسن العبدلى النية مرة ثانية لمهاجمة عدن استند لتقديراته الخاطئة عن الموقف سواء فى بومباى أو فى الشمال فى مصر وتضامن معه سلطان الفضلى بوازع وطنى وكان السلطان الفضلى وقياداته وكذلك سلطان العبدلى غافلين عما يدور حولهم من خيانة وتجسس بل على العكس من ذلك كانوا يثقون فى ذلك الخائن ويكل له السلطان بعض الاعمال من خصوصياته وكذلك كان يثق فيمن يقومون بالتجسس لحساب اعدائه.

وقد بلغ البريطانيون ن السلطان وحليفه سلطان الفضلي يعدون عدتهم لمعاودة الهجوم على عدن واستجمع سلطان لحج قوته وجمع رجاله والاهالي حتى انه في هذه المرة كان يسود المواطنون انهم يخوضون حربا دينية مقدسة وقام السلطان احمد سلطان الفضلي باغلاق طرق القوافل المودية الى عدن واعلن انه سيقود حربا دينية ضد البريطانيين في عدن وبعد ان تم تجهيز القوات المهاجمة فضل السلطان وقواده ان تتم مهاجمة القوات المتمركزة في تلال كريتر حتى لا تصبح قواته في العراء مكشوفة لقصف المدفعية المعادية كما كان في حالة الهجوم الفاشل الاول ونتيجة لتوافر المعلومات التفصيلية عن حجم القوات المهاجمة والاتجاه الرئيسي للهجوم عند القيادة البريطانية ركزت القوات المحتلة دفاعاتها وقوت خنادقها بالقرب من تلال كريتر واستعدت للمهاجمين ونصبت الكمائن حتى ان ساعة الهجوم كانت لديهم معرفة مسبقة بها وقد ذكر احد القادة البريطانيون في عدن بعد المعركة بأن المعلومات الدقيقة كانت تصلهم عن استعداد السلطان ساعة بساعة وعدد المهاجمين أولا بأول.

وتقدمت قوات السلطان تريد السيطرة على قيادة القوات المحتلة والفصل بينها وبين القوات المتمركزة عند بوابة اليمن وما حولها الا ان القوات الوطنية قوبلت بنيران حامية ومركزة من القوات المدافعة والتي كانت متأهبة وفي انتظارها وعندما حاول قائد احد الفصائل المهاجمة الالتفاف للاستيلاء على احد الحصون وقع في كمين مسبق التدبير والتجهيز وتمكن البريطانيون من صد الهجوم على عكس توقعات السلطان وحساباته السابقة ووقعت خسائر كبيرة بين القوات

المهاجمة تقدر بالمئات مما ارغم السلطان ورجاله على التقهقر الغير منظم مما زاد من الخسائر بين الوطنيين وفشل الهجوم فى تحقيق أهدافه وعندما رجع السلطان الى لحج اكتشف اصحاب الخيانة ورئيسهم الشيخ حسن الخطيب وتأثر بالغ التأثر بذلك وامر بقتله وتدمير منازله ومن جهة اخرى عرف السلطان دور التجسس الذى قام به اليهود فى لحج حتى انه بلغ السلطان من المعلومات ما يؤكد بأن الواسطة فى نقل رسائل الخيانة بين الشيخ حسن وقيادة القوات البريطانية فى عدن كان أحد يهود لحج.

وقد بلغ استياء السلطان قدرا كبيرا نتيجة الهزيمة ومسبباتها ومما يؤكد هذا الموقف ما ورد فى تقارير مستر هينز بأن اليهود هم افضل العناصر التى استعان بها فى اعمال التجسس على العرب وكانت ثقة هينز بأن اليهود هم أفضل العناصر التى استعان بها فى اعمال التجسس على العرب وكانت ثقة هينز فى عملائه من اليهود ثقة لا تشوبها شائبة رغم ان المكافآت التى كان يمنحها لهم كانت قيمتها صغيرة امام ثقة هينز فى عملائه من العرب فكان يشك فى مصداقيتها بل واحيانا يأخذ معلوماتهم التى يقدمونها بحذر وحرص.

وغضبت حكومة بومباى البريطانية غضبا شديدا على حدوث الهجوم الثانى على قواتها فى عدن والذى قادة السلطان محسن والسلطان احمد سلطان الفضلى - وثار هينز واراد ان يعاقب سلطان الفضلى على تعاونه مع السلطان محسن وقيامه باغلاق الطرق ما بين بلاده وعدن وتوجهت السفينة البريطانية الفنستون الى شقرة على

الساحل الشرقي لعدن اظهارا لغضب قيادة القوات البريطانية وارهابا للمواطنين ... واظهارا لقوة وقدرة قوات الاحتلال الا ان المواطنين في شقرة اطلقوا اسلحتهم على السفينة عندما اقتربت من الساحل ورغم ان احدا من القوات المحمولة في السفينة لم يصب باذى نتيجة اطلاق الاسلحة الدفاعية على السفينة الا أن السفينة بادرت الى اطلاق قذائف مدفعيتها فدمرت القلعة واستشهد اثنين من العرب المدافعين واصيب عدد منهم اصابات مختلفة ونتيجة لذلك سرت الاشاعات المختلفة بأن القتلى من العرب يقدرون بالمئات وان معظم المباني تهدمت في شقرة وعندما تسرى مثل هذه الاشاعات فيما بين البسطاء يحوطها التهويل والتضخيم الذي ينعكس على الروح المعنوية.

وقبل قيام السلطان محسن والسلطان احمد الفضلي بالهجوم الثاني على عدن طلبا من رجال مشيخة العقربي التعاون معهم ومساعدتهم الا ان موقع مشيخة العقربي في شمال الفضلي ويمر بها الطريق الرئيسي الى قرية الشيخ عثمان والى عدن حيث الطريق الرئيسي للتجارة مع عدن وحيث الكسب الكبير لازدهار هذه التجارة ومردودها العظيم على المشيخة ولذلك كان موقف مشيخة العقربي موقفا سلبيا وحذرا ولم يشارك في الهجوم ولا بتقديم العون للحلفاء ونتيجة لذلك ولفشل الهجوم الثاني على عدن والخسائر الكبيرة التي لحقت بالمهاجمين قررا الحليفان مهاجمة مشيخة العقربي وحاصروا حصن بئر احمد والحقوا برجال العقربي خسائر كبيرة.

وقام هينز من جهته باغلاق باب اليمن فى وجه المؤن والتجارة التى كانت تصلها من لحج وكانت تدر عليهم مكاسب كبيرة رغم حاجة عدن الى هذه المؤن ألا أن هذا التصرف من ناحية هينز كان نكاية فى السلطان محسن نتيجة معاودته مهاجمة عدن.

وبات السلطان محسن بعد هزيمته الثانية وعدم نجاحه فى استرداد عدن متأثرا أشد التأثر وغاضبا اكبر الغضب، وساخطا على من خانوه ومن تجسسوا لحساب الاعداء - ولم يفت فى عضده ما لحق به وبقواته ولا بحليفه من خسائر كبيرة فلم تضعف جذوة المقاومة فى صدرة ولم تهن ولم تضعف عزيمته ولم يخبو امله فى محاولة استرداد جزء بلاده المغتصبة رغم انه تقدم فى العمر وصار شيخا مسنا جاوز السبعين عاما إلا انه لم يهدأ له بال ولم يركن الى الراحة ولم يذعن الى الاستسلام رغم الاغراءات المتعددة التى لجأت اليها قوات الاحتلال معه.

وليس معنى ذلك ان سياق الكلام وتتابع الاحداث تركز على الاضفاء على السلطان محسن عباءة البطولة منفردا فقد شاركه رجاله نفس المشاعر الغاضبة وشاركه ايضا السلطان احمد الفضلى ورجال قبيلته وشاركه ايضا بعض اهالى عدن حتى رغم ازدهار عدن بعد الاحتلال ورواج التجارة وزيادة المكاسب فى التجارة مع البريطانيين ألا ان الانصاف فى ذلك الوقت يبين انه لا المكاسب المادية ولا المنافع العينية كان لها مكان يسبق حب الوطن والدفاع عنه وطرد المحتلين عن الأراضى التى تم اغتصابها والدليل على ذلك وان كان رسزه

البارز هو مقاومة السلطان محسن ومحاولته المرة تلو الاخرى لطرد المحتلين من بلاده رغم ما سبق ان أوضحنا من قبل الفرق الشاسع بين قوة وقدرة السلطات البريطانية والقليل الضعيف المتوافر للسلطان ورجاله من معدات وسلاح وخبرة قتالية حديثة.

بعد ان طهر السلطان محسن صفوف رجاله من الخائنين والجواسيس بدأ يعد عدته ويعيد تجميع قواته متعاونا مع حليفة السلطان احمد عبدالله الفضلي وقد وضع السلطان محسن هدفه الرئيسي في ضرورة النجاح بطرد البريطانيين من عدن، ورغم هزيمته في المرتين السابقتين الا انه كان يأمل في تحقيق النجاح عند القيام بهجوم للمرة الثالثة بعد أن وصلته معلومات بأن حكومة بومباي لا تستطيع تعزيز حاميتها في عدن نظرا للاستنزاف الكبير الذي لحقها في حملتها على بلاد الافغان وكذلك ظهور مشاكل وتمرد في انحاء مختلفة من الهند في هذه الفترة مما استنزف معظم قدرات حكومة بومباي واصبح من الصعب عليها تقديم التعزيزات والدعم لحامية عدن.

ولم يعدم هينز ورجال استنتاج المعلومات عن تحركات ومحاولات السلطان محسن بل ان يعض عملاء المخابرات البريطانية في عدن نتيجة انتقالهم إلى المناطق المجاورة وحركة التجارة النشطة واتصالهم ببعض المشايخ ووجهاء القبائل... اخبروا المسئولين البريطانيين في عدن بأن الهجوم الرئيسي في هذه المرة الثالثة سيتجنب منطقة كريتر بسبب ما لحق بالوطنين من خسائر كبيرة في المرتين السابقتين

للهجوم وتوقع هينز انه يكون البديل لمنطقة كريتر كمركز للهجوم هو مكان عنق الزجاجة الشرقى لرأس عدن قريبا من بوابة اليمن وسور عدن - حتى تتجنب القوات المهاجمة تأثير قذائف المدفعية المباشرة سواء من السفن الحربية أو من القلاع والحصون فى جزيرة صيرة بجانب ميناء عدن وكان لدى جهاز الاستخبارات البريطانية معلومات صحيحة واقرب ما تكون الى الدقة فقامت الوحدات البريطانية بحفر الخنادق امام سور عدن وعلى امتداد السور ليكون ذلك بمثابة خط أول للدفاع ثم خط الدفاع الثانى من موقع السور المرتفع والمطل على ساحة واسعة تعتبر منطقة قتل لكل من يهاجم هذا الموقع ذو النقط الدفاعية القوية وخلف هذه الدفاعات توجد مدفعية على جانبى المرتفعات والقلاع يمين ويسار بوابة اليمن ولم ينس الداهية هينز ان يعزز دفاعاته بتكليف رجال مدفعيته فى جزيرة صيرة والمتمركزة على جبل صيرة بتخطيط نيران ضربها على هيئة اقواس موثرة على المهاجمين من ناحية الشرق فى اتجاه سور عدن بالاضافة الى مدافع السفينة المتمركزة فى خليج عدن.

اما القوات الوطنية مع السلطان محسن والسلطان احمد الفضلى فقد اعدا عدتهما وجهزا خطة هجومهما لتكون كرأس حربة فى ناحية سور عدن على ان يكون ذيل السهم الهجومى مستندا الى بعض الكثبان الرملية المرتفعة والثنيات الأرضية التى تتميز بها منطقة جنوب الشيخ عثمان واتخذ القائد مركزه فى تل السهم ليتابع الهجوم ويصدر الأوامر لمساعديه وفى معيتة باقى القوات المهاجمة كاحتياطى وفى صباح اليوم الخامس من يوليو عام ١٨٤١ تقدمت القوات الوطنية

فى اتجاه منطقة السور وقبل وصول هذه القوات الى السور انهالت عليهم قذائف المدفعية المتمركزة بجانب بوابة اليمن وفى القلاع والحصون القريبة وكونت مع المدفعية الصادرة من جزيرة صيرة اقواس نيران موثرة وكذلك سبق تجهيز اقوى مع المدفعية الصادرة من جزيرة صيرة اقواس نيران مؤثرة وكذلك سبق تجهيز اقوى السفن الحربية التى تمركزت فى خليج عدن لتقديم المعاونة المتحركة حسب تقدم القوات المهاجمة بالاضافة الى النيران الكثيفة التى اطلقت من الزوارق الراسية حول جزيرة العبيد.

ونتيجة لهذه النيران الكثيفة المسبقة وحدوث تأثير قاتل فى صفوف القوات المهاجمة ألا أن القوات الوطنية استطاعت التقدم الى مسافة قريبة من السور وقبل ان تصل الى هدفها قوبلت بوابل من النيران الدافعة الصادرة من الخنادق الدفاعية السابقة إعدادها اعدادا عسكريا فتزايد الاضطراب والارتباك صفوت القوات المهاجمة وصارت المنطقة أمام سور عدن منطقة قتل وتدمير للمهاجمين وعندئذ رأى السلطان أن يوقف الهجوم الخاسر ويسحب قواته الى الخلف وبالفعل تجمعت القوات المهاجمة فى الشيخ عثمان حول بئر احمد بعيدا عن قذائف المدفعية المؤثرة قرر السلطان وقواده ان يكون تمركزهم عند بئر احمد حتى تستمر المعركة فى صورة اغارات وهجمات متتالية كلما تواتت الظروف المناسبة وكذلك القيام بقطع الطرق التجارية الموصلة فيما بين عدن والحواشب وكذلك انفصلى ولحج وبذلك يتم تضييق الخناق على القوات المحتلة فى عدن وتوقيع اكبر خسائر ممكنة فى صفوف البريطانيين - وقام السلطان ورجاله

ببناء حصن كبير قرب بئر احمد واطلقوا على هذا الحصن (نوبة الشيخ مهدى) وكان الهدف من ذلك ان يكون هذا الحصن مركزا متقدما للقيام بأعمال الاغارة على القوافل القادمة والخارجية من عدن وكذلك كقاعدة مساندة وحصن دفاعى ومركز للامداد بالذخائر عند قيام القوات الوطنية بقطع الطرق الرئيسية عن طريق الشيخ عثمان.

ولم يخف على القيادة البريطانية خطورة وجود هذا الحصن ووجود القوات الوطنية المعادية فى الشمال من عدن فيما تسببه من استنزاف مستمر ومتاعب لا حصر لها لقوات الاحتلال واصبح العداء مستحكما بين سلطان لحج والفضلى وقوات الاحتلال ولذا لجأ الداهية هينز الى محاولة استقطاب بعض القبائل الفرعية واغرائهم بالهدايا والهبات والرواتب حتى يبتعدوا عن السلطان ولا يتعاونون معه ومن ناحية اخرى كان تقدير الموقف لقوات الاحتلال هو ضرورة ازاحة القوات الوطنية من منطقة تمركزها عند نوبة الشيخ مهدى وكذلك الحصن المتواجد بجوار قرية الشيخ عثمان لان وجود هذه القوات الوطنية فيه تهديد مستمر لقوت لاحتلال وشوكه فى جانب القوات البريطانية تضعف من قبضتها على عدن وعائق كبير امام حركة التجارة المزدهرة بين عدن ومناطق الداخل فى اليمن.

ونجح البريطانيون فى استقطاب بعض القبائل حتى يقفوا موقف الحياد ولا يتدخلوا فى النزاع القائم مع السلطان وفى نفس الوقت كان الموقف ملحا بضرورة القيام بالهجوم على اماكن القوات الوطنية ومطاردتها بعيدا عن عدن ووافقت حكومة الهند البريطانية بعد اخذ

ورد فى التفاصيل مع القيادة البريطانية فى عدن على القيام بهجوم على اماكن تمركز القوات الوطنية والعمل على طردها الى منطقة الداخل وابعادها عن عدن.

وخصصت القيادة البريطانية قوات بريطانية وهندية بالإضاقفة الى بطاريات مدفعية ميدانية للقيام بالهجوم تحت قيادة الكولونيل بنيكويك وزحفت القوات المهاجمة تحت ساتر الظلام ليلا وتمركزت فى اوضاع الهجوم صباح الحادى عشر من اكتوبر عام ١٨٤١ - واحدثت المفاجأة اثرها حيث كانت مصادر المعلومات التى وصلت الى القوات الوطنية عن تحركات القوات المهاجمة قليلة وضعيفة وعند أول ضوء قامت المدفعية المهاجمة بارسال قذائفها المدمرة على حصن نوبة الشيخ مهدى عند بئر احمد بالاضافة الى عمل اقواس نيران وغلالات مدفعية حول الحصن.

فأصيب الحصن اصابة مباشرة وتم تدميره واصابت قذائف المدفعية المهاجمة عدد كبير من المدافعين الوطنيين وتقدم الجنود تحت حماية القذائف للسيطرة على الموقع وفى نفس الوقت الذى تم فيه مهاجمة نوبة الشيخ مهدى زحف طابور معزز بالمدفعية الى قرية الشيخ عثمان حيث تم تدمير قلعتها الشهيرة وهرب اهالى القرية تحت وطأة القصف وتم بعد ست ساعات من الهجوم سيطرة القوات المهاجمة على الشيخ عثمان وكذلك على حصن نوبة الشيخ مهدى وفى نفس اليوم كانت ثلاث سفن حربية بريطانية تجوب سواحل قبائل الفضلى وخاصة القرى القريبة من الساحل وكان ضرب الاسطول

لسواحل قبائل الفضلى انتقاما لتحالف سلطان الفضلى مع السلطان محسن وكان هجوم السفن الحربية غير متوقع فأحدث ذلك خسائر فادحة فى الافراد والممتلكات واتسمت الاعمال الهجومية بطابع الانتقام ونتيجة لشدة القصف على أرض الفضلى طلب السلطان الفضلى من البريطانيين فى عدن العفو عن الأعمال العدوانية التى قام بها وتعهد لهم بالالتزام ووقف الاسلوب العدائى بل وقدم اعتذارا للسلطات فى عدن فقد كان حصار الاسطول البريطانى لسواحل الفضلى وخاصة بلدة شقرة على الساحل مؤثرا فنتج عن هذا الحصار ضررا بليغا للأهالى الذين كانوا يعتمدون على صيد الاسماك وتجارة التمور التى كانت بمثابة الغذاء الشعبى للقبائل ونتيجة للاضرار البالغة التى لحقت منطقة الفضلى وجدها السلطان احمد ذريعة مبررة للتقدم بمبادراته الودية والتزام السلوك الداعى للسلام بل والتعاون مع البريطانيين ورفض الاتفاق مع السلطان محسن ورغم الخسائر الجسيمة التى منى بها السلطان محسن وفشله فى ضم قبائل الحواشب والقبائل القريبة الاخرى فى شد ازره فى قتاله ضد عدو البلاد وانفصال حليفه سلطان الفضلى عنه فلم تقف متاعب سلطان العبدلى عند هذا الحد ولكن اضافة لذلك كان هناك احتكاك بين الامام الزيدى فى صنعاء وبين سلطان العبدلى بعد نجاح البريطانيون من تحويل تجارة البن اليمنى من المخا الى عدن.

ألا أن السلطان محسن ظل على عدائه المستحكم لعدو البلاد ومعارضته لاحتلال عدن وظل السلطان على عناده واصراره على مقاومة البريطانيين ورغم هزيمته الثالثة إلا أن موقع بلاده الحاكمة

للطرق المؤدية الى عدن وكانت تمر عبر تلك البلاد تجارة اليمن والمؤن التى تحتاجها القوات البريطانية فى عدن فقد عمد سلطان العبدلى الى فرض ضرائب عالية على التجارة المتجهة الى عدن عبر بلاده.

ورغم أن كفتا الصراع كانتا غير متكافئتين فالبريطانيون لديهم السفن القوية التى تفرض الحصار فى أى وقت على منطقة من السواحل والمدفعية الثقيلة والقوات المدربة يقابلها قدرات السلطات الضعيفة والمحدودة ألا أن ذلك لم يمنع السلطان والشباب الغاضب من رجاله الى رفع راية الرفض للوجود البريطاني وبعد الهزيمة الثالثة لقوات السلطان ازدادت الشائعات والمبالغات عن قدرات بريطانيا خاصة بعد ما تردد عن انتصاراتها فى بلاد اخرى مثل افغانستان والصين مما جعل مكانة البريطانيين وسمعتهم تزداد وتتعاظم بين القبائل اليمنية ولا يخفى ان التهويل فى المعلومات التى كانت ترد الى المنطقة عن القوة العظمى للبريطانيين فى بحار الدنيا تؤثر سلبا على بعض معنويات الشباب المتحمس وبعض رجال القبائل الذين لهم وزنهم بين القبائل مما اضعف موقف السلطان محسن ومما زاد العوامل المؤثرة على موقف السلطان لجوء السلطان الفضلى الى عقد معاهدة صداقة وتعاون مع البريطانيين فى عدن ولم يجد مفرا السلطان محسن فى اخر الامر ألا من عقد معاهدة سلام مع هينز ولكن ما داخل النفوس رفض واصرار وتربص فى الخفاء وقد وقع على معاهدة السلام والتعاون فى حقيقة الامر مرغما ومضطرا وساد سلام شكلى بين القبائل وهدأت كثير من الاحوال حول عدن واصبحت الاحوال شبه مستقرة حتى ان حكومة بومباى طلبت من

هينز تقليص حجم القوات المتمركزة فى عدن لتقديرها ان الحالة الامنية فى المنطقة لم تعد فى حاجة الى هذه القوات العسكرية الكبيرة واثبتت الأحداث اللاحقة ان الحكومات البريطانية في بومباى كانت على خطأ فى تقديرها واتضح مع الأيام ان الهدوء السائد فى المنطقة هدوء نسبى مشوب بالحذر والترقب وانفجار حالة الغضب من اليمنيين فى اى وقت كانت متوقعة وما كان يختفى فى نفوس المواطنين لا تستطيع القيادة البريطانية ولا مخابراتها الذكية التنبؤ به وما سيحدث.

رياح المقاومة تهب من الداخل

كانت أخبار المقاومة التى قامت بها قبائل لحج والفضلى تنشر بين مختلف القبائل وكانت قصص المعارك التى خاضها السلطان محسن مع البريطانيين يتم تداولها بحماس وفخر وتنتشر هذه القصص بسرعة النار فى الهشيم وكما كانت تنتقل هذه الروايات بعضها يشوبه التهويل والتضخيم. عبر بلاد الفضلى والعوالق وردفان والضالع وتعز وصنعاء فقد كانت تنتقل بسهولة وسرعة إلى المخا وجده ومكة والمدينة فالمنطقة كلها مسرح كبير ينتقل منها واليها رجال القبائل سواء للتجارة وتبادل المنافع أو للقيام باداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام. وظهر فى هذا المناخ أحد الأشراف فى مكة واسمه الشريف إسماعيل بن الحسن قام يحث الناس على الجهاد وتجميع قوتهم لطرد البريطانيين من الجنوب فى عدن وكان الشريف إسماعيل يتميز بالتقوى والإيمان العميق ووهب جهده وماله وهو الغنى ذو الجاه العريض فى مسقط رأسه فى مكة وتميز الشريف إسماعيل بعمق

تدينه وحمـاسـه وتجـمـع حـولـه مـريدون وانصـار له وأمنوا بقـوته الروحانية وانطووا تحت لواء دعوته للجهاد ضد الكفرة فى عدن.

لقد وقف الشريف اسماعيل عند باب الكعبة يدعو الناس للجهاد المقدس وخطب فى المساجد حاثا الناس على نصرة الحق والتف حوله كثير ممن أمنوا بكراماته واقتنع ببركاته وان جنودا من عند الله يقفون الى جانبه وان النصر سيكون على يديه وانطوى تحت راية الجهاد التى رفعها الشريف اسماعيل ابن الحسن كثيرون ممن استنهض همتهم.

واصبح حماسهم وغيرتهم على دينهم لأخراج الافرنج من عدن. وانضم الى الشريف اسماعيل الكثيرون من اهالى عبير ويام وياجل بشمال اليمن وتقدم الى الجنوب فى اتجاه عدن يبغى هو ومن حوله الجهاد فى سبيل الله وتناقلت القبائل فيما بينها ما حبا الله به الشريف من قوة روحانية لا يمكن قهرها وان النصر سيكون الى جانبه حتى جعله البعض ولى من أولياء الله الصالحين التى لا ترد له شفاعة عند الله وكان ينادى ويعلن على القاص والدانى (بأن مدافع الانجليز قد اطفأ الله شرارها وبعدت عن المجاهدين اشرارها) وعند تقدمه الى الجنوب اتصل بالامام فى صنعاء يطلب معاونته ومناصرته فى الجهاد المقدس فتردد الامام بل تقاعس عن مد يد العون والمساندة حتى انه شكك فى قوته الروحانية وادعى بأن ما قيل عنه ليس صحيحا حتى ان الامام ذهب الى ما هو ابعد من ذلك بالاعلان بأن الشريف ليس وليا من أولياء الله وان عليه ان يعتمد فى جهادة على

القوى الروحية التى يدعى انها ملك يمينه بل ان الامام امتنع عن امداده بأى معونات تساعده فى تقدمه الى الجنوب - وشكك فى امكان نجاحه وساعد ذلك على تفكك كثير من العرب وتفرقهم عن مناصرة حامل راية الجهاد وساعد موقف الامام على عدم تجمع الكثير من القوى الوطنية التى كانت فى الحقيقة غاضبة من احتلال الفرنجة لعدن.

وعندما وصل الشريف اسماعيل ابن الحسن الى أراضى الفضلى اجتمع بالسلطان وبعض ابنائه واشراف قبائل الفضلى فى منطقة خارون القريبة من لحج. ودعا السلطان ورجاله الى الجهاد المقدس تسبق ذلك دعوته ماذاع من كراماته وقوته وقدرته الروحانية التى لا يستطيع هزيمتها بشر.

وكان السلطان الفضلى فى وضع لا يحسد عليه فقد كان يتنازعه النداء الكامن فى قلبه هو ورجاله ليقوموا بتلبية دعوة الجهاد ومناصرة الشريف المكى. وتعويض خسائرهم السابقة وهزيمتهم امام العدو المحتل وبين التحرز من التورط والاضطرار لمواجهة قوة البريطانيين الشديدة والتى قاسى منها من قبل واصابته بجروح وخسائر لم يخمد لها جذوة بعد.

ودفع السلطان احترازه وحذره الشديد الى اطلاع البريطانيين فى عدن على نوايا الهجوم المرتقب من الشريف المكى ولم تكن تخفى نوايا الهجوم على هينز فإن عيونه المنتشره لم تكن غافلة ولذلك فإن ما قام به السلطان فى ابلاغه للبريطانيين لم يكن يرقى الى مستوى

خيانة مبادئ الرجل ولا تنكره لقضيته. فقد رد هينز عليه بأنه مطمئن لصلابة قواته وخطوطه الدفاعية وان لديه من القوة ما يكفى لصد هجمات الشريف المكى بل حتى وهزيمته وطرده بعيدا.

لم يلجأ السلطان الى الخيانة اخبر اعدائه البريطانيين الذين كانوا يعرفون سلفا خطط الهجوم وما يؤيد نفى هذه التهمة الخطيرة عنه انه عاون الشريف المكى قائد القوات المهاجمة بكثير من المؤن والزاد بل انه ترك المتطوعون من رجاله فى الانضمام الى قوات الشريف وساعدهم على الانطواء تحت راية الجهاد المرفوعة وانضمام ايضا متطوعون من العبادلة ومن ابين ومن الحواشب والعقارب حتى قارب عدد القوات المهاجمة ما يزيد عن الخمسة الاف مقاتل وكان الشريف اسماعيل ابن الحسن واثق من النصر مفحما بالايمان بأن الله مع المجاهدين ومما زاد من ثقته فى نفسه وفى رجاله انضمام مقاتلين جدد اليه وتقديم الهبات والمعونات من الأهالى التى تمر قواته باراضيهم وانتشرت بين اهالى عدن انباء عن معجزات الشريف اسماعيل وكراماته وانه لا يسنطيع البريطانيون او غيرهم فى الوقوف امام قوات الجهاد فى سبيل الله وتحسبا من قيام الحرب فى اى وقت هجر عدن عدد كبير من اهلها مبتعدين عن اماكن القصف والقتل وقد بلغت ثقة الشريف المكى فى عون الله وفى قدرته وقوة رجاله ان قام بارسال رسله الى هينز ، عدن وذلك فى شهر شعبان عام ١٢٦٢ هجرية وجاء فى رسالته (اسمع يا كابتن هينز سلم لى عدن وما فيها فإنك لن تستطيع الوقوف امام طريقى مهما كانت قوتك - انك - يا هينز ان استمعت الى نصيحتى وسلمت نفسك تسليما شريفا فإن الله جل

وعلا سيضاعف اجرك بسيمنحك بركاته ونكون اصدقاء حتى ولو كانت دياناتنا قد وضعتانا فى وضعين مختلفين وسيكون لك مالنا وعليك ما علينا اما ان ابيت ان تفعل ما امرك به فلا تلومن الا نفسك على النتائج واؤكد لك ان قدومى من بلد بعيد لم يكن فى سبيل المال بل من اجل الجهاد فى سبيل الله وعلى الله الاتكال).

ويذكر ان الشريف المكى حمل هذه الرسالة لثلاثين مندوبا من اتباعه اوصلوها الى هينز الذى بعد ان استلمها منهم امر بترحيلهم.

ولقد كانت ثقة الشريف المكى عظيمة فى ان الله تعالى يقف معه وما يؤكد ذلك ما جاء فى رسالته الى هينز وهى رسالة شديدة قوية تحمل التهديد والامر والنهى الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن بسرعة الرحيل وقواته والا سيقع عليه الوبال والهزيمة.

وكان حافز الشريف الرئيسى الحماس والجرأة بعيدا عن المكر والخديعة والمناورة التى تلزم فى الحروب وحتى ان رجاله رغم حماسهم وانطوائهم تحت راية الجهاد كانوا ذو مشارب شتى ومن قبائل مختلفة تتنازع فيهم عوامل النفوس البشرية من اختلافات واجتهادات وضعف وقوة رغم انهم جميعا تحت راية واحدة وهى راية الجهاد فى سبيل الحق. يضاف الى ذلك ان المعاونين الرئيسين للشريف المكى كانوا غير منظمين وقليلى الانضباط فكانت سيطرتهم على قواتهم ضعيفة ونظام تخطيط الأمور به كثير من عوامل الضعف والتفكك هذا الى جانب ان المواد الغذائية والذخائر التى كانت متوافرة لديهم لا تكفى لمعركة طويلة الامد وبلغة ذلك العصر لا تزيد عن بضعة ايام.

وتوافرت بعض المعلومات الضعيفة والمشكوك فيها فى كثير من الاحوال لدى قائد القوات المهاجمة الشريف اسماعيل فلم تكن لديه تفاصيل عن المراكز القوية عند بوابة اليمن ولا الخنادق الدفاعية المجهزة ولا اقواس النيران ومداها من قذائف مدفعية الاسطول البريطانى المحاصر لعدن ولا حتى اماكن تركيز وحدات المدفعية الأرضية على مرتفع سور عدن فى حين ان المعلومات كانت تصل الى القيادة البريطانية أولا بأول وانه خلال الفترة منذ بدء الاحتلال قام البريطانيون باصلاح القلاع والحصون الحاكمة وجهزوها بالمدفعية المتقدمة كما ان نتائج المعارك السابقة مع السلطان محسن اكسبت السفن المحاصرة لعدن ولنيرانها المتحركة امكانية اطلاق غلالات كثيفة ومركزة على القوات المهاجمة لعدن واكتسب الضباط والجنود خبرة فى سرعة نقل كثافة النيران ونقل غلالات المدفعية ليكون تأثيرها اعظم وادق.

عندما لم يرد هينز على رسالة الشريف اسماعيل وشعر انه تم تجاهل رسالته بعد ان رجع رسله دون اى جواب وبعد ان عوملوا معاملة مهينة فى عدن.

فأرسل الشريف مفرزة قتالية بغرضين هما جس نبض القوات المدافعة ومن ناحية اخرى استطلاع اماكن ضعف هذه القوات وزحفت هذه القوة التى تجاوز عددها اربعمائة مقاتل بقليل تحت قيادة احد اتباعه المقربين ومريديه الصادقين. وعند اقتراب هذه القوة من بوابة اليمن امام سور عدن وامام منطقة الخندق انطلقت النيران من

الناحيتين وكانت نيران البريطانيين مركزة ومدروسة وزادت كثافة النيران للمدافعين فأحدثت ارتباكا كبيرا فى صفوف القوة المهاجمة كما تسببت فى خسائر فى الافراد ليست قليلة ووقع اسيرين على الاقل فى يد القوات المدافعة وتم اجبار المهاجمين على الانسحاب والتجمع بعيدا عن النيران المؤثرة ولم يكتب لهذه المحاولة الهجومية النجاح وتعذر عليها اكمال مهمتها.

فعاود الشريف المكى ارسال قوة اخرى لتلتف من ناحية الشرق فى رأس عدن وكانت تتكون من خمسمائة مقاتل وقد اختار معظمهم من رجال العبدلى وابين حتى لا يوجد تنافر بين افراد القوات المهاجمة وتخير احد معاونيه المشهود لهم بالحزم والصلابة وتقدمت هذه القوة الى الرق من بوابة اليمن وبعيدا عن منطقة السور حتى يمكن الالتفاف من الخلف وسلكت القوة وادى ضيق بين الخيران القريبة من خور مكسر وكان الزحف فى وضح النهار فلم يكن من عادة العرب فى ذلك الوقت القيام بالهجوم فى الظلام.

ومن سوء حظ هذه القوة ان السفينة الحربية الضخمة سيزوستريس التى كانت قريبة من ابين وراقبت تقدم الوحدة المهاجمة واطلقت عليها نيران شديدة فككت قوة المقاتلين وتفرقوا وحدثت بهم خسائر عديدة ورغم انهم لجأوا الى التباب والمرتفعات القريبة للحماية من قصف مدفعية السفينة فوجدوا القذاف تنهال عليهم من القلاع والحصون المجهزة وصاروا فريسة للقصف المؤثر من البحر ومن الحصون على البر فما كان منهم الا التقهقر تحت كثافة النيران

واصبح من العسير السيطرة على الافراد حتى عند التقهقر لان غلالات النيران كانت تتحرك امامهم وعليهم اثناء التقهقر.

ورغم نتائج هذه العمليات الغير مشجعة ألا ان الشريف المكى ولاول مرة ارسل بعض قواته ليلا للوصول الى منطقة الخندق وطرد البريطانيين من جزء منه ورغم تحفظ بعض مساعديه على هذا الهجوم الليلى الذى يحدث لاول مرة الا انهم لم يجرؤا على الجهر بمعارضتهم حيث كان ايمانهم ببركة الشريف المكى لا يشوبها شائبة وان روحانيته وجنود السماء تعاونه وقامت القوة التى كانت قليلة العدد ومكونة من بضع عشرات من المقاتلين الاشداء بالتسلل ليلا الى منطقة الخندق وكان البريطانيون يدفعون قواتهم ليلا لنصب الكمائن فى عدة اماكن وعمل المصائد الذكية لمن يحاول الهجوم وبالفعل وقعت القوة المهاجمة فى عدة كمائن بعيدا عن الخندق وارغمتهم هذه الكمائن على التفرق والتشرد والتقهقر فى النهاية الى منطقة امنة.

وبدأ بعض الشك يدب فى صفوف قليل من رجال الشريف المكى وفى مدى كراماته وقوته الروحية حيث ان المناوشات والتحرشات التى تلت ثلاث هجمات كان مالها الفشل وبدأت روح القلق واليأس تدب بين الرجال وازداد انتشار القلق والتردد فيما بينهم ومما زاد الموقف تدهورا حدوث نقص فى المواد الغذائية وفى الذخائر حيث ان ما يتم استلاكه يصعب على القائد تعويضه ولما شعر الشريف اسماعيل بحدوث بوادر التخاذل بين صفوف قواته واحساسه بزيادة المتشكين من حوله واقتناعه بعدم جدوى تكرار محاولته التى لم يكتب لاحداها

النجاح حسم امره على القيام بالهجوم قبل ان ينفرط عقد قواته ويدب الضعف فيها. واتخذ الشريف قراره بمهاجمة عدن وقسم قواته الى فرقتين تتجه احد الفرق وتزحف على خندق السور تلك المنطقة التى اجاد البريطانيون تحصينها وتقويتها لتصد الهجمات المتوقعة عليها وجعل على راس هذه الفرقة احد اتباعه ومريديه الاقوياء والفرقة الاخرى تزحف نحو بوابة اليمن بغرض القضاء على القوة المدافعة عنها بعد ذلك تتقدم حول المنطقة الجبلية والخيران الممتدة فى رأس عدن الى خور مكسر وكريتر من الخلف حيث تتمركز القيادة البريطانية وقام الشريف بنفسه على رأس هذه الفرقة. واتخذ يوم الخامس من شعبان يوما مباركا للهجوم. ورغم حماس الشريف اسماعيل وبعض قواته الا أن اسلوب الهجوم كان معروفا مسبقا لدى القوات المدافعة ولسوء الحظ لم يدرس قائد القوات المهاجمة النقط القوية فى تحصينات البريطانيين خاصة فى منطقة السور وبوابة اليمن وكلاهما يشكلان عنق زجاجة لمدخل رأس عدن التى تحميها قلاع محصنة وابراج قوية وخنادق دفاعية مرتفعة عن منطقة الاقتراب التى كانت شبه منبسطة وان تخللها من التباب والغرود الرملية قليلة الارتفاع والتى كانت مكشوفة بالنسبة للقوات المدافعة ويعبر عنها العسكريون منطقة نيران قاتلة حيث مدى السلاح من مختلف العيارات يغطيها ويحيط المهاجمين من خلالها.

ولعبت السفينة الحربية سيزوريس على الساحل شرق ميناء عدن وكذلك سفينة حربية اخرى فى خليج عدن دورا كبيرا فى اصابة قوات الشريف خاصة التى حاولت الالتفاف الى خور مكسر فكانت

الاصابات مباشرة وحطمت جسر خور مكسر وانفرط عقد المهاجمين من حول الشريف اسماعيل ومما زاد الخسائر انه كان هناك تنسيقها مدروسا بين قصفات مدفعية السفن الحربية المتحركة ذات اقواس النيران الكاسحة ومدفعية القلاع والحصون وغلالات البنادق للجنود الذين يحتمون فى سواتر دفاعية سابقة التجهيز وخنادق عميقة مدعمة بالحجارة والموانع الصعبة ورغم النداءات المتكررة والتكبيرات العالية بالثبات فى الجهاد ألا ان الخسائر التي وقعت كانت كثيرة ومؤثرة وفلت الزمام فى السيطرة على العناصر المهاجمة واضطر القائد الى الرجوع الى منطقة ابين بعد ان سبقه بعض اتباعه الذين وجدوا انفسهم بلا قيادة وتحت رحمة الجوع والعطش ونيران المدفعية التى لا ترحم ومما انهك القوات المهاجمة المتبقية انتشار مرض الكوليرا والطاعون نتيجة كثرة القتلى ـ وضعف الوسائل الطبية ونظام معالجة المصابين والتى كان معظمها بدائيا للغاية فساعد ذلك على تفرق الاتباع فى مختلف الاتجاهات ونتيجة نقص المواد الغذائية وشدة الجوع حتى وصل الحال الى ان بعضهم كان يبيع بندقيته فى مقابل رغيف من الخبز يسد به رمقه واسرع السلطان احمد بن عبدالله الفضلى لنجدة الشريف اسماعيل وباقى رجاله بعد ان انهارت مقاومتهم وتوزع شملهم وانفلت رباطهم ولجأ الشريف وباقى اتباعه الى ابين فى رعاية سلطان الفضلى الذى حاول بدورة قفل الطريق الى عدن ومنع الامدادات عن القوات البريطانية ألا ان هينز امر قواته بمحاصرة الساحل وارغام السلطان على فتح الطريق مرة ثانية وقد حاول الشريف طلب النجدة والمعاونة من امام صنعاء ألا ان الامام

خذله ولم يستجب مرة ثانية لنداءاته في معركته مع العدو ولم تمض ايام قليلة على هزيمة قوات هذا المناضل العربى الكبير الشريف اسماعيل إلا وتعرض لعملية قتل غادرة نفذها احد البدو من اهالى ابين نظير بعض الاغراءات الهزيلة التي وعده بها الموالين للقوات المحتلة.

وبمقتل الشريف اسماعيل ابن الحسن فشلت محاولة طرد البريطانيين من عدن والتي كان مصدرها من الحجاز وشعارها الجهاد فى سبيل الله.

ولجأ البريطانيون الى شن سلسلة من الانتقامات ضد كل من تعاون او ظاهر الشريف اسماعيل بل ان المحاولة اثارت حنق البريطانيين البالغ فاستبدلوا اسلوب اللين بأسلوب متشدد مع الاهالى واوقفوا بعض المرتبات التى كانوا يدفعونها وصعدوا لغة التهديد لكل من يصدر عنه ما يعارض وجودهم في عدن ومن ناحية اخرى طلب هينز من حكومته في بومباى زيادة دعمه بالقوات والسلاح حتى يستطيع القضاء على عمليات المقاومة المتكررة وان يقتلها وهى فى مهدها خاصة وانه لم يكن مضى على الاحتلال البريطانى لعدن مدة كبيرة ألا وتعددت محاولة طردهم والقيام بشن الهجمات عليهم بمعدل هجوم مضاد كبير مرة واحدة كل عام.

وواكبت اعمال الهجمات الكبيرة عمليات صغيرة متعددة ومتنوعة ولم تهدأ اعمال التحرش رغم الاغراءات التى قدمتها قيادة قوات الاحتلال من مرتبات وهبات وتسهيلات مختلفة وتعتبر معركة الشريف

اسماعيل ابن الحسن نقطة تحول جوهرية فى موقف الأوضاع العامة فى عدن فمن ناحية اهالى البلاد اصابهم الاحباط نتيجة الفشل المتكرر فى محاولات طرد البريطانيين من عدن وخاصة المحاولة الكبرى التى قام بها الشريف اسماعيل وسرى فى قلوبهم الوهن وضعفت روحهم المعنوية.

وساد شعور لدى الاهالى بأن البريطانيين من القوة الضخمة التى لا يمكن الانتصار عليهم بل ان اليأس بدأ يتسرب الى زعماء الاهالى ايضا ورؤساء العشائر. فبعد الهزيمة الكبيرة التى لحقت بقوات الشريف اسماعيل سنحت الفرصة لمستر هينز بتدعيم وتثبيت قواته بل والعمل على زيادة التحصينات وتقوية الدفاعات فى عدن وانعكس هذا الموقف فى الفترة التالية الى وقوع سلسلة من الاتفاقات والمعاهدات من منطلق القوة وموقف المنتصر بعد الهزائم المتكررة التى حاقت بالقبائل المحيطة بعدن. وبأسلوب سياسة الاستعمار المرن بدأت هذه الاتفاقات والمعاهدات بغرض تحقيق الصداقةوالسلام المتبادل بين اهالى المنطقة والقوات المحتلة وتطورت فيما بعد لتكون هيمنة وسيطرة وحماية وبعد وفاة سلطان العبدلى تولى اخوه على السلطنة وكان البريطانيون يهتمون بموقع سلطنة العبدلى والفضلى لقربهما من عدن كثيرا ولمرور معظم الطرق الى باقى بلاد الدخل خلالهما.

ورغم موافقة السلطان على توقيع معاهدة الصداقة والسلام بينه وبين البريطانيين ألا انه فى احيان كثيرة كان يقوم بتحريض بعض القبائل المجاورة على مهاجمة البريطانيين والاغارة على امداداتهم

وذلك فى اطار من الحيطة والحذر والمكر التى كانت من سماته ورغم الهدوء النسبى الذى ساد عدن بعد المعركة الكبرى مع الشريف اسماعيل الا ان المتاعب ظلت قائمة ومتنوعة ولكنها فى مجملها كانت اعمال فردية وكانت تسبب القلق والمتاعب للبريطانيين بل ان استمرار هذه الاعمال كان بمثابة استنزاف لا يتوقف وحدوث خسائر فى الافراد والممتلكات تعوق استقرار القوات المحتلة وحاولت القيادة البريطانية وعلى رأسها المقيم السياسى هينز استخدام الشدة والعنف وحتى البطش بمن يسبب هذه المصائب ومن يقف وراء هذه الأعمال العدائية حتى ان هينز طلب من حكومته القيام بهجوم على ابين والمناطق فى الداخل وحتى اللجوء الى تدمير بعض القرى التى كانت من اسباب الصداع المستمر للبريطانيين فى عدن وتمادى فى طلبه وايدته حكومته فى بومباى بالتوغل الى الداخل وان ينزل بقبائل ابين اشد صنوف الانتقام والتأديب سواء فى الاشخاص أو فى الممتلكات ورغم تجهيز هينز لقواته وانتظار الضوء الاخضر لعملياته العسكرية ضد قبائل ابين الا ان حكومة لندن رفضت دخول القوات البريطانية الى بلاد ابين والمناطق المتاخمة لها الا فى حالة الضرورة القصوى وكان ذلك معناه توقف هينز عن تنفيذ مخططة الهجومى والاكتفاء بارسال التهديدات القاسية لسلطان ابين فى حالة استمرار الاخير فى رفع راية العداء وتعدد الهجمات المعادية والإغارات المتتابعة على المصالح البريطانية بالمنطقة وامر هينز بطرد رعايا العبدلى والفضلى من عدن وشدد حصار قواته على بئر احمد وتوابعها من اراضى مشيخة العقربى ومنع الدخول والخروج من ميناء شقرة

التابع لسلطان الفضلى وصار شعار هينز فى هذه الفترة فرق تسد وحرض القبائل بعضها على بعض وتودد للبعض وقلب ظهر المجن على الآخرين وتجاوز هينز رغم دهائه الوسائل الاخلاقية فى سطوته في عدن فيما ارتاه يخدم مصالح الوجود البريطاني ويمنع الاستمرار لاستقراره.

ضرورة احتلال منطقة الشيخ عثمان

كان الاتفاق بين هينز وسلطان العبدلى ان تكون الحدود الفاصلة بين قاعدة عدن وبلاد العبدلى خط يمر بجسر خور مكسر وهذا الجسر يبعد حوالى اربعة كيلو مترات عن قرية الشيخ عثمان فى الشمال والتى يقع قريبا منها منطقة بئر احمد التى تزود عدن بالمياه بل كانت المصدر الرئيسى لامداد السفن بالمياه عند رسوها فى عدن ورغم الهزائم التى لحقت بالعبادلة من قبل ألا أن السلطان على محسن ظل فى نفسه لهيب الغضب على الوجود البريطانى لا يخمد ولا يضعف وكان يقوم بالتأليب للقبائل المجاورة ومحاولة الصيد فى الماء العكر لكل ما يصيب قوات الاحتلال بالضرر والقلق حتى انه كان يشجع الوطنيين على القيام بالاغارات وقطع طرق الامداد الموصلة الى عدن عن طريق الشيخ عثمان وسبب ذلك متاعب عديدة لهينز ورجاله وقد طلب هينز من حكومته فى بومباى مهاجمة الشيخ عثمان والسيطرة على المنطقة للحد من المتاعب الشديدة التى تلقاها القوات

البريطانية في عدن ورغم الموافقة المبدئية لحكومة بومباي ألا أن حكومة لندن عارضت التورط في داخل البلاد وطالبت هينز بأن يتم معالجة العلاقات بالوطنيين في الداخل بالتراضي واكتسابهم في صفة باللين والحكمة وقد وصف هينز السلطان على محسن العبدلي بأنه يشبه الحية التي تعيش بين الحشائش وانه سوف لا يتواني عن اللدغ في مقتل عندما تسنح له الفرصة لذلك حاول هينز عدة مرات الحد من عداء رجال العبدلي ألا أن كل محاولاته باءت بالفشل لاصرار العناصر الوطنية وعلى رأسهم السلطان على ضرورة طرد القوات البريطانية من عدن ومما ضاعف من متاعب القوات البريطانية ان سلطان العبادلة ضاعف الضرائب التي تدفعها القوافل التي تحمل احتياجات القوات في عدن وتمر في أراضي العبادلة وزاد من احتمالات تفجر الموقف من جديد تقديرات القيادة البريطانية في عدن بامكانية سلطان العبدلي فرض ضرائب على مصادر المياه الرئيسية في منطقة بئر احمد وما يترتب على ذلك من صعوبة حصول البريطانيين والسفن في عدن على المياه.

إلا إنه منذ عقد الاتفاقية بين قبائل العبدلي والفضلي والقوات البريطانية بعد الهزيمة التي لحقت بقوات الشريف اسماعيل ألا ان المصادمات بين الطرفين استمرت وتصاعدت وان لم تتخذ صورة الهجمات الشمولية مثلما حدث من قبل ولكن الاعمال العدائية كانت في تزايد مستمر ولم يكد بمضي ايام على توقيع الاتفاقية ألا ووقعت عملية معادية للوجود البريطاني في عدن فقد خرج اربعة جنود اثناء راحتهم الى منطقة الساحل وكان الطقس خريفيا مشجعا ونصبوا

خيمة صغيرة وبداوا فى احتساء الخمر واكل بعض اللحم المشوى الذين جلبوه معهم.

وباغتهم بعض الاعراب من ناحية الشيخ عثمان واطلقوا عليهم النيران فقتلوا واحد واصيب اثنان واستطاع الرابع الفرار واستولى المهاجمون على بنادق الجنود الأربعة فقد كانوا في حالة استرخاء واستجمام وعندما سارعت القوات البريطانية بعد ان علمت بخبر الاعتداء لمطاردة المعتدين لم تعثر لهم على اثر فقد هربوا الى الداخل وعندما رست السفينة الحربية بالقرب من الساحل شرق ميناء عدن ونزل بعض البحارة يجمعون قواقع البحر من الساحل ويمرحون مع بعضهم البعض قام البدو وقتلوا واحدا واصابوا الثانى وفر الباقون فى اتجاه البحر سباحة نحو الزورق الذين اتو به. وتلى هذه الحادثة قيام بعض الوطنيين باختطاف احد الجنود البريطانيين وهربوا به الى الداخل فى اتجاه بئر احمد ألا ان الجندى حاول الهرب وقام بمحاولة خنق احد الخاطفين فقتلوه وهربوا الى الداخل وقامت داوريه بريطانية لتمشيط المنطقة التى حدثت بها عملية القتل ولم تعثر على احد من المواطنين المعتدين وكان من عادة الجنود ان يذهبوا الى السوق الوطنية قرب باب السلب فى عدن للتفرج احيانا وللشراء احيانا اخرى فقام احد الوطنيين بالاعتداء على احد الجنود واصابه اصابة خطيرة بخنجره وجرى هاريا ناحية باب السلب ولكن الجنود البريطانيين المرافقين لزميلهم الجريح اطلقوا عليه نيرانهم وقتلوه.

وتكررت الحوادث والاعتداءات الفردية فى صور متعددة واماكن مختلفة ومن ضمن تلك الحوادث التى كان لها وقع شديد لدى القوات البريطانية فى عدن حادثة الكابتن ميلين حيث نظم بعض الضباط رحلة ترفيهية الى الساحل المجاور لميناء عدن وكان يرافق هذه المجموعة سكرتير المقيم السياسى البريطاني الملازم أول كروتندن وعندما حل المساء قرروا قضاء ليلتهم فى قرية الوهط من بلاد لحج وتخلى الضباط عن حذرهم وصرفوا الحراس ولجأوا الى الاسترخاء والاستمتاع بوقتهم وكان المنزل الذى يبيتون فيه مثل نظام البيوت العربية ذو فناء واسع ومن دور واحد واخذ الضباط يشربون الانخاب ويستمعون لبعض الأغانى البريطانية المشهورة فى ذلك الحين. وخلال ذلك تسلل الى داخل المنزل احد الوطنيين الاشداء والذين كانوا يكنون الكره والعداء للبريطانيين بسبب مقتل شقيقه فى اثناء الهجوم على سور عدن فى محاولات السلطان الفضلى لطرد قوات الاحتلال.

ونجح المهاجم فى اصابة كابتن ميلين اصابة قاتلة واصاب اثنين اخرين بجروح خطيرة وضابط رابع بجروح متوسطة وتمكن من الهرب من المنزل فى لحظة ذهول مفاجئة لمجموعة الضباط واسرع المعتدى باللجوء الى منطقة ابين تحت حماية السلطان احمد بن عبدالله الفضلى سلطان ابين.

ولم تنجح المفاوضات فيما بعد فى ارغام سلطان ابين بتسليم الوطنى رغم الضغوط العنيفة التى تعرض لها حيث كان العرف السائد ان العربى لا يخون من يلجأ الى حمايته مهما كلفه ذلك من

متاعب ومصاعب وتعددت وتنوعت الصدامات بين الوطنيين واعدائهم حتى ان احد البدو من منطقة بئر احمد قدم إلى التواهى وهى احدى مناطق عدن الغربية وكان هدفه قتل هينز المندوب السياسى البريطانى وكان هذا الوطنى ممن شاركوا من قبل مع الشريف اسماعيل ولم تهدأ نفسه رغم مضى فترة زمنية على تلك الهزيمة وعندما زادت الامة النفسية فوضع نصب عينيه القضاء على اكبر رأس فى قوات الاحتلال ولم يكن سبق له ان رأى هينز ولكن سمع انه كبير وزعيم القوات البريطانية فبيت النية على قتله ولا يبغى سواه انتقاما لما حاق بالشريف اسماعيل ورجاله وهزيمتهم الصعبة. ورغم عدم معرفة هذا الوطنى بمكان اقامة مستر هينز ألا أنه نزل الى منطقة التواهى جنوب سور عدن واثناء سيرة قرب منطقة السور قابلة جنود بريطانيون كثيرون ولكنهم كانوا مترجلين ولمح احد الضباط وهو يركب حصانا مزينا علاوة على انه وجد هذا البريطانى يلبس ملابس تختلف عن باقى الجنود السائرين على اقدامهم وبدلته التى كان يرتديها كانت مزينة وتلمع عليها قطع من النحاس البراق فتوهم انه لابد ان يكون هذا البريطانى المميز دون باقى الجنود هو الزعيم والرئيس لهم.

وظنه انه مستر هينز فتقدم منه وادعى ان معه عريضة يريد ان يعرضها عليه ولما لم يستجب الضابط لطلب الوطنى لجأ الى قطع سرج حصانه واوقعه على الأرض وعاجله بطعنات ألا انها لم تكن فى مقتل من الضابط الذى نجح فى قتل هذا الوطنى.

ولجـأت القـيـادة فى عـدن الى تعليق جـثـة هذا الـوطنى على باب السلب فى عدن كعبرة وعظه لباقى الاهالى واختاروا تعليق الجثة على باب السلب لان معظم القادمين والخارجين من عدن لقضاء مصـالحهم من المواطنين يمرون عبر هذا الباب فيرون جثة زميلهم معلقة ورغم ذلك الاسلوب العنيف واللانسـانى الذى اتبـعه البريطانيون فى تعليق جثة المواطن ألا ان حرارة الغضب لم تضعف واصرار الوطنيين على المقاومة ظل مستمرا بل وكان فى ازدياد حتى انه لم يكد يمضى على حـادثة باب السلب اكـثـر من شـهـر واثناء وقـوف اثنين من الجنود البريطانيين امـام مـتـجـر احـد العـدنيين يسـاومانه فى شراء بعض الاغراض وفى اثناء فترة الاخذ والرد بين البائع والمشترى وانهماك الجنديين فى تفـحص الغـرض اللذين يريدان شـرائه الا وتقـدم احد الوطنيين ونزع بندقية احد الجنود وهرب بعيدا ألا ان الجندى الاخر سارع الى اطلاق نيران سـلاحـه واصـاب اثنين من المواطنين الأبرياء وتمكن المعتدى من الهرب بغنيمته فتجمهر المواطنون حول المصابين وقاموا بالاعتداء بالضرب المبرح على الجنديين البريطانيين واخذوا البندقية الثانية من الجندى الاخر وكاد المواطنون يفتكون بهما لولا تدخل بعض الجنود الاخرين ساقتهم الصدفة فى ذلك الوقت للمرور فى نفس المكان الا ان الجنود نجحوا فى اخذ زميليهما بصعوبة واسرعوا فى اتجاه قيادتهم خوفا من الغضب العارم الذى تزايد فى وقت قـصـيـر وكـان نصـيب الجنود عند هروبهم ان القـيت عليـهم الاحـجار من كل جانب انتقاما لاصابة المواطنين بالرصـاص ولجأت القيادة البريطانية لتهدئة الموقف فيما بعد بل أنها عرضت معالجة

المصابين في المستشفى بالاضافة الى دفع تعويض مناسب لهما وكان الغرض من ذلك اكتساب المواطنون وترضية الاهالى وتجنب عدائهم الشديد أو حتى تقليل هذا العداء الذى بات لا يخفى على البريطانيين ولم يمض وقت كبير على حادثة السوق واصيبت احدى السفن الصغيرة بعطب وتحطمت على الشاطئ شرق ساحل عدن فهاجمها رعايا السلطان على محسن وقتلوا بعض البحارة ونهبوا حمولة السفينة وتفاديا لانتقام البريطانيين وتحاشيا لذلك ارسل اعتذار شفويا الى البريطانيين لان ما حدث ليس من قيم وقوانين البدو الذين كانوا عليهم المسارعة لنجدة رجال السفينة المحطمة ومساعدتهم وانقاذهم، غير ان ما حدث كان بهدف السرقة وقام به لصوص وحق على رئيسهم الشنق الذى تم تنفيذه فيه وقد تم سياق بعض الحوادث العدائية ضد الوجود البريطانى للدلالة على ان الوطنيين لم تضعف مقاومتهم ولم تفتر عزيمتهم بل ان عداؤهم المتمثل فى قيامهم باعمال عدائية متفرقة يؤكد استمرار الغضب وزيادة الرفض لوجود محتل فى بلادهم.

وزاد غضب هينز الشديد واصر على القيام بمعاقبة القبيلة التى يثبت معاداتها للوجود البريطانى ولجأ مستر هينز الى العنف والشدة بعد ما استنفذ وسائل اللين والاتفاقات التى كانت فى غالب الاحوال لا توضح موضع الاحترام من الطرفين.

ونظرا لان أرض الفضلى كانت مصدرا لمعظم الهجمات الكثيرة المعادية فقام هينز بمحاصرة موانى ساحل ابين ونفذ بعض الأعمال

العنيفة ضد سلطان الفضلى وعمد الى تجهيز حملة للدخول الى بلاد الفضلى وهدم بعض القرى وتدمير الممتلكات والقيام بحركة تأديب واسعة لمن يفكر حتى فى محاولة الاعتداء أو المقاومة للوجود البريطانى وكان شعار هذه الحملة الانتقام والقضاء المبرم على روح المقاومة والتمرد التى سببت الكثير من المتاعب لهينز ورجاله ألا انه بعد ان اتم استعداده ووافقت حكومة بومباى على خطته التأديبية فى الداخل رفضت لندن تنفيذ هذه الخطة واكتفى هينز بعد ذلك بارسال تهديدات مباشرة الى سلطان ابين متعللا بحمايته لقاتل الكابتن ميلين وبطبيعة الحال رفض السلطان كل الضغوط وجميع التهديدات لان ما يسميه البريطانيون اعتداء يجب مقاومته والقضاء عليه كان يسميه العرب بطولة وشجاعة فجزء من بلادهم اراضى محتلة وحقهم المشروع طرد هؤلاء المحتلين واللجوء الى كل الطرق لتحقيق هذا الغرض مباحة.

وانتهت فترة هينز فى عدن نهاية سيئة بعد ان وجهت له حكومة الهند عدة اتهامات خطيرة وارجعت ذلك الى سوء اداراته وقلة حزمه وخلفه مقيم سياسى اخر لم تستمر فترته طويلا وان كان قد سار على نهج سلفه فيما يتعلق بالسياسة التى رسمها البريطانيين فى عدن وفى المناطق المحيطة بها حتى ان المقيم السياسى الذى عين فيما بعد سار على نفس النهج الذى رسمه هينز واتبع الاسلوب الشهير «فرق تسد» وكان هذا المقيم يدعى «اوترام» ورغم تعضيد حكومة الهند البريطانية لكل مطالبة بتعزيز قواته ودعم الوجود البريطانى ماليا فى عدن آلا أن أوترام لم يستمر طويلا ورجع إلى الهند بعد مرضه وخلفه

«الكولونيل كوجلان» ورغم العلاقة الودية ظاهريا مع السلطان على محسن فضل العبدلى آلا أن استمرار أعمال المقاومة وقطع الطرق والإغارة على القوافل ومهاجمة البريطانيين عند الانفراد فساءت العلاقات كثيرا بين كوجلان وقبائل الفضلى والعقربى ورغم أن كوجلان كان يتبع بصفة عامة القواعد التى وضعها هينز ألا أنه نتيجة للمقاومة المستمرة لجأ كوجلان إلى كسب ود بعض القبائل اليمنية القوية الأخرى مثل قبائل العوالق السفلى حتى تقف موقف الحياد حيال عناد وعداء وقبائل الفضلى والعقربى وقد لجأ كوجلان أيضا إلى اتباع أسلوب الإغارات الليلية على المناطق الساحلية للقبائل المعادية بغرض إرهابها وأحداث خسائر فى ممتلكاتها ترغمها على الحد من نشاطها المعادى للبريطانيين هذا بالإضافة إلى استمرار الحصار المفروض على شقره وزادت حدة الخلاف بين سلطان لحج والمقيم السياسى البريطانى فقد كان كوجلان أكثر حدة وميلا للعدوان من هينز واستمر سلطان لحج فى تحريض القبائل المجاورة خاصة قبيلة الصبيحى التى تعاون معها ودفعها إلى القيام بإغارات متعددة بالقرب من الشيخ عثمان خاصة على القوافل القادمة من الداخل وكذلك لجأ سلطان عدن ورجاله إلى حماية بعض المتهمين بقتل بعض البريطانيين واستقبالهم لهم وترحيبه بلجوئهم إلى حمايته ونتيجة للموقف المعادى لسلطان لحج أصبحت عدن مهددة بالأنعزال عن المناطق الداخلية التى تتزود منها باحتياجاتها حيث ازدادت اعمال قطع الطرق ونهب القوافل والقيام بالإغارات المحدودة على المصالح البريطانية بالقرب من عدن بل مما زاد الموقف سوءا وتوترا لجوء

السلطان على محسن بفرض مكوس على مياه بئر الشيخ عثمان المصدر الرئيسي لتزويد عدن بالمياه وكذلك السفن التي ترسو في ميناء عدن وكان من نتيجة هذه الضريبة أن اضطر المتعهدون في نقل المياه إلى عدن على التوقف مما تصاعدت معه الأزمة وزاد العداء وخشي كوجلان أن يلجأ السلطان اللحجي إلى فرض ضرائب إضافية على القوافل القادمة من الداخل في طريقها إلى عدن بالمؤن والاحتياجات المختلفة مما يجعل وضع القوات البريطانية حرجا للغاية في عدن وقد يجعلها ذلك رهينة في يد سلطان لحج ورجاله يضيق الخناق عليها إذا أراد وأنزعج كوجلان لهذه المؤشرات وخشي من أن حدوث مثل هذا التصرف المعادى أن يضعف من هيبة الوجود البريطاني ويشجع القبائل على زيادة هجماتها وعدائها بل وتجاسرها على القوة البريطانية وخاصة سلطان العبدلي الذي لم تنفع مع عناده واصراره ورجاله على المجاهرة بالعداء وعدم التزامه بالاتفاقات المبرمة مع القوات البريطانية.

لجأ كوجلان إلى أخذ موافقة حكومته على الاستيلاء وأحكام السيطرة على الشيخ عثمان حسما للأضرار المتلاحقة على حد تقديره للموقف والمناوشات التي لا تهدأ أن لم تكن في تصاعد مع مرور الأيام كما أوضح بأنه بالاستيلاء على الشيخ عثمان سيضطر السلطان إلى الإذعان للمطالب البريطانية وتخفيف حدة العداء المستحكم وزيادة على ذلك استخدام القبضة القوية على عدن وإظهار القوات البريطانية بأنها الأقوى والأعظم في أي وقت ومتى شاءت لإظهار هذه القوة ويكون من نتيجة ذلك إرهاب الاهالي وأخافة القبائل

المجاورة والحد من شدة المقاومة التى بدأت حدتها تزداد ومتاعبها للبريطانيين تتفاقم وتؤثر سلبا على وجودها فى عدن وعلى مصالح البريطانيين التى أصبحت ضرورة فى هذه المنطقة الحيوية بالإضافة إلى ما تقدم فإن كوجلان كانت طبيعته عنيفة وأسلوبه شديدا بخلاف الأسلوب الذى أتبعه هينز فى السابق وكان يهدف كوجلان للضغط الشديد على السلطان حتى يتم تسليم الوطنيين الذين يقومون بأعمال المقاومة ومهاجمة أفراد القوات البريطانية ثم الالتجاء إلى السلطان للحماية ولذلك عقد النية كوجلان على الاستيلاء على منطقة الشيخ عثمان مفتاح المشاغبات الوطنية المستمرة ومركز تحكم عدن فى الطرق المؤدية إلى الشمال والشرق حيث الد القبائل عداوة للوجود البريطاني عدن.

الشيخ عثمان معقل المقاومة الشعبية

تقع قرية الشيخ عثمان فى الشمال الغربى لخور مكسر وتبعد بمسافة لا تتجاوز اربعة كيلو مترات الا أن الطريق الرئيسى من لحج الى عدن يمر بهذه المنطقة ويتحكم فى هذا الطريق شمالا مجموعة من المرتفعات تجعل التحكم والسيطرة وحتى قطع الطريق ووقف مرور قوافل التموين الى عدن امرا ميسورا لمن يسيطر عليها.

كما ان الطريق المؤدى الى شقرة فى ابين شرقا يمر بالشيخ عثمان وكذلك الطريق الى قبائل الفضلى ويقع غرب الشيخ عثمان بئر أحمد علاوةعلى وجود عدة ابار فى الشيخ عثمان تعتبر المصدر الرئيسى لامداد عدن بما تحتاجه من مياه وكان النظام السائد فى ذلك الوقت هو قيام مقاولون متخصصون فى نقل المياه من آبار الشيخ عثمان وبئر احمد على الابل والبغال الى عدن ولذلك وافقت الحكومة البريطانية فى بومباى على طلب كوجلان بالاستيلاء على

منطقة الشيخ عثمان واضافت انه موافقتها ان ارسلت اليه تعزيزات عسكرية ومالية.

وكان كوجلان يهمه ان يقوم بحركة تأديب السلطان وكسر شوكة المقاومة للوجود البريطاني التي تتخذ من الشيخ عثمان ملاذا بعد القيام بالاعمال التعرضية للبريطانيين وكان السلطان يأويهم ويمنع تسليم ايا من هؤلاء الوطنيين الاشجعان الى المندوب السياسي في عدن. بالاضافة الى ذلك فان فرض السلطان مكوسا زيادة على قوافل الامداد القادمة من الداخل كانت تشكل تهديدا مباشرا وملحا للقوات البريطانية.

وكانت الحامية الوطنية الموجودة في الشيخ عثمان قليلة العدد وليس لديها سوى مدفع واحد موجود في القلعة الوحيدة في المنطقة وقد تنبه السلطان علي محسن سلطان لحج الى ما يدبره كوجلان والى نيته المبيتة في مهاجمة الشيخ عثمان.

الا ان كوجلان جهز قوات كبيرة بعد وصول التعزيزات الى عدن من الهند وكانت هذه القوات مدعمة بالمدفعية وقوات من المشاة البحرية بحيث أن القوة المهاجمة قد جاوزت الالف جندي. هذا بالاضافة الى تخصيص سفينة حربية متمركزة امام الساحل الجنوبي قريبة من ميناء عدن احترازا مسبقا تفرضه تطور الاحداث وسرعة التدخل لتعزيز عمليات الهجوم.

ورغم الشجاعة الكبيرة التي ابداها رجال الحامية الوطنية الا ان كثافة نيران وحدات الهجوم المهاجمة وكذلك القصف المدفعي من

الساحل وقلاع خور مكسر احدث خسائر شديدة في الحصة ونـ الوطنية التي كانت قليلة العدد قليلة العتاد وبديهيا ماذا يعيد مدفع وحيد في قلعة الشيخ عثمان ضد عشرات المدافع المعادية التي كانت تقصف بلا هوادة وتحرك اقواسها ونيرانها بكثافة عالية على اماكن الهجوم المكثفة.

وقد اخطات القوات المدافعة في أنها تمركزت في حصن الشيخ عثمان وحوله حيث كان يقع هذا الحصن جنوبا في مواجهة خور مكسر ولذا قامت القوات المهاجمة بتركيز قصفها الثابت والمتحرك على الحصن فدمرته واصابت عددا كبيرا من القوات المدافعة خاصة مدفعية الهاون المؤثرة في الافراد حتى زاد عدد الشهداء من المدافعين عن الخمسين فردا وكان ذلك في شهر مارس ١٨٥٨ وفي هذا اليوم تقدمت القوات المهاجمة بعد تدمير الحصن وتفرق القوات المدافعة واستولت على الطريق الرئيسي القادم من الشمال الى عدن حيث يعتمد على قوافل التموين المتمركزة في عدن ولم يصمد المدافعين ضد النيران الكثيفة التي اطلقتها القوات المهاجمة وتم الاستيلاء على الشيخ عثمان في نفس يوم الهجوم وتحت تاثير الهزيمة في الشيخ عثمان سارع السلطان وابدى استعداده للتفاهم والصلح الشامل مع البريطانيين في عدن وارسل السلطان الى كوجلان بالتاكيدات بقبوله لمشورة المقيم السياسي البريطاني وتوقفه عن ابداء السلوك المعادي وفتح صفحة جديدة على اساس جلاء البريطانيون عن الشيخ عثمان الحيوية وفي المقابل تعهد السلطان ورجاله باجابة جميع المطالب البريطانية في ذلك الوقت.

وباحكام سيطرة البريطانيين على الشيخ عثمان تم تدعيم نفوذهم بصورة عظيمة خاصة بين القبائل المجاورة واصبحت الطرق المؤدية الي عدن من الشمال طرقا امنة وضمن البريطانيون استمرار تدفق مياه الشرب من بئر الشيخ عثمان وبئر احمد بما يضمن المياه العذبة للقوات البريطانية فى عدن وتوفيرها للسفن الراسية فى الميناء والتى كانت فى تزايد على ممر الايام بنتيجة النشاط التجارى وتحول تجارة البن اليمنى من المخا الي عدن.

وبذلك حقق المقيم السياسى في عدن هدفه من احتلال الشيخ عثمان وباركت حكومة الهند البريطانية اسلوب اجراءات استخدام العنف والشدة الحاسمة حتى تضمن استقرار سيطرتها على عدن بالاضافة الى انه بعد السيطرة على الشيخ عثمان اصبحت مفاتيح الداخل مركزة فى يد القوات البريطانية التى بعد استيلائها على الشيخ عثمان بفترة قصيرة ارسلت حملة الى شقرة وسيطرت عليها بغرض تأديب المناوئين والحد من نشاط الهجمات الفردية المتكررة.

وقويت قبضة البريطانيين على منطقة الشيخ عثمان واستخدموا الشدة والقوة اكثر مما كان سابقا خاصة بعد وفاة السلطان على محسن سلطان لحج ذلك الثائر القوى الذى عارض وحارب الوجود البريطاني في بلاده هو ورجاله فضعفت شوكة الوطنيين وهدأت أعمال المقاومة نسبيا عما قبل واستقرت الاوضاع وازدهرت التجارة فى عدن وكثر عدد السفن الراسية فى الميناء وزاد الرواج فى المدينة واستغلت القيادة البريطانية فى عدن هزيمة سلطان لحج فى الشيخ

عثمان واستقرار الاحوال للنفوذ البريطاني واتجهت الى ابين للقضاء على المقاومة حيث السلطان وكان يشجع رجاله على قطع الطرق ونهب القوافل المارة ببلاده والمتجهة الى عدن وساعده في ذلك كثير من الرجال الوطنيين الذى زاد غضبهم واحتدت مقاومتهم للبريطانيين حيث رفضوا هزيمة لحج في الشيخ عثمان وانتقل بعضهم الى ابين واستمروا في مهاجمة القوات البريطانية باغارات خاطفة او هجمات فردية وكان الاختلاف شديدا بين السلطان على محسن وخليفته فبعد ان ظل السلطان على محسن يمثل المقاومة للوجود البريطاني ويتزعم الرفض والهدف طرد البريطانيين من البلاد واشتراك في الهجمات المتعددة وعاون الرجال الوطنيين بكل مساعدة كان على النقيض السلطان الجديد.

وهو السلطان فضل محسن الذى تعاون مع الوجود البريطاني وعقد اتفاقات معهم اضافية تضمنت تحقيق لكل ما يرغبون فيه حتى أن السلطان فضل قام بمعاونة البريطانيين معاونه مباشرة في القيام بالهجوم على ابين وتأديب سلطانهم الثائر الذى رفع راية المقاومة فى الشرق والشمال من عدن ويبدأ يأخذ دوره الوطنى خلفا للسلطان على محسن سلطان لحج ولاول مرة تقوم حملة بريطانية تساندها قوة من رجال العبادلة يهدف تأديب ابين وسلطانها لجرأته وجهره بمعاداة البريطانيين والعمل على مقاومتهم بالسلاح كلما امكن ذلك وهاجمت القوة البريطانية المجهزة تجهيزا عاليا وتمكنت من هزيمة السلطان احمد بن عبدالله عند بير سعيد واتجهت القوة بعد ذلك الى العصلة ومنها الى الكور وبعدها الى عمودية وحطموا المقاومة فى هذه البلاد

وهدموا الحصون ونتيجة لذلك تفرق الوطنيون الى الداخل بعد أن شاهدوا عنف القصف البريطاني وسوء معاملة الوطنيين مما اثر تأثيرا سيئا على الروح المعنوية الا ان هذا العنف البريطاني زاد من شدة غضب الاهالي وان كان الغضب الكبير ظل مكبوتا في نفوس الوطنيين الذين كان هدفهم الاسمى طرد البريطانيين وتطهير الديار من المغتصب الجبار.

احتلال شبه جزيرة عدن الصغرى والسيطرة على المنطقة

بعد ان نجحت القوات البريطانية فى تامين وجودها شرقا وشمالا بالسيطرة على ابين واستمرار محاصرة شقرة وخضوع منطقة الشيخ عثمان استقرت الاحوال واستندت القوات فى عدن الى وجود امنى فى الجناح الشرقى والشمالى واصبحت مصادر المياه العذبة متوافرة ومستقرة ولم تعد تتعرض للمخاطر السابقة حتى ان المقيم السياسى البريطانى بالاتفاق مع سلطان العبدلى قام بشق قناة يغذيها بعض ابار الشيخ عثمان الوفيرة المياه وامتدت هذه القناة من المصدر الى مكان تمركز القوات البريطانية فى عدن وتلاقيا للمتاعب التى كان سببها المقاولون الوطنيون فى نقل المياه وقد لاقى المقيم السياسى فى عدن كل تشجيع من حكومته فى الهند واعتبرت ان ارساء سيادة قواعد استخدام العنف ستكون سببا فى حل كثير من

المشاكل وتسهيل الامور للقوات فى عدن وظل الجناح الغربى لعدن فى يد شيخ العقارب الشيخ عبدالله بن حيدر مهدى.

وكانت شبه جزيرة عدن الصغرى تمثل الجناح الغربى الذى صار من الضرورى ضمان تأمينه لسلامة قوات الاحتلال في عدن وقد لجأ المقيم السياسى فى عدن لسياسة الترهيب والترغيب من جديد مع شيخ العقارب خاصة بعد الانتصارات المتعددة التى حققتها القوات البريطانية وخاصة بعد ظهور سلبية سلطان لحج الجديد وانفراط عقد بقايا المقاومة الضعيفة لسلطان ابين ومحاصرة شقرة مستمرا ولوح المقيم السياسى لشيخ العقارب بأن القوات البريطانية لا يمكن هزيمتها بل هى الاقوى والاقدار ان اساطيلها فى جميع البحار وجندها وسلاحها لا ينفذا وتحت وطأة التهديد المستمر سواء المباشر او غير المباشر رضخ شيخ العقارب ووافق اخيرا على عقد معاهدة باع بموجبها شبه جزيرة عدن الصغرى للبريطانيين وبذلك ضمن البريطانيون امن وسلامة الجناح الغربى لعدن وبذلك نجح البريطانيون فى الاستحواذ على عدن والمناطق القريبة منها وساد الهدوء معظم القبائل وضعفت الهجمات وقطع الطرق واصبحت قبضة الاحتلال قوية فى جنوب اليمن مما كان مفيدا فى وقت لاحق للبريطانيين فى تحقيق طموحاتهم الاستعمارية حيث يرتكزون فى اقصى الشرق فى الهند.

وفى الوسط عدن وفى الشمال ممر قناة السويس الذى تم افتتاحه ١٨٦٩ وتم احتلال مصر بعد ذلك فى عام ١٨٨٢ .

ولعب احتلال عدن والسيطرة الكاملة عليها دورا اساسيا فى سيطرة الاستعمار البريطانى على منطقة البحر الأحمر خاصة بعد تصفية النفوذ المصرى فى تهامة اليمن وفى وقت لاحق تصفية النفوذ العثمانى فى مصوع وسواكن على ساحل البحر الاحمر الشرقى.

ورغم السيطرة الشاملة لقوات عدن على المناطق المحيطة بها وعقد اتفاقات صلح الا ان ذلك لم يمنع الغاضبين من الوطنيين من المقاومة ولم يوقف قيام هؤلاء الوطنيين وهجماتهم شبه المستمرة على بعض الوحدات او الافراد لقوات الاحتلال فى المناطق البعيدة وكانت هذه الهجمات تتم رغم انف البريطانيين ورغما عن معارضة سلطان لحج وشيخ العقارب واحيانا سلطان الفضلى ورغم تضييق الخناق على اعمال المقاومة لصعوبات كثيرة الا ان الغضب ومحاولة طرد البريطانيين املا كان يراود الكثيرين من اهل البلاد حتى انه فى فترة الهدوء النسبى بعد وفاة سلطان لحج وركون السلطان الجديد الى التعاون والمصالحة مع الوجود البريطانى ظهر رجل متدين يدعى الشيخ سالم فى سلطنة الفضلى اخذ يستحث الناس على الجهاد من منطلق انهم مسلمون ويجب ان يدافعوا عن بلادهم ضد البريطانيين الذين يحتلون جزءا من بلادهم وانضم اليه اعداد كثيرة بغية نصرة الحق الذى هو فى صفهم وكان الشيخ سالم قد نسب الهزائم المتتالية التى لحقت بالمسلمين فى محاولاتهم للهجوم على عدن الى ضعف ايمانهم ووجود قصور فى تمسكهم بدينهم ولهذا السبب جانبهم النصر على الاعداء ولذلك فان الحرب ضد البريطانيين ورغم مؤازرة سلطان الفضلى للشيخ سالم فى دعوته وتعضيده ومساندته الا انه

اكتفى باضعف الايمان وكانت المساعدة باللسان وبالقلب نظرا لتجربة سلطان الفضلى السابقة فى الحرب وضعف التسليح الذى لديه امام القوات البريطانية وقوتها التي لا تقاوم ومن هنا لجأ الشيخ سالم الى شمال اليمن واتصل بالامام يدعوه الى الجهاد ولكن لم يستجب الامام ولم يقدم يد العون الى حركة الشيخ سالم واكتفى بأن ارسل له بركاته ودعواته ولم تخف الدعوة للجهاد التى اطلقها الشيخ سالم عن اعين رجال المخابرات فى عدن خاصة وان الدعوة وجدت صدى فى قلوب الناس واستجاب الكثيرون وتكاثر المؤيدون ولم يتمكن الشيخ سالم ورجاله من القيام باغارة واحدة لطرد الانجليز من عدن لانه قتل على يد احد الاهالى ضعاف النفس معدومى الضمير قتل الداعية فى رحلة من رحلاته فى شمال الفضلى وقد سارع رجاله بالقضاء على القاتل الذى كان يقوم بتنفيذ جريمته بوازع من المخابرات الانجليزية ويموت الشيخ سالم تفرق معظم الذين اجتمعوا للجهاد وفشلت المحاولة فى مهدها وقد ارجع البريطانيون انتشار دعوة الشيخ سالم وتعاظمها الى تعاطف سلطان الفضلى وتشجيعه لها مما زاد من غضب المقيم السياسى البريطانى وبيت النية على تأديب سلطان الفضلى فى اقرب فرصة متاحة لعدم تكرار ما حدث فى اماكن اخرى قد تسبب المضايقات للوجود فى عدن.

وهكذا لم يهدأ بال للبريطانيين حتى بعد عقد معاهدة الصداقة والتعاون مع سلطان لحج وشبه جزيرة عدن الصغرى بل ان الغضب والرغبة فى مقاومة وجودهم ظللت مستمرة وتعددت اشكالها رغم الهدوء الظاهرى.

ولم يمض على احتلال عدن اكثر من ثلاثين عاما بقليل ولم يمض عام ١٨٧٢ الا ونجحت بريطانيا في فرض الحماية على حكام وسلاطين وشيوخ القبائل جنوب اليمن وصارت قبائل العبدلي والفضلي والحوشبي والصبيحي والعقربي والاميرى والعلوى واليافعي والعولقي ترتبط ببريطانيا بحماية تتركز في حماية بريطانيا لهم ضد اى عدوان خارجي عليهم ومعاونتهم في منع اى تهديد لاستقرارهم في مقابل عدم قيام هذه القبائل بمخاطبة اى دولة اخرى الا عن طريق الدولة القائمة بالحماية وهي بريطانيا ومن الملاحظ ان سلطنة لحج لم توقع معاهدة حماية على النحو التى وقعها القبائل الاخرى رغم اهمية لحج الكبيرة للبريطانيين في عدن الا انه من المفهوم ضمنا وقوع سلطنة لحج تحت الحماية وذلك في عهد السلطان فضلي بن علي محسن العبدلي الذى تولى زمام الامور بعد وفاة عمه السلطان فضل بن محسن العبدلي برغم المعارضة الوطنية وتحسبا للظروف حوله بعد عقد معاهدات حماية وافق السلطان على بيع المنطقة الملاصقة الشيخ عثمان بين الحسرة والعماد علاوة على ملاحات عدن الغنية بالمياه العذبة غير ان معاهدة بيع الأراضي هذه تضمنت ضمن بنودها تطبيق الحماية البريطانية في سلطنة لحج وينص احد بنود البيع صراحة على ان حدود سلطنة لحج بموجب هذا الارتباط تعتبر محمية بالحماية البريطانية وهكذا تمكنت بريطانيا من السيطرة الفعلية ليس على عدن فحسب بل على المناطق المحيطة بعدن سواء كان ذلك بعقد معاهدات حماية أو بالشراء او بدفع راتب لبعض القبائل ونتيجة لهذا الاستقرار ازدهرت مدينة عدن ازدهارا كبيرا

وراجت رواجا عظيما خاصة بعد ان اصبحت ميناء حرا مفتوحا للتجارة الحرة وبلغ عـ د سكان عدن فى عام ١٨٧٢ دا يزيد على تسعة وعشرين الف نسمة وكان السكان خليطا من اليمنيين والصومالين والهنود المسلمون واليهود وقليل من البريطانيين والاتراك والايرانيين والمصريين والاكراد والصينيين وبعض الاوربيين القلائل وامريكى وامتد النفوذ البريطاني شرقا الى حضرموت واعتبرت حكومة الهند البريطانية ان قواتها فى عدن اصبحت مستقرة واصبحت في وضع اكثر امنا مما دعا البعض للدعوة الى تقليل عدد القوات فى عدن وقد عارض المندوب السامى البريطانى ذلك بشدة وبدأت القوات البريطانية تقيم معسكرات ثابتة لقواتها خاصة في خور مكسر وشمالا فى الشيخ عثمان بعد نجاحها فى شراء الارض من سلطان لحج وبدأت في تعميق ميناء عدن وتوسيعه لاستقبال السفن الكبيرة ولاستيعاب حركة التجارة المزدهرة.

اهمية عدن لبريطانيا فى الحرب العالمية الاولى

تمركزت الحامية البريطانية فى عدن وزادت دفاعاتها بمرور الوقت، وخاصة بعد الاستيلاء على شبه جزيرة عدن الصغرى وبذلك ضمنت حماية الجناح الغربى وضمنت امتداد اراضيها الى الداخل بعد شراء هذه الاراضى القريبة من الشيخ عثمان وضمنت استمرار تزويد عدن بالمياه العذبة بعد شق القناه الموصلة من ابار الشيخ عثمان الى عدن وجاءت اتفاقات الصداقة والسلام مع المناطق المحيطة بعدن وفرضت الحكومة البريطانية حمايتها عليها باتفاقات مع سلاطين وشيوخ هذه المناطق وان كان النفوذ البريطانى امتد واتسع كثيرا الى المناطق الداخلية الا مناطق عدن التى لا تتجاوز مساحتها خمسة وثمانون كيلو متر مربعا فى ذلك الوقت فى حين ان اكثر من اربعة الاف كيلو متر مربع حول عدن كانت تحت الحماية البريطانية ولا يخفى ان القبائل فى الداخل موقعها وتغلغل النفوذ البريطانى بها كبيرا ففى سلطنة لحج كان النفوذ البريطانى عظيما لقربها الشديد من موقع

الحامية البريطانية وللمصالح المشتركة التجارية التى تعود بالنفع على السلطان ورجاله نتيجة مرور قوافل الامداد والتجارة من والى داخل اليمن عبر اراضى سلطنة لحج ولفت نظر حكومة الهند البريطانية المتغيرات الكثيرة التى سبقت قيام الحرب العالمية الاولى مما جعل اهمية عدن تزداد وتتعاظم وبالتالى تعمد حكومة الهند البريطانية الى العمل بالاساليب المختلفة للتمسك بموقعها الهام فى عدن التى ازدهرت ازدهارا كبيرا حتى انه عندما استولت فرنسا على ابوك على الساحل الشرقى الافريقى بدا واضحا تعاظم التهديد لموقع عدن اذ ان ميناء ابوك سيكون منافسا قويا لميناء عدن الذى كان مصدر تجارة البن اليمنى الى أوربا ولذلك فان استيلاء الفرنسيين على ميناء ابوك سيجعله منفذا للبن الافريقى الى اوربا وهذا بلا ادنى جدال سيؤثر على ميناء عدن وحركة التجارة فيها.

كما كان البريطانيون فى عدن ينظرون بارتياب كبير الى نشاط العثمانيين والمصريين فى الحبشة وكان ذلك يؤثر سلبيا على سيطرتهم على مدخل البحر الاحمر خاصة فيما قبل وبعد فتح قناة السويس هذا من الناحية الاستراتيجية ومن الناحية التجارية فان فى الوجود العثمانى والمصرى فى الحبشة تهديد لعدن اقتصاديا ولكن لم يرقى هذا التهديد الى المنافسة نظرا لعدم استقرار الوجود العثمانى والمصرى فى الحبشة ولم يكن ذلك يبعث على القلق وان الاسترخاء قد ساد عدن والمناطق المجاورة لها بعد عقد معاهدات الحماية وبعد الرواج التجارى والاقتصادى الذى حظيت به عدن من المخا والا يده، وتركزت فى عدن بعدما صارت عدن ميناء حرا والتجارة

فيه غير مقيدة والضرائب محددة للغاية انشغلت القبائل المحيطة فى عدن بالمشاكل فيما بين بعضها البعض والمشاحنات احيانا نتيجة المنافسة فيما بين بعضها سواء على بعض الاراضى او بسبب الاختلافات من انفراد السلاطين بمكوث مرور القوافل التجارية وصارت القوات البريطانية فى عدن فى مأمن من الاغارات التى كانت تقع عليها بين وقت واخر وكذلك الهجمات الفردية والمتكررة حتى ان ضباط وجنود الحامية البريطانية فى عدن كانوا ينظمون رحلات الى داخل البلاد وفى حدود مناطق القبائل التى عقدت فى السابق معاهدات حماية وكان الضباط والجنود البريطانيون يقابلون فى حلهم وترحالهم اثناء اجازاتهم وقضاء أوقات راحتهم من أهل البلاد بالترحيب والمودة والمسارعة الى تقديم الخدمة اللائقة والتسهيلات المتنوعة وخفت حدة الغضب حتى لدى الأهالى الذين كانوا من قبل يشتركون فى الأعمال العدائية للبريطانيين.

ونتيجة الظروف الهادئة للحامية البريطانية فى عدن عمدت حكومة الهند البريطانية الى تكليف المقيم السياسى فى عدن بالقيام وعمل استكشاف فى الحبشة لدراسة الاحوال والاحتمالات والطرق السهلة واماكن الاعاشة واماكن الشاطئ المناسبة لانه كان فى نية الحكومة ارسال حملة تأديبية الى الحبشة على النجاشى تيودور فى ذلك الوقت لقيامه باهانة بريطانيا والقبض على المبعوث البريطانى الى الحبشة وسجنه هو ورفاقه فى سجن مجدالا وقد رأت بريطانيا ان الحملة التأديبية ضرورة لاعادة هيبة بريطانيا من ناحية وللحد من النفوذ العثمانى والمصرى من ناحية اخرى.

وكان الاستقرار في عدن وما حولها السبب الذى جعل بريطانيا تعتمد على الحامية البريطانية فى عدن فى استكشاف المواقع المناسبة للقيام بالحملة التأديبية على الحبشة وهنا ظهرت اهمية عدن الاستراتيجية فى تحقيق الاغراض والطموحات البريطانية فى البحر الاحمر واستمر الهدوء والاستقرار بين القبائل المحيطة بعدن والحامية البريطانية ولكن على نقيض ذلك كان القتال فيما بين القبائل يحتدم بين الحين والاخر كما اشرنا فى السابق وكان القتال الذى نشب بين قبائل العبادلة والحواشب هو الذى شد انتباه البريطانيين فى عدن

فهم فى حالة استرخاء تام وقلة اهتمام بتقاتل القبائل بعضها مع بعض ولكن في حالة قبائل العبدلي موقعها الحساس للحامية البريطانية فان الموقف والتقدير يختلفان ونجح العبادلة فى الاستيلاء على بلدة «زائدة» وتنازل الحواشب عنها مرغمين الا ان الموقف استدعى ان تتدخل الحامية البريطانية بعد ان التزمت حسب تعليمات الحكومة البريطانية فى الهند بعدم التدخل الا للضرورة القصوى ولذلك عمد المقيم السياسى فى عدن انذاك (الجنرال راسيل) فارسل جزأ من قواته الى المنطقة المحيطة بلحج شمال عدن بعد ان كان البريطانيون يتقيدون بعدم تجاوز اسوار عدن وادت الحملة البريطانية على الحبشة الى مصرع النجاشى تيودور فى موقعه مجدالا وتولى بعده النجاشى يوحنا الذى كان يدين بالولاء للبريطانيين لانه كان اشد المناوئين للنجاش السابق حتى ان (يوحنا الرابع) وهكذا كان اسمه ظل طوال أيامه يكرر بأن الفضل للملكة فيكتوريا يعود بالفضل عليه وعلى عرشه فى الحبشة.

لقد بدأت اهمية عدن تزداد على مر الأيام حتى ان بعض القادة البريطانيون كانوا يطلقون على عدن جبل طارق الشرق وتأكدت الحكومة البريطانية بما لايدع مجالا للشك على الاهمية العظيمة لعدن وذلك فى تنفيذ الاستراتيجية البريطانية عند المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وعند الطرف الشمالى للبحر الاحمر بعد افتتاح قناة السويس واحتلال البريطانيين لمصر عام ١٨٨٢.

وقد اتفقت الاراء بضرورة تقوية الدفاعات فى عدن فقد اصبحت ليس الغرض منها ان تكون للوقود ومكانا للسفن البريطانية بين بومباى والسويس وصار البحر الاحمر من أعظم الطرق البحرية التجارية فى العالم بعد ان كان مجرد ممر للمسافرين والبريد

آلا ان فتح قناة السويس لم تقتصر فائدتها على بريطانيا فحسب بل كان ذلك فيه فائدة للدولة العثمانية فقد ساعد قرب المسافة بعد فتح قناة السويس الى ان تحكم الدولة العثمانية قبضتها على الحجاز وتقوم بتوجيه حملة عسكرية بغرض استعادة اليمن وضمه داخل النفوذ العثمانى ولا يخفى عودة العثمانيون الى معظم اليمن اثار ذلك قلق البريطانيون وبدأوا المساعى لعقد اتفاقات حماية اضافية وتخصيص رواتب سنوية للقبائل المتعاونة بغرض استقطابهم الى صفها وابعادها عن العثمانيين الذين بدأوا يشكلون خطرا على البريطانيين فى عدن ولا شك ان طريق قناة السويس عدن كان تحت رحمة القوة البحرية البريطانية المتفوقة عالميا فى ذلك الوقت وبهذه السيطرة اصبح البحر الأحمر من اقصى شماله الى اقصى جنوبه بحيرة بريطانية.

ولجأت بريطانيا الى تعزيز مواقعها فى عدن واللجوء الى القوة ان لزم الامر مع القبائل التى كانت تثير القلاقل مع الحامية البريطانية مثلما حدث مع قبائل الصبيحى التى تقع غرب عدن وقامت باغارات على قوافل التجارة القادمة من الساحل الغربى لليمن وكذلك قبائل العطيفى التى كانت تقطن المنطقة الساحلية من عمران الى باب المندب غرب عدن وكان الغرض الرئيسى يهدف الى حماية السفن التى تجنح فى تلك المنطقة والتى تتعرض لاعمال السلب والنهب.

وتبع امتداد النفوذ البريطانى الى الشمال الغربى من عدن واحتمال حدوث تهديد من الشمال بسبب عودة القوات العثمانية الى اليمن ان لجأت الحكومة البريطانية فى الهند الى تعديل بنود اتفاقية الحماية لخدمة مصالحها وركزت على سلطنة لحج خاصة لما تتمتع به من موقع يجب ان يظل امنا ومستقرا لما فيه صالح الحامية البريطانية فى عدن.

وللتأكيد على الروح العربية والكرامة القبلية فانه قبل احتلال عدن حاولت بريطانيا شراء جزيرة سقطرى نظير مبلغ يتم دفعه الى سلطان المهرة الذى كانت تابعة له الجزيرة ومن املاكه ورفض السلطان باباء شديد ويغضب عظيم فقال لممثل حكومة بومباى.

اسمع يا قبطان هينز بحق رب العرش لن افرط فى ذرة من ارض الجزيرة سقطرى فلقد حباها الله المهريين فقط وستبقى يتوارثها صغارنا عن كبارنا الى ما شاء الله».

لعبة الامم فى عدن

عندما بدأت الحرب العالمية الاولى - كان العثمانيون فى الحجاز وفى شمال اليمن وحاصرت البحرية البريطانية القوية سواحل الحجاز واليمن وهى المنافذ التى كانت تستخدمها القوات العثمانية للاتصال فيما بينها وبين الاستانة وقد ضيق البريطانيون الخناق عليهم بالحصار الشديد ومنعهم من تقديم او استقبال اى امدادات للمشاركة فى الحرب ومما زاد الصعوبة امام العثمانيون فى شبه الجزيرة العربية اشتعال الثورة العربية ضدهم بزعامة وقيادة الشريف الحسين بن على فى الحجاز هذا بالاضافة الى التحالف الذى سبق بين ابن مسعود والبريطانيون قد ادى ذلك الى قطع طريق الاتصال الجيد الذى كان يربطهم بقيادتهم فى الشمال وهو الطريق الصحراوى الطويل المتجه من الحجاز الى سوريا فى الشمال وكان العثمانوين يعرفون ويقدرون قوة الاسطول البريطانى فى البحر الأحمر وسيطرتهم البحرية الكاملة على المنطقة مما جعل قيادتهم

تيأس من محاولة التعرض للقوات البحرية البريطانية رغم أن الاسطول البريطانى القوى فى البحر الاحمر كان يساعد العمليات الحربية التى يقوم بها الادارسه ضد العثمانيين فى شمال اليمن ولذلك فلم يكن هناك منفذ للاتراك سوى الاتجاه جنوبا ومهاجمة المناطق المتاخمة لعدن وحتى مهاجمة عدن ذاتها لتخفيف الضغط عليهم فى الشمال حتى ان قيادة القوات العثمانية كانت خطتها هى طرد البريطانيين من عدن ذاتها والقيام باحتلال عدن بغرض فتح منفذ للقوات التركية يغنيها عن قفل المنافذ الشمالية وقد وصلت التعليمات من الاستانة بالعمل على اقلاق راحة البريطانيون فى عدن وما حولها واشغالهم عن ارسال الامدادات الحربية الى المناطق الاخرى التى تشتعل فيها العمليات الحربية ورغم ان البريطانيين نجحوا فى تقوية دفاعات عدن وتقويتها وكذلك تعزيز قواتهم وحلفائهم شرق وغرب وشمال عدن بحيث انها صارت قوية وحصينة ومنيعة على الحامية التركية فى شمال اليمن الا ان ذلك كان المنفذ الوحيد امام هذه القوات لمحاولة الاستيلاء على عدن وطرد البريطانيين منها وهاجمت القوات العثمانية منطقة الشيخ سعيد ثم تقدمت بعد النجاح من ماوية لحج فى خطة تمهيدية للهجوم والاستيلاء على عدن وارسلت القوات البريطانية قواتها الرئيسية المتمركزة فى عدن الى الشيخ عثمان الا ان القوات العثمانية اصطدمت بمقدمة القوات البريطانية ودارت الدائرة على البريطانيين واستطاع الاتراك الاستيلاء على الشيخ عثمان وترتب على ذلك تهديد مباشر لقاعدة عدن وقد تم فى الخامس من يوليو عام ١٩١٥ ولكن لم يمض على ذلك اكثر من خمسة عشرة يوما

آلا ووصلت قوات بريطانية من مصر التى كانت خاضعة للاحتلال البريطاني وتقدمت القوات البريطانية واستعادت الشيخ عثمان من ايدى القوات العثمانية التى تراجعت وتحصنت فى لحج بقوة واستمسكت بمواقعها ولم تتقدم القوات البريطانية اكثر من الشيخ عثمان تنفيذا لتعليمات الحكومة البريطانية فى الهند من ناحية ومن ناحية اخرى التمركز الحصين فى مواقع دفاعية وقواعد مجهزة فى عدن حتى ان البريطانيين عمدوا الى طرد مجموعات صغيرة من الاتراك فى ام العمد وفى الوهط بمساعدة ونجده العشائر العربية الموالية لهم ولكن البريطانيين لم يتمكنوا من طرد الاتراك من لحج فظلوا متمسكين بمواقعهم فى لحج حتى نهاية الحرب العالمية الاولى.

الا انه رغم نجاح بريطانيا فى عقد حمايتها على المناطق والمشايخ القريبة من عدن خلاف سلطان دثينة الذى لم يعقد اتفاقية حماية مثل الاخرين لان الاتراك كانوا يحتلون منطقة الاميرى على مشارف السلطنة فكان على السلطان ان يحاول الوقوف موقف الحياد بين القوات التركية فى الشمال والقوات البريطانية فى الجنوب.

ولكن ترتب على تقدم الاتراك واحتلال لحج حتى احتلال منطقة الشيخ عثمان فتأثر بذلك كثير من رؤساء القبائل التى تعاقدت مع البريطانيين بعقود حماية وكانوا عند تقدم الاتراك يغلب عليهم الشك والريبة من موقف بريطانيا العظمى خاصة بعد ان خذلت سلطان لحج الذى اصابه الضرر الكثير من هجوم الاتراك على بلاده ورغم نقله الى العلاج فى عدن الا انه توفى متأثرا باصاباته وسرت الاشاعات

والمبالغات فيما اصاب سلطان لحج الحليف الهام لبريطانيا فى ذلك الوقت وكذلك عائلته حتى انه احيانا كان يطلق على ما حدث بكارثة سلطان لحج ولذلك بدأ حلفاء بريطانيا الاخرون يتشككون فى انها قد لا تفي بوعدها وتتهاون في حمايتهم عند تعرض هذه المناطق لغزو خارجى كما حدث من الاتراك.

ولم يخف على البريطانيين فى عدن تذمر القبائل المحيطة والسابق ان عقد البريطانيون معها معاهدة حماية فان مشاعر الاحباط التى سرت فيما بينهم والشك فى جدية المعاهدات التى سبق عقدها مما جعل قائد القوات البريطانية في عدن يصدر منشورا توضيحيا للقبائل المتذمرة بغرض تهدئتهم وتبرير تقاعس البريطانيون عن مساندة لحج الحليف لبريطانيا وتقديم المساعدات الكاملة لايقاف الزحف التركي على جنوب اليمن وجاء فى هذا المنشور الذى امر بتوزيعه الجنرال وليم والتون قائد القوات البريطانية فى عدن (انه ليس لضعفنا امتنعنا عن حرب الاتراك فى لحج ولكن مملكة الدولة الانجليزية واسعة جدا ويلزمنا معاملة الميادين التى فيها العدو واحدا بعد الاخر بالتعاقب بحسب الخطط التى رسمتها الدولة فنحن قد استولينا على ارض الكمرون وعلى الجزائر الكائنة على البحر، وعلى افريقيا الجنوبية والغربية والان نحارب الجرمن فى افريقيا الشرقية وعندما يتم انجاز عملنا هناك وسينتهى فى مدة اشهر قليلة بعد ذلك يأتى الوقت الذى نفكر فيه بمصير الاتراك فى ارض العرب وعلى كل حال فلا تكون الموقعة الفاصلة فى ارض العرب بل هى فى فرنسا) المصدر احمد فضل العبدلى - ص ٢٩ وكان القائد البريطانى يوضح

لرجال القبائل ان الحرب فى لحج او طرد الاتراك من شبه الجزيرة العربية هو الهدف لبريطانيا العظمى فى ذلك الوقت فان المعركة الحاسمة ستقع لامحالة ولكن فى مكان اخطر وابعد تاثيرا خلاف منطقة جنوب اليمن ورغم ان القائد البريطانى اصاب جزء من الحقيقة بقوله هذا الا ان ذلك لم يخفف من القلق والانزعاج والتردد الذى يكاد يعم القبائل التى عقدت اتفاقات حماية بريطانيا العظمى وفى هذا السياق يوضح احمد الفضلى الموقف باختصار شديد فى تعليق اورده فى جريدة الديلى تايمز فى ٢٦٥. ٢٦ يوليو عام ١٩١٧ وجاء عنوان التعليق (ارض حماية لم تحم) ويقصد بذلك النواحى التسع فى جنوب اليمن السابق الاشارة اليها من قبل بل ان المناقشات العاصفة والاسئلة المحرجة تم توجيهها فى مجلس العموم البريطانى حتى ان هذه الاسئلة اتخذت صورة اللوم المرير للحالة المؤسفة التى وصلت اليها القوات البريطانية فى عدن وجاء فى هذه الاسئلة والاستفسارات

(لا يمكن ان يقال ان رواية تحركاتنا العسكرية بقرب عدن اكسبت الجيش البريطانى شهرة او مجدا - بل بالعكس فانا دحرنا الى حصوننا حيث نقيم الان تاركين جيشا ضعيفا للاتراك يطوف فى الارض كيف شاء بين القبائل المشمولة بحماية عدن لاسباب عجزنا عن حمايتهم)

وفى تعليق اخر فى مجلس العموم البريطانى يقول احد الاعضاء (لماذا لا ينبغى لهم الاخلاص؟ لأننا بموجب المعاهدات تعهدنا لهم بالحماية ولكنهم تركوا منذ سنتين تحت ضغط الاتراك.. فالاتراك

يسحبون قواتنا حيث يشاءون واصوات مدافعهم تسمع الى سطوح مراكب البريد).

ولا شك ان التعليقات التى نشرتها الجريدة سواء ما جاء على لسان احمد الفضلى او ما جاء من اسئلة واستفسارات فى مجلس العموم البريطانى تظهر ان قسما معتبرا من الرأى العام البريطانى كان يشعر بالاسف والخزى والعار لتخلى القوات فى عدن عن حماية القبائل اليمنية المشمولة بالحماية.

وما يعنينا فى هذا الشأن هو موقف المواطنين فى اليمن والذى زاد بين قسم كبير منهم الشك والارتياب فى المعاهدات المكتوبة خاصة بعض رؤساء هذه القبائل الذين وجدوا انفسهم بين قوات الاتراك الزاحفة اليهم من الشمال وتهدد مصادر رزقهم والقوات البريطانية التى فى الجنوب ولا تقوم بالدفاع عن مصالحهم كما ورد فى معاهدات الحماية ولا جدال ان عدد معتبر من شباب هذه القبائل كانوا ينظرون بعين الارتياب ويشعرون بروح الغضب المكبوت فى داخلهم فالبريطانيون مغتصبون ارضهم ومحتلين ديارهم وكذلك الاتراك جاءوا ليحتلوا هذه الديار ويدمرون الكثير من ممتلكات الوطنين فالغضب كان قائما من قبل تجاه عدو واحد ومغتصب واحد وهم البريطانيون فى الجنوب وسواء كانت بين قبائلهم والبريطانيون عهودا ومواثيق فلم يتم احترامها او العمل بها - واتسعت مساحة الغضب ولكن توزعت بين عدوين مغتصبين لاراضى ليست لهما ولا لهم الحق فى القدوم اليها وارغام اهلها على أمر لا يريدون ولا

يرجعون عنه ورغم الخلافات والاحتكاكات والنزاعات التى كانت سائدة بين القبائل قبل قدوم الاتراك الا انه بعد زحف الأتراك واحتلالهم جزء كبير من البلاد ازدادت حدة الخلافات بين زعماء القبائل وتباينت مشارب الشباب واهتزت صور كثير من النماذج والقيم امامهم فبدأ يطفو على سطح المجتمعات الوطنية روح الرياء فمنهم من يقترب الى الاتراك خوفا ورهبة ومنهم من يقترب اليهم طمعا فى كسب شخصى وموازرة لتحقيق مآرب متنوعة ونفس التقلبات التى ظهرت على السطح كانت ايضا ذات فاعلية مشابهة مع قوات الاحتلال فى عدن وبعد ان كان الشباب اليمنى امامه رؤيا شفافة وعدو واحد شابت رؤيته للامور الكثير من الشوائب واصابت نفسيته العديد من العلل والمواجع ابعدته عن الشفافية واستحوذت على كيانه المستقل واصابت ضميره جروح التلون والالتواء والتقلب السائد حوله اثناء الحرب العالمية الاولى ولذا تميز الغضب الوطنى فى هذه الفترة بفتور وضمور وشغلته عن نقائه وشفافيته والتساؤلات المحيرة ولا يجد لهذه التساؤلات اجابات وردودا مقنعة فلكى يتم استثمار الغضب الوطنى فيجب ان يتجه اتجاها محددا يهديه الى هذا الاتجاه هدف وطنى واحد نابع من ضمير كله عطاء وحماس ولكن تبدل الصورة امامه وتكونت بسريالية غير مفهومة وغير متوازنة وصاحب ذلك احباط نفس وخمود حدة الحماس وفتور فورة الشباب وهدأ الغضب فى هذه الفترة بعد ان استعصى عليه الرموز المتبأينة والمتعارضة التى احاطت بالبلاد فصار كمن صار فى بيات شتوى اثناء الحرب الساخنة الحارة.

ويعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وانهزام الاتراك وانسحابهم من شبه الجزيرة العربية فان القوات البريطانية قد ثبتت مواقعها وزادت من قوة دفاعاتها فى قاعدة عدن وما حولها وتأكدت حكومة بومباى البريطانية من اهمية موقع عدن الاستراتيجي واتفقت مع حكومة لندن على ضرورة تقوية القاعدة البريطانية فى عدن وزيادة الاستحكامات الدفاعية فيها وان المثل العربى القديم (ان عقل العربى فى بصرة) بمعنى ان العربى يرى بعينه مايدور حوله ويقيمه ويحسب تأثيره وابعاده من واقع النظر الى مردوده عليه ذلك يرسخ فى عقله ويكسبه به قناعة لا يحيد عنها ولا يبتعد قيد انمله عن مسارها ولذلك من هذا الواقع اندفع بعض القادة البريطانيون ينصحون حكومة الهند البريطانية باتخاذ مواقف حاسمة يكون لها صدى وقبول لدى القبائل التى حول عدن والتى اصابها الشك واحتوتها الريبة فى قدرات بريطانيا العظمى على الايفاء بوعودها وتنفيذ ما سبق ان وقعته معهم فى وثائق امنية.

ومن الطريف انه قبل نهاية الحرب العالمية الاولى والمعارك على اشدها فى فرنسا والاهوال ترزخ تحت نيرانها اجزاء كثيرة من اوربا الا ان الحامية العثمانية فى لحج والحامية البريطانية فى عدن كان لهم موقف مختلف رغم العداء والحرب الضروس الدائرة فى اقصى الشمال كانت الحامية العثمانية تقوم بالتعاون مع الوطنيين اليمنيين فى زراعة الارض فى لحج وانتاج انواع مختلفة من الخضر الطازجة والتى كانت تفي باحتياجاتهم وترسل جزءا كبيرا من الانتاج الى الحامية البريطانية فى عدن فى مقابل ان البريطانيين كانوا يرسلون

السكر والشاى والارز بمعنى ان المنافع كانت متبادلة فسواء فى عدن تلك المنطقة البركانية او فى لحج فى اقصى جنوب اليمن كانت النطقتان شبه منعزلتين عن الحرب الدامية التى كان يدور رحاها بين العثمانيين والحلفاء كان الهدوء يسود المنطقتين وتبادل المنافع والمصالح والترقب يسود القيادات المعادية ولما نجح الجنرال اللنبى البريطانى فى الهجوم وهزيمة الاتراك فى فلسطين كانت القوات التركية فى لحج جزء من حملته فى الشمال والتى انتهت ايضا باستسلام القائد التركى وقواته للحامية البريطانية فى عدن وتم نقلهم الى مالطة على بواخر بريطانية وبعد ذلك على بواخر ايضا بريطانية الى بلادهم.

والحرب هى تحقيق اهداف والفرق بين المنتصر والمهزوم فرق بين تحقيق الارادة وفى عدم تحقيق الارادة وبخروج الاتراك من اليمن فرضت الارادة البريطانية المنتصرة ونفوذها على المنطقة بأسرها وكان مربط الفرس ونجاح الهدف هو التمسك بموقع عدن الاستراتيجى فى مدخل البحر الأحمر والتمكن من السيطرة الشاملة ليكون البحر الاحمر بحيرة بريطانيا العظمى ليس لها منازع ولا معارض فيه.

ومن الانصاف أن وجود البريطانيون فى عدن اعطاهم موقعهم ميزة كبيرة وتفوق استراتيجى كان النافع والمفيد لهم فى الحرب العالمية الاولى ولذلك فان الاستراتيجية البريطانية كانت تهدف الى التمسك بمواقعها فى عدن والبقاء فى المنطقة لان عدن كانت هى عين

اليمن التى ترى بها جيدا ما يدور فى الداخل وتسيطر على الحركة بين المحيط الهندى والبحر الأحمر وقاعدة هامة للانطلاق إن دعت الضرورة على الساحل الشرقى الافريقى كما حدث سابقا فى الحبشة هذا علاوة على ان عدن تفى باغراض التموين والتخزين للسفن البريطانية والاسطول البريطانى فيما بين الهند وقناة السويس.

وكانت فترة الحرب العالمية الاولى فترة انقسام بين القبائل اليمنية فى الداخل.

وقلت حدة الخلافات القبلية نسبيا وبالتالى كان الغضب اليمنى فى حالة استرخاء فندرت الهجمات على الوحدات البريطانية فى عدن والشيخ عثمان ليس لاغراض وطنية ولكن بغرض النهب والسلب ان امكن ذلك او حتى الاخذ بالثأر من بعض تصرفات الجنود البريطانيين الذين يتجاوزون فى كثير من الاحيان حدود ما تم تكليفهم بتنفيذه من قيادة قوات الاحتلال.

شروخ فى غضب الوطنيين فى عدن

لم ينس البريطانيون المقاومة العنيفة المتكررة للقبائل اليمنية بعد احتلال البريطانيون لعدن بل والحرب والمتكررة بين القوات البريطانية فى عدن وقبائل العبدلى والفضلى والمجاورين لمنطقة عدن . ولما قامت الحرب العالمية الاولى تنبه البريطانيون الى الاهمية الزائدة لعدن وضرورة بقاء هذه المنطقة تحت سيطرتهم فقد كان وجودهم فى عدن وسيطرتهم على مدخل البحر الاحمر الجنوبى من العوامل التى لعبت دورا هاما فى حسم الحرب العالمية الأولى لصالح بريطانيا وحلفائها.

واصبحت شبه الجزيرة العربية فى بداية الحرب العالمية الاولى مقسمة بين قوتين غير عربيتين ففى عدن والمحميات التسع يوجد النفوذ البريطانى وسيطرته الكاملة على عدن وما حولها رغم ان مساحة عدن لا تتعدى ثمانون ميلا مربعا وباقى الاراضى فى جنوب اليمن وتقدر بما يزيد عن اربعة الاف ميلا مربعا مقسمة بين عدد من الزعامات القبلية المحلية وان ارتبطت بعض هذه الزعامات بمعاهدات

حماية بريطانية فى مقابل بعض المساعدات المالية والعينية وفى الشمال كانت القوات العثمانية ونفوذها قليل فيما عدا المناطق التى كان لها حاميات فيها ورغم اتفاقية الحدود البريطانية العثمانية التى وقعت في لندن عام ١٩١٤ والتى بمقتضاها تم تسوية الخلافات الحدودية لكل من النفوذ البريطانى والنفوذ العثمانى فان الامام يحيى فى اليمن لم يعترف باحتلال العثمانيون ولا باحتلال البريطانيون ورفع شعار ان هذه البلاد والاقاليم التى ورثها الامام عن اسلافه ووقعت اجزاء منها تحت وطأة الاغتصاب وان ما هو مغتصب باطل ويجب مقاومته ليعود الحق الى اصحابه ولم يكن خافيا ان البريطانيون استغلوا ضعف العثمانيين ووطدوا نفوذهم فى جنوب اليمن وزاد عدد المناطق التى ارتبطت مع بريطانيا بتفاهم سلام وعدم اعتداء.

وكانت الاتفاقية الى عقدت بين العثمانيين والبريطانيين فى عام ١٩١٤ فى لندن أكثر منها اسس نظرية اهتمت بالشكل فحسب بعيدا عن المضمون وكان ذلك دهاء من البريطانيين ولغرض فى نفوسهم كان لا يخفى عن استراتيجيتهم المسقبلية فى ان الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار ان عاجلا او اجلا ولذلك كانت هذه الاتفاقية فى الحقيقة هدف مؤقت وقد اشار احد المؤلفين الاتراك فى ان تجاهل العثمانيين فى المفاوضات ونتائجها التى تمت عام ١٩١٤ بشأن مناطق النفوذ فى اليمن مثل موقف بلاده النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال وتتوهم بأنها خفيت عن الأبصار وعبر ايضا عن الموقف بصورة اشمل وأكثر عمومية عن مدى ضعف والانهيار المستمر

للامبراطورية العثمانية الاستاذ ساطع الحصرى بقوله ان اسس اقتسام البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية الاولى تحت علم الحكومة العثمانية نفسها (ساطع الحصرى - البلاد العربية والدولة العثمانية).

وكانت وجهة نظر البريطانيون فى اليمن ان الامام يحى امام اليمن فى ذلك الحين وبصفته وريثا للامبراطورية العثمانية فى اليمن عليه ان يلتزم بالاتفاق العثمانى البريطاني بخصوص تحديد حدود المحميات وذلك طبقا للقانون ولذلك اعتبر البريطانيون استنادا لوجهة نظرهم السالفة بأن الامام كان فى موقف المعتدى عندما هاجم الضالع فى عام ١٩٢٠ وهاجم البيضا فى عام ١٩٢٣ والعوازل العليا فى عام ١٩٢٤ والعوازل السفلى فى عام ١٩٢٦ وذلك بعد جلاء العثمانيون عن هذه المناطق.

ومن الاسباب الرئيسية التى جعلت البريطانيون يتمسكون بالمعاهدة السابق عقدها بينهم وبين العثمانيين هو دافعهم الاساسى فى الحفاظ على أن تكون المنطقة الخلفية لعدن بؤرة نفوذهم ان تكون خالية من اى نفوذ او حتى تكون معرضة للتهديد خوفا على مكانة عدن وما تشكله من اهمية متزايدة للبريطانيين حتى ان الاستراتيجية البريطانية فى اليمن اعتبرت ان اى نفوذ عربى يمتد من داخل اليمن صوب عدن لا يعدو ان يكون نفوذا اجنبيا وتهديدا مباشرها لقاعدتها العسكرية فى عدن ولقد كان هاجس البريطانيون هو تلك المحاولات المعادية التى قام بها اليمنيون لطردهم من عدن بعد استيلائهم عليها

عام ١٨٣٩ واعتبارا لاستفادتهم من تلك التجارب المريرة خاصة عندما هاجم العثمانيون الاماكن الخاضعة لسيطرتهم في جنوب اليمن واستيلاء العثمانيون على لحج حتى انهم طرقوا ابواب عدن ذاتها وكان تهديدا قويا للوجود البريطاني في عدن ولذلك لجأ البريطانيون الى تقوية وجودهم العسكرى في عدن وفي مناطق المحميات التسع وعلى الساحل الشرقي في حضرموت لان هذه المنطقة اصبحت هامة للغاية لمن يسيطر عليها خاصة وان تصارع المصالح الاستعمارية اصبحت تتكالب وتتعارض فيما بينها.

واصبح تفاقم الصراع بين الرغبات الاستعمارية فيما بين البريطانيون والفرنسيون والالمان رالايطاليون في تزايد بمرور الوقت.

وبعد انحسار النفوذ العثماني عن اليمن بعد الحرب العالمية الاولى ونجاح التخطيط البريطاني في عدن وفي المحميات المحيطة خاصة عندما كان البريطانيون يشترون رضاء حكام هذه المحميات وفي نفس الوقت يشعلون نيران الاختلافات فيما بينهم حتى انه جاء وقت صار الصراع بين فرقاء البلد الواحد والنزاعات المتجددة قائمة ومتكررة بين زعماء المحميات وكان البريطانيون يتدخلون بين الأطراف المتصارعة كحمامة سلام للحد من تفاقم الاختلافات والنزاعات وصار البريطانيون في هذه الفترة هم المغتصبون للحق والقضاة عليه واصحاب الرأى الذى لا يرد ولا يستطيع ان يقف امامهم من يخالفه.

وصار الغضب الحقيقي من شمال اليمن ومتمثلا في شخص الامام يحيى والقبائل التى تدين له بالولاء فقد اعلن الامام يحيى

صوته عاليا برفضه الوجود البريطاني في اى مكان ورثة عن اسلافه بل وزاد على ذلك بمهاجمة مناطق الضالع والبيضا والعوازل العليا والسفلى، ورغم ان هذه المناطق كانت بعيدة نسبيا عن منطقة السيطرة البريطانية الا ان البريطانيون اعتبروا ذلك خروجا عن الاتفاقيات السابق عقدها مع العثمانيين على حدود النفوذ البريطاني والنفوذ العثماني في اليمن وكان الامام يحيى يرفض هذا التقسيم وان بلاد اليمن بكاملها تخضع للامام وليس مكان لمغتصب او معتدى، ولذلك نظر البريطانيون الى هجمات الامام يحى على تلك المناطق بجدية وحذر شديدين.

وبعد انتصار البريطانيون في الحرب العالمية الاولى لم يكن يخفى احتمال وقوع تصادم مع الامام في شمال اليمن وعمد البريطانيون الى اتخاذ ترتيبات وقائية بل نادى بعض الساسة البريطانيون بالقيام بترتيبات هجومية وكان ذلك اكثر وضوحا في التقرير الذى ارسله البريجادير جنرال والتون قائد القوات البريطانية في عدن الى حكومة الهند البريطانية وكشف فيه بعض النوايا والتطلعات في اليمن وكان ابرز اقتراحات والتون تقضى بفرض تدعيم البريطانيون لقواتهم في عدن والمناطق المحيطة بها والدعوة الى زيادة النفوذ البريطاني في المستقبل في هذه المنطقة التى تأكدت اهميتها للبريطانيين اثناء الحرب العالمية الاولى.

وجاء في الاقتراحات: -

أولا: تدعيم حامية عدن البريطانية والاحتفاظ بقوة كافية في الشيخ

عثمان شمال عدن ومنطقة التحكم فى المحاور المتجهة الى الشمال والشرق

ثانيا: الاستيلاء على لحج والسيطرة على المراكز المتحكمة فى ممر «تبيان» بغرض تأمين المنطقة الشمالية لعدن.

ثالثا: احتلال مدينة الضالع والعودة الى الاستيلاء على خط الحدود القديم لمحمية عدن البريطانية.

رابعا: احتلال تعز مع فرض الحماية البريطانية على كامل الركن الجنوبى الغربى لليمن مع ترسيم خط جديد للحدود التى يمكن الدفاع عنها استراتيجيا وسياسيا.

ومع ذلك يتضح ان البريطانيون كان لديهم التصميم على تأمين منطقة عدن حتى لو لجأوا الى احتلال تعز والضالع وتعزيزا لموقعهم فى عدن وتأكيدا على تمسكهم بمحمية عدن والدفاع عنها بشتى الوسائل المختلفة ومن ضمنها الخيار العسكرى.

ورغم ان القائد العثمانى فى لحج قام بلا تردد بالتسليم للمندوب السامى البريطانى فى عدن حتى ان بعض الضباط العثمانيون قاموا ببيع اسلحتهم بابخس الاثمان فوصلت قيمة السيف بما يعادل خمسة قروش مصرية واستلم البريطانيون منطقة الشيخ عثمان وعسكرت قواتهم فى منطقة «ام القنع» شمال الشيخ عثمان. وفى المرتفعات المحيطة بها وطرق الاقتراب المؤدية اليها.

وفى حين كان القائد العثمانى فى لحج سريعا فى استسلامه كان القائد العثمانى فى شمال اليمن مترددا ومكث بعض الوقت يعيد حساباته فيما وصله من اوامر الا ان البريطانيون لم يسمحوا للقائد العثمانى باية فرصة وهاجموا الحديدة وقصفوها بنيران مدفعية الاسطول.

وتم ذلك فجأة وبغير سابق اعلان ولا تمهيد وفر اهالى الحديدية تاركين اموالهم ومتاعهم تحاشيا لشدة القصف وسرعته واستولى البريطانيون على الحديدية وكان حقيقة هدفهم هو وضع اقدامهم فى الشمال لمواجهة الامام يحيى ورهن الحديدة للمساومة ان لزم الامر لما يشكله ميناء الحديدة اهمية بالغة لليمن فهى المنفذ الرئيسى لليمن على البحر الأحمر وتظاهر البريطانيون بأن احتلالهم للحديدة هو بغرض وضع الامن فى نصابه وضمان الاستقرار فى المدينة وقد اشار بعض المؤرخين الى ان البريطانيون كانوا يهدفون الى الحصول على ورقة مساومة فى ايديهم ضد الامام يحيى حتى لا يشكل تهديدا مباشرا لوجودهم باليمن وعلى وجه الخصوص فى محمية عدن.

الا انه بجانب هذه الاهداف فان البريطانيون؛ كانوا يهدفون ايضا الى جعل الحديدة مركزا لبدء الانطلاق الى الداخل فى اليمن وتأسيس مستعمرة جديدة تتصل برا بمستعمرتهم فى عدن وكعادة البريطانيون لجأوا الى احاطة مدينة الحديدة بنطاق من الاسلاك الشائكة وبعثوا بمندوبيهم وعملائهم بغرض استمالة مشايخ القبائل المجاورة للحديدة على نحو ما حدث مع شيوخ المحميات التسع المجاورة لعدن.

الا ان البريطانيون ولم يمض على احتلالهم للحديدية سوى سنتين حتى تم ارغامهم على الانسحاب منها بعد تسليم المدينة للادارسة وتركوا الحديدة مرغمين نتيجة هجمات القبائل اليمنية المجاورة للحديدة وتكرار قطع محاور الاتصال الى الداخل وقيام بعض الوطنين بمهاجمة بعض الجنود البريطانيين وساد عدم الاستقرار والهدوء المدينة منذ دخلها البريطانيون فالاهالى تنبهوا فى وقت مبكر بخطر احتلال المدينة وما يترتب عليه من مساس عرض العربى مهما كان بسيطا وموقوتا فالارض هى العرض والشرف وعلى الوطنى ان يدافع عنها ويبعد البلاء عن ارضه، وكان اهالى الحديدة مثلهم مثل معظم اهالى اليمن البسطاء يعملون فى التجارة وصيد السمك وخدمة السفن الراسية فى الميناء ويهمهم استقرار الحال فى مدينتهم بعيدا عن التيارات السياسية المتشابكة والمتعارضة فى معظم الاحوال.

وساد الغضب معظم الاهالى وكثير من القبائل المتاخمة لميناء الحديدية نظرا للاضطرابات التى حلت بالمنطقة بعد استيلاء البريطانيون عليها ورفض اهالى البلاد قبول وجود البريطانيون على ارضهم وقامت بعض القبائل المجاورة للحديدة بالاغارة على القوات البريطانية خاصة مواقعها المتطرفة والقيام بنهب وسلب مخازن المؤمن والذخيرة التى اقامها البريطانيون بل انه من الجدير بالذكر الاشارة الى حادثتين مميزتين حدثتا بعد الاحتلال البريطانى للحديدة وهو ما يعزز مدى الكره والرفض والمعارضه الشديدة من معظم القبائل والاهالى بل وتذمر عدد كبير من التجار لكساد تجارتهم التى كان الهدوء والاستقرار السابق مبعثا لازدهارها ورواجها ففى الحادثة الأولى

قامت القيادة البريطانية بإرسال بعثة سميت بعثة جاكوب تحت قيادة جاكوب مساعد المقيم السياسى فى عدن عن طريق الحديدية للتوجه الى صنعاء لمفاوضة الامام يحيى والاتفاق معه الا ان قبيلة القمعرى اليمنية حالت دون ذلك وقطعت الطريق امام البعثة وهاجمت قوة الحماية العسكرية المرافقة لها مما ارغم البعثة على الرجوع الى الحديدية دون تحقيق الهدف الذى ذهبت من اجله وفى الحادثة الاخرى قام ضابط المخابرات البريطانية فى الحديدة على رأس قوة واتجه الى مناطق قبيلة القمعرى الا انه قبل الوصول الى اماكن هذه القبيلة تعرض لاغارة شديدة من بعض الاهالى وجموع من قبائل مجاورة نصبوا كمينا قرب مرتفعات حاكمة ودارت معركة غير متوقعة مع البريطانيين وقتل فيها ضابط المخابرات واربعة افراد اخرين من القوات المرافقة واصيب عدد اخر مما ادى الى فشل هذه المهمة وعودة باقى القوات المهاجمة الى الحديدة.

هذا بالاضافة الى الحوادث المتفرقة التى كان لايمر يوم واحد دون وقوع مهاجمة لفرد من القوات البريطانية او سرقة سلاح او مؤن او اشعال حريق فى معدات يستخدمها البريطانيون حتى ان الحكومة البريطانية فى بادئ الامر ظنت ان العيب فى سياسة وادارة القنصل البريطانى فى الحديدة فقامت بتغيير ثلاثة قناصل فى سبيل تهدئة الحال فى المدينة وبعث الاستقرار اليها وذلك خلال سنة واحدة.

حتى ان البريطانيون لجأوا الى استفتاء رأى الاهالى فى اى حكومة يرغبون فى الانضمام اليها فجأة جاء رأى الاغلبية الساحقة

رافضا للوجود البريطانى بل تمسك الكثير منهم بعودة الحكم العثمانى او الانضمام الى الحكومة المصرية.

والنتيجة ان البريطانيون لم يستقر بهم الحال فى الحديدة وانسحبوا منها بعد تسليمها للادارسة المناوئين للامام فى صنعاء ومن جهته لجأ الامام الى مهاجمة المحميات حول عدن كورقة ضغط على الوجود البريطانى فى الحديدة وتسليمهم المدينة الى اعدائه من الادارسة.

والنتيجة ان البريطانيون انسحبوا من الحديدة مضطرين الى ذلك بعد ان ظنت القيادة البريطانية ان الاستيلاء على الحديدة سيكون نزهة هادئة واستمرار احتلالها اقامة مريحة قليلة التكاليف كثيرة الفوائد ومن باب الترفيه على القارئ فى سياق التشبيه بقيام البريطانيين باحتلال الحديدة يذكرنا ذلك بحكاية قديمة بها تشابه نسبى ومعنى ضمنى يكشف عن انه مهما بلغ الذكاء واحكام الخطة ودقة التنفيذ فلابد ان يشوب ذلك احتمالات غير متوقعة او ثغرات غابت عن ذكاء المخطط وخلاصة الحكايات القديمة ان حاشية احد السلاطين القدامى اعترضوا على تكريم السلطان لأحد مستشاريه الأغبياء واللجوء اليه لاستشارته فى اموره واراد السلطان ان يثبت للحاشية ان هذا الرجل ذكى وليس غبيا كما يظن البعض وانه يعتمد عليه فى كثير من الشئون الصعبة فامرهم جميعا بالجلوس واحضر بيض دجاج وامر ان يأخذ كل منهم بيضة ويخبئها خلفه ثم امر باحضار هذا الرجل واخذ السلطان يستشيرهم فى امور صعبة واخذ

كل منهم يقول رايه فيما يعرضه السلطان عليه فتظاهر السلطان بالغضب الشديد لان ارائهم لم تعجبه وعجزوا عن الاجابة بما يرغبه السلطان وعقابا لهم على ذلك امر كل منهم ان يبيض بيضة فورا والا امر السياف بقطع رقبته فى الحال واخذ كل رجل من الحاشية يتململ يمينا ويسارا وتقليد صوت الدجاجة ثم يقوم بعد ان يمسك بيده البيضة التى سبق ان خبأها خلفه والتى سبق واعطاها له السلطان ويسلمها للسلطان وسلموا السلطان البيض ماعدا هذا الرجل المشهور بغبائه والمقرب الى السلطان وفوجىء الحضور جميعا بهذا الرجل يصيح عاليا مقلدا اذان الديك وقال للسلطان (اننى انا الديك يا سيدى وهؤلا جميعا دجاجاتى).

وظهر لاحقا ان البريطانيون عند احتلالهم للحديدة ازعجتهم صياح الديكة التى اقلقت مضجعهم وخالفت توقعاتهم واصمت اذانهم من الصوت العالى الصاخب فحزموا امتعتهم واثروا الرحيل عن الحديدة خوفا من ان تصاب اذانهم بالصمم.

لقد ظهر واضحا اهمية موقع عدن للبريطانيين والفائدة الضخمة على تواجدهم فى هذه البقعة الحاكمة حتى اشار بعض السياسيين الى أنه يرجع الفضل ان بريطانيا نجحت نجاحا باهرا فى تحقيق اهدافها السياسية فى البحر الاحمر اثناء الحرب العالمية الاولى الفضل لذلك التواجدالبريطانى فى عدن وتمكن البريطانيون من السيطرة عن طريق حكومتهم فى الهند حتى شمالا الى قناة السويس والبحر الابيض المتوسط بالاضافة الى سرعة استسلام العثمانيين

وبانسحاب البريطانيون عن الحديدة بدأ اهتمامهم يركز على منطقة عدن والمحميات التسع السابق الاشارة اليها وخاصة بعد نجاح السياسة البريطانية فى توسيع نفوذها فى سلطنة لحج بدأ فى الافق بوادر هدوء فى عدن.

وأخذ البريطانيون يوسعون ويزيدون من نفوذهم فى تلك المنطقة الحاكمة وفى الفترة ما بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية تم استغلالها فى انشاء المعسكرات للجنود وتوسيع القدرات البريطانية فتم انشاء مطار فى خور مكسر بعد ان تطورت وسائل النقل اثناء الحرب العالمية الثانية وبدأ البريطانيون فى اقامة مستودعات بترولية فى شبه جزيرة عدن الصغرى بعد تطور وسائل النقل البحرى واستخدام البترول بديلا وفى نفس الوقت تم انشاء معسكر فى منطقة الشيخ عثمان لتأمين القاعدة الرئيسية والقيادة البريطانية فى كريتر.

رغم تطور العلاقات مع سلطنة لحج حتى وان لم يكن هناك معاهدة حماية بريطانية لهذه السلطنة إلا أن التعاون تزايد بين السلطان والقيادة البريطانية.

ونظرا للهدوء النسبى الذى خيم على منطقة عدن بعد الحرب العالمية الثانية وازدياد الترتيبات الأمنية التى لجأ اليها البريطانيون من حيث زيادة قدراتهم فى توفير الأفراد والمعدات والمهمات الحربية المتطورة فقد فكر البريطانيون فى مد نفوذهم الى منطقة ردفان والضالع فى شمال عدن خاصة بعد ان استشعرت القيادة البريطانية

بأن هذه المناطق صارت مصدرا لإثارة القلاقل بين المواطنين فى عدن فالامام فى اليمن يرفض الوجود البريطانى حتى فى عدن ويعتبر ان ذلك انتهاك لسيادته على ارضه وتفريط فى الشرف اليمنى.

ولما كانت قدرات الامام العسكرية محدودة فى مقابل القدرات العسكرية البريطانية فى عدن فعمد الى اللجوء لحث القبائل على رفض الاحتلال بل والقيام فى كثير من الأحيان بأعمال مضادة لتواجد الاحتلال والعمل على احياء نزعة المقاومة دفاعا عن الشرف والأرض المحتلة وبالتالى استجابت بعض القبائل وكثرت لذلك عمليات الاغارات على طرق الاقتراب ناحية عدن والقيام بقطع الطرق الى الداخل والاغارة على القوافل المتوجهة الى تموين القوات البريطانية مما تسبب في احداث ازعاج لهذه القوات بصفة مستمرة ولكن على فترات متقطعة.

وفى هذه الفترات بدأت تخف حدة العداء وانشغل الأهالى بتحقيق المكاسب المادية بعد ازدهار عدن.

من ناحية اخرى فلقد اتسعت مدينة عدن وزاد العمران فيها وتطورت المبانى وازدهرت التجارة ازدهارا كبيرا وزاد عدد المواطنين فى عدن زيادة عظيمة خاصة بعد ان زاد العاملون فى الاشغال المختلفة داخل المعسكرات البريطانية فى عدن حتى ان سكان عدن فى تلك الفترة صاروا يربون على اربعين ألفا من مختلف المهن والحرف ونتيجة لسياسة المرونة التى روجت لها القوات البريطانية بعد انتصارها فى عدن تراجعت حدة الغضب وخفت نزعة المقاومة وكاد

الموقف يؤدى الى قيام النزاع بين أهل البلد الواحد وذلك لشدة التنافس بينهم على كسب المال وشدة الاختلاف فيما بينهم مع الرأى والرأى الآخر مما جعل مساحة المقاومة تقل ونزعة العداء مع البريطانيين تنخفض الى أدنى حد.

حادثة ردفان الاولى

كانت القيادة البريطانية فى عدن تتمركز فى منطقة كريتر قريبا من ساحل المحيط تحيط بها منطقة مرتفعات حاكمة وكانت تقع فى هذه المنطقة المستشفى العسكرى البريطانى وفى عدن بصفة عامة ترتفع درجة الرطوبة الى نسب عالية مما يؤثر سلبا على المرضى والجرحى بالمستشفى بالاضافة الى درجة حرارة عالية طوال ايام العام تقريبا هذا بالاضافة الى هبوب الرياح الشمالية الغربية محملة بذرات الرمال والاتربة والتى كان تأثيرها السلبى لا تقف دونه حائل ولا مانع ويطلق الاهالى على هذه الرياح اسم (الطوز) ومما يزيد من صعوبة الامر وجود كثير من الحشرات الضارة التى تنمو فى الجو الرطب الحار مثل الناموس الذى يسبب مرض الملاريا وكذلك فى وجود هذا الجو المناسب لتكاثر بعض الحيوانات الضارة مثل الفئران رغم قيام القيادة البريطانية بحملات تطهير ومقاومة عنيفة الا ان المجهود الضخم المبذول كان عاجزا وقاصرا عن القضاء او الحد من نظام تكاثر مثل

هذه الحشرات والحيوانات التى استفحل امرها وازدادت اضرارها وطغت مرة أخرى على تخطيط القيادة البريطانية الرغبة فى بناء مستشفى جديدة فى مكان اكثر ملاءمة وظروفه المناخية افضل اعتدالا وكان قد سبق ان تم اقتراح بناء مستشفى عسكرى فى منطقة الضالع فى الشمال حيث الجو أقل رطوبة واقل حرارة والمنطقة مرتفعة تهب عليها رياح اكثر نقاء واشد جفافا مما يحدث فى عدن الا أن هذه الفكرة لم تجد طريقها الى التنفيذ نظرا للمشاعر العدائية للبريطانيين من ناحية رجال القبائل فى الشمال خاصة وان هذه القبائل كانت شبه معادية للوجود البريطانى نظرا لقربها من مركز الامامة فى صنعاء وتعتبر بعيدة نسبيا عن عدن والوصول اليها يمر فى مناطق قبائل قد تكون معادية وحتى اذا كانت قبائل متعاونة فلا يسلم الامر من وجود قطاع للطرق وينتهزون فرصة مرور القوافل للقيام بالنهب والسلب ويهربون بما يحصلون عليه الى الجبال بعيدا عن اى عمليات مطاردة عليهم.

ولكن بعد تطور وسائل المواصلات وتوافر السيارات وحتى الطائرات ووسائل الاتصال التليفونى الحديثة عادت فكرة انشاء مستشفى الضالع تتردد كثيرا بين رؤساء القيادة البريطانية فى عدن. واصبحت المناقشات حول ذلك تتكرر بصوت عال خاصة بعد تزايد الجرحى والمرضى البريطانيين بسبب استمرار المناوشات والاغارات من ناحية القبائل والاهالى وبسبب تعذر القضاء على الحشرات والحيوانات الضارة التى وجدت فى منطقة عدن مرتعا خصبا للتكاثر والنمو ورغم نجاح القيادة البريطانية فى توثيق العلاقة بين سلطنة

لحج والمحميات التسع السابق الاشارة اليها الا ان كثير من القبائل والمواطنين كانوا يتسببون فى متاعب كثيرة وحدوث قلاقل ونهب قوافل التموين المتجهة الى عدن.

وقد فكرت القيادة البريطانية فى الاعتماد على نقل الجرحى والمرضى الى مصر فى ذلك الوقت الا ان بعد المسافة وقصور الامكانات فى ذلك الحين جعل القيادة البريطانية ترسل مجموعة مكونة من ضابط واثنين من الاطباء واربعة مساعدين الى منطقة الضالع لاختيار انسب الاماكن لاقامة المستشفى.

واعتمدت هذه المجموعة على اربعة جنود للحراسة ،معهم ثلاث عربات اثنين من العربات اللاندر وقر والثالثة شاحنة صغيرة لحمل بعض الادوية والهدايا لزعماء المنطقة فى الضالع

ونظرا للعلاقة الحميمة فى ذلك الوقت التى كانت تربط بين القوات البريطانية فى عدن والسلطات فى لحج فقد انضم للمجموعة خمسة افراد لحجين كأدلاء للمجموعة وكمندوبين من قبل سلطان لحج الى القبائل فى الشمال لتسهيل مهمة المجموعة والعمل على انجاحها وتأمين افرادها.

وتحركت المجموعة الى الشمال من عدن ومرت فى سلطنة لحج واتجهت شمالا حتى وصلت الى ردفان وكانت المجموعة بغرض اكتساب الاهالى والقبائل اثناء تقدمها شمالا تقوم بعلاج الحالات البسيطة وتصرف الدواء الميسر وتجمع بعض الاهالى وسبقت المجموعة الطبية اخبارها ومعاونتها الحميمة بين القبائل المختلفة فكان

بعض المرضى ينتظرون هذه القافلة على الطريق لتلقى العلاج وبعض الرعاية الطبية والبعض الاخر بغرض الترحيب بقافلة الشفاء حتي وصلت أخبار القافلة إلى رؤساء العشائر والقبائل فى المنطقة خاصة ان المرافقين من اللحجين كانوا يحملون مكاتبات الى وجهاء ورؤساء العشائر فى الضالع من سلطان لحج.

وأقامت المجموعة الطبية خيمتين كبيرتين احداهما للكشف الطبى والاخرى بها بعض الاسرة للمرضى اللذين تلزم حالتهم ان يظلوا تحت الملاحظة والمراقبة الطبية بعض الوقت

وسرى بين كثير من اهالى الضالع مشاعر بالرضى والفرح نتيجة ماالمسوة من معاونة كبيرة فى علاج المرضى ومن ناحية اخرى قام قائد المجموعة يرافقه الطبيبان بدراسة الاماكن المناسبة لانشاء المستشفى..

ووقع الاختيار على مكان مرتفع تتوافر فيه المواصفات المطلوبة ونتيجة للاسلوب اللين الناجح فى معالجة بعض حالات المرضى ازداد الترحيب بوجود مجموعة العلاج وبلغ الترحيب ذروته عندما قام احد وجهاء الضالع بتجهيز وليمة كبيرة للمجموعة الطبية وكعادة وطبيعة الاهالى تم فرش مكان الوليمة بالحصر الملونة والتى كان الاهالى يحضرونها من زيلع ومصوع.... وضعوا الاطباق على هذه الحصر وحضر المدعوون وعلى رأسهم قائد المجموعة وكان ضابطا جديدا على المنطقة يتميز بالذكاء والمرونة وعند دخول مكان الوليمة قادة صاحب الدعوة الى مكان الصدارة حيث من المفروض ان يجلس كل

فرد القرفصاء وفوجئ القائد عند جلوسه فى المكان الذى تم تحديده وهو مكان الشرف وضعت فيه رأس بقرة بكامل محتوياتها العينان والاذنان وحول هذا الرأس على الجانبين اعواد من الفجل الاخضر والجرجير وقد تم فتح فم راس البقرة وظهرت اسنانها كاملة وتدلى لسانها من خلال صفى الاسنان وتم وضع حبة من الطماطم الحمراء فى وسط فم رأس البقرة وفوجئ الطبيب بان امامه راس خروف بكامله وقد تم فتح فمه ووضع حبة من الطماطم بين الأسنان.

اما وسط الوليمة فقد تم وضع باقى البقرة مشوية بعد ازالة الجلد وتنظيف البطن وكانت بقرة متوسطة الحجم وتم وضعها بمهارة فوق قارب ضخم مملوء بالارز وقد لون الارز جزء منه اصفر اللون وجزء منه احمر اللون.

وكذلك كان الحال بجسم الخروف فقد تم وضعه بعد شيه على قارب من الأرز ايضا الارز الملون وتم تزيين جسم البقرة وجسم الخروف ببعض اوراق ورؤوس الفجل الطازجة متناثرة فوق كتل اللحم المشوى.

وجلس قائد المجموعة وبجانبه الطبيب والمساعدون وعدد آخر من المدعوين من وجهاء القبيلة وجلس فى مواجهة القائد الداعى والقائم بهذه الوليمة ووقف خلف القائد شخص بيده ابريق من النحاس مملوء بالماء وبجانبه اناء ايضا من النحاس ووظيفة هذا الشخص هو صب الماء على يد القائد بعد نهو الطعام ولم ينس صاحب الوليمة ان يكلف الشخص الحامل للابريق الواقف خلف القائد بوضع منشفة خفيفة هندية الصنع على كتفه.

وعندما جلس القائد وفوجئ بوجود راس البقرة امامه وكذلك شأن الطبيب الذى تم وضع راس الخروف امامه فنظر كل منهما للاخر في استفسار واستفهام لماذا تم وضع هاتان الرأسان امامهما وتحدث القائد فى قرارة نفسه حديثا لم يسمعه احد سواه وتساءل اما كان من الاجدر مادام شخصية موضع تكريم وترحيب ان يتم وضع قطعة فيليه من البقرة امامه بدلا من هذه الرأس التى كان منظرها بهذا الشكل تجعل نفس المدعو تعف عن الطعام حتى لو كانت معدته تتلوى جوعا وحارت عين القائد يمينا وشمالا وامامه طالبا منقذا ومعينا وتذكر فى نفس الوقت ايام وجوده فى بلاده وهو من احد العائلات العريقة شمال لندن وكيف انه كان يأكل قطع الفيليه والبوفتيك وافضل انواع قطع اللحم الشهية المشوية بطريقة جميلة وذوق رفيع خاصة حينما يوضع عليها بعض النبيذ ليزيد من حلاوة مذاقها ويفتح شهية من يأكلها.

ولكنه طوال حياته ما رأى رأس بقرة او خروف موضوعة بهذا الشكل خلاف ما تعود عليه فى بلاده فلا تؤكل الرؤوس المذبوحة خاصة بين طبقته المتميزة ودون ان يمد يده وكأن يديه قد تسمرتا الى جانبه وهو جالس القرفصاء ورأى صاحب الوليمة امامه يدفع بيديه العاريتين ويشد قطعا مختلفة من لحم البقرة المشوى ويدأ فى الأكل ثم يتبع ذلك بقبضة مملوءة بالأرز الملون بعد ان يضغطها باصابعه ويكورها ثم يضعها فى فمه.

وكان الداعى الى الوليمة هو الذى افتتح الاكل وتسابق الاخرون

ممن تم دعوتهم فمدوا ايديهم الى اللحم والارز وحذوا حذو صاحب الوليمة وزادت حدة قطع اللحم وبلع الارز وساد الحاضرون صمت شبه تام فيما عدا صوت المضغ والطحن تحت الاسنان والانياب والبلع والتجشو نتيجة تراكم الطعام فى المعدة وانتبه القائد البريطانى الى يد تضغط على كتفه فالتفت الى صاحب هذه اليد وكان احد المرافقين اللحجين معه الذى لاحظ تسمر القائد فى مكانه دون ان يمد يده لتناول الطعام فاشار الى رأس البقرة وتمتم ببضع كلمات متناثرة ما بين الانجليزية والعربية فهم القائد وضيف شرف الوليمة انه يتحتم عليه ان يأكل راس البقرة لان وضعها امامه تكريم كبير لشخصه واكلها كاملة تعبر عن الامتنان والشكر لهذا التكريم وبدون ان يفعل ذلك يكون قد وجه اهانة كبيرة الى صاحب الوليمة وتصرفه على ذلك يكون انقاصا من قدر وهيبة الحاضرين ووجب على القائد بعد ان فهم مغزى وضع هذه الرأس امامه ان يقابل هذا التكريم بالتصرف اللائق والفعل السليم خاصة وانه لا يريد ان يفقد فوائد ما تم تحقيقه هو والمجموعة تحت قيادته فى هذه الزيارة.

وفجأة التفت الى جاره الطبيب وقد وضعت راس الخروف امامه وتحدث معه سريعا ان يفعل مثل ما يفعله دون تردد.

ومد القائد فجأة يديه الى الرأس التى امامه ورفعها الى اعلا حتى تجاوزت مستوى راسه بقليل ثم انزلها امام فمه وقبل الرأس عند فمها المفتوح ثم قبل العينين المغلقتين ثم قبل اعلا راس البقرة عند مكان المخ ثم اعاد الراس امامه ولكن كان وضع فتحه فم البقرة فى اتجاه

صاحب الوليمة وكذلك فعل الطبيب مثل ما فعله القائد ووضع رأس الخروف فى وضع معاكس مثلما فعل القائد.

ونظر وجيه القوم الى ما فعله القائد والطبيب لبضع لحظات ثم استمر فى عمله من شد اللحم وتوزيعه وقضم وطحن بعضه تحت الاسنان ثم بلع كرة الارز الملون ورفع نظره مرة ثانية الى القائد ثم الى الطبيب الذى يجلس بجانبه ثم نظر الى راس البقرة وراس الخروف واومأ براسة وجذب قطعة من لحم البقرة التى امامه ومد يده ووضعها امام القائد ثم مد يده الى جسم الخروف الذى كان بعيدا بعض الشيء عن موقعه ووضعها امام الطبيب رغم تكاثر ايدى الاكلين على نهش اللحم منه وتمكن باخراج قطعة من لحم الخروف وقدمها امام الطبيب وكان ذلك فى العرف القبلى معناه قبول اعتذار كل من القائد والطبيب عن اكل رأس البقرة والخروف رغم ان وضع رأس البقرة والخروف يعنى قمة التكريم والترحيب الحار وبهذا التصرف الذكى فهما ان معنى التكريم لا يزال على حرارته وقوته وتقبل القائد والطبيب اللحم الذى قدمه صاحب الدعوة بقبول حسن وشاركا الجمع الجالس القضم والطحن و.البلع... وقاما بعمل كرات من الارز وقذفاها فى فمهما لبلعها.. مثلما يفعل الجالسون معهم فى الوليمة.

واستثناء دون الجميع قام صبى كان واقفا خلف القائد ومعه ابريق ومنشفة على كتفه وحوض صغير من النحاس وقام الصبى

بصب الماء على يدى القائ؛ ليغسل يديه وفمه وكذل فعل الطبيب اما عدا ذلك فقد اكتفوا بمسح ايديهم في ملابسهم.

وانتهت كل اجزاء البقرة فيما عدا الرأس وكذلك انتهت الخروف بالكامل فيما عدا راسه وجاء ثلاثة من الشباب وقاموا برفع الاوعية ومخلفات الوليمة وفرشوا حصيرا نظيفا وجاء شاب يحمل صينية كبيرة وضعت عليها اكواب الشاى الاحمر الغامق وقام بتوزيعها على الحاضرين وجاء خلفه اثنان يحمل كل منهما مجموعة من حزمات القات وقاموا بوضعها امام المدعوين والقات نوع من الاعشاب الخضراء والتى يقبل عليه اهل اليمن غنيهم وفقيرهم وتم وضع اوراق القات وتجميعه فى تجويف الفم حتى ينتفخ احد جابنى الفم ويصل حجمه مثل حجم كرة التنس بارزة سواء على يمين الفم او على يساره ليملأ التجويف ويأخذ فى استحلابه ببطء وقد يصل الى اكثر من ساعة وشدقه منتفخ وهو فى حالة انسجام تام وتأملات واحلام تسبب له المتعة والتلذذ واحيانا ما تشاهد سائق شاحنة وقد انتفخ شدقه بالقات ويسمى تخزين وهو يقوم بعمله ثم احضر الشباب النرجيلة مزودة بالتمباك الاصلى ويخرج من الترجيلة ثلاثة او اربع افرع طويلة حتى تصل الى المدخن تطول فى اقصى مكان من الديوانية والنرجيلة مصنوعة على النمط التركي ومضى الوقت فى استرخاء بين الضحكات هنا وهناك والتعليقات الفكهة ومضى الوقت سريعا حتى كاد ان يختفى نور النهار الذى كان يختفى اجزاء قليلة منه خلف السحب واستاذن قائد المجموعة فى العودة الى عدن ورغم تحفظ ومعارضة صاحب الدعوة وبعض المدعوين فى الوليمة حيث ان الوقت

قد يتأخر عليهم و يكاد يحل الظلام واشار البعض الى ان الغيوم تتجمع وتتكاثر بسرعة مما ينذر بهطول المطر وضربوا بعض الامثلة التى مرت بهطول امطار رعدية عنيفة والطريق الى عدن طريق وعرة ينحدر بسرعة الى اودية عميقة ثم يرتفع فجأة الى سفوح تلال عالية مما يشكل خطورة على السير بالسيارات بمثل هذه السرعة اما القوافل بطيئة ولا يمكن مقارنتها بسرعة السيارات ورغم ذلك يتطلب من رجال هذه القوافل الخبرة للمرور فى هذه المدقات متقلبة المزاج بين الارتفاع والانخفاض المفاجئ ويلجأ رجال القوافل للسير فى معظم الاحوال ليلا تجنبا لحرارة الشمس العالية اما فى ضوء النهار فتمر السيارات والشاحنات رغم وجود الضوء وخبرة السائقين عليهم ان يكونوا حذرين من مفاجآت هذه المدقات الراقصة عبر المرتفعات.

ورغم هذه التحذيرات التى تم سردها على القائد ورجاله الا انه شكر لهم ودهم وحفاوتهم وترك القائد ما تبقى لديه من ادوية لدى شيخ القبيلة بعد ان اوضح الطبيب لبعض الرجال ممن كانوا يعملون فى مجال المعالجة للحالات البسيطة ولم يكن هؤلاء الرجال اطباء ولكنهم ورثوا مهنتهم ووصفاتهم العلاجية ابا عن جد. ولكن على اية حال فمن كان موجودا منهم كانوا الانسب والاكثر تفهما لاستخدام الادوية.

وقفلت المجموعة عائدة فى اتجاه عدن ورغم تكاثر السحب ونزول رخات من المطر الخفيف الا ان قائد المجموعة حزم قراره للعودة ورغم

كل الظروف والاحتمالات الغير مواتية من ظلام وامطار وطريق مترب عنيف في انحناءاته وسرعة انحداره خلال المرتفعات المحيطة.

وتقدمت المجموعة احدى عربات الجيب اللاندروفر وركب فيهاطبيب المجموعة واثنين من الادلاء اللحجين واثنين من الجنود وتبعتهم عربة القائد والطبيب الآخر برفقتهم اثنان من الادلاء ثم الشاحنة وركب فيها باقي الجنود والدليل الخامس من الذين رافقوا المجموعة من لحج.

وما كادت القافلة تترك منطقة الضالع وتتقدم جنوبا حتى ازداد هطول المطر عنفا فلم يهدأ في ثانية وفى هذه المناطق كثيرا ما تسقط الامطار الرعدية العنيفة خاصة على سفوح الجبال المحيطة ثم تتجمع فى ممرات وتندفع عارمة فى سيول شديدة عبر الوديان المنخفضة.

وبدأت القافلة تسير ببطء شديد فالرؤيا رغم كشافات العربات معدومة بسبب سقوط الامطار مثل افواه القرب وكأن السماء فتحت ابوابها على مصراعيه حتى وكأن العربات اصبحت قوارب وفى بحر عظيم من الماء المنهمر من اعلا والارض من تحتهم اصبحت رخوة وفى اماكن مختلفة كانت العجلات تغوص داخل الرمال بل واحيانا اخرى تنزلق وتكاد العربة تدور حول نفسها من شدة الانزلاق واندفاع المياه.

وتاهت اعين الادلاء على الاستدلال عن المدق الرئيسى واختلطت الاماكن امامهم فهم فى الحقيقة لا يمكنهم رؤية اى شيء.

وفجأة توقفت العربة الاولى بعد حدوث صوت ارتطام كبير بحجر اسفلها ويبدو ان الارتطام كان شديدا بحيث اصاب على ما يبدو صندوق التروس السفلى بضرر بليغ فلم تعد السيارة قادرة على

السير حتى والتحرك من مكانها ونزل القائد والادلاء ليتبينوا الامر حولهم ولكن الحال كان شبه ميئوس منه. فالطريق امامهم لم يبقى له اثر واختلط على الادلاء الامر حتى ان احدهم لمح للقائد بأنه لا يعرف اين موقعهم وانه من الافضل لهم ان يستعينوا بخيمة وبعض المتوافر من الاغطية فى العربات ويبيتوا ليلتهم على سفح أحد التلال المحيطة بعيدًا عن الوادى الذى يقفون فيه حتى تتوقف هذه الامطار العنيفة ويظهر نور الصباح ويهتدون إلى الطريق الصحيح.

خاصة وأنه لا أمل فى إصلاح العربة العاطلة وإنه من واقع الخبرات السابقة ضرورة عدم البقاء فى العربات أسفل الوادى لما فى ذلك من مخاطر كبيرة وأومأ القائد برأسه بعد حديث قصير مع الطبيب وقائد ثانى المجموعة ولم يجد بديل عن البقاء فى السيارات حتى يتوقف هذا السيل الجارف من الامطار ورفض أن يترك العربات ويصعد سفح التلال بعيدًا عن إنحدار مجرى السيل فى الوادى وإستبعد إحتمال تعرضهم لأى مخاطر فالعربات أكثر أمنًا وتوفر حماية لهم من الامطار العنيفة وقبع الجميع فى السيارات وإزداد إنهمار الأمطار عنفًا وقوة وإزداد صوت الرعد فى السماء وهدير نزول المياه وجريانها على سفوح التلال المحيطة.

ولكن الأدلاء المرافقين تركوا العربات بعد رفض القائد نصيحتهم وإختفوا فى ظلام الليل الدامس صاعدين إحدى التلال القريبة رغم أوامر القائد المشددة لهم بالبقاء والتهديد والوعيد لهم عند الوصول إلى الحج لأنهم لم ينصاعوا لتعليماته ونظر بعضهم إلى بعض نظرة ذات معنى ولم يأبهوا للتهديد وإبتلعهم الظلام والمطر.

وراجع القائد حساباته وهو قابع فى سيارته المعطلة وقد تم إحكام إغلاق الفتحات وعلى ضوء لمبة صغيرة داخل السيارة أشعل سيجارته وتحدث إلى من معه مستغربًا ما فعله الأدلاء الوطنيين وإذا كانوا ظنًا منهم أن السيل يستطيع تحريك السيارة ويدفعها أمامه فهذا أمر مستحيل فالسيارات كبيرة وثقيلة بالإضافة إلى أن عربتك ثابتة الحركة بعد إرتطامها بالصخرة الكبيرة التى أصابت صندوق التروس وصار إصلاحها متعذرًا ووافق من فى العربة على كلام القائد وفى بقائهم داخل عرباتهم سيكونون فى مأمن أكثر من الصعود إلى التلال وفى العراء ورغم صرخات الأمطار فوق هيكل العربات وزمجرة الرياح وأصوات الرعد العالية إلا أنهم إسترخوا فى أماكنهم داخل العربات وسرعان ما إستسلموا للنوم بسبب التعب الشديد الذى لحق بهم وذلك بعد تحديد الحراسات الليلية للعربات الثلاث على أن يظل الحارس داخل العربة وهو يقظ تحسبا لأى مخاطر غير متوقعة.

إستمر هطول الأمطار غزيرا تصحبه أصوات الرعد تكاد تصم الآذان ولكن النوم كان السلطان الذى خضع له الجميع فيما عدا الحارس الذى ظل يقاوم النوم وقد إختلطت فى ذهنه الأصوات وإنتبه على حركة السيارة يمينًا ويسارًا وكأن السيارة قد تحولت إلى مركب تتقاذفه الأمواج إلا أنه أنكر على نفسه هذا الاحتمال لفترة وراجع ذلك إلى التعب والإجهاد وشدة حاجته للنوم.

ولكن حدث صوت شديد غطى على صوت الرعد مما جعل جميع من كانوا فى نوم عميق يفيقون فجأة وصاح الحارس بأعلى صوته أن العربة التى كانت خلفهم إندفعت إندفاعًا شديدًا وإصطدمت بعربة القيادة من الخلف مما جعل مؤخرة سيارة القيادة يتناثر زجاجها ويندفع هيكلها إلى الداخل مما أصاب الحارس بجروح وأصاب الآخرون أيضًا بجروح مختلفة ولم يسلم قائد المجموعة من الإصابة ولكنه أطل برأسه ليرى ما حدث فى ذلك الظلام الشديد إلا أنه وياهول ما رأى فقد كانت السيارة تندفع بسرعة كبيرة وقد حملها السيل الجارف فى إنحداره الشديد وسرعته الهادرة وصارت السيارة بل السيارات الثلاث وكأنها ثلاث علب من ورق تلعب بها مياه السيل كيف حلا لها وسرعان ما إرتطمت عربة القيادة بصخرة على جانب الوادى ولكن السيل الذى لا يرحم دفعها أمامه وانقلبت عدة ممرات ومما زاد الأمر صعوبة أن الإرتطام قد آثر على أبواب العربة فرغم محاولات من فيها لفتح الباب لم يتمكنوا من ذلك - ولم يكن متصورًا.

لا فى التقدير ولا حتى فى أصعب الإحتمالات حدوث ذلك فالعربة تندفع وتتأرجح يمينًا ويسارًا وتتعدد إصطداماتها بالصخور المتناثرة ومن فيها سجناء تحت رحمة عنف الاصطدامات المتكررة لجسم السيارة بالصخور على جانبى الوادى وسيل المياه على أشده والمياه تكاد تغمر السيارة من خلال الفتحات التى أصابتها ولم تكن السيارة الجيب الأخرى ومن فيها بأحسن حظًا من سيارة القيادة وكان السيل جارفًا وقويًا وعنيفًا لأن الشاحنة رغم ضخامتها حملتها المياه ودفعتها لتنقلب عدة مرات ويصاب من فيها ولم يستطع قائد المجموعة

أن يتخذ قرارًا ولا أن يقوم بأى تصرف مناسب للموقف نظرا لان إصابته كانت شديدة والصدمات أفقدته القدرة على إتخاذ القرار وسرعان ما فقد رشده وأغمى عليه.

وإستمر الحال على ذلك لمدة ترتطم السيارات بالصخور على جانبى الوادى أو تنقلب عدة مرات نتيجة إندفاع السيل وقوته الغير متوازنة على أجزاء السيارة المختلفة وأفراد المجموعة داخل السيارات وقد فقدوا الحيلة والتصرف إزاء هذه المياه العابثة وإندفاعها الشديد وبعد أن أصيب معظمهم بإصابات مختلفة إزدادت مع تكرار إرتطام السيارات وإنقلابها وفقد بعضهم الوعى الكامل وحتى من قفز من الشاحنة أملاً فى حظ أفضل قابل ما هو أشد وأقسى وإرتطم جسده بالصخور فكأن فى ذلك نهايته.

ولم يرحم السيل المجموعة ألا عندما إتسع الوادى وتشعب بين التلال المختلفة مما خفف من إندفاع مياه السيل وخفت حدة إرتطام السيارات بالصخور فقل الأذى عمن بقى على قيد الحياة.

وعندما بدأت خيوط ضوء النهار تجهز على ما بقى من فلول الظلام ظهر الوادى متسعًا وتصب إليه روافد من كل الاتجاهات وتخلل الوادى عدة برك مياه من بقايا مياه السيل وتناثر فى الوادى على إمتداد كتل صخرية جديدة حملها السيل وبعثرها هنا وهناك آما باقى الوادى فيمتلىء بالرمل والطمى المبلل الذى نقله السيل من الجبال العالية أثناء إندفاعه فى الليل وكانت المياه الخفيفة تجرى تحت تأثير إستمرار إنحدار الوادى.

وأما عربات المجموعة فتعامل معها السيل مثلما تعامل مع الكتل الصخرية التى دفعها أمامه إلى أسفل الوادى فكانت عربة القيادة لا يظهر منها إلا جزء صغير مما كان يسمى مؤخرة السيارة وقد إنغرست مقدمتها فى الطين والوحل والعربة الأخرى كانت مقلوبة على ظهرها بعيدة بمسافة لا تقل عن ألف متر أما الشاحنة فقد تحطمت مقدمتها وبقيت معلقة على إحدى الصخور الكبيرة على جانب الوادى.

وكان كل ما حول السيارات صامت صمت الموت فلا حركة ولا صوت إلا من صرير إندفاع بقايا السيل عبر الوادى وأصوات طيور الصباح المتنوعة التى بدأت يومها بنشاط لتبحث عن رزقها وتمرح مع بعضها فى سعادة وحيوية وشاهد بعض قطاع الطرق العربات فى أسفل الوادى.

فأسرعوا يستكشفونها ويبحثون حولها طمعًا فى الحصول على غنائم وفوجىء قطاع الطرق بوجود أفراد داخل العربات وسمعوا آنات خافتة مما يدل على وجود البعض على قيد الحياة وإستعانوا بالجمال والحبال لشد العربات من مواقعها إلى خارج الوادى ونجحوا فى إخراج جثث الأفراد القتلى وكذلك من بقى فيهم رمق ضعيف من الحياة ووضعوا من كانوا على قيد الحياة على حده والقتلى بجوارهم تحت بعض الأشجار المتناثرة على سفوح الوادى وإكتشفوا أنهم من البريطانيين حيث لم يسبق أن سار فى هذه الأماكن أجانب آخرون من قبل وإستقر رأى زعيمهم على أن يتم نقل الأحياء وكانوا ثلاثة

على الجمال حتى شيخ القبيلة فى المنطقة أما ما تبقى من العربات والأسلحة الخاصة بالأفراد وكذلك بعض الأجهزة البسيطة التى كانت مع المجموعة فهذه كلها غنيمة كاملة لهم.

وإستعانوا بالجمال فى نقل العربات إلى أماكن جبلية وبعض المغارات البعيدة عن الأعين ورجال الأمن المناهضين لقطاع الطرق.

وعند إقتراب ثلاثة من قطاع الطرق وقع عليهم الإختيار لنقل الأفراد الجرحى والقتلى بالقرب من مضارب القبيلة المجاورة وتحت شجرة فريدة وافرة الظل أنزلوا حمولتهم ولم ينسوا إعطاء جرعات من المياه للجرحى وأنسل الأفراد الثلاثة يعتلون جمالهم فى سرعة إلى حيث زملائهم بعيداً عن القبيلة ولم ينسوا أن يأخذوا معهم المتعلقات الشخصية للجرحى والموتى وعند إكتشاف رجال القبيلة لهم سارعوا بتقديم المساعدة الممكنة وأبلغوا البريطانيين فى قاعدة عدن بما حدث للمجموعة فأرسلت القيادة قافلة نجدة لإنقاذ المصابين إن أمكن ذلك ونقل القتلى.

وأبلغ شيخ القبيلة مجموعة الإنقاذ التى أرسلتها القيادة البريطانية فى عدن بأن قطاع الطرق كثيرون ولهم أماكنهم البعيدة المنال فى الشعاب والكهوف وقمم المرتفعات ولذا فمن العبث الاستدلال عليهم.

ورغم تميز القيادة البريطانية فى عدن بالحصافة وعدم التسرع فى إتخاذ القرارات إلا بعد دراسة وتمحيص إستثناء عن ذلك فقد إعتبرت القيادة البريطانية ما حدث للمجموعة الطبية على يد قطاع الطرق إهانة يصعب السكوت عليها إذ كانت تمس أمن أفراد القوات

البريطانية وسرعان ما تم إرسال داورية مسلحة ومجهزة إلى المنطقة بغرض تمشيط المناطق المحيطة بمكان العثور على القتلى والجرحى ورغم إستخدام ادلاء من قبائل المنطقة إلا أن نتيجة البحث والتمشيط لم تسفر عن أى شيء وعادت الداورية إلى عدن مثلما خرجت منها بخفي حنين.

ولم يهدأ بال القيادة في عدن بعد فشلها في العثور على أى أثر للمعتدين على رجالها وتوقعت أن تكون هذه الحادثة سابقة وتمهيد لحدوث حوادث أخرى أكثر صعوبة وأشد أثراً.

وإن من الضرورى عدم ترك هذا الإعتداء دون توقيع عقاب على المعتدين فإن تعذر ذلك فليكن العقاب أشمل وعلى سكان المنطقة القريبة من الحادثة وكانت هذه المنطقة هى منطقة ردفان التى لم تسلم من عدة هجمات دبرتها القيادة البريطانية فى عدن بل تعمد قادة بعض الهجمات التأديبية إلى أخذ بعض الرهائن من أهال المنطقة ومن وجهائها بل وبعض الأبناء الأحداث لرؤساء العشائر فى ردفان وتم وضعهم إجبارياً فى عدن تحت أعين المخابرات البريطانية وكنوع من التهديد المباشر لأهالى ردفان إذا فكروا فى مهاجمة مصالح البريطانيين وكعقاب صارم بسبب قيامهم بحماية بعض الذين قاموا بمهاجمة الحملة الطبية عند عودتها من الضالع بل تجاوز العقاب هدم بعض بيوت المواطنين والقضاء على ثروتهم من الغنم والابل وإستمر هذا الأسلوب التأديبى بعض الوقت وأطلق على هذه الهجمات الإنتقامية حادثة ردفان الأولى.

حادثة ردفان الثانية

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وما تبع ذلك من انقسام قيادة العالم ألى قطبين عظيمين لكل منهما قوة عسكرية جبارة وفكر اجتماعى وعقائد مختلفة اختلافا جذريا والبريطانيون فى عدن بعد أن كانوا يمثلون إمبراطورية عظمى ليس لها منافس قبل الحرب العالمية الأولى. تلك الأمبراطورية التى كان يطلق عليها الأمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، لاتساع مستعمراتها واماكن نفوذها فى جميع انحاء الكرة الأرضية صارت بعد الحرب العالمية الثانية وبزوغ نجم القطب الأمريكى االعظيم. الذى يمثل أحد القطبين العالمين، صارت بريطانيا حليفا للقطب الأمريكى بعد أنقسام العالم. وعلى ذلك فإن وجود البريطانيون حلفاء القطب الأمريكى فى عدن كان يعتبر ركيزة لأحد قطبى العالم العظيمين، ولكن من وجهة نظر الوطنيين فى عدن وحتى فى المحميات التسع السابق الأشارة إليها فى سياق حديثنا السابق فإن البريطانيون وما يمثلونه لا يعدو عن كونه احتلالا للأرض

واستعمارا للمنطقة ولذلك انتشرت بين الوطنيين خاصة من أصاب منهم بعض التنوير من اليمين أو اليسار فانتشرت روح العداء والمقاومة لمن يحتل ديارهم ويتحكم فى إرادتهم مهما كان أسلوب هذا المحتل مخمليا ومغلفا بمظاهر اللين والتودد والعطايا الا أن البريطانيون فى النهاية قوة استعمارية ومحتلة ويجب مقاومتها والعمل على طردها من البلاد ورغم انتشار هذه الأفكار من قبل ذلك بكثير ورغم وجود الرافضين ورجال المقاومة منذ وطأ الاحتلال ارض عدن .. إلا أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تميزت المقاومة بروح جديدة وعقيدة وليدة ومستنيرة ورغم تعدد المدارس الفكرية والنزعات العقائدية نتيجة تداول النقل من مصادرها إلى عدن فمن المعروف أن الفكر المنقول خلال عدة وسائط قد يصل وقد زاد عليه الكثير أو نقص عنه الكثير أو تم تحريف معناه وفحواه وحتى وان تغيرت اسسه وبراهينه فإن المستيرين من أهالى اليمن وعدن على وجه الخصوص وهؤلاء الذين كان حظهم موفورا فى تحصيل التعليم من خارج المنطقة وجدوا انفسهم بين المدرستين الكبيرتين التى كان يمثلهما القطبين الأعظم ولكن الأغلبية الساحقة من الوطنيين أنحازت ضد القطب الذى كان ينطوى تحت لوائه الاستعمار البريطانى وليس فى ذلك غرابة فمقاومة الاحتلال واجب على كل وطني وان كان لكل قاعدة شواذ ورغائب الأفراد متنوعة فقد كان بعض الأهالى من المستفيدين من الوجود البريطانى فى عدن خاصة بعض التجار وأصحاب القوافل وبعض العاملين فى القواعد البريطانية لا يظهرون العداء للمحتل وان ساد بين هؤلاء جميعا روح التعايش السلمى

والتظاهر بالمودة وحتى بالولاء إلا ما كان فى القلب فهو خفى وإن غلبة السبات فالى حين.

لقد اتسعت مدينة عدن وزاد عدد سكانها كثيرا وزاد القادمون إليها يوما عن يوم خاصة بعد أن عمد البريطانيون إلى جعلها ميناء تجاريا حرا ترد إليه المنتجات من آسيا وحتى من أوربا ومن ثم يتم توزيعها إلى داخل البلاد وحتى شمالا إلى السعودية ولذلك فمدينة عدن صارت مدينة مزدهرة وتجارتها رائجة ومتزايدة والراغبين فى سكناها يتزايدون يوما بعد يوم.

ولكن إلى جانب ذلك ازدادت جيوب العقائد الواردة وتجمعات الفكر المستورد وكانت الأغلبية تنحاز بعيدا عما يمثله البريطانيون فهم فى حقيقة الأمر القوة المحتلة الأقوى والأكثر تحكما وليس هناك للأهالى ولا للقبائل قوة من التسليح ووسائل الدفاع التى يمكن أن تضاهى قوة البريطانيين ولا أسلحتهم الحديثة ولذلك كان بديهيا أن ينحاز معظم المثقفون وأصحاب الرأى إلى فكر القطب المعادى لبريطانيا ففيه السند وبمساعدته يمكن المقاومة. وتلقى الدعم والتدعيم لطرد البريطانيين وابعاد المحتلين ولم يكن هناك بديل فالبريطانيون مع القطب الأمريكى فتعذر طلب العون منه واعتناق الفكر المضاد كان فيه الأمل فهو المصدر المناوى والقوة العظمى التى بإمكانها المساندة فى ذلك الوقت وهو القطب الروسى.

ولم تكن هذه الأطروحة امرا مسلما بها فهناك استثناءات متعددة دوافعها مختلفة وبعضها أساسها دوافع شخصية وعلى ذلك فيمكن

تقسيم الاتجاهات السائدة بين الأهالي في عدن والمناطق لمحيطة بها إلى ما يلي:

أولاً: مجموعة المتعلمين خارج اليمن ومعظمهم كانوا يستكملون دراستهم في المدرسة الثقافية لدى القطب الروسي نظرا للمنح العديدة وتيسيرات الدراسة وقلة النفقات وهؤلاء يؤمنون عقائديا إلى تحرير بلادهم من الاحتلال البريطاني عن طريق استخدام السلاح.

ثانياً: مجموعة الحرفيين والتجار الذين كانوا يعملون في القواعد البريطانية في عدن نظير أجر او يتاجرون في البضائع التي تحتاجها اعاشة القوات البريطانية يتربحون من هذه الأعمال فكانوا يتظاهرون بمؤازرة الوجود البريطاني بل وقليل منهم كانوا يجهرون وينادون بأن البريطانيون في عدن اصدقاء مستنيرون

واستمرار وجودهم مفيد في نقل الحضارة ووسائل التقدم الغربي إلى المنطقة وان كان كثير من هؤلاء المستفيدين في قرارة أنفسهم لديهم قناعة بأن وجود البريطانيون على أرضهم هو احتلال رغم محاولات تخفيف وتوصيف هذا الوضع واعتداء على بلادهم. فهم في الأصل رجال بادية وقبائل لا يقبلون ولا يقرون استعمار البلاد.

ثالثاً: مجموعة من رجال القبائل ومعاونيهم الذين يقبضون رواتب شهرية من القيادة البريطانية لضمان ولائهم واستخدامهم لتدعيم الاستقرار والهدوء في المنطقة وكان من هؤلاء بعض العيون للقيادة البريطانية وبعض العملاء.. إلا أنه رغم ذلك فكثير منهم يحمل في

نفسه العداء والكره لوجود الاحتلال وقد لخص أحد هؤلاء هذه الحالة عندماحاوروه فقال لهم:

نعم إنني اتعاون مع القوات البريطانية واحصل على فوائد مادية متنوعة منهم ولا أجد منهم سوى التشجيع والرضا لما أقوم به ولكن ليس فى استطاعتهم فتح قلبى والكشف على ما فيه من قهر ورفض وعداء فما فى القلب سرى المقدس ولهم أسلوبهم وحساباتهم ولى أيضا اسلوبى وتقديراتى لا يستطيعون كشف ابعاده أو الوصول الى تفسيره.

ولذلك رغم الاختلافات المتعددة والتباين الفكرى بين أهالى المنطقة الا أن الأغلبية العظمى ما جهر منها وما أخفى - كانوا ضد وجود المحتلين البريطانين ويحملون لهم كرها وغضبا كبيرا.

وكانت القوات البريطانية تحصل على احتياجاتها لاعاشة رجالها من الخارج ومن الداخل فمن الخارج عن طريق البحر من الصومال والحبشة والمناطق الشرقية لافريقية أمام الساحل اليمنى ومن الداخل كانت تصلهم الأغذية الطازجة من الشمال حتى تعز واب وهناك أودية خصبة تجود فيها الخضروات الطازجة التى كان يحتاجها البريطانيون فى عدن. والقوافل التى كانت تتكون من الشاحنات بدلا مما كان يحدث فى السابق من استخدام الدواب بأنواعها.

ألا أن روح الاستنارة بين أهالى اليمن خاصة المناطق المحيطة والقريبة من عدن.

تزايدت وسادت روح الرفض والغضب الذى كان يفرز أساليب جديدة للمقاومة وكان نصيب القوافل القادمة من الشمال نصيب وافر من أعمال السلب والنهب وقطع الطرق بغرض التأخير أو منع المؤن من الوصول إلى البريطانيين فى عدن.

وكان الإمام يحى فى صنعاء رافعا راية المطالبة بأرض اجداده التى ورثها عنهم ومنها المناطق التى كانت تحتلها القوات البريطانية والمجاهرة بالعداء فى صنعاء للوجود البريطانى فى عدن كان لا يتعدى ضرره عن كونه الصوت العالى المعارض والصوت وحده لا يكفى لهذا شعرت القيادة البريطانية بالاسترخاء فى عدن فهذه القيادة لم تفكر منذ زمن بعيد فى التقدم إلى الداخل ففى ذلك مخاطر عديدة وصعوبات شديدة واكتفت حتى هذا الوقت بالمعاهدات مع المحميات التسع... ولكن تطور الأحداث هو ما كان يثير قلق البريطانيون فقد نجحت عناصر من المقاومة الوليدة فى الحصول على بعض الألغام المضادة للعربات الثقيلة وصاروا يضعون هذه الألغام فى الطرق التى تستخدمها قوافل الأمداد والتموين من الشمال إلى الجنوب للقوات البريطانية وعندما زادت شكوى التجار والمقاولون للقيادة البريطانية بدأت توفر عناصر مع هذه القوافل لتأمينها ومرافقتها بغرض الحد من الخسائر التى كانت تلحق بها وكانت عناصر التأمين لا تتجاوز حدود مناطق محدده إلى الشمال من عدن وحتى الجزء الجنوبى من ردفان على الطريق القادم من أب وتعز إلى عدن خوفا من مهاجمة رجال القبائل وقطاع الطرق والجديد على ذلك تواجد عناصر المقاومة الوطنية العسكرية الوليدة ورغم تطور وسائل النقل ووسائل الاتصال..

الا أن وعورة الطرق وشدة صعوبتها كانت تضيف صعوبات كبيرة للبريطانيين.

وكانت القيادة فى عدن تقبل حدوث خسائر محدودة رهنا بحساباتها وكانت هذه الخسائر مقبولة مادامت فى حدود المسموح به إلا أن التسليم بحالة الحرب الغير معلنة لا يعنى الاسترخاء وتجاهل التطورات ونوعية الخسائر وتحليل نتائجها مما كان يدعو القيادة البريطانية من وقت لآخر لإرسال طائرة أو طائرتين تجوب المناطق إلى الشمال وليس ما يمنع أن تهاجم هذه الطائرات بعض الأماكن المشكوك فيها والتى قد يستخدمها رجال المقاومة أو قطاع الطرق مخابى لهم. ومن ناحية أخرى نوع من أنواع التهديد والوعيد والإرهاب لآخرين بأن أعين القوات البريطانية فى عدن متيقظة لكل ما يمس مصالحها وذراع هذه القوات طويلة وقادرة على إلحاق أضرار جسيمة وقاتلة لكل من يقوم بالاعتداء على هذه المصالح.

إلا أن مجموعة من قطاع الطرق قامت بزرع لغم فى طريق قافلة كبيرة متجهة إلى عدن ومعروف أن معظم هذه القافلة كانت لتموين البريطانيين - وقامت مجموعة قطاع الطرق بنهب وسلب القافلة وتدمير الشاحنة التى أصابها اللغم وباقى الشحنات تم الاستيلاء عليها بعد فرار السائقين والمرافقين بعيدا فى الخيران والوديان والشعاب وحتى الجبال.

ولم تستطع القيادة البريطانية السكوت على هذا الوضع الذى يوحى بضعفها ويشجع العناصر الأخرى لتكرارمثل هذه الهجمات

فقررت إرسال قوة عسكرية مسلحة تسليحا كبيرا وتشمل هذه القوة التأديبية بعض قطع المدفعية وتقدمت حتى شمال لحج ودخلت ردفان إلا أن القوة اثناء تقدمها عندما غادرت لحج كان رجال المقاومة ينتظرونها وانفجرت أحد الألغام في عربة المقدمة وانهمرت الطلقات من اعلا التلال والجبال المحيطة وقامت القوة العسكرية بالرد بالمثل الا أن الخسائر في الجنود كانت مرتفعة لأن المكان الذي وقع فيه هذا الكمين كان قد سبق تجهيزه واختياره بعناية وتم استغلال وعورة المنطقة وشعابها المتعرجة وثنيات الأرض الحادة في هروب رجال الكمين بعيدا إلى أماكن امينة.

وعادت بقايا القوة البريطانية إلى عدن وكانت الخسائر اكثر وافدح من أي تقديرات سابقة مما جعل القيادة البريطانية تصمم على تأديب المعتدين والحد من ازدياد خطرهم وقامت طائرتين مجهزتين بالقنابل صباح اليوم التالي بمهاجمة الأماكن المحيطة بكان الكمين الذي تم تنفيذه بالأمس وتجاوزت الطائرات شمالا وشرقا وانفجرت احد القنابل على تل مرتفع يعيش فيه بعض القرويين الرعاه من الأهالي وتسببت القنبلة في مقتل الحاج ابو سالم وإصابة عدد آخر من النساء والأطفال والأغنام فوق هذا التل وعادت الطائرات المغيرة إلى قاعدتها في خور مكسر.

وكان الحاج أبو سالم شيخ جاوز السبعين عاما بقليل يعيش هو وأولاده واحفاده فوق هذا التل يرعون اغنامهم ورغم أن الحاج أبو سالم لم يكن شيخ قبيلة ولا من وجهاء المنطقة ألا أنه كان يتمتع بقدر

كبير من الاحترام والتقدير ليس من التجمعات المحيطة به ولكن حتى في الأماكن البعيدة في ردفان وحتى خارج منطقة ردفان.

وكان الحاج أبو سالم صاحب محل صغير مبنى جزء منه من الحجر والجزء الآخر من الصفيح والكرتون ومكانه فوق مرتفع يطل على احد الشعاب العميقة وكنت تجد في هذا المحل الصغير معظم مايحتاجه اهل المنطقة المحيطة.. الا أن الحاج أبو سالم كان يقوم بمعالجة بعض المرضى بالاعشاب وبتلاوة الآيات القرآنية فكان يأتي إليه القاصي والداني طلبا للعلاج واملا في البرء من مرضه هذا بالاضافة ان الحاج أبو سالم بين جماعته كان مسموع الكلمة يجلسون حوله بعد الصلاة ونظرا لما كان يتمتع به من صدق وطيبة فكان يلجأ إليه أيضا اصحاب الخلافات الشخصية يقضي بينهم بالحق وبما ورد في القرآن الكريم ونظرا لان اهالي المنطقة كانوا يثقون في هذا الشيخ ويحترمون رأيه ويلتزمون بمشورته فكان الكثير من المتخاصين يغادرون من مجلسه وهم احباء وقد زال من نفوسهم الكثير من الشك والريبة والعداء وكأن لمسة سحرية قد ازالت مابينهم من اسباب للخصام لكل ذلك كان الحاج أبو سالم يتمتع بسمعة طيبة وكان مقصدا لكثيرين من أهالي المناطق المجاورة سواء لشراء حاجاتهم من محله أو حل مشكلاتهم الشخصية أو طلب العلاج فيما اصابهم من مرض ولذلك كان محبوبا ومحل ثقة من الجميع ولذلك تجمع خلف جنازته اعداد غفيرة ليس من منطقته فحسب ولكن جاءوا يودعونه من الشعاب البعيدة والتلال المحيطة وحتى من الشيخ عثمان وكانت جنازته اعلان للغضب السخط الشديدين على البريطانيين

وعلى وجودهم فى عدن ... وبل تعدى ذلك رفع شعار المقاومة للمحتلين الغاضبين ورغم ان جموع المشيعين لجنازة الحاج أبو سالم كانت قلوبهم شتى وبينهم تباين وحزازات شخصية الا ان الجميع كانوا على رأى واحد لابديل عنه ووقفه واحدة لاتخاذل عنها وكلمة واحدة لابد منها وهى كلمة الثأر من البريطانيين.

نعم قتل الشيخ من قنبلة القاها البريطانيون آلا ان قتله بهذه الطريقة جمع القوب والنفوس على الاخذ بثأره من قتلته وكان اتباع الشيخ كثيرين ومحبية فى كل منطقة خاصة ردفان وكذلك العوالق ودثينه والشيخ عثمان ولحج ويافع العليا والسفلى وحتى الضالع فى الشمال وكان كل من سمع بما اصاب الشيخ أبو سالم اصبح مطالبا بالثأر قويا فى رفض وجود قوات الاحتلال البريطانى على جزء من تراب بلادهم.

وانتشرت روح العدآء للوجود البريطانى انتشار النار فى الهشيم وكانت فاعليتها بادئة من ردفان موطن الشيخ أبو سالم ولم يكن يعنى هذا الموقف ان اهالى المناطق الاخرى كانوا يرحبون بالوجود البريطانى فى البلاد بل كان الكثيرون يقاومونه ويرفضونه يملأهم الغضب وصار مقتل الشيخ منعطف حاد لاسلوب المقاومة وطريق التعبير عن الغضب من الاحتلال هذا المنعطف كان داعيا إلى مزيد من وحدة الصف ووحدة الهدف بل أنه كان بداية المقاومة الفعالة المسلحة ضد الاحتلال.

مات الشيخ الطيب ولكنه ترك قلوبا شابة وسواعد فتية ونفوس صلبة وهدف مقدس ينادى بالثأر وشرارة الكفاح المسلح ضد المحتل

تلك الشرارة التي ظلت متوهجة حتى جلاء اخر جندي بريطاني من عدن.

وظل قرار ارسال طائرات حربية لقصف المدنيين في ردفان وصمة عار للعسكرية البريطانية مهما كان التبرير لمن وافق على هذا القرار.

وكانت مشاعر العداء للوجود البريطاني عند بعض الاهالي معدومة - فمادام البريطانيون بعيدا في عدن - فلا ضرر ولاضرار - وكانت الغفلة عن معنى وجود احتلال لجزء من البلاد كبيرة. والسعي وراء الرزق شغلهم بعيدا عن الغريب في عدن - ولكن لم يعد هناك سبب لهذه الغفلة فالقنابل وصلت إلى ديارهم وذراع الغريب القوية اصابتهم بالضرر وتكرار مثل هذا الهجوم على هذه المنطقة أو على مناطق ابعد اصبح شديد الاحتمال فالجميع صاروا مهددين واولادهم وعائلاتهم تحت رحمة هذه الالة الجهنمية التي يملكها العدو - ويضرب بها كيفما شاء واينما يريد هذه هي طائرة العدو التي تتخطى مصاعب الطرق الوعرة وتمر عبر الجبال والوديان في سهولة وفي يسر وتحمل القنابل الكبيرة دون مشقة وتقذفها وقائد هذه الطائرة غير نادم على مافعل في حق الإنسانية ولا من ارسل قائد الطائرة كان لديه التقدير السليم قبل اصدار أو امره الخاطئة.

ولذلك يطلق على القاء القنابل من الطائرة في ردفان على أنها حادثة ـان الثانية وكانت هذه الحادثة بمثابة المنعطف الحاد في علاقة ـهالي بالوجود البريطاني في عدن..

اولاد الشيخ أبو سالم

قتل البريطانيون الشيخ أبو سالم وترك اربعة من الاولاد اثنين من الذكور واثنتين من الاناث وكان الابن الاكبر يسمى سالم شابا صلبا قويا يعمل فى احد المعسكرات البريطانية فى كريتر حيث مركز القيادة البريطانية فى عدن وكان يعمل فى نقل وتحميل صناديق الذخائر فى احد المستودعات الرئيسية للقوات البريطانية وكان رئيسه رقيبا بريطانيا يسمى كلارك يتميز بضخامة الجسم وطيبة القلب وكثيرا ما نقل سالم بعض صناديق الذخيرة خارج المستودع بأوامر كلارك حيث يتم تسليم هذه الصناديق تحت جنح الظلام إلى بعض رجال القبائل خارج عدن نظير ثمن معلوم يدفعونه للرقيب كلارك ولذلك من وقت لاخر كان لايبخل على سالم باعطائه بعض المال الاضافى من حصيلة البيع فسالم كان بمثابة امين سره ولذلك كان قريباً إليه وودوداً معه وكان الرقيب كلارك يكثر من شرب الخمر حتى يفقد وعيه فى احيان كثيرة وكثيرا ماراه سالم على حالته الشديدة من

السكر فكان ينقله من الحانة إلى فراشه داخل معسكر الايواء وتعود زملاء كلارك على سالم يعود به مخمورا فيتضاحكون ويطلقون الفكاهات وينادون على سالم الذى لم يكن يتذوق الخمر ليجلس معهم لشرب الشاى أو لعب الورق.

وكان سالم يدخل المعسكر وقتما شاء فمعظم الحراس يعرفونه ومعظمهم زملاء الرقيب كلارك يحبونه حتى أن الرقيب كلارك فى بعض الأوقات يطلب من سالم أن يذهب معه إلى الحانة لمساعدته عندما يفقد وعيه ولذا فكان وجه سالم مألوفا لدى أفراد مستودع الذخيرة ورواد الحانة عند بوابة اليمن وسعادة سالم ورضاه كانتا كبيرتين فمعه فائض من النقود فى جميع الأوقات ووفره من الطعام الذى يقدم للجنود داخل المعسكر البريطانى وكانت اقامة سالم فى منطقة الشيخ عثمان شمال كريتر وكان لايبخل بمال ولاطعام على رفاقه فى منطقة الشيخ عثمان فأحبه من حوله وسارع الكثيرون لمصاحبته وكسب وده وكان سالم متزوجا وله ولدين صغيرين الا أنه كان ابنا بارا بوالديه يذهب إليهم كل خميس من كل اسبوع حاملا معه بعض الهدايا البسيطة مما كانت رائجة فى عدن من اقمشة هندية إو عطور واحيانا بعض الاطعمة التى كانت تتوافر عنده من معسكرات الجنود البريطانيين فيمضى يوم السبت والأحد مع والديه وأهله فى المنطقة ثم يعود مساء إلى الشيخ عثمان ليبدأ يوم عمله صباح اليوم التالى.

أما الاخ الاصغر لسالم «على» فقد كان يعمل سائقا على احدى الشاحنات التى تنقل البضائع فيما بين الضالع وعدن وكان على

نحيف الجسد وعينيه صافيتين وعميقتين تعكسان مابداخله من صفاء وشفافيه وسماحة وكان ضحوكا باشا لكل من يقابله وكان يعتبر أن الطريق الطويل مابين الضالع والشيخ عثمان هو بيته وملاذة وله على طول الطريق اصدقاء واحباب وزملاء سواء كان ذلك فى الشعاب والوديان المتعددة فى المناطق المختلفة أو على سفوح الجبال أو حتى بالقرب من مجارى السيول وبين المزارعين والرعاه فيجلس معهم ويشرب الشاى ويضحك من اعماق قلبه عندما يحكى البعض المواقف والاعمال الفكاهية التى حدثت من قريب أو بعيد ويروى هوللجالسين من معين لاينضب حكاياته الشيقة ونوادره المضحكة.. حتى بعض اصدقاء الطريق كانوا ينتظرون حضور على لما يشيعه بينهم من بهجة ومتعة ولذا فعلى يعرف كل اجزاء الطريق وجميع المدقات الجانبية وسكان هذه المناطق لتردده عليهم فاكتسب خبرة بالمناطق المحيطة بالطريق الذى يقود الى الشيخ عثمان أو التفريعات التى تصل إلى ابين ودثينه. وفى كل مرة يلبث فترة مع اهله واقاربه فى ردفان ويمكث مع عائلته بعض الوقت ليطمئن على ابوية واخوته ويقوم بتقديم بعض الهدايا التى كان يحصل عليها من عدن أو بعض المزروعات واللحوم التى كان يهديها إليه احبابه اثناء سيرة بشاحنته المحملة على الطريق سواء كان من الشمال أو غاديا من الجنوب. أما اولاد الشيخ أبو سالم البنات فكانتا اثنتين اسماء وفاطمة وكانت فاطمة آخر العنقود كما درج المثل على ذلك للاشارة إلى اصغر الابناء. واسماء كانت اليد اليمنى لام سالم. فى البيت وفى الغيط فهى ملازمة دائما لوالدتها

ومعها اولادها من زوجها أحمد منذر الذى كان يقيم بصفة شبة مستديمة فى عدن حيث مقر عمله في قاعدة خور مكسر.

وكانت اسماء ذات جمال مميز فهى بنت الجبل فى ردفان قوامها ممشوق. وعودها لين فى حركته انوثة عذبة وفى عينيها السوداوتين العميقتين الكبيرتين حور يسحر اللب ويفتن الفواد. تتمنطق بحزام من القماش الاسود حول وسطها فيزيد ذلك من عودها الفارع جمالا ويزين راسها تاجا من الشعر الأسود الفاحم الطويل فكانت تقصعة فوق رأسها وتغطية بغطاء اسود وتلف عدة لفات حول رأسها لتحفظ شعرها من عبث الريح ومداعبات النسمات الجيلية وكان جمالها يزداد فتنة للناظرين عندما تحمل وعاء الماء من البئر وتضعه على رأسها فى توازن واتزان عجيب هكذا تعلمت اسماء منذ نعومة اظافرها حمل اوعية جلب الماء من البئر وتمرست في ذلك واصبح قوامها المشوق وطولها المميز يزيدانهاجمالا ويبرز دلالها دون قصد منها اثناء تغيير اتجاهها وهى تغز السير إلى بيتها عائدة بالماء. ورغم ماحباها اللّه من جمال ورقة ودلال وعود مياس جميل آلا أنها كانت جادة وحازمة وصلبة صلابة احجار الجبل الذى نشأت وتربت عليه.

وزوجها أحمد منذر شاب سعيد فى زواجه وسعيد مع اولاده وسعيد فى عمله فهو يعمل فى تفريغ وتحميل الطائرات ويساعد مستر بيتر المسئول عن تموين الطائران، بالوقود واكتسب فى هذا العمل رضاء رئيسه ومحبة زملائه.

وكان اجره فى القاعدة البريطانية يفيض عن احتياجاته واحتياجات اسرته فى جبال ردفان وكثيرا مايتقابل مع نسيبه سالم

فى فترات مابعد العمل فى مجالس الشيخ عثمان حيث يسكنان هناك وكان قبل أن يربط النسب بينهم اصدقاء ورغم انهما يعملان سويا فى قواعد الاحتلال آلا انهما كانا يشتركان فى رفض هذا الاحتلال وكره الوجود البريطانى على أرض بلادهم.

ولكن عملهما فى خدمة قوات الاجتلال كان بمثابة مرحلة ستمر أن اجلا أو عاجلا ورغم اشتراكهما فى كره الوجود البريطانى فى عدن آلا انهما يتوافقان فى أنه مصدر رزقهما وأن كان مع الاعداء آلا أن هذا الرزق قد كتبه اللّه لهما والرزق للعبد مرصود ومقنن فاللّه هو موزع الارزاق وكثيرا مايرددون ماورد فى الآية الكريمة «ورزقكم فى السماء وما توعدون «ولذلك فليس عليهما جناح ولاعيب ولالوم فى كونهما يرتزقان من خلال قوات الاحتلال هكذا مقسم الارزاق قد قسم لهما بالعمل فى هذه الاماكن.

أما فاطمة اصغر أبناء الشيخ أبو سالم فهى الابنة المدللة عند ابيها وعند امها وهى تشبه الزهرة البرية التى لاتطيق أى تلوث للهواء من حولها أو انحسار لاشعة الشمس عنها فكلا الهواء النقى واشعة الشمس فوق الجبل هما الغذاء الرئيسى الذى يتم ضخه فى شرايينها فيزداد وجهها نورا وتزينه حمرة الحيوية والحياء فالهواء واشعة الشمس لاغنى لفاطمة عنهما ـ تخرج مبكرة عند بداية خروج الشمس من خدرها وتستقبل النسمات الرطبة الحانية مع اغنامها على سفح التل فهى ابنة الطبيعة وعلى مدى البصر لايحجب الرؤيا عنها ولايحد من بصرها شئ تجد الوادى العميق يمتد إلى مالانهاية وتحنو على

الآفق الشـجيـرات هنا وهـنا وترى الطيـور تنطلق فى حـرية وعـفـوية مـغردة ومسبحة بخالق الكون ولذلك كانت فـاطمة حياتها مع الحرية ومع الطبيعة الجميلة ليس لها انيس طوال اليوم سوى مناجـاة نفسـها واحيانا غنماتها تعتنى بها وتجمع لبنها وتطمئن على غذائها تقودها حيث اخـصب مانبت فى الأرض من حشائش حولها وحتى فوق أعلى قمم التلال لايعكر صـفـاء نفسـها ولايحد انطلاق سـجيتها شئ فـهى تعـرف كل شـجـرة تمر بـهـا وتعـرف كل نبع مـاء حـتى الزهور تعـرف ميعاد نقنحها واكتمـال جمالها ـ فتتـحدث إليها هذا هو الجمـال كله حول فـاطمـة ـ فـهو منها وهـى جزء منه وكانت عندما تخلو مع الجبل والشجر والهواء والشمس يأخذها تفكيرها إلى زوجها محمد الكعبى الذى كان يعمل فى الميناء فى عدن ذلك الزوج الذى كان يشاركها فى طبيعتـها الفياضة بالحب لكل ما حولها وكان أحمد يضطره عمله فى الميناء فـلا يأتى زوجتـه الحبيبة الا على فترات طويلة نسبيا ولكن لا تتجاوز الشـهر الواحد ليمضى مع زوجته اسبوع يخرج معها صباحا إلى الجبل مع غنماتها فيكون هذا الاسبوع اسبوع الهناء الذى تنتظره فزوجها يشاركها حب الجمال وحب الطبيعة ويعشق الحرية والانطلاق فكلاهمـا وليد الطبيـعة الجبلية بصـفـاتها وهدوءهاورغم أن أحمد من يافع جنوب ردفـان الا أن قبيلته من اعز واكبر القبائل فى يافع وكان فى اوقات متباعدة يستغل فترة اجازة صغيرة يزور فيها اهله فى يافع فكانت اجـازته مقسمة بين يافع حيث والده وبين ردفـان حيث زوجته واهلها.

ودرجت العادة أن من يطلق عليه لقب شيخ هو أنسان مميز وسط عشيرته فهو أما زعيما لقبيلة أو قريبا لزعيم قرابة من الدرجة الأولى وعادة مايكون الشيخ ذا جاه وذا سلطان وهى درجة لايعلوها درجة سوى الأمير والسلطان التى كان يتم اطلاقها على اصحاب المناطق والاقطاعيات ولكن فى حالتنا هذه كان يطلق لقب الشيخ على أبو سالم لكونه رجلا ذو سن متقدم ومعروف بين أهله وجيرانه بالتقوى والصلاح والايمان الشديد والتبصر بما تيسر فى علوم دينية وحفظه للقرآن الكريم وبعض ماورد من أحاديث عن الرسول الكريم ولذ فلقب الشيخ أبو سالم كان لقبا مجازيا ـ ويعنى ذلك بقدر ماكان يتمتع به من الاحترام والتقدير فى منطقته والمناطق المحيطة بها ورغم أنه لم يكن ذو مال ولا جاه بل صاحب محل صغير فوق الجبل آلا أن هذا المحل كان موقعه فى نفس الوقت يشرف على الطريق الرئيسى القادم من الشمال والمتجه إلى عدن ولذا فانه لم يكن محل لبيع احتياجات المنطقة والعابرين بل كان بمثابة مكان للراحة للعابرين فى سيارات الشحن والنقل طوال النهار ومكان للراحة والالتقاء لجيران الشيخ أبو سالم فى المساء بعد صلاة العشاء يتسامرون حتى ساعة متأخرة من الليل.

وكان الشيخ أبو سالم يترك محله مفتوحا دون حارس يحرسه ولكنه يغطى بعض بضائعه عند مدخل المحل بغطرة من تلك التى يستخدمها أهل اليمن بلفها حول رءوسهم كغطاء للراس مميز أو لفها حول وسطهم كحزام يبثبتون فيه خنجرهم وكل من يمر على محل الشيخ أبو سالم ويرى هذه الغطرة المفروشة عند مدخل المحل يعرف أن

الشيخ ذهب إلى المسجد القريب ليؤم المصلين فى اوقات الصلاة التى كان يعرفها الشيخ بقياس ميل الشمس وطول الظل فيستطيع أن يعرف ميقات الظهر والعصر.

وعندما قتل الشيخ أبو سالم حزن الكثيرون وجاءوا إلى منطقته عبر السهول وخلال والتلال والجبال ومن الضالع وردفان ويافع والعوالق يشاركون فى عزاء شيخهم الذى قتل بفعل قنابل البريطانيين فى عدن والذى كثيرا ماكان الشيخ الفقيد يتحدث معهم فى امسياتهم بأنه من الضرورى طردهم واثناء صلاته وامامته للمصلين يوم الجمعة يدعو عليهم ويستعين بالله أن يقطع شوكتهم ويقضى على وجودهم فى عدن فهم كفار ومغتصبين واقارب للشيطان ابليس ويجب مقاومتهم واضعف الإيمان باللسان وهذا ما كان يردده الشيخ رحمة الله.

وعندما قتله المحتلين فى عدن بدأ كثيرون من مريديه ينتبهون لخطر الاحتلال ورغم أن عدن بعيدة عن ردفان لكن ليست بعيدة عن وصول طائراتهم وقنابلهم بسهولة ويسر فليس احد الأن معصوم من خطر وجودهم فى عدن ورغم أن الكثيرين من الاهالى لم يكونوا يغافلين عن المخاطر من استمرار احتلال عدن والمناطق المحيطة آلا ان مقتل الشيخ الطيب آثار فى نفسهم رغبة فى الأنتقام ممن قتله وزاد من غضبهم على المحتل حتى لو كان فى عدن البعيدة فقد وضح أن ذراع البريطانيون طويلة وقادرة ليس فى عدن ولكن فى كل مكان خاصة بواسطة تلك الطائرات المحملة بالقنابل تأتى لتدمر وتفرق وتغير حالة الهدوء والجمال الطبيعى فى منطقة مثل ردفان إلى

دوامات متتابعة من الغيظ والحنق والاستشعار بالخطر القريب وسفك الدماء وغبار القنابل.

تقبل أولاد الشيخ أبو سالم العزاء فى ابيهم وانتهت فترة الحداد وذهب كل إلى عمله ووصل سالم إلى عمله فى المعسكر البريطانى فى كريتر وتقدم منه الرقيب البريطانى ذو الكرش المتدلى متظاهرا بالحزن والتعاطف مع سالم فسالم يعرف اسراره جيدا ويتعاون معه ويساعده فى بيع بعض الذخائر التى يقوم الرقيب كلارك بخصمها بطرقه الخاصة من عهده المخازن وتقبل أيضا سالم العزاء من بعض الجنود البريطانيين الذين يعرفونه ولكن ماوقر فى القلب لم تكشف عنه سمات الوجه فسالم قد تأثر تأثرا شديدا بمقتل والده وعلى يد هؤلاء الذين يمدون لم ايديهم بالعزاء وعاد سالم إلى حيث يسكن فى منطقة الشيخ عثمان فقابله اصحابه وجيرانه معزين متأثرين اشد التأثر بوفاة والده - وفى تلك الامسية فى المقهى الذى تعود واصحابه الجلوس عليه مساء تعددت الوان الغضب ونادى البعض بالانتقام ورغم أن معظمهم يعملون فى أعمال لها علاقة بالوجود البريطانى فى عدن ومصالحهم مرتبطة باستمرار هذا الوجودالا أن الرفض للوجود مهما كانت التداعيات والغضب الكبير كان له الموقع الاعظم فى النفوس.

واكتشف سالم من بعض الجالسين بأن هناك مجموعات من اليمنيين فى عدن وغيرها لا يكتفون باظهار الغضب على الاحتلال بل يقومون بأعمال متنوعة ضد الاحتلال وتكشفت لسالم الصورة أوضح حينما جاء إليه أحمد الفضلى وهو شاب نحيف قصير ولكنه متعلم

فى بلاد بعيدة ولم يسبق لسالم أن تعرف عليه ولكن احضره معه احد زملاء سالم وتحدث مع سالم على انفراد وكان الحديث يدور عن كيفية الانتقام من القوات المحتلة والاشتراك الايجابى للعمل على طردهم واتفق معه أحمد الفضلى على أن يتقابلا فى منطقة حددها له فى عدن الصغرى يوم الأحد حيث اجازته الأسبوعية التى ينتظرها بفارغ الصبر ليزور اهله فى ردفان وامه بعد وفاة والده ولكنه فضل الذهاب لمقابلة أحمد الفضلى وزملائه ويشاهد ما يمكن أن يشارك فيه للانتقام من مقتل والده الشيخ لان أحمد وعده بأن الزملاء سيساعدونه فى الآخذ بالثأر لوالده وكان كل تفكير سالم هو الأخذ بالثأر وهذا هو الفرج قد جاءه بعد أن علم أن الزملاء سيمدون له يد العون.

لقاء فى عدن الصغرى

عدن الصغرى منطقة تقع شمال شرق عدن وينحصر بين عدن وعدن الصغرى خليج عدن ومنطقةعدن الصغرى تتغير فيها المظاهر الجغرافية والبيئية وتتباين بسرعة فمن جبال ومرتفعات ونتوءات عديدةتتدرج هذه المرتفعات إلى سهول كلما أقترب البحر أو خلجانه المتعددة وجزر صغيرة منعزلة فى اتجاه خليج عدن ويتصل ساحل تهامة الذى يكاد يكون منبسطا بوجه عام ويتميز بالخصوبة والامطار الموسمية التى تكفى ليتم زراعة الكثير من الزراعات التى تجود فى الاجواء الحارة الرطبة واهالى المنطقة اذا كانوا قرب السواحل فمهنتهم الزراعة والصيد وهم شبه مستقرين فى اماكنهم وينتمى معظم الاهالى فى هذه المنطقة إلى قبيلة العقربى - ونظرا لان معظم الاعمال التى يقوم بها الاهالى فى هذه المنطقة هى الزراعة فهم فى حالة استقرار وهدوء والصفة الغالبة. عليهم انهم كانوا مسالمين - فمصدر رزقهم فلاحة الأرض وصيد الأسماك والقليل منهم يقوم

بالتجارة ولذلك فأن قبيلة العقربى لم تكن مثل القبائل الاخرى التى استوطنت الجبال فكانوا يتميزون بالشراسة وكثرة الاقتتال بينهم وبين جيرانهم وحتى بين بعضهم البعض ولطبيعتهم الجبلية وكثرة التنقل الذى فرض عليهم عدم الاستقرار للانتقال من مكان إلى اخر حيث الابار والعشب كغذاء لماشيتهم ولذلك صار من سماتهم كثرة الصدامات، ،والاقتتال نتيجة كثرة التنقل خلاف ما كان فى منطقة الوادى شمال عدن الصغرى.

وعلى حسب الموعد الذى سبق وضربه أحمد الفضلى لسالم فى قهوة الشيخ عثمان تقابلا وركب سالم بجوار أحمد فى شاحنته الصغيرة ولم يغب عن ذكاء سالم تكريم أحمد له وافساح مكان بجانبه فى كابينة الشاحنة ورغم أن معه شخصان كل منهما يحمل بندقية ويبدو أن أحمد اشار لهما بطريقة معينة وعليها قفز الرجلان إلى صندوق الشاحنة المكشوف ووقفا خلف كابينة القيادة واسندا ايهديهما على سقف الكابينة وفهم سالم بذكائه الفطرى قدر الاحترام الذى يتمتع به أحمد لدى هذين الشخصين المسلحين فما كاد أحمد أن يومى برأسه دون أن تنبس شفتاه عن أى كلمة - كان الفعل سريعا والاستجابة دون تردد.

وقاد أحمد الشاحنة الصغيرة وفلول اشعة الشمس تكاد تودع اليوم وتختفى خلف الافق وسرح خاطر سالم فهو يسعى منذ مقتل ابيه للانتقام ولكن قوات الاحتلال والذى يعمل عندهم ويتقاضى معاشه منهم وحتى جذوة الثأر داخل نفسه لايعرف بالضبط اين

يوجهها وعلى من يطلقها فالثأر فى هذه الحالة ليس ضد فرد يستطيع أن يقتله بخنجره ويشفى غليله من دمه أو يطلق عليه رصاصة تصيب قلبه فى مقتل ولكن الثأر ولو كان جذوة نار متقدة فى فؤادة الا أنه اختلط عليه الأمر وتعذر عليه الهدف فعلى من يفرغها فالجنود البريطانيون كثيرون وفى اماكن مختلفة وحتى منهم اصدقاء له وعلى رأسهم الرقيب كلارك بل أنه يكسب معاشه كل خمسة عشرة يوما ويرسل لزوجته واطفاله وحتى والدته ما يكفى حاجتهم ويسد متطلباته أن الأمر اختلط عليه والاسئلة تكاثرت على خاطره وممن يثأر وبأى وسيلة يثأر ويفرغ شحنة الغضب الذى تلازمه وتورقه.. وماكاد يتلمس امل عندما تحدث معه أحمد عن مساعدته للاخذ بثأر ابيه الا وسارع إليه مستجيرا... وماكاد أحمد الفضلى يتحدث فى المقهى بعد تقديم عزائه إلى سالم عن تقديم المساعدة والمساندة لكى يتم الثأر للشيخ أبوسالم حتى سارع بالتعلق بخيوط من الامل وخفت حوله كثافة ضباب الرؤيا وشدة اختلاط الاوراق ولعل فى كلمة المساعدة التى قالها أحمد تكون المنقذ لقلقه والاجابة الصحيحة لكل ما يعتمل فى نفسه من تساؤلات وحيرة.

كانت الشاحنة تسير على مدق مترب تكثر فيه المنحنيات والمطبات وتثير خلفها زوبعة من الآترية والغبار وتقفز الشاحنة نتيجة كثرة الثنيات الارضية فتسبب فى ارتفاع عجلات الشاحنة عن الارض وكأنها تطير ولم يابه سالم لما حوله بل كان غارقا فى كثرة الاحتمالات والتوقعات والامال بل والاحلام فى الثأر لوالده الطيب واخيرا لم يطلب المساعدة من احد ولكن قدمها إليه أحمد طواعية وكأنه عالم

ببواطن الأمور عميق فى الاحساس بحيث لمس اوتار مشاعر سالم النفسية دون أن يقول أو يفصح عما فى نفسه وسالم حينما كثرت تقاطعات الوسائل أمام خاطره وتعددت نقط الاختناقات أمام ما يمكن طرقه من سبل تؤدى إلى تحقيق الثأر انسحب فجأة من افكاره وخواطر واتجه داعيا الله أن يعينه ومتمتما ومتشفعا إلى رسوله الكريم املا فى أن يكون الثأر قريبا والتوفيق مكتوب إليه وطوال الطريق لم يتكلم أحمد مع سالم بل كان يتبادل الحديث مع الرجلين الواقفين خلف صندوق الشاحنة وكأن أحمد احس باندماج سالم مع نفسه وخواطره فأراد أن لا يقطع خلوته رغم وجوده جالسا معه احتراما لمشاعره وانتظارا لما سيراه سالم فى زيارته إلى عدن الصغرى.

قد يجد بعض الاجابات والاستفسارات التى كانت تملأ فكره وتشحن عقله وتوقفت الشاحنة بخفه وبسرعة وعندما اقفل أحمد محرك السيارة تكلم لاول مرة مع سالم وقال لقد وصلنا علينا بالنزول.

نزل سالم من العربة ووجد نفسه يدوس ارض الواقع بعد أن كان محلقا طوال الرحلة مع افكاره وشجونه واحاسيسه منفصلا عما يحيط به طوال سير السيارة وكان الليل قد ارخى خيوطه السوداء على المكان ولكن كان يوجد ثلاثة اماكن مضيئة متجاوزة على مسافة ثلاثمائة متر فوق التبة العالية حيث تم ايقاف السيارة اسفلها واقترب سالم وأحمد والاثنين الاخرين زملاءالرحلة هذه المسافة القصيرة

صعودا على الاقدام وكلما اقترب سالم من المكان اتضحت معالمه وبانت تفاصيله أمام ناظرية فمصدر النور كان ثلاث فوانيس كبيرة من تلك التى تضئ باستخدام الكيروسين والضغط ولها شمعة من النسيج الخاص ومعلقة هذه الفوانيس الثلاثة بواسطة حبل تم شده بين الأشجار ووجد كثيرا من الناس يفترشون الأرض الخضراء يتحدثون ويتنافسون ويتصايحون وهم فى حركة لا تهدأ ووجد سالم تحت أحد الفوانيس ترابيزة خشبية ووراءها اربعة كراس خشبية ولكن لا يجلس عليها أحد واخذ أحمد سالم من يده وأشار عليه بالجلوس ثم أخذ بتبادل التحية مع عدد من الرجال وكان واضحا سابق معرفته بهم وانسل الرجلان اللذان كانا رفاق الطريق إلى مكان قصى واندمجوا مع مجموعة من الواضح أنهم يعرفون بعضهم جيدا بدلالة كثرة السلامات الحميمة فيما بينهم ودار سالم بناظرية هنا وهناك فوجد أن الجميع يتحدث ويتناقش وكان الموجودون قد انقسموا إلى جماعات وفرق يتصايحون فيما بينهم ويتبادلون التحيات مرارا ويتجادلون ويتحركون احيانا بين الأماكن وانتبه سالم إلى من يقدم له كوبا من الشاى وظهر خلفه رجل آخر يحمل صنية ضخمة مملوءة بأكواب الشاى لتقديمها لمن يطلب ذلك ولمن لا يطلب كواجب التحية ولكن لفت انتباه سالم بعد فترة ليست طويلة سكون عجيب خرست فيه الألسنة وعم الصمت المكان بعد أن كانت الأصوات عالية والصياح على أشده وكأن الجلسة هى سوق للبيع والشراء واتجهت الرءوس الموجودة جميعا ناحية مكان الترابيزة وساد المكان هدوءا عجيبا ينافس هدوء الطبيعة حول المكان ونظر سالم إلى الترابيزة حيث

توجهت جميع الأنظار فوجد أربعة رجال ثلاثة منهم يلبسون اللبس الوطنى والخنجر التقليدى فى وسطهم والرابع يلبس قميصا وبنطلونا مثله مثل البريطانيين عندما يخرجون للنزهة خارج معسكراتهم ويخلعون زيهم العسكرى.

لازال السكون مخيما على جميع الحاضرين بعد أن كان الضجيج يملأ المكان والكل يصرخ هنا وهناك والبعض ينتقل من مكانه الى مكان أخر او يقف ويذهب إلى اطراف المكان الذى غص بالموجودين الا أن الحال تبدل بسرعة عجيبة وساد الجالسون هدوء شديد وانعدمت حركتهم وتنقلاتهم وقام أحد الجالسين على الكراسى وكان شابا له شارب خفيف ولحية وقد جاوز عمره الثلاثين بقليل وبدأ فى حديثه الذى كان اقرب إلى الصراخ وبين الحين والآخر يضرب بقبضته الترابيزة أمامه فيكاد يفكك اوصال اجزائها وتطايرت كلمات الخطيب وكان سالم مصغيا مثله مثل الآخرين ولكنه سمع كلمات مقاومة الاحتلال وكلمات التضحية بالنفس فى سبيل جلاء العدو المحتل ومن ضمن ما سمعه أن دم الشهداء لن يضيع هباء فمست هذه الكلمات اوتار احزانه على مقتل والده منذ فترة ليست طويلة وبقنابل البريطانيين وجاء لأول مرة إلى هذا المكان طالبا العون والمساعدة لكى يثأر لمقتل والده ولكنه استمع إلى كلمات الخطيب ومنها أن الوطنيين مستعدون للتضحية بدمائهم وأنه يجب مواجهة الطلقة القاتلة بطلقة مماثلة واستجمع سالم تركيزه على كلمات الخطيب الذى ازداد حماسة وتشنجاته وانفعالاته واهتزازه وتلويحه بيديه يمينا ويسارا وتساءل بينه وبين نفسه أن كلام الخطيب لم

يتطرق الى كيف ومتى يتم الثأر ثم صاح الخطيبُ بنبرة صوت اعلا مكررا أن المحتل لا يعرف غير لغة القوة فالقوة يجب أن يقابلها القوة ولكن سالم استدرك الكلمات فى ذهنه مرة أخرى وهو يعرف أن البريطانيون لديهم قوة السلاح وكثرته ولكن من اين يمكن للمواطنين أن يحصلوا على وسائل القوة هذه وزادت الأمور صعوبة على تفكير سالم وهو يستمع الى كلام الخطيب الكلام الشديد العالى النبرة والذى لم يكن يصل إلى اذن سالم ولا إلى فهمه فقد انشغل بما سبق سمعة فى أول الكلمات وأخذ يردد بينه وبين نفسه من أين نحصل على السلاح بل حتى لم يذكر الخطيب البارع من أين يمكن توفير المال اللازم للحصول على القوة اللازمة للوقوف ضد قوة الاحتلال وعلى حد تفكير سالم المحدود فأنه جاء يطلب المساعدة للأخذ بالثأر لمقتل أبيه إلا أن الخطيب تجاهل ذلك ولم يسمع كلمة ثأر واحدة فى كلماته وجلس المتحدث الأول بعد أن كسر صياحه سكون التلال والوديان حول المكان.

وانتبه سالم أن الرجل الذى يلبس قميصا وبنطلونا قام يتحدث الى الحاضرين وكان هذا الشاب نحيفا ميزته نحافته الزائدة بشكل ملفت للنظر يلبس البنطلون والقميص وعلى عكس الخطيب الأول قام هذا الرجل وظل واقفا صامتا فلم يرفع عقيرته بالصياح واخراج الكلمات بمجرد وقوفه مثله مثل الخطيب الأول ولكنه وقف صامتا ينظر فى عيون الجالسين أمامه ويحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار وكأنه يخص كل جالس أمامه بنظرة خاصة له وبالتالى فالجالسون كانوا

وكأن على رءوسهم الطير يستقبلون حملقته فى وجوههم مستفهمين عما يرمى إليه من هذه النظرات الصامتة.

ومضت فترة كان الانتظار هو السمة السائدة على جميع الجالسين انتظارا لما سيقوله المتحدث ولهفة لسماع كلماته والجديد الذى سيركز على قوله وتوضيحه ودوافع المعانى وغرضه من الحديث.

واخيرا بدأ المتحدث كلماته بصوت متوسط القوة والكلمات تخرج من فمه بطيئة ويضغط على كل حرف من كل كلمة ينطق بها وكأن كلامه الدرر ذاتها يقسمها ويجلوها قبل نثرها فيزداد بريق هذه الجوهرة وبالتالى الاستعداد الجيد لدى المستمعين لحسن استقبال الكلمات والقدرة على استيعاب معانيها واستجلاء بعض ما يصعب على العقل من فهمه بدأ المتحدث كلامه بنداء نيرته بطيئة - ولم يتعد النداء سوى كلمتين ايها الرفاق وصمت برهة ثم كرر الكلمتين ثلاث مرات فى كل مرة تختلف النبرة عن الأخرى ويتشكل النداء من ناحية القصر والطول بل وحتى التلحين ثم بعد ذلك يستطرد فى الحديث ولم يفهم سالم معظم الكلمات ولا فحوى معانيها المقصودة من المتحدث ولكن سمع كلمات لأول مرة يسمعها مثل الرفيق الروسى والقوة العظمى للاتحاد السوفيتى وأن هذه القوة هى السند والدعم لكفاح الشعب ضد الاحتلال البريطانى فى عدن وذلك لسبب واضح وبسيط ومقنع وهو أن الدب الروسى القوى الذى يمثل أحد القوتين الأعظم فى العالم يكره وبشدة الأسد البريطانى العجوز الذى أصابه الوهن وتساقطت انيابه من الشيخوخة واصبح من الضعف والهزال لدرجة

أنه في زئيره الضعيف يكاد لا يأبه لصوته الآخرين وذلك خلاف الدب الروسي القوى العظيم الذى يتمتع بكامل شبابه وقوته.

واستطرد المتحدث منغما كلماته مستمرا فى إخراجه الفنى للحروف لكى يبلغ التأثير المرجو فى نفوس الحاضرين

استمع سالم للمتحدث ولو أن الاستفسارات تزاحمت فى عقله والاسئلة دارت في نفسه تبحث عن إجابة مبسطة فالكلمات التى كانت تصدر عن المتحدث كلمات رنانة لها حروف كثيرة ومن ضمها اسماء لم يسمع بها سالم من قبل واختتم المتحدث كلامه بسؤال للحاضرين عما إذا كان هناك بديل وسند آخر خلاف الاتحاد السوفيتى الذى تحكمه المبادئ والمثل يمكن أن تستند إليه المقاومة ضد الوجود البريطاني فى عدن وتطوع هو بالإجابة بكلمة واحدة أنه لا يوجد فالسند والعون مصدره ومكانه الاتحاد السوفيتى وعدو عدوى هو الصديق والحبيب ونحن نبحث عن عدو للأسد البريطانى العجوز.

فهم سالم أن هذا المتحدث يطرح وجود قوة تستطيع المساندة وتقديم العون وتحدث سالم إلى نفسه دون أن يحرك شفتيه بأن وجود المعين هو أمل فى حد ذاته لأنه مهما كان ضعف الأسد البريطانى وشيخوخته كما ذكر المتحدث فالانتقام منه ليس سهلا ولا يمكن الاستهانة بما تبقى لديه من قوة فهذا الأسد عند اللزوم يكشر عن انيابه المتهالكة ولكنها تخيف الصغير وان لم يمسه سوء من هذه الأنياب فما بالك وقد حدث لسالم بأن قامت طائرات البريطانيين وقتلت والده الشيخ الطيب وان كان قدم إلى هذاا لاجتماع باحثا عن

عون للأخذ بالثأر لمقتل والده الا أن الحديث الذى سمعه يتكلم فى مضمونه عند مقاومة الاحتلال وطرد البريطانيين من البلاد ولم يتحدث حتى الآن عن الثأر أو تقديم العون لسالم فى مصرع والده الشيخ.

وأخذ سالم يتمتم لنفسه بألفاظ الدب الروسى والقطب الأعظم وعدو عدوى هو صديقى الحقيقى حتى أن أحمد رفيقه الذى كان يجلس بجانبه تنبه إلى أن صوت سالم كان مرتفعا وهو يناجى نفسه ويتحاور مع فكره وخواطره فضغط أحمد على ذراع سالم منبها إلى ضرورة الاستماع والانتباه لما يقوله المتحدثون ثم قام المتحدث الثالث وكان قصيرا مملوء الجسم غليظ تقاطيع الوجه وصوته اجش واعلا بكثير من سابقيه فى الحديث حتى ان صدى صوته كان ينتقل عبر اخاديد الوديان ومضايق السهول فيفزع الطير النائم على الأشجار فى اعشاشه وتقف فى حذر بالغ الحيوانات الصغيرة الباحثة عن طعامها فى ظلمة الليل لانفجار هذا الصوت المفاجئ.

ذلك الصوت المهول الذى يجلجل وكأنه هدير سيل قادم رغم أن السماء صافية ولا تنذر بأمطار فى ذلك اليوم.

تكلم المتحدث الثالث عن حرية الوطن وحرية الأرض وضرورة طرد الاحتلال من البلاد ثم تكلم عن النضال والمناضلون السابقون فى أماكن متعددة لم يسمع باسمها سالم من قبل وصمت المتحدث فترة ليست طويلة والصمت يعم الجميع بعد انتهاء صدى آخر الكلمات وفجأة نطلق المتحدث بصوته المجلجل يتساءل هل لدينا القوة التى

تستطيع طرد البريطانيين من بلادنا وهل نملك مصادر مساعدة لمؤازرة نضالنا وكفاحنا ضدهم وأجاب المتحدث على تساؤلاته بالنفى لا لا توجد فلا توجد قوة خارجية نستطيع أن يستند إليها الكفاح ويستمر لا ولا ويستمر لا ولا يوجد لدينا اسباب القوة التى يمكن بها قهر العدو المحتل.

وركز سالم تفكيره مع المتحدث وماذا يبغى من كلامه وإلى أى شئ يهدف فنحن المواطنون لا تملك القوة الكافية وليس لدينا المساندة والمناصرة من قوة اخرى نعتمد عليها فى الصمود والكفاح واستخلص سالم من حديث المتحدث أن ليس هناك بوادر أمل فى أن يتمكن من الأخذ بثأر ابيه الشيخ فإذا كانت المقاومة تحتاج إلى سلاح يدعمها ويزكيها والحصول على هذا السلاح امر شبه متعذر والحصول على السلاح المناسب مثل ما لدى العدو أمر مستحيل فكفه العدو هى الراجحة واستمرار احتلاله للأرض واستخدام طائراته أمر لا مفر منه... وردد سالم لنفسه خواطره حول كلام المتحدث الذى كان مضمونه الدعوة إلى اليأس وإلى الاستسلام إلى الأمر الواقع.

وقطع على سالم تفكيره وخواطره هدير صوت المتحدث الذى دعا إلى المقاومة السلبية فى وقف التعاون مع البريطانيين ووقف شراء بضائعهم ردد المتحدث كلمات العصيان المدنى وضرب الأمثال بما قامت به مقاومة الهنود للاحتلال البريطانى بزعامة المهاتما غاندى وكيف أنه رفع راية المقاومة السلبية والاعتماد على أسلوب اللا عنف الذى به استغنى عن القنابل والصواريخ فكان النصر الى جانبه

ورحل عن بلاد الهند الكبيرة بفضل صبر ابنائها وأفكار زعيمها الذكية وخواطره وأسلوبه السلمي ودون اراقه دماء.

واختلطت بذلك الأوراق والأفكار في ذهن سالم بحيث أنه اصبح عاجزا عن ترتيبها الترتيب المنطقي المعقول فكأنه جاء إلى هذا المكان يطلب المساندة للأخذ بثأر والده فكانت المحصلة لا شئ كلام متعارض واساليب وليس بين هذه الأساليب ما يمكن التعويل عليه والاعتماد إليه في احراز النجاح.

ولكن ما شد انتباه سالم اكثر هو دعوة هذا المتحدث إلى عدم التعاون مع البريطانيين فمعنى ذلك ببساطة أن يترك سالم وظيفته لدى البريطانيين ويفقد مصدر رزقه ومعيشته هو وأسرته.. وردد في سره أن ذلك أمر صعب بل أنه مرفوض منه شخصيا فقد كان اعتماده على راتبه منالبريطانيين ولمدة ليست قصيرة حياته وحياة أهله متوقفة على استمرار هذا المصدر فكيف يسعى لقطع رزقه بديلا لا لا.. أن هذا المتحدث لابد أنه يهدف بكلامه هذا مصلحة اخرى غير مصلحة أهل بلده ورجع سالم إلى ذكائه الفطري وشفافيته الجبلية فوصل إلى قناعة سريعة بأن كلام هذا المتحدث غير مقبول بل أن هذا المتحدث ليس وطنيا حرا بل يكاد يقول ويتكلم بلسان اعداء هذه البلاد.

وتوقف سالم عن الاستماع لباقي الكلام حتى رغم ارتفاع الصوت وتلونه ولم يعد سالم يرى سوى شفتين تتحركان واثنين من الايدي تلوحات في الهواء في كل اتجاه ولكن سالم اصبح في حكم من ينطبق القول عليه لا حياة لمن تنادي.

ووقف المتحدث الرابع والأخير وكان متوسط القامة قوى البنية يلف حول رأسه كما هي عادة اليمنيين بشال عريض من الكشمير الفاخر ويظهر خنجره مثبت في وسطه وقد وضعه في جراب ذو زخارف ونقوش عديدة ورغم الضوء الخافت الساقط عليه فإنه يلمع وتنعكس خيوط الضوء الساقطة عليه فيكاد يبرق من شدة اللمعان كما أن رأس الخنجر البارز من النوع الكبير عليه زخارف كثيرة وانعكاسات الضوء عليه أشد وما يكاد الرجل يتحرك الا والضوء الشديد الذى ينعكس عن مقبض خنجره يتحرك وعندما يسقط على أعين أحد من الجالسين تجفل العين من شدة انعكاس الضوء ويغمض الجفن تلقائيا لحظة مرور الضوء المنعكس ناحية العين وانشغل سالم فى تفحص المتحدث الرابع والتمعن فى ملبسه الذى يدل على النعمة التى يتمتع بها صاحبه والسعة فى الرزق بل والغنى الذى لا يخطئه الإنسان خاصة ذلك الخنجر فى جرابه الذى لم يسبق أن رأى مثله من قبل ألا مرة واحدة عندما ذهب إلى نسبيه محمد الكعبى فى يافع وقابل أحد ابناء السلطان اليافعى وكان من دلائل الثراء لدى اليمنيين نوعية الخنجر خاصة المقبض الذى يتفنون فى زخرفته برقائق من الفضة واحيانا رقائق من الذهب كما أن جراب الخنجر يميز صاحبه من حيث الزخارف ودقة الصنع ونوعية المواد المصنوعة منها الجراب وفى بعض الأحيان يكون هذا الجراب تحفه فنية دقيقة من الفضة.

ولذا يمكن تمييز اليمنى صاحب الجاه والسلطان من ملبسه وخاصة الخنجر والجراب اللذين هما بمثابة الشعار اليمنى الذى يصعب على اليمنى مهما اختلف إلى بلاد الخارج ورأى الكثير

والأنواع المتعددة من الملابس إلا أنه عندما يعود إلى وطنه يعود إلى لباسه المحلى وخنجره المميز.

وافاق سالم من استمرار تفحص المتحدث وملابسه وان كان هذا هذا المتحدث لم يسمع له حديث واضح بعد فقد كان صوته خفيضا وظهر عليه أنه يفكر قبل أن ينطق بالكلمة التالية ولكن سالم اصاخ السمع وجذبته معانى الكلمات لهذا المتحدث الرابع الذى صاح رافعا يديه إلى أعلا وكأنه يناجى قوى عليا خفية وسمع سالم كلمة الأخوة العرب - وانتبه بشدة إلى سياق الحديث فوجد الكلمات تدخل قلبه فها هو يسمع المتحدث يتكلم عن أن المقاومة حتى طرد أخر جندى بريطانى ... وتساءل... بأن المقاومة السلبية لن تقود ألا إلى مزيد من قوة العدو ومزيد من ضعف الوطنيين واستدرك المتحدث بعد صمت قصير لماذا لا نطلب المساعدة من الأخ الكبير فالأخ الكبير قادر على المساعدة والأخ الكبير لن يبخل بالعون والأخ الكبير عربى مثلنا يمد يده الينا ونمد اليه يدنا والأخ الكبير هو السند وهو الأمل فى نجاح كفاحنا لتطهير أرضنا من الاحتلال الأجنبى.

الأخ الكبير لن يبخل عنا ولن يطمع فينا وستكون يده معنا قوة فاعلة فمصلحته من مصلحتنا ومصيره إلى مصيرنا وسنضمن من الأخ الكبير وتجربته فى التعامل مع جنود الاحتلال تجربة حية وغنية ومقاومته الطويلة وكان سالم منصتا انصاتا شاملا كاملا ومنبهرا عما يذكره المتحدث عن الأخ الكبير وكان شوق سالم يتعاظم مع المتحدث ومع كلماته لكى يعرف من يقصد بالأخ الكبير... وكلمة الأخ

تعنى لسالم الشقيق الذى يحب ما لنفسه كما يحب لأخيه.. وتذكر كلام والده الشيخ رحمة الله عليه وذكره ايات القرآن الكريم واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ... وها هو المتحدث يتكلم عن الاعتصام مع الأخ الكبير وطلب !! ـون عنده وتأكيده أن هذا الآخ الكبير سيسارع بشفافية وطهارة ونقاء إلى نجدة الآخ الصغير مهما كانت الظروف والصعوبات التى قد يقابلها الأخ الكبير . فهو لن يتخلى وسيقوم بكل كرم ونبل لاقتسام ما تحت يده وما يستطيع التصرف فيه ليقدمه طواعية فى سبيل الهدف المشترك النبيل ولن يتردد الأخ الكبير او يتباطأ فى رشد ازر اخيه الصغير فى محنته لأنه ببساطة شديدة كلما اشتد عود الأخ الصغير وتمكن من تطهير ارضه من المحتل كلما كان ذلك اضافة غنية نحو تحقيق الهدف الواحد والأمل الواحد ـ لأن المصير واحد.

ازداد شوق سالم كلما مرت الدقائق بل الثوانى معرفة من يكون الأخ الكبير وتردد فى أن يرفع صوته سائلا المتحدث من يعنى بالأخ الكبير وجمع رغبته الشديدة الا أنه تدارك فى آخر لحظة أن سؤاله هذا قد يكون مبعث استنكار من معظم المستمعين لأنه محدود المعرفة والادراك وهناك الكثيرون حوله يعرفون من يكون الأخ الكبير.. ولذا فإن قام بالسؤال فقد يقع تحت طائلة الملامة من الآخرين وذلك بسبب نقص علمه بالأمور وضحالة معلوماته عما يحيط به ولذلك فضل سالم الاستمرار فى الاستماع للحديث فإن لم يفصح المتحدث ويقول اسم هذا الأخ الكبير فليس هناك مفر عند نهاية الاجتماع بسؤال الاستاذ/

أحمد الذى أحضره إلى هذا المجلس - فهو شاب متعلم ويعرف اكثر منه.

ولذلك اثر سالم الصمت وتمسك بالصبر ولم ينتظر سالم كثيرا فقد جنبه المتحدث منزلق الاحراج مع الجالسين - وصاح المتحدث بنبرة عالية حاسمة موجها سؤاله إلى الجالسين المستمعين بعمق - هل تعرفون من هو الأخ الكبير والمعين المأمول أنه يا أخواني - مصر - مصر العربية. مصر هى الأخ الكبير وسرت همهمة بين الجالسين وانفرجت اسارير سالم بعد طوال انتظار فقد أجاب المتحدث عن ذلك السؤال الذى طالما سبب له القلق وأن سالم يسمع عن مصر العربية وأنها أكبر دولة عربية.. وسمع سالم أيضا أن هناك ثورة فى مصر ونتيجة هذه الثورة خرج الملك فاروق وتحولت مصر إلى جمهورية مصر العربية - نعم هذا هو الأخ الكبير إنه مصر.

واستطرد المتحدث فى كلامه الذى اخذ يعلو به ويخفضه حتى يزداد تاثير الكلمات على المستمعين. إلا أن سالم بعد أن عرف الإجابة عمن يكون الأخ الكبير - جالت فى خاطره العديد من الاستفسارات وتساءل بينه وبين نفسه عن قوة وقدرة الأخ الكبير... فالبريطانيون المحتلون اقوياء لديهم اسلحة فى البحر وفى الجو وفى البر كبيرة وفى اماكن كثيرة فهل الأخ الكبير لديه مثل هذه القوة وهل العون من الأخ الكبير - رغم التسليم بأنه سيبادر إلى مديد المساعدة بأقصى ما يستطيع هل حجم هذا العون سيكون فيه الكفاية لمقاومة وطرد البريطانيين من عدن.

وبعد طول استرسال مع نفسه منفردا عن الاستماع إلى باقي حديث الخطيب اقتنع بأن ما يعرفه اقل من الإجابة على هذ التساؤلات وليؤجلها إلى حين يعرف تفسيرها ممن يستطيع الإجابة عليها ومهما تكن معلوماته عن الأخ الكبير فهي معلو مات محدودة وقليلة.

وانتبه سالم إلى ما حوله فقد انتهى الخطيب وبدأ الحاضرون ينصرفون من حيث اتوا وبعضهم تجمع للمناقشة والمجادلة والبعض منهم ذهب إلى حيث يجلس المتحدثون لاستكمال الاستفسارات مماجاء في احاديثهم . واحس بمن يجذبه من ذراعه فوجد أحمد يحثه على العودة الى الوانيت للرجوع إلى الشيخ عثمان.

وفى الطريق تزاحمت الأسئلة والاستفسارات فى حديث سالم . لعله يجد الإجابة الشافية لدى أحمد إلا أن أحمد لاذ بالصمت مدة طويلة دون أن يتكلم أو يشفى غليل سالم بالإجابة على أحد اسئلته مما جعل سالم ينفعل بل ويلقى باللوم على أحمد حيث أنه حضر ومعه أمل فى أن يجد عونا للأخذ بثأر والده الشيخ الطيب وتنهد سالم. لكنه للأسف حضر ليستمع إلى كلام وخطب لا تغنى ولا تشفى غليله ولجأ إلى أحمد يبتغى المشورة والرأى وطلب منه توجيهية لمن يجد عنده العون للأخذ بالثأر إلا أن أحمد احضره هذا المجلس وجعله يستمع لأحاديث كثيرة حتى الخطباء الذين تكلموا كانوا مختلفين فى أحاديثهم وارائهم وكذلك وسائل تحقيق أهدافهم التى طرحوها ولم يتحدث أحد منهم عن الأخذ بالثأر لمقتل الشيخ أبو سالم.

فكأن حضوره لهذا المكان بلا فائدة وحيث أنه جاء يطلب العون السريع فوجد حديثا طويلا وطريقا أطول - ليس من أجل الأخذ بالثأر لمقتل والده ولكن لطرد البريطانيين من عدن.

واخيرا تكلم أحمد وطلب من سالم أن لا يستعجل الأمور - وأن كان سالم يطلب الثأر لوالده فهذا هدف محدود وحتى لو أخذ سالم بالثأر ونجح فى قتل أحد جنود الاختلال او اثنين منهم فلن يؤثر ذلك على استمرار بقائهم محتلين لجزء من البلاد ومتمسكين بوجود قواتهم فى عدن وسيقتلون غير الشيخ ابو سالم ولكن باختصار يا سالم نحن نريد أن نقتلع الداء من جذوره وإذا سلمنا برغبتك المحصورة فى الانتقام لمقتل والدك الشيخ أبو سالم رحمه الله فمن المتعارف عليه فى عادة الأخذ بالثأر أن ينتقم أهل القتيل بقتل من قام بعملية القتل أو أحد أقاربه الحميمين أن تعذر قتل الفاعل حتى أن عادة الأخذ بالثأر عادة لا يمكن اغفالها بين أهل البلاد ولكن على شريطة أن يكون الشخص المستهدف للأخذ بالثأر منه معروف ومقرون قرينة مؤكدة بأنه الفاعل ولكن فى حالتك يا سالم تريد الأخذ بالثأر وأنا اوافقك على ذلك بل اقدم لك ما استطيعه لمساعدتك ولكن السؤال الذى أريد الإجابة عليه منك انت يا سالم هل تعرف الجندى الذى القى القنبلة من الطائرة تلك القنبلة التى أدت إلى استشهاد الشيخ أبو سالم؟ أو هل تعرف قائد الطائرة التى حملت وسيلة القتل؟ أو على اقل تقدير هل تعرف القائد الذى اعطى الأوامر بقيام الطائرة والقاء القنابل على المواطنين العزل؟

ان استطعت الإجابة وتحديد الفاعل المباشر يمكن أن أضع يدى فى يديك وتقوم بالثأر منه واستطرد أحمد يتحدث إلى سالم بأنه يريد المساعدة الحقيقية الفاعلة ولكن أين الشخص المستهدف والذى يجب أن تثأر منه لمقتل الشيخ رحمه الله.

ظل سالم صامتا والعربة تنهب الطريق الضيق الملتوى كما الأفعى من عدن الصغرى إلى حيث الشيخ عثمان.

ولما طال سكوت سالم حثه أحمد على أن يجيب على سؤاله ولكن سالم حار فى أمر هذا السؤال فلا يعرف أحدا من الفاعل الحقيقى ولذلك كانت إجابة سالم بعد عناء وتفكير بالنفى المؤكد فى أنه لا يستطيع الاستدلال عمن قام وتسبب فيما حدث.

والتقط أحمد الخيط مؤكدا ما سبق أن قاله لسالم بأن التفكير فى الثأر يلزم أن يكون اشمل واكبر من الحدود الضيقة التى يفكر فيها سالم فالثأر الفردى من الشخص أو من بضعة اشخاص مصيره الفشل بسبب بسيط وهو أن الثأر الفردى سينتهى بقتل فرد أو بضعة افراد ولكن البريطانيون سيظلون يحتلون عدن وسيزيدون من سيطرتهم على الأهالى ـ وسيستمر الاحتلال وسيزداد قوة لما فيه من مصلحة البريطانيين.

همهم سالم بكلمات لنفسه ـ وكأنه قد اقتنع بحديث أحمد واخيرا تكلم سالم وقال لأحمد أن تفكيرك يا أحمد شامل واكبر من تفكيرى والثأر الذى تسعى إليه هو الذى يجب السعى إليه فهناك اجتماعات

فى اماكن مختلفة وهناك بعض التنظيمات الفاعلة تحت التأسيس وان غدا لناظرة قريب.

وعندما وصلت العربة إلى حيث يسكن سالم ترجل وشكر أحمد وتواعدا على لقاء آخر حتى يمكنه أن يعرف أكثر وتزداد مداركه وتتسع حتى يمكن أن يكون فاعلا مع الآخرين فى الأخذ بالثأر الكبير.

ولم يمض اكثر من يومين على الاجتماع الذى حضره سالم مع أحمد واثناء تواجد سالم فى المعسكر لاحظ حركة غير عادية وعربات مصفحة محملة بالجنود تخرج من المعسكر ووجد الجنود فى حالة استنفار - وتم قفل بوابة المعسكر بعد خروج بضع عربات وعليها جنود بريطانيون وبالمصادفة وجد الرقيب كلارك يأتى إلى المخزن بخطوات سريعة وعلى وجهة جدية وصرامة لم يعهدها فيه - ألا أن سالم بادرة يستفسر عما حدث ولماذا هذه التحركات الغير طبيعية فى المعسكر؟ وأجاب الرقيب كلارك بعد أن أخذ يتكلم بلهجته البريطانية الغير مفهومة وان كان سالم لا يعرف جيدا ما قاله إلا أنه فهم أن كلماته كانت عبارة عن سباب وانفعال ضد اشخاص من الوطنيين - وعندما هدأ الرقيب كلارك من ثورته النفسية تحدث بهدوء اكثر إلى سالم واخبره أن أحد الأهالى قذف قنبلة يدوية على إحدى السيارات البريطانية عند بوابة اليمن إلا أنه لم يصب إلا جندى بريطانى واحد ولكن اصيب ثلاثة من الأهالى الذين كانوا يمرون قرب العربة بالإضافة إلى أن الذى قذف القنبلة اليدوية قد تم قتله بمعرفة الجنود.

ثم استطرد الرقيب سميث بأن هذه ظاهرة جديدة عليهم وعلى المنطقة الهامة وهى منطقة بوابة اليمن. ولذا فإنه يتوقع إجراءات شديدة من القيادة البريطانية لمنع تكرار مثل هذه الأعمال وتابع الرقيب كلارك كلامه بأن القيادة كانت تأمل فى عدم قتل من قام بالقاء القنبلة اليدوية إلا بعد استجوابه ومعرفة من يقفون وراءه ويساندونه.

واستطرد الرقيب كلارك فى نبرات حزينة بأن الحراسة لابد ستزداد تشددا وأنه من الآن فصاعدا سيصعب عليه بيع المزيد من الذخائر وممارسة هوايته التى كانت تدر عليه دخلا فيكسب الكثير ويصرف الكثير.. ونظر سالم الى الرقيب كلارك ولم يفتح فمه ولكن نظرته كمن يقول مصلحتى وحسب.

وعندما انتهى الدوام وعند خروج سالم من البوابة قام أحد الجنود بتفتيشه مبديا لسالم اسفة لأن ما حدث جعل الأوامر اكثر صرامة رغم أننا نعرفك يا سالم من مدة ليست قصيرة ولكن سالم اعتاد عند دخول المعسكر فى بداية الدوام وعند العودة الى الشيخ عثمان فى نهاية الدوام على هذه الإجراءات العسكرية التى كانت فى معظم الأوقات تأخذ شكلا روتينيا بل ولا يتم فيها التفتيش المعتاد بل يشير إليه جندى الحراسة بأن يسلم بطاقته فى البوابة وينصرف وقد يكون السبب فى ذلك إلى تراخى الجنود فى اداء مهمة التفتيش أو لأن سالم يعمل معهم منذ فترة ومعروف عنه حسن السير والسلوك إلا أن ذلك سبب راحة نفسية لسالم لأن التفتيش فى حد ذاته كان يعتبره أهانة ومساسا بكرامته.

وعاد العيد

مرت الأيام واقتربت أيام عيد الفطر - حيث تعود الشيخ ابو سالم أن يجتمع واحفاده تظللهم المحبة المتبادلة وتحيطهم غلالة التراحم. والمودة. ولكن ها هى أيام العيد باتت قريبة وكما تعود سالم بدأ يشترى الهدايا لأولاده وأولاد أخوته خاصة تلك الهدايا العجيبة التى كانت رائجة فى عدن.

وعندما قابل مستر كلارك رئيس مخازن الذخائر ورئيسة المباشر قبل خروجه من الدوام - ابتسم له مستر كلارك وقال له كل سنة وأنت طيب يا سالم بالعيد قال ذلك مستر كلارك بصعوبة شديدة فكانت الحروف تخرج من فمه بلكنة اجنبية والمعانى محرفة ومنقوصة - ولكن فهم سالم المعنى وشكره على ذلك ولم ينس مستر كلارك أن يجمع لسالم بعض علبْ الطعام وعلب الفواكه المحفوظة وزاد من كرم كلارك وتودده لسالم أنه استغل خروج إحدى عربات الجيش خارج الثكنة العسكرية - وبعد اتفاقه مع سائق العربة ركب سالم ومعه الهدايا

التى دبرها له الرقيب كلارك الذى تحدث مع سائق العربة أن تقوم بتوصيل سالم إلى أقرب مكان وهكذا بدأت اجازة سالم أجازة العيد.

وبعد أن رتب سالم حمولته من الهدايا ووضعها فى صناديق خشبية وبمساعدة اصدقائه. ثم تحميلها فى أحد الوانيتات فى طريقها حيث مقر العائلة فى ردفان.

واجتمع سالم مع عائلته ووالدته واخوته وزوج اخته واخيه الذى يعمل سائقا عبر طريق الضالع عدن ألا أن محمد الكعبى زوج اخته الكبرى لم يتمكن من الحضور فإنه من الضرورى قضاء أول أيام العيد مع والده ووالدته فى يافع.

وذهب الرجال صباحا إلى صلاة العيد كما تعودوا كل عام ألا أن هذا العيد كان أول عيد يمر عليهم فى غياب والدهم الشيخ أبو سالم رحمه الله والذى كان يقوم بإمامة الصلاة فى مثل هذا اليوم المبارك ورغم أن الخطيب الجديد اشاد واطنب فى تعداد مناقب الراحل الشيخ أبو سالم ألا أن سالم لم يستطع منع سقوط بعض دموعه التى ظلت متحجرة فى عينه مدة طويلة.

وفى المساء اجتمع سالم واخوته وابنائهم الصغار يمرحون حولهم وتدور بينهم اكواب الشاى وامامهم عدة اكوام من القات الأخضر وتحدث الأخ الصغير عن رحلاته من الضالع إلى أقصى مناطق الجنوب وأن خيال أباه الشيخ لم يفارق ذاكرته فى أى وقت وأن التصميم على الأخذ بثأره لابد أن يتم تنفيذه ثم استطرد أنه حضر جلسة فى الضالع مع مواطنين عدنيين يجتمعون مرة كل اسبوعين

ويتحدثون عن طرد البريطانيين وضرورة التخلص منهم وفى مرة وقف أحد المتحدثين وبحماس شديد أخذ يدعو، للأخذ بالثأر لكل الرفاق الذين قتلوا برصاص البريطانيين واخير الحضور بأنه يوجد رفاق اقوياء فى بلاد بعيدة على استعداد للمعاونة والمساعدة بإمدادهم بالذخائر والأسلحة ولكن عليهم تنظيم وترتيب انفسهم وأكمل على حديثه بأنه انضم إلى إحدى الجماعات التى تم اسناد مهمة نقل الذخائر والأسلحة إلى اماكن بالقرب من عدن واماكن فى شقرة ودثينه والشيخ عثمان وأنه بالفعل قام بنقل بعض الذخائر والأسلحة والتى لا يعرف نوعيتها وكان يقوم بإخفائها فى شاحنته مع البضائع الأخرى الذى تعود على نقلها إلى التجار وخاصة الخضروات واحيانا الأغنام التى تتعاقد القوات البريطانية مع بعض التجار لتزويد وامداد القوات بالموادالغذائية الطازجة.

واستطرد على فى حديثه أنه لم يجد وسيلة لكى يأخذ بثأر ابيه الشيخ ألا التعاون مع هؤلاء الأفراد وفى ذكرى الوالد ونداء الثأر يؤرقه بل ويشقيه لأنه نقل بعض الذخائر والأسلحة من خلال مندوب من الجماعة يقوم بتوجيه على وتوضيح ممن يستلم حتى كلمة سرية يتبادلها مع هؤلاء المندوبين. وتابع على حديثه موضحا آن هذه الجماعة لم تقبل به معها ولم تسمح له بالعمل ألا بعد أن اجتمع مع نفر من قيادى هذه الجماعة واقسم على القرآن الشريف أن يظل هذا الموضوع سرا ولا يفصح به لأحد حتى أقرب الأقارب إليه ولكن ما جعله يذكر ذلك ويكاد يحنث بقسمه شدة رغبته فى الأخذ بالثأر لوالده

ومن جهة أخرى فعلى يجلس بين أهله وشركائه فى العزم والرغبة فى الأخذ بالثأر.

لم يتكلم عن هذا الموضوع أمام زوجته أو والدته ولكن فرصة لقائه بأخيه وصهره على - وفرصة وجود الثلاثة دون أحد أخر حيث أن والدتهم واخوتهم البنات كانوا منهمكين بعيدا فى شئون تجهيز العشاء وطلب على من أخيه سالم وصهره أن يقسموا على كتاب الله أن يحفظوا هذا السر ولا يبوحون به حيث أنه سبق له القسم على ذلك وحتى لا يكون حنثا بما سبق واقسم عليه.

وساد صمت مؤقت بعد حديث على ولكنه لم يطل فقطعة سالم باسما وطيب خاطر اخيه وأكد كلامه سيكون سرا دفينا وأنه لم يحنث بقسمه فإن لهيب الرغبة فى الأخذ بالثأر تزداد مع مرور الأيام وأن ثقته فى صهره الذى لديه نفس الرغبة ونفس الدافع فقد كان والدهم رحمه الله يعتبره الشقيق الكبير وقد تربى فى كنفه منذ وفاة والده فى حادثة وهو صغير السن فكان عمه الشيخ هو الوالد ويعتبر نفسه شقيقا لسالم واخيه وليس صهرا فحسب - وأمن الصهر على كلام سالم بل وبادر من تلقاء نفسه إلى القسم بكتمان هذا السر بل والرغبة فى القيام يعمل اى شئ لكى يثأر مثلهم.

وزادت ابتسامة سالم - وطمأن أخيه وافصح أنه حضر جلسة فى عدن الصغرى وكانت رغبته عارمة فى الأخذ بالثأر ولكن وجد من ينصحه بأن الثأر الذى يريده لن يتحقق لأنه لا يعرف من قام بإلقاء

القنبلة من الطائرة او قائد الطائرة أو حتى من أعطى الأوامر بهذا الهجوم المأساوى واقتنع بذلك فالثأر الشخصى فى العادة يكون ضد شخص قام بالاعتداء أو أحد أقارب هذا الشخص من الدرجة الأولى ـ وفى حالتنا هذه فعلينا أن تكون نظرتنا اوسع من الحدود الشخصية ـ ولن يشفى غليلى ولا غليلكم قتل أحد الجنود أو حتى قتل أحد الضباط فالبريطانيون متمسكون بالبقاء فى عدن والبريطانيون اقوياء ولديهم تسليح أكبر وتدريب أعظم وقدرات لا تنفذ وإذا تماسكنا كمواطنين وتعاون الجميع ـ ونجحنا فى الحصول على العون والمساعدة الجيدة من مصدر قوى يهمه نجاحنا ومن مصلحته طرد البريطانيين من بلادنا فإن ذلك سيكون أضافة قوية لقدراتنا فإنه توجد أسلحة متطورة وأساليب ذكية لاستخدامها وسيكون فائدتها كبيرة فى الضغط على البريطانيين وتوقف سالم قليلا عن حديثه واخوه وصهره منتبهين شديدى الانتباه لكلامه ولديهم رغبة كبيرة فى السماع لمزيد من كلامه.

وعبر وجه سالم بالألم وهو يعود مرة أخرى لبتحدث عن حادثة القنبلة اليدوية التى قام أحد الشهداء بإلقائها على عربة للجنود البريطانيين عند بوابة عدن وكانت نتيجة ذلك خسارة فى المواطنين فلقد اصيب ثلاثة منهم اصابات بالغة واستشهد من قام بالعملية ولم يصب إلا واحد من الجنود البريطانيين فى العربة وحسب علمه فقد كانت اصابته بسيطة وإذا كانت المقاومة تستمر بهذا المستوى فنحن سنكون الخاسرين.

وإنى اتحدث على الإجراءات المتشددة الجديدة التى لجأ إليها البريطانيون سواء فى المعسكرات أو خارج المعسكرات عند تجوالهم فى عدن ونظام التفتيش الذاتى الذى لم نكن نعرفه من قبل فهو نتيجة لعملية خاسرة ولن يكون النجاح بالاستمرار بهذا الأسلوب.

وتابع سالم حديثه يجب أن لا نخسر وتستطيع أن نستمر فى المقاومة واصابة الجنود بأضرار كبيرة يجعلهم يفكرون مرات عديدة فى الثمن الباهظ لاستمرار احتلال عدن.

ولقد سمعت فى الجلسة التى حضرتها قولا طيبا عن الأخ الكبير ـ واصاب كلام المتحدث قناعة فى نفسى فالأخ الكبير الذى يشيرون إليه هو مصر ـ ويمكن لمصر أن تساعدنا وتعاوننا وتساندنا فى الاستمرار فى المقاومة وهناقاطعة أخوة على صدقت يا سالم فأنا فى الضالع وفى شقرة سمعت حديثا أيضا عن الأخ الكبير وهناك اسباب عديدة تجعل مصر تساعدنا بقوة ففى مصر حدثت ثورة وتمكنت مصر من أخراج البريطانيين من أرضها بالمقاومة وذلك بالإضافة لتجربتهم الناجحة فهناك ثورة تنادى بالوحدة العربية وتدعو إلى تقارب الأخوة العرب فإن فى تقاربهم وتعاونهم قوة لهم وبأس لمكانتهم وحضورهم بدلا من الفرقة والتباعد التى سببت الكثير من المصائب وقامت بلدان أخرى باحتلال أجراء من الدول العربية وها نحن نرى عدن عن قرب فعدن جزء غالى من اليمن ولكنه يقع تحت الاحتلال البريطانى والذى لا تأتى من وراء وجوده إلا المصائب ويكفى علينا مصيبتنا فى مقتل ابينا الشيخ رحمه الله عليه ورغم أن صهر سالم لم

يتحدث منذ بدء النقاش بل ظل صامتا مترقبا ولكنه فجأة سأل أين نقع مصر أو ما تسمونه الأخ الكبير وهل هى قريبة من اراضينا وكان السؤال مباغتا لكل من سالم وعلى رغم بساطته فهما لايعرفان مكان الأخ الأكبر ولكن يسمعان أن هذه البلاد تقع فى الشمال عند طرف البحر الأحمر الشمالى فكلا من سالم وعلى لم يبرح البلاد ولم يسبق له دراسة أو معرفة بعلوم الجغرافيا وتحاشيا للتفاصيل أوجز سالم فى الرد وقال أن الأخ الأكبر حسب ما يسمع بعيدة عن بلادنا وتصور انه حسم القضية الا أن الصهر عاد وسأل عن روسيا وهل هذه البلاد ابعد من مصر أم قريبة من بلادنا وعاد سالم ينتابه قليل من الملل وكثير من قلة الحيلة مع صهره الذى ظهر أن أسئلته تصعب عليه الإجابة عليها ـ ولكن سالم حسم الإجابة وقال لصهره أن روسيا بلاد بعيدة وبعيدة جدا وابعد من بلاد الأخ الكبير بمراحل و هذه الإجابة المقتضية كانت كافية للرد على تساؤل صهرهم الذى انهى استفساراته بأنه معهم بأن اللجوء الى معاونة الأخ الكبير ومساعدته افضل بكثير من الذهاب إلى الغريب فى بلاده البعيدة لطلب المساندة هذا بالإضافة إلى أن مصر بلاد عربية ومساعدتها لبلادنا ستكون بعيدة عن الأطماع.

وهنا نادت أم سالم باعلا صوتها تدعو ابناءها للعشاء.

وفى اليوم الثانى للعيد حضر الصهر الكبير محمد الكعبى من يافع بعد أن قضى أول أيام العيد مع والده ووالدته وحضر ليقضى باقى أيام العيد مع زوجته وأولاده وأصهاره.

وليس غريبا أن يقضى اليمنى أول أيام العيد مع والديه فلهما قدسية عظيمة كما عظم قدر الوالدين الدين الحنيف وقدر لهما مرتبه عالية هذا بالإضافة إلى ماجرى عليه العرف فى هذه البلاد القبلية من تقدير مميز لكبار السن ويشب الابناء على اجلال كبار السن وخاصة الوالدين فمنهم يتلقون النصح والتجربة وعلى يديهم يتعلمون السلوك القيم ولذلك كانت مكانة الوالدين والكبار لدى الشباب مكانه رفيعة قد تصل إلى حد التقديس فتأثير العقيدة الدينية كبير وحاسم وتأثير ما توارثونه من اعراف وقيم له وجوب الطاعة والاحترام.

وقضى الجميع يومهم الثانى مجتمعين يتابعون فرحة أولادهم الصغار بحلول العيد وحضور الأهل والأقارب الذين يقطنون بعيدا ورغم مسحة الفرح التى لامست قلوب الجميع كبارا وصغارا ألا أن غياب الشيخ أبو سالم كان تأثيره سلبيا خاصة على أولاده واصهاره وبصفة خاصة ومؤثرة على أم سالم التى ما تمر ساعة ألا وتترحم وتذكر أولادها فيشاركونها التأسى لفترة.

وفى المساء اجتمع الشمل خاصة بعد وصول محمد الكعبى الذى بدأ يحكى ظروف العمل فى ميناء عدن ويصف الغرائب التى تقابله ويشاهدها والوجوه الغريبة التى تصل وترحل من الميناء وكذلك البضائع والسلع المختلفة والغريب منها والحديث.. فالميناء عالم كبير قائم بذاته.. فهو يرى اقوام بيض واخرون سمر وسود - وقوم لهم عيون مائلة وضيقة يقول انهم من بلاد الصين هذا بالإضافة إلى البريطانيين الكثيرين الذين يفدون فى سفنهم القوية وكذلك

الاستراليين - وكان الجميع يستمع بشغف كبير لما يقوله الكعبى وحول ما يصفه من العجائب - واثناء الحديث يدور عليهم اكواب الشاى والترجيلة وامامهم احزمة من القات - والذى لم ينس الكعبى أن يحضر معه بعضا منها حيث ذكر أن هذه النوعية من القات مميزة وغنيه بالنكهة - وتأتى من غرب البحر ونوعيه هذا القات عزيز وغالى الثمن - وله زبائنه الذين يتهافتون على شرائه حتى لو كان ثمنه اغلى.

وتطرق الكعبى إلى زيادة العداء للبريطانيين فى عدن وفى الميناء وأنه كان يجتمع مع مجموعة من زملائه العاملين فى الميناء وفى المناطق المجاورة - وكان يتحدث إليهم عناصر من المتعلمين ويتكلمون عن ضرورة مقاومة الاحتلال البريطانى وبأسلوب منظم وكان أكثر الحديث يدور حول القوة العظيمة للاتحاد السوفيتى وأن بعض المتحدثين ممن درسوا فى هذه البلاد البعيدة يتحدثون بانبهار شديد على مدى التنظيم والدقة وان الجميع فى هذه البلاد الواسعة يسمون بعضهم البعض الرفيق.

وتابع الكعبى حكاياته بأن الرفيق ناصر - وهذا اسمه الحركى - ولم يترك للآخرين الاستفسار عن معنى الحركى - فأوجز وقال أنه اسم عير اسمه الحقيقى ويكن بهذا الأسم الحركى لزيادة السرية والغموض. حيث أن هؤلاء الرفاق لهم تنظيم وهدفهم هو طرد البريطانيين من عدن وذكر أحد المسئولين فى أحد الاجتماعات بأن لديه وعود بقيام القوة العظيمة - الاتحاد السوفيتى بتقديم المساعدة وامداد بالسلاح والذخيرة وأن الرفاق فى الاتحاد السوفيتى

يشاركون اليمنيين الكره للبريطانيين ومصلحة الرفيق الأكبر من مصلحة ابناء عدن الشرفاء.

ولم يترك الكعبى مجالا لأى استفسارات ولكنه وضح أنه انضم بالفعل لأحد هذه التنظيمات والتى تتكون من بعض العاملين فى الميناء ومهمتهم ابلاغ الرفيق رئيس المجموعة بالسفن القادمة والمغادرة من ميناء عدن - وخاصة السفن البريطانية وحمولة هذه السفن ان امكن من الأفراد والبضائع وخاصة الأسلحة والذخائر وكذلك أماكن المخازن والوحدات البريطانية والمتمركزة قريبا من الميناء - وذلك لتمهيد الأعمال المقاومة المسلحة.

وصمت الكعبى قليلا ليعرف تأثير حديثه على وجوه الحاضرين من خلال دخان النرجيلة الذى ملأ الغرفة التى يجلسون فيها وخاصة حالة الاسترخاء التى كانت تكسو الوجوه وقد انتفخت الافواه لكثرة القات الذى كانوا يملأونه بها.

إلا أن سالم تنبه لوصول الكعبى إلى قرب إنهاء حديثه فذكر ما دار بالأمس باختصار وأن حديث المقاومة المسلحة كانت شاغلهم وأنه رغم أنهم سمعوا أن الرفيق الأكبر يمكن أن يقدم هذه المساعدة ويمد يد المعاونة فإن من قابلهم لديهم قناعة بأن مصر وهى البلد العربى الكبير وهى ما يسمونه الأخ الكبير ستكون مساعدتها فاعلة لعوامل كثيرة واقرب إلى العقل ولكن وارد أن معاونة الرفيق الأكبر يمكن أن تكون رهن شروط واغراض خافية مما يدعو إلى الحرص واتخاذ المحاذير واوضح سالم أن عزمه واصراره للثأر لمصرع والده

تلك الخصوصية الشديدة التى تورقه كما تورق باقى اولاد الشيخ ابو سالم واصهاره وجيرانه ومحبيه وجد أنها من الأفضل أن تتحول من الخصوصية المحدودة التأثير إلى أن تكون أكثر شمولية وعلى ذلك اتفق مع بعض زملائه فى عدن ليكون انضمامه فاعلا تحت راية مقاومة الوجود البريطانى فى عدن بالقوة ومن يمد يد المساعدة فسنكون له من الشاكرين سواء من الرفيق الأكبر او من الأخ الكبير ما يعنى ويشغل بال المتعلمين الذين يوجهون خطط المقاومة هو طلب العون من مختلف مصادره والاقربون أولى من الغرباء وفهمت من استماعى لما يقال حول معاونة الأخ الكبير أن بعضا من المسئولين المتعلمين قد يذهبون للقاهرة لعرض قضيتهم وتفاصيل امالهم واحلامهم المستقبلية كما سيقومون بطلب العون والمساعدة فى اجلاء البريطانيين عن عدن.

كان سالم يتكلم والجميع مصغ إليه اما للتركيز الكبير حول مفهوم معنى كلامه أو أما نتيجة الانسجام الشخصى مع مضغ القات وشد انفاس النرجيلة.

وعلى ما يبدو لم يكن مصغياالحديث سالم سوى محمد الكعبى الذى او ما برأسه بموافقته وتأمينه على ما سبق وطرحه نسبية فى الجلسة العائلية واتضح أن مشاعر رفض الوجود البريطانى فى عدن تزداد يوما بعد يوم وان الدعوة الى المقاومة الإيجابية تجد قبولها لدى الكثيرين من أقصى البلاد شمالا إلى أقصاها جنوبا وشرقا وغربا.

ومضت أيام العيد وانطلق بعد الأجازة كل فرد إلى حيث عمله يسعى وراء قوته ورزق اولاده ولدى رجال عائلة ابو سالم فكر موحد نحو الاشتراك في المقاومة بغرض الانتقام والأخذ بالثأر.

التدبير والتقصير

الطبيعة الجغرافية لليمن شديدة الاختلاف من مكان لآخر وتتغير هذه الطبيعة بسرعة بالغة فقد يقف جبل شامخ تعلو قمته السحب وقد يعلو هذه القمة بعض البيوت التي تربعت فى هذا المكان الصعب الوصول إليه - وقد يتساءل من يشاهد ذلك كيف تم بناء هذه البيوت؟ وكيف يعيش سكانها وأسباب الحياة فى هذا الارتفاع الشاهق والصعب تكاد تكون شبه معدومة والوصول إلى قمة مثل هذه الجبال يتطلب ساعات للوصول إليها يتخلل هذه الرحلة فترات من الراحة وخلال مرحلة الصعود تجد الطبيعة المتنوعة المتعددة الأشكال والألوان فترى الفل الهندى فى مرحلة متوسطة وزهور الاركاديا وشجيرات متناثرة هنا وهناك وقد تجد بعض سفوح هذه الجبال وقد جهزها الأهالى على هيئة مصاطب للزراعة وقد تصادف بعض أنواع الماعز والغنم التى ترعى وتقفز من مكان إلى أخر فى خفه وتمكن والاعجب من ذلك أن الأبل هى الوسيلة المأمونة لحمل المؤن إلى القمة

وبفعل مرور الأيام تكونت مدقات ضيقة عرضها لا يتجاوز المتر والنصف وتلتف هذه المدقات الحجرية حول الجبل وإذا نظرت إلى اسفل أثناء الصعود تجد منحدرات عنيفة وعميقة وقد يصيب الدوار كثير ممن لم يتعودوا على الصعود إلى هذه الارتفاعات ولكن اهالى المنطقة اصبح لديهم مناعة ضد هذا الدوار وليس من المستغرب أن يقابلك فتى يافع لايتجاوز سنة الحلم وقد سحب الجمل وراءه وهو محمل بمختلف المواد صاعدا إلى قريته على القمة وإذا حالف الحظ الإنسان وتمكن من الوصول إلى مكان هذه البيوت المتربعة على أعلى مكان تجدها مبنية من الحجر الغير منتظم الأشكال وسطحه فى معظمه غير مستوى والبيت فى العادة ليس مكانا مسحا ولكن البناء يرتفع فى اتجاه رأسى وقد يصل ارتفاعه إلى أربعة طوابق وطريقة بناء مثل هذه البيوت عجيبة ويقوم بها بعض الأهالى المتخصصين الذين ورثوا هذه المهنة ابا عن جد وفى العادة تكون جدران البيت فى الدور الأرضى سميكة فقد يصل سمك الحائط إلى متر وكلما زاد الارتفاع فى الأدوار العليا قل سمك الحوائط ومن المستغرب أن هذه الحوائط مبنية بدون مونه رابطة ولكن خبرة عمال البناء تجعل احجار البناء تتداخل فيما بينها وبذاك تجعلها قوية التحمل ويتم طلاء براويز الشبابيك والابواب الخارجية باللون الأبيض ويتم زخرفة السور العلوى بزخارف من واقع البيئة المحيطة ويتم دهانها ايضا باللون الأبيض فيضفى على البيوت دلائل ورموز مميزة إذا شاهدت مثل هذه البيوت فى صورة عرفت أنها بيوت فى بلاد اليمن فهى فريدة فى طابعها وهندستها التى اكتسبتها من واقع البيئة ونظرا لأن قمة الجبل

قليلة المساحة فقد يتم بناء بعض المبانى على سفوح القمة انها حضارة موغلة فى القدم وأن طرأ عليها تغيير زمنى فيكون قليلا وصغيرا مع طول الفترة الزمنية بعد وقت المشاهدة وإذا تجولت خلال مجموعة هذه البيوت تجد مبنى من طابق واحد وله بروزعلوى فى آخره هلال للدلالة على أن هذا المبنى مسجد ويوجد فى معظم الحالات بجانب المسجد مبنى آخر من طابق آخر. ولكن له شكل مختلف ويطلقون عليه اسم الديوانية أو المضيفة ويعيش السكان على هذا الارتفاع من زراعة بعض الزراعات التى تجود فى هذا الجو ويقومون بتربية المواشى والطيور وحاجة السكان قليلة فعندهم شبه اكتفاء ذاتى فيما عدا انواع الزاد التى قد يحتاجون إليها مثل الشاى والملح والكبريت قد تتوافر فى محل صغير أو محلين يقوم اصحابها بالبيع ولذلك نجد أن سكان هذه القمم نادرا ما يلجأون إلى النزول إلى باطن الوادى ويمكن بلا تجاوز أن يطلق على مثل هذه المجموعات على القمم بالجزر المنعزلة عن باقى الافراد فى الوادى وان كان سكان هذه الأماكن الشبه معزولة ينتمون إلى القبائل والسلاطين وإن كان انتمائهم ضعيفا نسبيا فلهم نسيج خاص بهم اكتسبوها من السكن فى القمم المرتفعة وطبيعتها الصافية النقية والحرارة المعتدلة طوال أيام السنة ولها مقومات صحية وبدينة عالية واضفت على نسائهم نضارة وجمالا متميزا.

وسكان هذه المناطق العالية لديهم النخوة والشهامة العربية الاصيلة فهم يجيرون من يلجأ إليهم ويكرمونه ويعززونه بعزتهم ومنعتهم ورغم ندرة المتعلمين و عارفين بين هؤلاء الناس إلا أنهم على

دراية بما يدور فى الجوار ويعرفون أن عدن يحتلها البريطانيون ويسيطرون عليها بالإضافة إلى أن بعض الأماكن ترتبط مع البريطانيين بمعاهدات حماية وامن.

وهذه الأماكن المرتفعة هى الأنسب والافضل لتخزين بعض الذخائر والأسلحة فلا يستطيع أحد الوصول إليها حتى البريطانيون بقدراتهم المتفوقة لا يجدون الوسيلة المكنة للوصول إلى هذه الأماكن - والتى كثيرا ما يلجأ إليها بعض قطاع الطرق والقبائل التى تغير على امدادات القوات البريطانية القادمة من الشمال ولذلك فلا مفر لدى البريطانيون من استخدام الطائرات والقاء بعض القنابل للإرهاب وقد تصيب بعض الأهالى كما حدث مع الشيخ أبو سالم وآخرون.

واذا نزلنا إلى بطن الوادى نجد مجارى بعض السيول وانبساط للأرض وتزداد الحرارة والرطوبة ولذا فبعض البيوت خاصة فى جنوب ساحل تهامة مصنوعة من فروع الاشجار وسطحها مائل والبيوت مستديرة الشكل وملابس السكان تغطى الجزء الاسفل من اجسامهم ومن الأمور الغريبة فى مجارى السيول أنه بعد أن تهدأ حدة اندفاع السيل يتبقى فى اجزاء هذه المجارى المنخفضة بقايا مياه وكأنها بحيرات صغيرة منعزلة وتجد فيها نوع واحد من الاسماك من أين أتى؟ وما هو المصدر؟ قد يصعب الإجابة ويقوم بعض الأهالى بصيد هذه الأسماك بأن بمسكوها بأيديهم دون استخدام وسائل صيد وعندما تجف المياه بعد مضى فترة زمنية لا يبقى فى اماكن هده المياه سمكا بل عندما يعود ويندفع سيل من جديد وينحدر بشدة فى

اتجاه البحر تمتلئ هذه البؤر المنخفضة بالمياه مرة ثانية وترى الأسماك ذلك النوع الواحد منها الذى تعود على التواجد فى هذه الأماكن يعود مرة أخرى ولكن من اى مصدر فهنا التساؤل المحير.

عاد سالم إلى عمله فى المعسكر البريطانى وكذلك صهره إلى الميناء واخوة الصغير إلى قيادة الشاحنة من الضالع شمالا إلى الجنوب وبالعكس.

ورغم نظام التفتيش المتشدد نسبيا الذى لجأت اليه الوحدات البريطانية سواء للعمال الوطنيين الذين يعملون داخلها أو عند اماكن الاقتراب من هذه المعسكرات إلا أن سالم كان لايزال يحظى بعبارات الود والترحيب من افراد نقاط التفتيش فى الأماكن التى يعمل فيها فهو معروف بصداقته للرقيب كلارك كما أن سالم مضى عليه فترة يعمل فى المعسكر دون أن يلفت إليه نظرات الشك. وواظب سالم على حضور جلسات التنظيم والتحضير التى كانت تعقد فى عدن الصغرى واحيانا فى الشيخ عثمان ولاحظ سالم بعد أن حضر عدة جلسات أن المتكلمين كثيرا ما يختلفون ويحتد بعضهم على بعض حتى التراشق بالألفاظ وحتى التطاول بالأيدى وقليلا جدا ما يتفقون على أشياء غير أساسية فالاختلاف بين العناصر كان هو الغالب ولكن كان الاتفاق بينهم عادة على أمور محددة وعامة مثل ذلك.

(١) تنظيم مجموعات مسلحة لتنفيذ اعمال المقاومة ضد القوات البريطانية.

(٢) تنظيم مجموعات سياسية لعرض قضية عدن أمام عدد من الدول التى قد تتعاطف مع اليمنيين نكاية فى كرهها للبريطانيين.

(٣) الحرص على طلب الدعم من الرفيق الأكبر ومن الأخ الكبير بصفة خاصة.

وان كان الاتفاق بين العناصر كان اتفاقا على الحد الأدنى والاتفاق كانت تشويه خطوط واهية من الالتزام كثيرا ما يحتد الاختلاف حتى في ابسط الأمور وإن كان ينعكس سلبا على العناصر المتحمسة والتى كان هاجسها وحلمها هو رفض الوجود البريطانى والأخذ بالثأر.

ولم تكن الجلسات التى يتجمع فيها العناصر الرافضة للوجود البريطانى خافية على اعين رجال المخابرات البريطانية فقد كانت لهم عيون فى مثل هذه الجلسات يقومون بنقل كل صغيرة وكبيرة مما يحدث فى هذه الأجتماعات وكذلك اسماء العناصر التى تكون حاضرة لهذه الجلسات ودرجة نشاطها وحماسها

وطلب الرقيب كلارك سالم - وكان على غير عادته مكفهر الوجه ولم يقابل سالم كعادته بالابتسامة التى تعود عليها وتوجس سالم خيفة عندما رأى رئيسه وصاحبه البريطانى في هذه الحالة وفجأة صرخ كلارك عاليا فى وجه سالم وسأله أن كان يعرف ما حدث وما سيترتب على ما حدث إلا أن سالم كان خالى الذهن وتتأبعت الأحداث أمس فى ذهن سالم فقد اجتمع مع بعض العناصر على القهوة فى منطقة الشيخ عثمان وكان قد تحدد لسالم مع العناصر الفاعلة مهمة

تسهيل تهريب الذخائر والأسلحة من المخازن البريطانية آلا إن سالم لم يباشر أى أعمال غير عادية حتى هذه اللحظة ورغم أن نفسه مملوءة بالرغبة فى الانتقام والأخذ بالثأر منذ مصرع والده إلا أن عمله لم يتجاوز بعض الاجتماعات الكثيرة التى كانت تزخر بها عدن .... وعلى غير ما توقع سالم اردف الرقيب كلارك وهو فى حالة انزعاج وتوتر متحدثا إلى سالم موضحا له أن بعض الأشرار قد زرع لغما فى إحدى الطرق الترابية الفرعية والتى تمر عليها عربات الجيش البريطانى فى طريقها إلى خور مكسر وقد أسفر عن مصرع اثنين من ركاب العربة البريطانيين وجرح ثلاثة جروحا خطيرة وقد استنفرت قوات بريطانية كبيرة وطوقت المكان وبدأت اجهزة المخابرات البريطانية فى البحث عن الذى قام بتنفيذها ومن هم العناصر الداعمة لتى تقف وراء التنفيذ وهدأ الرقيب كلارك قليلا وتحدث فى هدوء نسبى وكأنه يحدث نفسه ويحادث سالم فى وقت واحد - لقد اتخذت القيادة البريطانية قرارات شديدة منها تكثيف الدوريات المتحركة وزيادة عدد معابر التفتيش هذا بالإضافة إلى تخفيض عدد العاملين المدينيين فى المعسكرات البريطانية كل ذلك وسالم يقف أمام كلارك صامتا وبعد فترة صمت اكمل الرقيب حديثه متسائلا عن الأمور التى ستترتب عليها القرارات الجديدة والتشديد على اعمال الأمن والحراسات وغمغم الرقيب كأنه يحدث غافلا عن وقوف سالم أمامه صامتا وكيف لى أن أقوم بتسريب بعض الأسلحة والذخائر التى تشتريها القبائل اليمينة ومنها يتوافر لى الكثير من المال للهو وشرب الخمر والمقامرة

وهى رغبات شخصية لا يمكننى باى حال من التخلى عنها وضرب يده على ركبته كمدا وغيظا واحباط.

وخفت الرهبة التى لازمت سالم منذ لحظة استدعائه.. وذلك مادام أن الرقيب كلارك لم يوجه إليه اتهام محدد - ولكن مضمون كلامه كان بمثابة تنفيس عن ضيق شديد الم به. وتابع الرقيب حديثه مع سالم وكلاهما وحدهما داخل حجرة الرقيب أن الخسائر البشرية التى حدثت تحدث لأول مرة، ولابد أن يكون هناك تنظيم وتخطيط وراء تنفيذ هذا الحادث وهذا ما جعل القيادة البريطانية ترفع حالة الطوارئ بين جنودها درجة أعلا تحسبا لتكرار مثل هذه الحوادث وعاد الرقيب كلارك يتساءل كيف يقوم بتنفيذ اتفاق تم من قبل بينه وبين إحدى القبائل التى تعودت على شراء الذخيرة منه وفى هذه المرة طلبت القبيلة مائة وعشرين قنبلة هاون وهذا ليس بجديد فالنزاعات القبيلة كثيرة واستخدام السلاح فيما بينها امر وارد.

وكان الرقيب كلارك قد اخبر سالم على خطة تسليم هذه الصفقة فسالم ساعده الأيمن ويقوم بدور الوسيط احيانا بين الرقيب سميث والقبائل التى تريد شراء الذخيرة والسلاح ولذلك كما اسلفنا سابقا أن الرقيب كان لا يبخل على سالم ببعض المنح المالية وبعض الأطعمة والخدمات أيضا وصمت الرقيب ثم بادر سالم بصوت عال بأن المخابرات البريطانية رصدت سالم من ضمن الحاضرين فى الجلسات المناوئة للوجود البريطانى ونبهه أن ذلك خطأ جسيم عليه أن لا يعود إلية مرة أخرى حيث انهم طلبوا منه الاستغناء عن خدمات

سـالم إلا أنه رفض وافـهم الآخـرين أن سـالم مـوضـع ثقـة وأن تم الاسـتـغناء عن زمـيليـين له ولكن سـالم باقى فى مـوقـعـه وحـذره فى النهاية مرة أخرى من الاتصال بأحد من أولئك الذين يفكرون فى طلب العـون من الرفيق الأكبـر وافـهمـه أن بريطانيا العظمى اقوى كثيـرا ومتفوقة على الجميع ولذلك فهذه فى النهاية احلام خاسرة ونتيجتها هزيمة شديدة والح لسالم بأنه يعيد التفكير فى ترتيبات تهريب ذخيرة الهـاون المطلوبة ولكن بحـرص اكبـر وبسـرية اشـد ونصح أن يكون مخلصا لعمله ومخلصا لرئيسه مثله مثل اخلاص كلارك لسالم.

وكان تقدير الرقيب كلارك فى محله فقد زادت عدد اماكن التفتيش البـريطانيـة، وخـاصـة عند طرق الاقـتـراب من مـعـسكرات الجـيش البريطانى كما أن اجراءات التفتيش ازدادت صعوبة ودقة.

وعندما تقابل سالم مع زملائه فى مقهى الشيخ عثمان تحدث اليهم بما سمعه من الرقيب كلارك وأن انفجار اللغم فى السيارة العسكرية البريطانية كان ضربة مؤلمة للقيادة البريطانية ولطمة غير متوقعة للخسائر البشرية العالية.

ورغم مقابلة سالم لأحمد الفضلى العالم نسبيا ببواطن الأمور الا أنه لم يفصح عمن قام بتنفيذ عملية اللغم وعندما اشتد فضول سالم وسأل أحمد عن ذلك نهره وافهمه أن مثل هذه الأعمال التى تحدث يقوم بتنفيذها عناصر فى سرية كاملة حتى أنهم لا يعرفون بعضهم البعض ألا قبل التنفيذ بمدة وجيزة وحذر احمد سالم من محاولة استجلاء منفذوا عملية اللغم لأن ذلك ليس فى مصلحة رجال المقاومة

وليس فى مصلحة سالم نفسه فتكرار سؤاله قد يشار إليه أنه خائن ويجب القصاص منه ولذا لزم سالم الصمت واكتفى بما علم.

واستغل الرقيب كلارك التصريح بصرف بعض الذخائر الى إحدى وحدات الجيش البريطانى وكان سالم هو رئيس افراد التحميل والتفريغ بمخازن الذخيرة فالذخائر التى تصل من الميناء أو من المعسكرات الاخرى يقومون بتفريغها وتستيفها بطريقة فنية فى المخازن والذخائر التى تطلبها وحدات اخرى من الجيش البريطانى يقومون بتحميلها على عربات الشحن باستخدام أوناش مناسبة موجودة فى المخازن لهذا الغرض.

امر الرقيب كلارك سالم بتحميل قنابل الهاون المطلوب شرائها فى إحدى العربات مع الذخائر الأخرى المطلوبة للجيش وكان فى العادة عند نقل الذخائر من المخازن إلى وحدات الجيش التى ليس بها عمال للتحميل والتفريغ فيقوم عمال المخازن الرئيسية بهذه المهمة وكانوا يجلسون على ظهرسيارات الشحن فوق الذخائر المطلوبة وتم تحميل الذخائر فى اربع شاحنات من بينها الشاحنة التى بها ذخائر الهاون وخرجت العربات من بوابة التفتيش بعد اضطلاع رئيس البوابة على الأوراق وابتسامات متبادلة مع الرقيب كلارك الذى كان يتابع خروج الشاحنات وكان سالم يقبع على الشاحنة الرابعة والأخيرة فى طريقها إلى وحدة الجيش المرسل لها الذخيرة.

وعلى غير العادة ركب الرقيب كلارك الشاحنة الأولى بجوار السائق والجندى المرافق بعد أن وعدهم بدعوتهم إلى شرب كأس من

الخمر فى مقهى بديرة أحد المواطنين من جيبوتى له خبرة سابقة فى فرنسا فى عمل توليفة من الخمور قوية ومؤثرة وعلى ذلك حاز عرض الرقيب كلارك بالقبول من الجنود السائقين والمرافقين من ضباط الصف وتوقف الركب عند مكان بيع الخمور ونزل الجنود البريطانيون ماعدا حارس بريطانى انتظر فى كابينة الشاحنة الأولى للحراسة على وعد بإرسال كميات خمر اضافية إليه.

وكانت الأمور تسير فى مجراها الطبيعى ألا أنه فجأة قفز أحد المواطنين إلى الشاحنة الرابعة وفى خفة ودراية قام بإدارة الشاحنة رغم أن السائق كان داخل الخمارة مع زملائه يعبون مما يقدمه لهم الخبير الجيبوتى فى شئون الخلطات الفرنسية الشهيرة وبسرعة اندفعت الشاحنة الرابعة والتى كان قابعا فوقها سالم بسرعة فائقة بعيدا عن المكان التى توقفت فيه الشاحنات وما أن تنبه الحارس فى الشاحنة الأولى واسرع إلى حيث زملائه الذين كانوا يحتسون الخمر وفى الفترة الزمنية التى تنبه الجنود البريطانيون وقيام سائق الشاحنة الأولى بسرعة إلى شاحنة ليقودها فى عملية مطاردة وخلفه الشاحنات الأخرى فقد كان ذلك وقتا كافيا لاختفاء الشاحنة المخطوفة بين التلال والوديان شرقا فى اتجاه بلاد اليافعى.

وعبثا حاولوا العثور على الشاحنة الرابعة دون جدوى وكان الأرض قد انشقت وابتلعتها وساعد إلى ذلك شدة وعورة الأرض ما بين وديان عميقة إلى تلال ومدقات تتلوى كالافعى.

ورغم أن ما حدث للشاحنة الرابعة إلا أن ذلك لم يكن ليغيب عن فكر الرقيب كلارك وسالم فقد سبق تدبير ذلك بغية تهريب قنابل الهاون المطلوبة وحصول الرقيب على ثمنها المرتفع.

ورغم أن قيادة القوات البريطانية قد وجهت اللوم إلى الرقيب كلارك لاغراء الجنود على شرب الخمر إلا أنه لم يتطرق الشك لدى إحد في اخلاص الرقيب كلارك للعلم البريطانى وان كان الأخلاص الحقيقى لدى كلارك كان للخمر والميسر وفى صباح اليوم التالى عاد سالم إلى مقر عمله فوجد تحقيقات منصوبة له واسئلة كثيرة موجهة إليه إلا أن سالم ببساطة شديدة أجاب بهدوء أنه عندما انطلقت الشاحنة بسرعة شديدة وقد فوجئ بما حدث واضطر سارق الشاحنة الغريب أن يقلل من سرعته عند المنحنيات لوعورة الطريق استغل سالم هذه الفرصة وقفز من الشاحنة خوفا من أن يقوم الخاطف والذين فى انتظاره بقتله لأنه متعاون مع قوات الاحتلال البريطانية وخوفا من هذا الاحتمال قفز من العربة فى الوقت المناسب وحدثت بعض التسلخات فى ركبته ولكنه نجح فى إنقاذ حياته على حد توضيحه لمجريات الاحداث ونظرا لما يتمتع به سالم داخل المعسكر من تزكية لدى كثير من الجنود وخاصة الرقيب كلارك فإن المحضر اقفل دون توجيه اتهام بالتواطؤ ولا حتى اتهام بالتقصير وكانت فرحة الرقيب سميث بسالم عظيمة للغاية بعد أن قدم إليه ثمن صفقه قنابل الهاون السابق الاتفاق عليها فاحتضن سالم واعطاه مبلغا مناسبا من النقود التى احضرها.

وبعد يومين قام أحد عيون المخابرات البريطانية من القبائل المحيطة بالابلاغ عن أن الشاحنة العسكرية مقلوبة فى أحد مجارى السيول وقامت القوات البريطانية بإرسال اطقم فنية ووحدات تأمين من الجنود لاحضار الشاحنة التى كانت فارغة من الذخائر التى كانت تملأها فقد تم نهب كل ما كان بها.

ولم تكد تمر أيام على حادثة شاحنة الذخيرة وكان سالم يتسامر فى المقهى مع اصحابه وكانت الصحبة على وشك أن تنفض بعد أن قارب الليل على الانتصاف والكل يتاهب للانصراف لينام ويستقبل يوم عمل جديد فى الصباح - وفجأة حضرت عربة نصف نقل صغيرة إلى المقهى ونزل السائق ومرافقه واخذ المرافق يصيح ويندب سوء الحظ - وسوء التنظيم وسوء التجهيز فالتفتت إليه الأنظار واصاخت الأذان وعلت على الوجوه علامات الدهشة والاستفسار ولكن لم يوضح المرافق الذى كان يصيح عما حدث - ولكنه كان يردد باستمرار اللعنة على الهاون وأيام الهاون اللعنة على الهاون وأيام الهاون وما كاد صوته يهدأ قليلا حتى تم ايضاح أن جماعة من الرفاق قامت بتجهيز مدفع هاون بالقرب من معسكر مجاور لبوابة اليمن - وقامت الجماعة بإطلاق قذيفتين او ثلاثة الا أن البريطانيون اندفعوا من داخل المعسكر وكأنهم كانوا على اهبة الاستعداد لتلك الحالة بإطلاق قذائف مضيئة حولت الليل إلى نهار واسرعت داوريات راكبة مكونة من ثلاث عربات مدرعة اتجهت بسرعة كبيرة ناحية مكان الرفاق الذين كانوا حول مدفع الهاون يقومون بأطلاق القذائف وتم بسرعة حصار الرفاق وكانت النتيجة استشهاد احدهم واصابة آخر واسر الاثنين الآخرين

ورغم ذلك فإن دقة اطلاق الهاون لم تمكن جيدة ودقيقة فجاءت طائشة ولم تصب أحدا في معسكر البريطانيين.

وساد الصمت والوجوم على الوجوه قطعة أحدهم بأن ذلك الحادث لن تجعله القوات البريطانية يمر بسلام فلابد أنهم سيستجوبون الاسرى والجريح ويخططون ويدبرون لإلقاء القبض على من كان وراء هذه العملية إلا أن مواطن آخر من الجالسين وكان صوته جهوريا علق في نبرات مقتضبة وهادئة من تم القبض عليهم لن يتحدثوا ولن يدلوا بأي معلومات تفيد البريطانيين وهذا أمر مؤكد مهما كان التعذيب ومهما كانت درجة الوعيد وانتقل الحديث من شخص لآخر وتعالت حدة الكلام واختلفت الآراء بل وتعارضت ورغم الخبر المؤلم ألا أن الاعصاب كانت اكثر توترا والأيدى على وشك الاشتباك والليل كان قد انتصف وعلا صوت من الجمع الجالس طالب الجميع بالهدوء والانصراف حتى يستقبلون يوما جديدا ولا أحد يعرف ما يخبئه اليوم الجديد من احداث ولكن استجابة الجالسون لهذا الرأى كانت سريعة وانصرفوا إلى بيوتهم بعد أن حل عليهم التعب وزاد الجهد وهكذا انتهت عملية الهاون إلى فشل كبير ونتيجة مؤلمة ويبدو أن التخطيط والتدبير والتجهيز كان هو المتهم الأول في كارثة هذه العملية.

الإخوة الأعداء

يقول الشاعر اليمنى عبدالله البردونى فى إحدى دواوينه يصف أحوال اليمنيين والاختلافات المتعددة في الرأى والتعارض الشديد فى العقائد السياسية بين الجماعة الواحدة.

عجيب أمر ما يجرى

وأعجب منه أن تدرى

جنوبيون فى صنعا

شماليون فى عدن

يمنيون فى المنفى

ومنفيون فى اليمن

ولم يك غريبا كثرة الجدل بين اليمنيين فالتيارات السياسية الوافدة متعددة والتفسيرات متباينة للتيار الواحد واليمنى يلازمه فى

حركته وغدوه ورواحه فيما عدا القليل جدا منهم الخنجر في جنابيته وبندقيته على ظهره وكما أن نوعية الخنجروالمعدن المصنع منه الحراب ومستوى الزخارف حول مقبضه يرمز الى قدر اليمني من ناحية الجاه والغنى والمكانة كذلك نجد أن البندقية التي يحملها نوع من هذه البنادق من بقايا تسليح القوات التركية ونوع من البنادق الليأنفيلد الانجليزية القديمة ونوع مطور صناعة حديثة مثل الكلاشنكوف الروسي فصاحب البندقية العسكرية يرمز الى مهابة قبيلته وقوتها فالسلاح هو وسيلة الحسم ان اشتد الخلاف بين القبائل والقوات البريطانية تلجأ الى عيونها ترصدهم وتعزز أسباب الخلافات وتحرض من يسكب الزيت على النار ليزداد سعيرها وحتى داخل المحميات التسع التى عقد البريطانيون معهم معاهدات امن وحماية كانت الخلافات شبه دائمة فيما بينهم والنزاعات القبلية لا تهدأ وان كان البريطانيون يتدخلون ظاهريا كحمامة سلام لحل الخلافات بين المتخاصمين وباطنيا يقوم عملاءهم باذكاء روح العداء وتصعيد درجة الصراع.. بحيث لا يقر للقبائل هدوء.

ولم تكن تجارة السلاح بين القبائل اليمنية على وجه الخصوص وبين اليمنيين عامة تجارة وليدة الاحداث ولكنها كانت عادة قديمة ومستمرة ولكن ازدهرت هذه التجارة بعد احتلال البريطانيون لعدن. وراجت رواجا عظيما بعد الحرب العالمية الثانية ومما ضاعف من ازدهار تجارة السلاح تعدد مصادر بيع السلاح فبعض الجنود البريطانيون كانوا يقومون بتهريب السلاح والذخائر من قواعدهم العسكرية ويجنون أرباحا من بيعه الى مندوبي القبائل والى سماسرة

السلاح ومن جهةاخرى كان الصومال مرتعا خصبا لتهريب السلاح الى اليمن وخاصة عيارات الهاون الصغيرة والالغام التى توافرت بكثرة اثناء تواجد الوحدات العسكرية التى تواجدت بالصومال مثل الوحدات العثمانية والمصرية والفرنسية والايطالية وحتى البريطانية ويتم تهريب هذه الأسلحة عبر مضيق عدن الى حيث يتم اخفاؤها والاتجار فيها بعيدا عن عيون المخابرات البريطانية النشطة وفى الشمال كان سوق تهريب السلاح كبيرا وميسورا نتيجة قوافل الشحن فيما بين الشمال والجنوب وضعف الرقابة والنظام الأمنى فكان السلاح يتم تهريبه وسط قوافل النقل والمؤن عبر البيضاء فى شمال الضالع وكان تهريب السلاح من الشمال عبر ميناء ميدى والمخا ونقله عبر وادى تهامة ومنه الى الطرق الجبلية والتى يصعب على المخابرات البريطانية رصدها ومهاجمتها ولم تكن الشاحنات تسير عبر طريق تهامة الساحلى حتى شمال عدن الصغرى فى بلاد قبائل العقربى لان طريق الساحل مكشوف ويصعب الاختفاء فيه عن اعين الرصد الموالية للمخابرات البريطانية ولذلك كان التجار يلجأون الى الاتجاه شرقا حيث الطبيعة الجبلية التى توفر لهم الحماية الكافية ثم الاتجاه جنوبا عبر اب وتعز والبيضاء والضالع ولم يتعدى نوعية السلاح عن البنادق المختلفة وبعض الرشاشات سريعة الطلقات وأحيانا بعض الألغام.

وكان على شقيق سالم الأصغر يعمل على احدى الشاحنات لنقل المؤن والمواد المختلفة من البيضاء الى عدن وكان يعرف طريقة جيدا يمر وسط الثنيات الارضية الكثيرة والعنيفة وخلال مناطق متعددة من

الطريق وصار يعرف كل شجرة يمر بها وقد تآلف مع كل جزء من أجزاء الطريق من تكرار عبوره الشبه يومي يعود بشاحنته من عدن الى الشمال محملا ببضائع مختلفة لتجار الشمال معظمها من المصنوعات الحديثة التى صارت عدن مركزا لتجارتها والتى كافة تجار عدن يقومون بالحصول عليها من تايوان ومناطق جنوب شرق اسيا وحتى اليابان.

واما عند العودة من الشمال الى الجنوب فرغم حمولة شاحنته بالبضائع الطازجة من اب وتعز والبيضا الا أن كثيرا ما يتم تحميل بعض الأسلحة والذخائر ويجد لها مأمنا كاملا بين البضائع المشحونة الى تجار الجنوب الذى يتعامل معظمهم مع وحدات الجيش البريطانى لامداده بالأطعمة الطازجة.

ورغم حماس على وعهده على الأخذ بثأر ابيه الشيخ ابو سالم الى جانب اخيه سالم واصهاره الا ان على فتر حماسه بمرور الوقت وزاد حماسه فى المقابل لجمع مزيد من المال والكسب حتى ولو كان ذلك عن طريق تقديم خدماته الى القوات البريطانية فلم ينطوى تحت راية تنظيم من التنظيمات المعادية للاحتلال ألا انه كان يقوم كما سلف ذكره بنقل الذخائر لحساب من يدفع وكثيرا ما كان يعترض طريق على رجال من بعض القبائل المتنازعة ويمنعونه من السير الى وجهته ويرغمونه على تغيير مساره بعيدا عن اماكن التشاحن.

ولم يكن النزاع بين القبائل مقصورا على رغبات التملك والسيطرة ولكنه يكون بين قبائل تختلف فى ولائها وتتعارك لتحقيق مكاسب

ومصالح او حتى المحافظة على التعاون بين قوات الاحتلال أو محاربة القوات البريطانية ومنعها من تحقيق اهدافها وكثيرا ما تقوده المصادفة لحضور اجتماعات بعض التنظيمات التى ترفع الشعارات المتباينة ويقوم من بينها الخطباء والدعاه لكسب رأى الآخرين الى صفهم وتوسيع قاعدة التنظيم ولم يكن يخفى على كثير من هذه التنظيمات وجود عناصر وعيون مدسوسة من المخابرات البريطانية لرصد اهداف التنظيمات وتوصيفها لكى تحكم القيادة البريطانية قبضتها وتقلل من قوة التنظيمات المعادية لوجوده.

ونظرا للكثير الذى كان يشاهده وكان يسمعه اصبح على موسوعة معلومات متنقلة للمناطق والقبائل ما بين الشمال والجنوب وزاد على ذلك ظروف عمله التى تجعله ينتقل كثيرا ويقابل العديد من الوطنيين ويكون صداقات على طول طريق سفره.

وكان اجتماع المناسبات لافراد عائلة أبو سالم واصهاره فى قريتهم على سفوح تلال ردفان هو الوقت المتاح لكى يروى كل واحد من العائلة ما شاهده وما قام به وتعليقه على الأحداث المتسارعة سواء فى منطقة عدن أو فى المناطق شمال عدن.

وفى أحد هذه المناسبات استغل سالم كبير العائلة بعد وفاة والده المناسبة لتجديد العهد الذى اتخذوه من قبل للأخذ بالثأر من القوات البريطانية وتجديد الحماس لتحقيق عهدهم... وتحدث عن بعض الأحداث فى عدن فى تنظيمات عديدة هدفها مهاجمة البريطانيين ويقوم على توجيه هذه التنظيمات ورئاستها بعض الوطنيين الذين

اصابوا بعض العلم خارج حدود اليمن وتشربوا افكارا عن الحرية وتحرير تراب الوطن وتولى الوطنيون زمام الأمور فى البلاد وأوضح ان الحماس موجود فى نفوس الشباب ولكنه يحتاج الى تنظيم وتدريب ووضع خطط تنفيذية ناجحة.. حتى تصبح الضربات ضد الجيش البريطانى كثيرة ومتنوعة وفى فترات زمنية متقاربة حتى يتحقق الارتباك وينتشر القلق فى نفوس الجنود البريطانيين.

وأوضح نسيب عائلة ابو سالم محمد الكعبى انه انضم الى احد هذه ولكن خاب ظنه وضعف امله فى ان يحقق التنظيم ورجاله قدرا مناسبامن الضرر للقوات البريطانية فمن هم على رأس التنظيم لهم اراء مختلفة بل ومتعارضة والسلاح المتوافر مع التنظيم هو الكلام الحماسى والتعبير باللغة العقائدية التى قد لا يفهمها الكثير من العامة امثال محمد الكعبى - فالهدف المعلن واضح للجميع ولكن طريقة تنفيذ الهدف وأسلوب تحقيق النتيجة الفعالة قاصرة ومرتبكة ومشوشة وصمت قليلا متطلعاالى وجوه الحاضرين كأنه يستقرئ وقع كلامه عليهم وزفر زفرة كبيرة وعميقة جمع فيها قوته وأطلقها فى تنهده طويلة وأردف متابعا كلامه بأنه وجد عناصر يتكلمون دون أن يفعلوا شيئا ويتجادلون فيما بينهم معظم الوقت المتاح لديهم بل قد تصل الأمور بين بعض افراد التنظيم الى حد العراك فيما بينهم... ولذلك فإن النتيجة محسومة لصالح الفشل وان المستقبل لا ينبئ بخير اذا ظل الحال على ماهو عليه.

ودخلت فاطمة الأخت الصغرى تحمل الطعام وقد وصل الى سمعها بعض معانى ما يدور فى الحديث عند موقع الرجال ووضعت فى يديها من طعام امام المجتمعين ولكنها لم تنصرف كما هى العادة بل ظلت فى مكانها وحملق الحضور فيها وهى واقفة وقد ربطت وسطها بحزام من القماش الأبيض ولفت على راسها غطاء اسود اللون ولكنها زينت الغطاء ببعض الأزهار المشغولة باليد معقوصا من الخلف وكأنه تاج فريد وضع على رأس تزينه وتسللت جدائل شعرها الأسود الطويل من خلال غطاء الرأس فظهر جدائل الشعر ناعمة لامعة مرسلة تتحدث فى صمت عن صحة قوية وشباب عفى وكان هذا تاج الطبيعى يزين ذلك القد الممشوق فى تناسق وتناغم جذاب اكسبها هواء الجبل فتنة وصحة وضياء وأطلقت فاطمة كلماتها الى الرجال فى عنف يقرب الى الزجر والتوبيخ مستفسرة عن الأخذ بالثأر لوفاة الشيخ أبو سالم لا يقتصر على الرجال وحدهم فهو والد المرأة ووالد الرجل وان كانت المرأة أقل قوة من الرجال الا انها قادرة على المساعدة وبل المشاركة فهى لا تنقص يدا ولارجلا ووفاة والدهابهذه الطريقة الوحشية على أرضهم وجنود العدو يهددونهم فى حياتهم وفى أرزاقهم وأردفت فاطمة تتحدث بصورة وكلمات تلقائية وتعتب على الرجال لتهميش دور المرأة والابنة فى المساعدة بأخذ الثأر من عدو غاصب ودخلت ام سالم تحمل باقى الطعام للرجال وقد سمعت صياح ابنتها فاطمة وتفهمت انفعالها فتدخلت فى الحديث موجهة كلامها للجالسين وقد ظهر عليها الغضب واحمرت عيناها من كثرة البكاء على زوجها الطيب الراحل ونظرت لمن فى القاعة نظرة حنق

وسخط وبدأت كلامها بأن فاطمة على حق فى كل ما قالته ومنذ وفاة والدهما منذ عامين ورغم طول المدة الا أنها لن يهدأ لها بال ولن يكون لها عيش هانى هادى الا بعد الأخذ بثأر الوالد الشيخ أبو سالم... واردفت قائلة فى صورة تهديد ووعيد بأنها لن تعترف بهم كأبناء إلا اذا تم الانتقام فكيف تظهر وجهها فى القرية وأهل القرية يستعجلون ان يقوم ابناء واصهار الرجل الطيب ابو سالم للقصاص من المعتدى والعمل على رفع ما تشعر به من هوان وقهر حتى انه كثيرا ماعرض عليها الكثير من شباب القرية والعديد من الرجال ومحبى المرحوم للقيام بالمهمة والأخذ بثأره والنيل من القوات البريطانية حتى يبرد جذوة لهيب ما فى صدرها من امنية فى الانتقام وحاول سالم ان يوضح لوالدته بأنهم يبحثون افضل الطرق للأخذ بالثأر ويأملون لتنفيذ ذلك إلا أن الام الثائرة نهرته وأردف ان الغرباء عرضوا عليها تنفيذ ما عجز عنه الابناء وهذا قمة العار والابناء على قيد الحياة.

وانهت الأم ثورة كلامها بأنها تعيش على أمل يوم الانتقام وتدعو الله فى صلاتها ان يتحقق ذلك قبل ان تلحق بوالدهم فى القبر.

واندفعت الام خارجة من حيث جاءت وتبعتها ابنتهافاطمة وسرت همهمة بين الرجال بأن امهم واختهم على حق واشتد النقاش بين الرجال حتى نسوا ان الطعام الذى امامهم قد صار باردا ويحتاج مرة أخرى لتسخينه قبل أكله.

وانتبه سالم الى أخيه على الذى ظل صامتا ولم ينبس ببنت شفه وظل ينظرالى اطباق الطعام أمامه يأخذ منها القليل ثم يسرح ويظل

صامتاواستفسر سالم عن سبب سكوته وعدم اشتراكه فى الحديث الآن على انتبه وتحركت شفتاه ببضع كلمات غير مفهومة وكأنه يتحدث الى نفسه وليس ردا على من سأله.

وبدأ الرجال يقبلون على الطعام رغم برودته الا أن على رغم انه كان يأكل بصورة متقطعة ألا ان عقله كان شاردا بعيدا عن المكان والغرض والمناسبة التى اجتمع فيها أولاد واصهار الشيخ أبو سالم كما كانت عادته عندما كان حيا.

ان على يعمل على شاحنة ضخمة وينقل الكثير من عدن الى الشمال والكثير من الشمال الى عدن وهو بمثابة اجير عند صاحب الشاحنة ورغم ما كان يحصل عليه من أجر معقول بالإضافة الى نصيبه لنقل الذخائر والأسلحة.

إلا أن طموحاته هو وامرأته كانت محصورة فى أن يكون لعلى شاحنة يمتلكها ويحصد أرباحها له وكان هذا الحلم يراود على مرات عديد الا أن امرأته كانت تعزف على ذلك الوتر من آن لآخر وتدفعه دفعا الى العمل لزيادة كسبه حتى يتمكن عن تملك شاحنة كاملة له وتلاقت احلام على واحلام امرأته...

كان يعرف على الطرق والشعاب ومجارى السيول ومجرات التلال من أقصى الجنوب حتى اقصى الشمال وذلك بحكم سفره الدائم ونقله على الشاحنة البضائع المتنوعة وصار له فى كل منطقة اصدقاء ووجوه مألوفة عنده وزاد رصيد الأحاديث والمناقشات والحوارات بين الوطنيين فى أماكن الراحة على الطرق الرئيسية التى كانت بمثابة

مكان لراحة السائقين وتزويدهم بالطعام والوقود لسياراتهم وتجمعت عنده حصيلة كبيرة من المعلومات عن المناطق التى يمريها بحكم عمله واصابه رذاذ من المعلومات الباهتة حول اختلاف القبائل والنزاعات فيما بينها وتعرف على الكثيرين من بصاصى المخابرات البريطانية والعناصر التي تروج الشائعات المختلفة بل وتزين أعمال القوات البريطانية وفوائد وجودها والعناصر المتعاونة والتنظيمات ذات الهويات المتعاونة والمتقابلة فيما يجب عمله ضد البريطانيين.

وما كاد احد أصدقاء على فى عدن يلتقط الخيط ويفهم رغبته فى الحصول على مال أوفر لكى يشترى شاحنة تكون ملكه ويزداد ربحه حتى فاتحة بأنه يعرف الطريق الى هذا الكسب وانه سيدله على من يسطيع التعامل معه لتحقيق هذا العرض.

ولم تكن مفاجأة كبيرة لنفسية على عندما صارحة صاحب رأى المكسب الجديد بأنه عليه بحكم سفره عبر الطرق واختلاطه بالعناصر الوطنية هنا وهنا ومعرفته القوية بدقائق طرق السير وأسرار بعض الوطنيين والتنطيمات الجديدة أن يبلغه بعد رصده لكل ما يقابله ويقدم له المحاذير من احتمالات المستقبل وكذلك معرفة اسماء وأماكن مثيرى الشغب وحاملى الشعارات الجديدة ومعتنقى العقائد الحديثة حتى يمكن تبليغها لضابط المخابرات البريطانية فتقوم بما يلزم للحد من النشاط المعادى وامتصاص الغضب قبل استفحاله.

لم تهتز شعرة غضب عند على عندما افصح له صاحبه الجديد وكاشفة بالغرض والهوية دون لف ولا دوران - ولم يسترجع ذاكرته

وعهده على الأخذ بالثأر لمصرع والده على ايدى القوات البريطانية لقد صار ما عاهد عليه باهتا وماضيا قديما امام حلمه الكبير وتحريض امرأته المستمر لكى تكون له شاحنة ملكه خالصة ليزيد ثراؤه ويحقق رغباته.

ولم تكن هناك أى شبهة يشار بها الى على لأن والده المرحوم الشيخ الطيب لازالت حادثة مصرعه على يد القوات البريطانية لها بعض الصدى رغم مرور الأيام الكثيرة ولم ينس أهالى المنطقة الرجل الصالح الذى كان يؤمهم للصلاة فله الاحترام والتقدير حتى ذلك الوقت ولأن أولاده محل ثقة الأهالى فى وطنيتهم وحرصهم على الأخذ بثأر والدهم.

ولم يخطر ببال أحد أن يكون احد ابناء المرحوم الشيخ عميلا لمن قام بقتله وفى نظير كل ذلك كان نصيب على كل شهر يصله من ضابط المخابرات البريطانية ونظرا لفائدة مايحصل عليه من معلومات متنوعة مفيدة فإن الضابطالبريطانى كان يزيد مخصصات على بين الحين والآخر.

وهكذا صار على خائنا امام نفسه وطنيا شريفا عزيزا أمام الناس وكلما أوجس خيفة واستيقظ ضميره سارعت امرأته بزيادة طلباتها منه وتذكيره والعزف على وتر حلمه الكبير فى أن يمتلك شاحنة ملكا خاصا به وليس اجيرا عليها وبتكرار حصوله على الكسب الملوث زرعت بذور الغدر الغير معلنة فى نفس على ونمت وترعرعت واستقرت وقويت جذورها وتعود عليه بمرور الوقت فلم يحس بوخز

الضمير وان صعوبة ممارسة الخيانة تكون فى بداية التعامل معها ولكن عندما يمر الوقت تضعف المشاعر العفيفة ويخفت الصوت الرافض داخل الانسان وتكثر التبريرات حتى تتمكن من حياته كلها وعلى صار خاضعا لشهوته فى حب التملك ولرغبات امرأته وطلباتها الشخصية التى لاتنتهى بعد وفاة الشيخ ابو سالم ولكن امرأة على بدأت تطلب لنفسهاوأولادها بيتا مستقلا فقد كثر الأولاد وأولاد الأخوة والأصهار وصار البيت على ساحته يضيق بهم فبرزت الرغبة المكبوتة فى حب الانفصال والاستقلال فى بيت منفرد.

ولم يخطر ولو للحظة فى ضمير سالم ان أخيه على صار عبدا لرغباته ورغبات امرأته وتعود على الخيانة خلاف ما تعاهد الجميع عليه.

وانتبه على للكزة كوع صهره محمد الكعبى ينبهه انهم كادوا أن ينتهوا من طعامهم وهو شبه شارد وكان اقباله على الطعام ضعيفا وتساءل عما اذا كان على يشعر بتعب أو بمرض يسبب له هذه الحالة الا أن على سارع ينكر ان يكون به اى مرض أو تعب.

مرهون الانسان بما يتعود عليه حتى تصير هذه العادة جزء ضرورى من سلوكه ومن الصعب الاقلاع عنها فهكذا كانت حالة شبه مسعصبة وضميره صار فى سبات شتوى من الصعب ايقاظه من غفلته.

وهكذا بدأ هناك شرخ يزداد اتساعا مع الأيام فى عائلة أبو سالم الشيخ الطيب الذكر.

وصارت شعارات الثأر والانتقام ومقاومة العدو المغتصب وتحرير الأرض هو أجس تلمع لثوان ثم تنطفئ لأيام أمام عادة الخيانة التى تأصلت فى نفس على وأصبحت جزءا من سلوكه الكامن الخفى لا يستطيع عنه بعدا.

وفى الأسرة الواحدة والتى حل بها الظلم والقهر بوفاة عائلها على يد الغرباء والهدف المشترك الذين تعاهدوا على تنفيذه وحمايته والابقاء على جذوته متقدة ظهر اختلاف المواقف وشهوة الرغبات وعجز النفس البشرية امام الأعزاء فتلك الصورة انتشرت بين الوطنيين المستفيدين في عدن بعد أن صارت القوات البريطانية تعزز تواجدها بالعطايا وتعمل على تقارب تواجدها مع الوطنيين عن طريق المواقف الانسانية والتظاهر بالتعاطف والليونة فى المعاملة بالإضافة الى الرواتب والمنح والهدايا لمن تجد منه العون حتى ولو كان هذا العون هامشيا وبانت ظاهرة الاخوة الاعداء في أكثر من مكان وصار على مثله مثل قول الشاعر

وغير تقى بأمر الناس بالتقى

طبيب يداوى الناس وهو مريض

عدن لؤلؤة اليمن

عدن ميناء طبيعى بل أن عدن من أحد أهم الموانئ الطبيعية فى العالم وأفضل الموانئ الطبيعية فى المنطقة المحيطة بالكامل وتوفر له المرتفعات الجبلية والسهول الرملية الحماية المثلى فجبل شمسان يكاد يحيط بالميناء احاطة السوار بالمعصم إلا من منفذ يفضى الى داخل المدينة وتجثم عدن عند اقدام هذا الجبل الشامخ هادئة ناعمة واستغلت قوات الاحتلال ذلك فى تعزيز ترتيبات امنية وأقاموا مراكز للمراقبة العسكرية للقوات البريطانية لإحكام السيطرة على المنافذ القليلة الى عدن وقد تنبه من قبل حكام اليمن الى أهمية الاستفادة من الجبل ووجود عدن عند مشارف اقدامه فأقاموا خزانات للمياه على ساحات تصل الى ١٨٠٠ قدم مربع تتلقف المياه المنحدرة من قمم الجبل ومخراته ليتم تغذية المدينة بالمياه وقد تم استغلال هذه المخرات والروافد الجبلية وتجميعها الى اتجاه واحد بمهارة وبدقة فائقة وقد وصل عدد صهاريج المياه منذ انشائها الى ما يقارب خمسين

صهريجا وكذلك شيد حكام اليمن منذ القرن الخامس عشر مجموعة قلاع للدفاع والتحكم فى مدخل الميناء وأهم هذه القلاع الضخمة المشهورة قلعة صيرة والتى كانت فكرة تشييدها ان تكون بمثابة حصنا وحماية لميناء عدن من القراصنة والغزو الخارجى للمنطقة.

وقد انشأت القوات البريطانية القاعدة الجوية فى منطقة خور مكسر داخل الميناء فكانت الطائرات تهبط الى المطار من طريق البحر فى سهولة وأمن ودون أن تحدث ضوضاء على السكان أما قيادة القوات البريطانية فكانت فى كريتر تلك المنطقة المنبسطة والتى يسهل تأمينها والدفاع عنها بقوات قليلة وتوجد فى كريتر بقايا آثار على هيئة حمامات مبنية ومسورة منذ احتلال الفرس لهذه المنطقة وتتعدد المنافذ الضيقة الى داخل عدن من كريتر فكانت القوات البريطانية تقيم عليها مراكز للحراسة والأمن والتحكم فى هذه المداخل.

وتقع جزيرة سوقطرة امام ميناء عدن فتضيف اليه حماية طبيعية اخرى وتخفف من آثار الرياح عابرة المحيط من الجنوب الغربى أو الجنوب الشرقى ناحية داخل شبه الجزيرة العربية.

وجزيرة صيرة كانت من الخطوط الدفاعية الأولى عن عدن كما سبق ذكره وقد عرف حكام المنطقة منذ قديم الزمان أهمية موقع هذه الجزيرة وضرورتها للحفاظ على سلامة وآمن عدن فقاموا ببناء الحصون عليها ومخازن الذخيرة المتقدمة.

ويمتد ساحل عدن متدرجا شرقا فى اتجاه العبادلة وشقرة ويتدرج فى الارتفاع فى اتجاه الداخل شمالا وغربا.

واختيار القيادة البريطانية موقع المطار الحربى فى خور مكسر داخل منطقة الميناء يزيد من سهولة الحركة ويوفر الأمن للطائرات التى تهبط وتقلع من المطار بعيدا عن مدينة عدن وبعيدا عن المرتفعات المحيطة بعدن فالطائرات تهبط وتقلع فوق المسطحات المائية لخليج عدن فلا تلفت الانظار اليها كما انها لا تسبب ضوضاء يؤثر على سكان عدن ورأس شبه جزيرة عدن عنقها عند السهل الساحلى الشرقى حتى منطقة خور مكسر والميناء ثم تتسع ويزداد تعرج شبه الجزيرة وتعددت المرتفعات واجزاء من جبل شمسان موازية لشواطئ شبه الجزيرة العربية وأمام جزيرة صيرة تقع منطقة كريتر حيث موقع قيادة القوات البويطانية والتى تم اختيارها بعناية وذكاء فهى مكان حصين يسهل حمايته والدفاع عنه ففى الشرق وعند منطقة العنق لشبه جزيرة رأس عدن تقع المرتفعات الشرقية تحيط بمنطقة كريتر ولا يوجد سوى سهل ساحلى محصور بين الجبل والبحر ضيق المساحة ويطل على ميناء عدن بالمنطقة احاطة كاملة سوى منافذ وممرات محدودة وجنوب كريتر يزداد ارتفاعات جبل شمسان وتزداد المخرات والوديان الضيقة بين المرتفعات ويأخذ امتداد الجبل الى الساحل شكل اصابع اليدين وتتدرج فى الانخفاض ناحية البحر والمناطق المحصورة بين المرتفعات تشكل وديانا تنحدر بسرعة وتنبسط الى سهل ساحلى متسع كلما اقترب من البحر وقد قامت القيادة البريطانية بعمل طريق من الأسفلت موازى للساحل حتى بوابة اليمن لخدمة الأغراض العسكرية ولتسهيل تحرك القوات واقامت نقاط للتفتيش لتدعيم تأمين المنطقة.

وبعد منطقة كريتر ينحنى الساحل إلى الغرب ثم الشمال الغربى حيث منطقة التواهى فعندما يتسع الساحل وينكمش جبل شمسان إلى الداخل حتى انهم يطلقون على الشاطئ فى هذه المنطقة الشاطئ الذهبى فهو شاطئ رملى بسيط التدرج فى اتجاه البحر ويطل عليه جبل شمسان كحارس امين لهذه المنطقة الجميلة التى يفضل أهل المنطقة التترة فيها وقضاء الأوقات الجميلة بين طبيعتها الجذابة والساحل يبدأ من منطقة طارشين وهى منطقة ارخبيل ممتد بين بروزين مثلهما مثل الأم الحانية على وليدها وتصبح المياه فى هذه المنطقة هادئة وكأنها بساط ناعم معظم أيام السنة ويمتد هذا الساحل الذهبى إلى الشمال الغربى حتى منقطة المعلا.

وتواجه منطقة التواهى شبه جزيرة عدن الصغرى أو البريقة كما يسميها اهل البلاد وذلك عند مدخل منطقة الخليج العربى.

ونظرا للجو اللطيف وقلة الرطوبة فى منطقة التواهى وهبوب الرياح فى معظم أيام السنة أقام البريطانيون بعض المساكن لجنودهم تطل على الساحل ويوجد فى التواهى كنيسة القديس يوسف الكاثوليكية وكنيسة القديس انطونيو والكنيسة الانجليكانية ويوجد خليج يسمى خليج الفيل يتميز بشاطئه المميز وضحالة مياه الشاطئ وهدوء امواج البحر فكان يتجمع فيه مراكب الصيد الصغيرة ويأتى اليه الكثير من الوطنيين والأجانب للتمتع بجماله واللهو على شاطئه الجميل.

وقد انشأ البريطانيون صهاريج فى التواهى لتخزين المواد البترولية المختلفة سواء لتزويد بواخر الميناء بإحتياجاتها من الوقود

أوامداد المناطق بأنواع المواد البترولية المطلوبة للاستخدام اما منطقة المعلا شمال التواهى فتعتبر امتداد للشاطئ الذهبى فى شبه جزيرة عدن الكبرى ويزيد من جمال موقعها على الخليج العربى الذى يقع بين عدن الكبرى وشبه جزيرة عدن الصغرى وانشأت القيادة البريطانية كثيرا من المبانى السكنية الجميلة بمحاذاة الشاطئ فى المعلا لسكنى عائلات الضباط وأقامت لهذا الغرض بعض المتنزهات الجميلة والحدائق المفتوحة واهتمت القيادة البريطانية منطقة المعلا حيث تعددت المحلات التجارية والأسواق المنظمة ذات المستوى الجيد حتى ان الوطنيين اطلقوا على منطقة المعلا الحى الأفرنجي النظافة والنظام والحدائق كانت السمة المميزة له نظرا للعناية الفائقة التى كانت توليها القيادة البريطانية لهذه المنطقة.

أما منطقة الشيخ عثمان فكان موقعها فى الداخل شمال الساحل الرملى المنخفض والمغطى بالأعشاب شرق ميناء عدن وهى المنطقة الوطنية المكتظة بالسكان من أصحاب الحرف والعمال والصناعات التراثية وفيها ضريح اثرى يسمى ضريع هاشم بحر اقيم فى العشرينات من القرن ويعتبر الوطنيون هاشم بحر وليا من أولياء الله الصالحين يقيمون له مولدا وطنيا فى كل عام ويتجمع فيها الأهالى من الشرق والشمال والغرب ليحضروا مهرجانات شعبية متنوعة يتم اقامتها بهذه المناسبة السنوية وأقيم بجانب الضريع مسجد بنفس اسم ولى الله وبجانب المسجد قاعة للضيافة يقيم فيها الزوار من الوطنين فى المناسبات.

ويوجد فى منطقة الشيخ عثمان اشهر المساجد فى عدن وهو مسجد ابان حيث يذكر بأنه تم انشاء هذا المسجد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان من قبل ابنه ابان ويذكر انه دفن حفيد الخليفة الحكم وابنه ابراهيم شمال محراب المسجد ويعتبر من اهم المزارات الوطنية فى عدن ولم تجرؤ القوات البريطانية على الاقتراب حتى من موقع ابان فى اثناء مطاردتها للوطنين الذين يقومون بهجمات على الجنود البريطانيين خوفا من غضب الأهالى ولتجنب انتقامهم اذا حدث ما يمس من مشاعرهم التى يحترمونها حق الاحترام.

وكذلك مسجد العيداروس ذو الأهمية البالغة فى منطقة الشيخ عثمان والذى بناه الشيخ أبو بكر بن عبدالله المتوفى عام ١٥٠٨ ميلادية فى أواخر عهد الدولة الطاهرية.

وكان مكان الساحة أمام مسجد العيدروس هو المكان المفضل لتجمع نخبة الوطنيين من التنظيمات المختلفة والتى كانت تناقش فيما بينهما عقائديا ويخطط افرادها لتنظيم الهجمات ضد المعسكرات البريطانية وتعددت الأماكن حول مسجد العيدروس والمقاهى التى كان يرتادها الصناع والعمال والتجار بل وكانت تقف الشاحنات فى ساحة مجاورة لمسجد العيدورس لاستراحة السائقين وارتياد المطاعم الشعبية وتزويد شاحناتهم بالوقود والمياه قبل رحلاتهم الطويلة فى اتجاه الشمال أو فى اتجاه الشرق فى ناحية العبادلة وشقرة.

ويميز منطقة الشيخ عثمان كثرة المساجد الأثرية بها وكان ما يزيد عن عشرين مسجدا تم انشاؤها من ازمان بعيدة ولازال يرتادها

المصلون وحولها ساحات للانتظار ومساكن للعمال ومطاعم شعبية ومما زاد من أهمية منطقة الشيخ عثمان توافر عدة آبار للمياه بالقرب منها وأهمها منطقة بئر أحمد والذى كان يقع فى شمالها الشرقى. وكانت مياهه أقل ملوحة وأكثر غزارة من باقى الآبار.

ومنطقة الخليج العربى تجويف واسع عريض من المياه داخل اليابسة أشبه بالبحيرة وأضيق مكان فيها هو الفتحة التى توصل فيما بينه وبين البحر ويحدها من الشرق شبه جزيرة عدن ومن الغرب شبه جزيرة عدن الصغيرة ويقع على سواحله مساحات كبيرة من الكثبان الرملية والتلال التى تنمو عليها الأعشاب الطويلة ويمتد حتى بالقرب من بئر أحمد.

وكان الخليج العربى هو المكان المفضل للصيادين الذين لا يملكون مراكب الصيد المناسبة للسير فى مياه المحيط وضيق مدخله جعله هادئا وامواجه قليلة وبسيطة وكانت على الساحل سواء فى منطقة الكثبان والتلال المعشبة أو على الساحل ناحية البريقة حيث الساحل رملى منخفض توجد تجمعات مساكن الصيادين البسيطة من الخشب والصاج وكذلك تجمعات بعض العمال وأماكن اقامة الوطنيين الذين يشتغلون بالتجارة البسيطة لخدمة أهالى المنطقة ويتدرج الساحل الى الشمال فى بلاد العقربى ليصبح واديا ساحليا طويلا يسمى وادى تهامة.

وحول شواطئ الخليج العربى تتجمع الطيور العابرة الى الشمال صيفا والى الجنوب شتاء فكانت هذه المنطقة بمثابة حديقة مفتوحة

للطيور المتنوعة سواء الأفريقية أو الأوربية أو المحليه مما كان بدفع كثير من الجنود البريطانيين للقدوم الى هذه المنطقة لصيد البط والكركى والأوز فالمنطقة مغرية للصيد وفيها كان يقع كثيرا من التحرشات بين الجنود البريطانيين والأهالى البسطاء فى هذه المنطقة

والجو فى عدن مميز بدفئة طوال أيام السنة وتقوم الرياح الموسمية بتخفيف الرطوبة مما جعل منطقة عدن تتميز بالجو الدافئ خاصة المناطق المرتفعة نسبيا والتى اختارتها القيادة البريطانية فى أماكن مناسبة مثل كريتر والمعلا وبوابة اليمن وتقع بوابة اليمن جنوب المعلا وفيها المحلات التجارية الوطنية بأنوواعها المختلفة ولذا كان المكان المفضل للوطنيين القادمين من لحج ويافع والفضلى والعوالق مقصدهم بوابة اليمن حيث يتبادلون المنافع ويبيعون ويشترون.

ونظرا لكثرة المترددين على منطقة بوابة عدن اقامت القوات البريطانية نقاط تفتيش رئيسية عند المدخل والمخرج للمنطقة كما أن البريطانيين اقاموا معسكرا لجنودهم على مشارف بوابة عدن.

وكان بعض البدو والوطنيون الذين يشتغلون بالرعى يتخذون لهم أماكن قريبة من بئر أحمد وشرقا حتى لحج وكذلك فى بداية سهل تهامة فى بلاد العقربى ولا ينسى أهل عدن حكاية الأعرابى الذى كان يرعى أبله خلف التلال الرملية المعشبة فى أقصى شمال غرب ساحل الخليج العربى وفى نفس الوقت كان بضعة جنود بريطانيون يستمتعون بوقتهم ويقومون بصيد بعض الطيور التى تكثر فى هذه المنطقة وانطلقت رصاصة لتصب احد ابل الأعرابى فى رأسه فيموت

فى مكانه ويندفع صاحب الابل فى غضب شديد إلى الجنود البريطانيين يصيح فيهم ويطالبهم بثمن ناقته التى قتلوها واشتبك مع أحدهم بالأيدى آلا أن باقى الجنود تجمعوا عليه وأنكروا عليه حقه فى المطالبة ورفضوا الاستماع إليه وتهربوا منه خوفا من تجمع الأهالى وحدوث ما لا تحمد عقباه واسرع الجنود البريطانيون إلى سيارتهم وانطلقوا بها فى سرعة يبغون معسكرهم.

لم تمض عدة أيام وقد صمم الأعرابى على الانتقام مما حدث لناقته وتسلل ليلا إلى سور أحد المعسكرات البريطانية ومعه جمل وحبل طويل ونجح فى عمل فتحة فى سور المعسكر تحت جنح الظلام ولم يجد أمامه سوى مجموعة من العربات المدرعة التى كانت تستخدمها القوات البريطانية وهى عربات محمولة على عجلات ضخمة من الكاوتشوك فربط حبله فى مقدمة احدى هذه العربات رباطا محكما وفك عصا تروس العربة ووضعة على الحركة السالبة وسحب العربة بواسطة الجمل إلى خارج المعسكر.

ولسوء حظه قابلته احدى الداوريات البريطانية وسلطوا الكاشف عليه فوجدوا ما آثار دهشتهم وجدوا رجلا يسحب جملا والجمل يسحب عربة عسكرية مدرعة وعندما اخذوه إلى حيث مركز قيادتهم وطلبوا تفسيرا منه عما فعله كان جوابه صريحا وبسيطا ومختصرا فأوضح لهم أن جنودهم قتلوا ناقة يملكها ورفضوا تعويضه وهربوا فى سيارتهم فما كان منه إلا أن فعل ما يعتقده صوابا وأن العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم فجاء ليأخذ ناقة بديلة ممن اغتالوا

ناقته ورغم غرابة فعلته وصراحته الكاملة أمام المحققين وقناعته الكاملة بعدالة قضيته إلا أن ضابط المخابرات البريطانى الذى كان يحضر التحقيق ويتابع الاسئلة والإجابات تدارك الموقف بسرعة وأخذ الرجل إلى حجرة أخرى ومعه مترجم وأخذ يطيب خاطره ويفهمه أن الجنود لم يكن قصدهم قتل ناقته وقام باعطائه الثمن وبالاضافة إلى ذلك قام ضابط المخابرات البريطانى بتقديم بعض المعلبات المرغوبة والتى يقبل عليها العمال فى المنطقة وراديو صغير ليستمع بالبرامج المذاعة وهو يقوم برعاية قطيعة من الإبل.

وكان الذكاء واضحا فى سرعة تصرف ضابط المخابرات البريطانية بعد أن رجع الرجل وهو سعيد بانجازه فى الحصول على حقه والقصاص لناقته القتيلة ولكن افهموه انه خطأ كبير أن يقطع أسلاك سور المعسكر ويسحب إحدى عربات المعسكر لأن ذلك فيه خطر كبير عليه وأنه لحسن حظه دخل من السور فى مكان بعيد نسبيا عن الصواعق التى تقتل من يفكر فى مثل ما قام به ولعل فى ذلك التصرف الداهية والذى يتضمن معنى تفهم القوات البريطانية لحقوق الوطنيين ومنع أى جندى من رجالها لتجاوز هذه الحدود وفى نفس الوقت إنذار وترهيب بأن الاقتراب من هذه المعسكرات خطر جسيم يهدد المعتدى فى حياته وسرت فى المنطقة بين الوطنيين قصة هذه الحادثة بعد أن قام الإعرابى ببراءة وعفوية يذكر حكايته مع القوات البريطانية لكل من يقابله وسمع لحكايته الكثيرون وفسرها العديد حسب مشاريهم واختلاف أهدافهم ولكنها كانت فى النهاية فى مصلحة القوات البريطانية.

الأخ الكبير وصل إلى الشمال

لم يكن يخفى على فاطمة أخت لسالم ما تراه من معاناة والدتها الشديدة بعد وفاة والدها فهى وان كانت زوجة لمحمد الكعبى الذى يعمل فى ميناء عدن ألا أنها كانت الأبنة الصغرى التى تحظى بحب والدتها الكبير ورغم أن العرف ان تتبع الزوجة زوجها فى أى مكان الا أن محمد الكعبى وافق على بقاء زوجته فاطمة مع والدتها فى ردفان لمدة شهر يزورها كل اسبوع قادما من عدن وتبقى الشهر التالى عنداهله فى يافع السفلى وكثيرا ما كان يأخذ محمد الكعبى زوجته الى عدن لتشاهد المناطق المختلفة وخاصة فى منطقة الميناء . وفى منطقة الشيخ عثمان حيث له بيت قريب من مكان عمله وقريب من نسيبه سالم ولكثرة انتقال فاطمة مع زوجها من ردفان الى بلاد اليافعى والى عدن حفظت الطريق وكانت تعرف كل شبر فيه وكذلك اماكن القبائل ومخرات السيول والسهول والمرتفعات المحيطة بالطريق رغم أنه غير معبد بالاسفلت آلا أنه طريق ترابى صلب نسبيا صالح

لسير العربات والشاحنات آلا فى بعض المنعطفات الحادة وكثير من الإنخفاضات والارتفاعات تجعل راكب السيارة كانه فى ارجوحة مثل القادوس الذى يعلو ويهبط ويسارع الأطفال لركوبة فى الموالد وكثيرا ما اخذ محمد الكعبى زوجته الى منطقة الميناء لترى السفن الداخلة والخارجية وتتفرج على الحركة العجيبة المستمرة من شاحنات البضائع والأوناش تحملها من السفن وتنقلها إلى السفن وكثيرا ايضا ما ذهبت فاطمة مع زوجها إلى منطقة الذهبى فى التواهى واختلطت ضحكاتها وزوجها مع اصوات الطيور المتنوعة حولهما.

وكانت فاطمة حبيبة القلب لو الدتها الحزينة دائما بعد مقتل الشيخ ابو سالم بعد القاء القنابل من طائرة الكفرة فحولت الهدوء الى جحيم فى يوم ليس ببعيد كانت قبل مقتل والدها قريبة ترعى غنماتها على تلال ردفان ذات الهواء الطلق النقى الصافى والشجيرات المتنوعة وخضرة المكان واصوات الطيور السعيدة بالجو الدافىء والصفاء اللانهائى.

وفجأة لوث هذا الجو الجميل صوت دخيل رتيب لم تعره فاطمة اهتماما وفجأة حدثت فرقعة عالية وتطاير الدخان مختلطا بالأتربة فى زوبعة اندفعت مرتفعة الى عنان السماء تكاد تحجب قرص الشمس واصاب فاطمة ذعر عظيم وكذلك غنماتها التى كانت ترعى العشب فى هدوء غير ممسوس فاندفعت الغنمات تجرى على غير هدى وطارت الطيور جماعات من فوق الأغصان ومن الإعشاش غير جازعة حتى على أولادها فى هذه الإعشاش.

وما كادت تنقشع هذه الأتربة الممزوجة بالدخان حتى اصاب الهلع فاطمه لان المكان الرئيسى لهذه الزوبعة المتربة وذلك الصوت العاصف كان قريبا من مكان والدها فى محله المتواضع الذى يستقبل فيه زبائنه من اهل المنطقة واسرعت الى مكان والدها فهالها ما رات واعتصرها الألم العظيم عندما رات والدها الشيخ ملقى بعيدا عن دكانه والدماء تنزف من اجزاء مختلفة من جسده وبجواره طفلين أتيا للمحل يبغيان اغراضا من عنده وكانا على نفس حالة الوالد وبعيدا عنهم بقليل وجدت الشيخ معين صديق والدها ورفيقة ومؤذن المسجد الذى كان يؤم فيها والدها المصلين وكان الشيخ معين ملقى على وجهه وقد تمزقت جلبابه وتناثرت الدماء على اجزاء من جسمه وللوهلة الأولى ساد الصمت بعد الضجيج وانقشع الغبار وصرخت فاطمة باعلى صوتها تستغيث وعلى صوتها اسرع بعض الأهالى الى مكان الشيخ ابو سالم فوجدوا الجميع قد فارقوا الحياة فيما عدا فاطمة التى لم تتمالك نفسها من هول مارات واغمى عليها وسقطت على الأرض فى حالة من اللاوعى.

رغم مرور السنين على هذه الصورة الكئيبة التى كانت فاطمة اول من شاهدها وعاين احداثها فلم تضعف ذاكرتها عن استرجاع هذه الصورة امامها بين الحين والأخر سواء كانت فى اليقظة فتكتفى بالبكاء أو فى نومها واثناء احلامها فتقوم مفزوعة مضطربة فتشرب بضع رشفات من الماء لكى تقلل من فزعها ثم تعاود نومها مرة أخرى.

لذلك كان سخط فاطمة شديدا على القوم الكفرة الذى احدثوا هذه الفرقعة الشيطانية والتى حفرت فى ذاكرتها ولم تنل من صورتها مرور الأيام والليالى وكثيرا ما كانت فاطمة تفاجيء والدتها وهى ساهمة ومنزوية بجوار الجدار تبكى بحرقة فيغلبها التأثر وتستعيد ما فعله الكفار يوم موت والدها فتجلس بجانب والدتها وتذرف دموعا ساخنة وغزيرة حتى ينضب معين الدموع من اعين كلاهما أويستدعيها سرعة مراجعة اعمال هامة فى البيت فتتوقفان عن البكاء ولو الى حين.

واخذ محمدالكعبى زوجته الى قريته فى بلاد اليافعى نظرا لان شقيقته كانت على وشك وضع اول مولود لها ولكى تساعد فاطمة شقيقته اذ جرت العادة على ان يتعاون كل النسوة فى العائلة لمعاونة الحامل ومساعدتها فى شهورها الأولى بعد ولادة المولود.

وكان محمد الكعبى اسر الى امرأته فاطمة فى وقت سابق بأنه قد انضم الى احد التنظيمات العديدة التى كانت تهدف الى محاربة الوجود البريطانى فى عدن. وقد باركت فاطمة هذا الموقف من زوجها وشجعته على ذلك بل طلبت منه لو امكن لامرأة ان تستطيع الإنضمام الى صفوف العاملين ضد الكفرة المعتدين وفى الحقيقة لم يلجأ محمد الكعبى الى ابلاغها بمكنون سره الا بعد تأكده من حماسها واصرارها على الثار لو الدها فذكرى مصرعه والأطفال والشيخ معين صديقة لم تفارق مخيلتها ولم تضعف من لهيب الثأر فى نفسها مرور الأيام والليالى وفى يوم من ايام الربيع الجميلة فى قرية اليافعى

فوجيء السكان الوطنيون بوجود عربات مدرعة وعليها مدافع ضخمة مصوبة الى القرية وقام شيخ القرية بابلاغ الأهالى بان الجنود البريطانيون حضروا الى القرية لتفتيش منازلها ومنع دخولهم وخروجهم من القرية الى حين استكمال التفتيش بالكامل وكان الموقف فى غاية الغرابة بالنسبة للوطنيين فى القرية وليس واردا على الإطلاق ان يقتحم غريبا بيت احد الأهالى بحجة التفتيش او بأى حجة غير ذلك فحرمة البيت مقدسة وقد يراق الدم حماية وصيانة لهذه الحرمة التى جرى العرف السائد على وضعها فى مرتبة حصينة من القدسية والفداء.

وسارع اهالى القرية الى شيخهم يستفسرون ويسألون فاوضح لهم بانه تم اختطاف اثنين من الجنود البريطانيين ليلة امس عند مركز التفتيش الأمنى قرب الميناء فى عدن فسارعت القوات البريطانية لمحاصرة القرى المحيطة بالمنطقة تحت تهديد الأسلحة القوية والمدافع الكبيرة بحثا عن الجنود ورغبة فى القبض على الفاعلين وقام نفر برئاسة شيخ القرية ومن ضمنه محمد الكعبى الذى لم يتمكن من الذهاب الى عمله فى الميناء نظرا لان حصار القرية قد تم بعد الفجر بقليل وذهب الوفد لمقابلة الضابط رئيس القوة المكلفة بحصار القرية لشرح خطورة تنفيذ التفتيش لبيوت الأهالى وان عملية التفتيش مرفوضة رفضا لا رجعه فيه وانه اذا ارادت القوات البريطانية القيام بالتفتيش بالقوة وتحت ارهاب السلاح فان ذلك سيكون سببا فى اراقة الدماء واشتعال جذوة السخط على البريطانيين وسقط فى يد

الضـابط البريطاني ولم يدرى ما يفعله في هذا الوقت وفضل مراجعة قيادته لكي يستكمل مهمته.

ويبدوا ان القوات البريطانية فوجئت باختطاف الجنديين وسارعت القيادة الصغرى إلى ارسال قوات لمحاصرة القرى القريبة وقفل منافذ الطرق ولعل وعسى يمكن القبض على الفاعلين وضمان سلامة الجنديين وليكون ذلك في اقصر وقت تداركا لما قد يحدث من تداعديات على الموقف ولجوء المختطفين الى قتل الجنديين وهروبهم الى اماكن بعيدة ولا يمكن الوصول اليهم ومن الواضح ان القيادة التي سارعت بتنفيذ خطة التفتيش وإغلاق الطرق المؤدية الى مختلف المناطق - وبدأت في إثارة سخط المواطنين كانت تجاوزت حدودها وجانبت الحكمة قائد القوة الصغيرة في قراره سارعت القيادة العليا في كريتر بالغاء الأوامر الصادرة عن القيادة الصغرى وقامت عن طريق مندوبها بالإتصال بسلاطين المحميات تطلب مساعدتهم في القبض على اولئك الذين قاموا باختطاف الجنديين البريطانيين وحرصت التعليمات السريعة التي صدرت تجنب عملية تفتيش منازل القرى لان في ذلك تعدى مباشر على خصوصية الأهالي وخطأ كبير لتصرف يضر بمشاعرهم والعرف السائد في هذه المناطق وان يتم الإكتفاء بمساعدة مشايخ القرى استقصاء المعلومات والإستدلال على الخيوط التي تساعد في القبض على الجاني ومعرفة التنظيم الذى يقف داعما له ورغم سرعة تدارك الموقف من ناحية القيادة في كريتر آلا ان الأهالي شعروا بعدوانية سافره في بادىء الأمر ولم يكن

امـامـهـم من سـبـيل سـوى الرفض والدفـاع حـتى الموت عن اخص خصائصهم وهو صيانة الشرف والعرض.

لقد كان اهتمام القيادة البريطانية كبيرا بهذا الحدث فلأول مرة تحدث عملية اختطاف لجنود بريطانيين ويتم اختفاء الجنود المخطوفين والقائمين بعملية الأختطاف بسرعة عجيبة ولو ان الجنديين قتلا نتيجة اشتباك لكان الأمر هنيا ومتوقعا لكن ان تتم عملية خطف منظمة بالإضافة الى أن من تم استئجارهم كعيون للقوات البريطانية لتوفير المعلومات الحديثة أولا بأول امام من يتخذ القرار فى القيادة لم يلمحوا من بعيد أو قريب لاحتمال حدوث عملية اختطاف وقد فشلت هذه العيون فشلا خطيرا فى التنبؤ بما حدث.

وعندما مر يومان على هذه الحادثة دون التوصل الى معلومات تقود الى معرفة الفاعل اعلنت القيادة البريطانية مكافأة لمن يتوصل الى معلومات تقود الى القبض على الفاعلين وإطلاق سراح الجنود.

وقد كان هذ االإعلان مثارا للتندر والسخرية للوطنيين فى جلساتهم المسائية فى منطقة الشيخ عثمان مما حدث للبريطانيين.

حادثة اختطاف جنود من بريطانيا العظمى التى لا تغيب عنها الشمس ـ ظاهرة مهينة للقوات وتمس هيبة هذه القوات وتؤثر على صورتها العظيمة أمام الوطنيين وان تعلن القيادة البريطانية عن مكافأة لمن يدلى بمعلومات عن المختطفين والخاطفين لهو خطأ كبير واهانة اضافية لهذه القوات ويعود هذا الخطأ الى وجود قصور كبير لدى النظام الأمنى واسلوب المخابرات البريطانية فى المنطقة.

ورغم ان الأهالي على فطرتهم وشفافيتهم الا أنه لم يخفى عنهم بديهة ما حدث وبات حديث الوطنيين فى منطقة الشيخ عثمان تدور معظمها حول فشل القوات البريطانية وهوانها فى ان تصدر اعلانا وترصد مكافأة مالية وهذا الإعلان هو فى حقيقته وثيقة تبين الى اى درجة وصل تخبط تصرفات القيادة البريطانية بعد حادثة الخطف وتضارب قراراتها الغير مدروسة بحكمة وعمق مما نتج عنه خلط الأوراق الأمنية وتجاوز حدود السلامة حينما سارعت قيادة صغرى إلى تنفيذ اجراءات تفتيش منازل الوطنيين وهى غلطة لا يغتفرها الأهالى ولن يجد البريطانيون احدا يتنازل عن اقدس ما يملك وهو عرضه وشرفه ويسمح للجنود البريطانيين باقتحام مسكنه وتفتيش اهله بحثا عن الجنديين المختطفين وساد جو من الشماته طغى على جلسات المواطنين على مقاهى الشيخ عثمان وعند تجمعاتهم العائلية وسرت بين آهالى عدن والمناطق القريبة فرحة غامرة بما حدث.

وعندما لاحظت القيادة البريطانية إن الإعلانات التى قامت بتعليقها عند الأماكن الهامة أو لصقتها فى الأماكن الظاهرة والمميزة عن مكافأة قام بعض الوطنيين تحت جنح الظلام بتمزيق بعض هذه الإعلانات أو رسم رسوما هزلية مثل فأر وقد غطى رأسه بقبعة بريطانيا العظمى أو رسم أخر يوضح أحد المواطنين يدوس بقدمه على احد الجنود البريطانية أو رسم يوضح بريطانيا العظمى على هيئة رجل بريطانى وقد نزع احد الأهالى احدى ذراعية ويجرى ويجره خلفه البريطانى منزوع الذراع ينادى ويستغيث ويقول حرامى حرامى، وتفاقمت الرسومات الهزلية على الإعلانات مما جعل

المخابرات البريطانية تسارع الى نزعها من اماكنها وتسمح بتسريب معلومات عن رجوع القيادة البريطانية عن قرارها السابق برصد مكافأة لكل من يدلى بمعلومات تفيد فى القبض على الجناه.

وكانت فاطمة تفضل دائما أن تطول اقامتها فى بلاد اليافعى مع زوجها لان ذلك يسمح لها بالنزول الى عدن والتجول فى مناطقها المختلفة ولان رصيدها من المعلومات ومشاهدتها الكثير من الاحداث التى كانت تقع بين الوطنيين وبين الجنود البريطانية وحكايات زوجها عن حوادث مختلفة لم ترها ولم تسمع عنها. وكلما كانت الحادثة تسبب ضررا للبريطانيين معنى ذلك ان يطيب خاطر فاطمة ويسعدها كثيرا فالبريطانيون قتلوا والدها الشيخ ابو سالم وصورته وبجوارد طفلين والشيخ معين والدماء الحارة تنزف منهم بعد قصف الطائرة البريطانية كانت الصورة تلح عليها فى كثير من الأوقات ولذلك فإن ما يتسبب فى ضرر قوات العدو القاتل كانت تخف عنها محنة معاناتها وتدعو الله فى سرها أن يزداد الضرر والبلاء عليهم لكى تخف جذوة نيرات الغضب والحقد فى نفسها وفى يوم حضر محمد الكعبى الى بيته متهلل الوجه يكاد يقفز من الفرح والمشاعر الطيبة التى كانت تغمره وقابلته زوجته فاطمة بنظرات استغراب واستفهام وسارع لسانها يسأله ويستوضحه حتى تعم الفرحة فى اسرته وكانت فاطمة فى عجالة شديدة لكى تعرف اسباب سعادة زوجها الغامرة واسرار فرحته ولهفتها الى ذلك يعبر عنها تقاسيم وجهها ونظرات عينيها بل ويفصح عنها لسانها فى استفسارات متلاحقة ومن جهته ظل زوجها كاتما على سره لفترة حتى يستفز لهفتها الى المعرفة وتثير نفسها بل

وبسبب غيظها المحبب كما يحدث عادة بين زوجين يربطهما المحبة، وبعد ان استنفذت فاطمة وسائلها التقليدية لحفز زوجها على البوح بسره بعد أن وصل بها الحال انه اصبح من المحال أن تصير اكثر من ذلك وفهم زوجها انه وصل بها الى حافة الضيق والضجر الذى يسبق الخصام اباح لها بمكنون السر الذى سبب له هذه الفرحة واوضح لها انه عندما كان يصلى العصر فى مسجد العيدراوس فى الشيخ عثمان كان الحديث الجامع بعد الصلاة حول وصول جنود الاخ الكبير جنود مصر الى الشمال فى صنعاء وفى تعز وحتى البيضاء وان فى وجودهم سيكون عونا كبيرا ودعما قويا للوطنيين اليمنيين.

وكانت فاطمة خالية الذهن عما يعنى بالاخ الكبير وجنوده آلا انه استمهلها هنية حتى يستجمع تركيزة ثم اوضح لها أن الجنود المصريون وهم رجال الأخ الكبير كما يحب بعض الوطنيين اليمنيين ان يسموه اصبحوا فى صنعاء وتعز وحتى البيضاء فبات مكانهم قريبا جدا من منطقة عدن حيث تتواجد القوات البريطانية والأكثرية العظمى من أهل البلاد يرحبون بهذا الوجود وهم فى معظمهم فرحين مستبشرين بأن فى وجود جنود الأخ الكبير الى الجوار يضيف للوطنيين دعما ملموسا فى صراعهم مع القوات البريطانية.

وكانت فاطمة متلهفة لمعرفة المزيد وما قاله زوجها لم يشبع ظمأها ويروى عطشها فسارعت الى الإستفسار من محمد الكعبى عما اذا كان الجنود المصريون سيأتون لمحاربة القوات البريطانية وطردهم من البلاد.

الا أن اجابة هذا السؤال كانت صعبة على محمد الكعبي فمعلوماته القليلة ومعرفته الضحلة بما يجرى حوله جعلته يعجز عن الرد بإجابة شافية على زوجته وظل صامتا وحائرا رغم ان فاطمة كررت عليه السؤال وفضل ادارة دفة الحديث فى اتجاه اخر بعيدا وقال لها انهم سيجتمعون باكر بعد الصلاة الجمعية في مسجد العيداروس وسيتحدث مع بعض الوطنيين الذين عندهم من العلم الكثير.

وبعض رؤساء الفصائل التى تنظم وترسم التخطيط فى مهاجمة القوات البريطانيين وبذلك نجح محمد الكعبى من الهروب من الإجابة على فاطمة ليس ذلك عن حجب ومنع ولكن نتيجة قصور وجهل فالقى بنفسه فى طوق النجاه على اجتماع الجمعة الذى سبق الإتفاق عليه.

وخرج محمد الكعبى مبكرا من بيته قاصدا عدن وهو يقود شاحنته الصغيرة التى استطاع شرائها بعد سنين من عمله فى ميناء عدن. وتوجه الى مسجد العبداروس فى الشيخ عثمان ووجد ازدحاما غير مسبوق فى أعداد المصلين كما لاحظ عدد كبير من الناس الغرباء الذى لم يسبق مشاهدتهم كلما ذهب عند مسجد العيداروس كانوا غرباء عن المكان وبعد انتهاء الصلاة تجمع عدد كبير من المصلين فى حلقات خارج المسجد ودارت مناقشات ووقف محمد الكعبى مع نسيبة سالم واخرون فى احدى الحلقات وكان مجمل الحديث الجامع يدور حول الثورة فى صنعاء وقدوم الجنود المصريون الى اليمن لتدعيم الثورة ومساعدتها وكان الفرح هو الصفة الغالبة على معظم

المجتمعين فى حلقات المناقشة وروح الترحيب لقدوم جنود الاخ الكبير إلى اليمن اثار الإنتباه حدوث صراخ واشتباك بالأيدى بين من كانوا يتناقشون فى إحدى حلقات التجمع وسقط بعض المتعاركين على الأرض بعد أن اصيبوا بضربات وركلات مؤلمة وتسببت فى حدوث جروح ورضوض فى اجسامهم وكان اكثر المصابين خطورة احد الوطنيين وكان ملقى على الأرض وقد طاحت نظارته الطبية وتمزقت اجزاء من ملابسة وكان راقدا على الأرض ساكن الحركة حتى يحسبه فى عداد الموتى واخرون ايضا وقعوا على الأرض واصيبوا ولكن لم يكونوا بمثل الحالة الخطيرة والتى حدثت بصاحب النظارات الطبية.

وتقدم سالم ومعه نسيبة يستقصون عن اسباب العراك والصياح والإشتباك بالإيدى والذى توقف لكن الصياح لازال يعلو تارة ويهبط اخرى.

وتنبه عقلاء الحاضرين وسارعوا الى زجر المتصايحين وصرخوا باعلى صوتهم حتى يمكن انقاذ المصابين خاصة صاحب النظارات الطبية ونقلهم الى حيث المعالجة الطبية المكنة وتطوع احد الموجودين بإحضار سيارته النصف نقل وساعده الحاضرون لوضع الأفراد المصابين فى العربة لسرعة نقلهم الى مكان يمكن علاجهم فيه ولم يكن سوى مستشفى الجيش البريطانى قرب منطقة كرتير ولم يكن هناك اخر يذهبون اليه.

وعندما سارت العربة تحمل المصابين عاد النقاش الحاد مرة اخرى بين من بقى امام المسجد.

واتضح ان الحوار اشتد بين طائفتين فى إحدى الحلقات بين مؤيدين ومرحبين لقدوم الجنود المصريين الى اليمن وبين معارضين تزعمهم صاحب النظارة الطبية وسخريتهم من قدرة القوات المصرية فى الوقوف امام القوات البريطانية.

وشتان بين القوتين وان بريطانيا قوية لاتغيب عنها الشمس وتسيطر على مساحات كبيرة من العالم بالإضافة الى قوة وكثرة ما لديها من سلاح وعتاد ووجه نظر المعارضين كانت حادة اذ كانوا يرون فى وجود القوات المصرية فى اليمن دافعا معاكسا.

مما يجعل القيادة البريطانية تتشدد فى مواقفها من المواطنين اهالى البلاد ودفع قواتها وتزيد عن عدد قواتها لتسيطر على مساحات اكبر من اليمن تحسبا لاى تحرشات تقع مع القوات المصرية مستقبلا وكان النقاش حتى هذه اللحظة غير حرج وان كان الصياح عاليا والإختلاف كبيرا وفى صوت جهورى فاق كل الأصوات صرخ احدهم واشار الى الرجل صاحب النظارة والذى كان يعارض وجود القوات المصرية فى اليمن وعدم فائدتها للمساعدة فى تحرير عدن وفجأة تردد فى الأرجاء كلمة خائن وعميل لبريطانيا هكذا اشار الرجل ذو الصوت المميز الجهورى وبدون تردد ودون تروى وتفهم بدأت الإشتباكات وانهالت اللكمات والركلات وكان نصيب صاحب النظارة الكثير مما افقده الوعى ورغم أن المتجمهرين قد قلت اعدادهم

آلا أن الصياح والصراخ ظل محتدما ولم يهدأ الحال الا عندما أذن المؤذن لصلاة العصر فدخل من تبقى من المتجمهرين المسجد لاداء الصلاة ـ وهكذا هدأت العاصفة وهمدت الأصوات وعندما انتهت الصلاة وقف شيخ مهيب من جموع المصلين وتعلقت به أبصار الحضور وسكنت الحركة في المسجد حتى كانت اصوات انفاس الحضور دخول الهواء وخروجه من الصدور هو الصوت الوحيد الذى خرج عن قاعدة الصمت.

ويبدو أن المصلين كانوا يعرفون هذا الشيخ الذى وقف بينهم ملوحا بيديه ليبقى كل فى مكانه وكان جليا على أن هذا الشيخ له مهابة مرموقة ومكانة أعظام واكبار فى النفوس ولم يكن يختلف اثنين من الحضور فى المسجد على معرفة مكانته وقدرة فهو أحد احفاد العيدروس الكبير الذى أسس هذا المسجد.

هذا علاوة على أن هناك مقولة أنه يمت بالنسب الى أهل بيت رسول الله والجميع يعظم آهل البيت ويجلون قدرهم.

وبعد صمت كامل لأكثر من دقيقة تكلم الشيخ المهيب أحمد العيدروس وهذا هو اسمه وفى كلمات واضحة رصينة ونبرات قوية مؤثرة بدأ بالحمد لله تعالى والثناء على رسوله الطاهر الأمين وتحدث عن الخلافات بين اهل البلاد الواحدة وكيف أن المستفيد الوحيد من هذه الإختلافات التى تطور الى العراك وهو عدو هذه البلاد.

إن البريطانيون جاءوا إلى هذه البلاد رغما عن رغبة اهلها ولعلكم تذكرون المعارك التى قامت بين الأهالى والغزاة لمنعهم من التواجد فى

بلادنا ونذكر ايضا أن البريطانيون لم يكن ليأتوا إلى بلادنا آلا ليستفيدوا ويعملوا لمصلحتهم فعدن موقعها هام جدا بين الهند فى أقصى الشرق وقناة السويس فى الشمال. ومنذ وصلوا إلى عدن وهم اسياد المنطقة والمسيطرون على مقدرات أهلها وقد جاءوا إلى عدن لكى يستمر بقاؤهم فيها لان هذا الوضع يخدم مصالحهم ويعزز نفوذهم اما نحن اهالى واصحاب الوطن فإنه لا حول لنا ولا قوة لان المتوافر لدينا قليل ومصلحة المواطنين والبلاد فى حاجة الى التكاتف والتآزر وتوحيد الكلمة وكل خلاف بيننا هو ضخ الدماء في شريان القوات البريطانية وإضافة قوة الى قوتها الشديدة والخلافات بيننا ونحن أهل وأمه واحدة جعلها الله خير امة اخرجت للناس ثم نختلف والهدف أمامنا واحد ونعادى بعضنا بعضا وأمامنا عدو أجدر آن نوجه عداءنا اليه ونقاومه حتى نصرعه فرأيت اليوم الاخ يختصم ويصارع اخيه أو قريبه والعدو على بعد قليل منا كلما اختلفنا كلما زاد بأسه ورجحت كفه استمرار احتلاله.

وعندما نسعى إلى من يستطيع أن يمد المساعدة الينا ويناصرنا على من يعادينا نختلف اختلافا بيننا ويصيب نفوس الوطنيين الاذى والعراك وتشتعل نار الفتنة والفرقة وتتمزق أواصر العلاقة الحميمة التى من الضرورى أن تظل قوية ومتينة.

الجنود المصريون فى الشمال جاءوا لمساعدة اخوان لهم ومعاونتهم على تطهير بلادهم من المعتدى المتجبر فلم يأتوا الى بلادنا لكى يبقى فيها كما فعل البريطانيون وهم من نفس امتنا وليسوا كفارا

كما هو الحال مع القوات البريطانية وقد امرنا ديننا بان نعتصم بحبل الله ولا نتفرق والمصريون اخوان لنا ليسوا باغين ولا معتدين وليسوا طامعين ولا غاصبين فلنتفق على كلمة سواء بيننا والحق أقول أننى أول المرحبين بيد العون التى تمتد الينا ونحن فى ظلمة الإحباط وعلى شفى حافة اليأس.

وكان الحضور صامتين كلهم إذان صاغية للشيخ الجليل ثابتين فى اماكنهم وكأن على رؤسهم الطير وتسرى بين الحين والحين همهمة تعبر عن التأييد ومباركة كلام شيخهم وعندما توقف الشيخ عن الكلام اشرابت العيون اليه تطلب المزيد وتطاولت الإعناق نحوه تلتمس النصح والتوجيه السوى السليم وعاد مرة اخرى الشيخ الى الحديث فى كلمات كخاتمة لما بداه وتحدث فاشار الى ترحيبه القوى بوصول اليد المساعدة للاخ الكبير قريبا من البلاد ونادى بضرورة اتحاد الأفراد يدا واحدة والعدو واحد وانهى حديثه بنداء مأثور الله أكبر الله أكبر وردد الحضور هذا النداء المبارك وانفضوا إلى خارج المسجد أكثر تقاربا وتلاحما وتآزرا وترحيبا إلى الآخ الكبير الذى جاء اليهم ساعيا لمعاونتهم ولم يكن غريبا أن يكون بين الحضور من الذين يستمعون لكلام الشيخ بعض عيون المخابرات البريطانية والذين سرعان ما نقلوا صورة تفصيلية لحديث الشيخ الجليل وحتى احاديث وتعليقات واراء المواطنين عند خروجهم من المسجد.

وكانت خلاصة راى المخابرات البريطانية أن الترحيب بوجود القوات المصرية فى الشمال ترحيب حار وقوى والأغلبية الساحقة من

المواطنين كانت الى جانب رأى الشيخ فى مسجد العيداروس بل فى المناطق المختلفة من عدن وحتى فى المحميات وبين القبائل الجميع يؤيد ويبارك ويرحب بوجود القوات المصرية فى الشمال بل تضمنت التقارير المرفوعة الى القيادة البريطانية فى عدن بان أهل البلاد على كافة مستوياتهم زادت ثقتهم فى أنفسهم وتعاظم عداءهم للوجود البريطانى.

وتحدث سالم الى نسيبه محمد الكعبى بعد خروجهم من المسجد واشار فى حديثه ان الله استجاب لدعائه وان وقت الإنتقام لوالدهم بات قريبا وايده نسيبة وبارك رأيه ولفت انتباهه إلى موقف المواطنين وتعاظم اختلاف الرأى بينهم قبل دخولهم المسجد للصلاة وحالتهم بعد استماعهم لكلمات الشيخ الجليل وخروجهم من المسجد والتواد والتعاطف اكثر فيما بينهم وبعد ان كان يعلو الصخب وتتزايد الكلمات بل والصراخ هنا وهناك ونراهم وقد سادهم السكون والهدوء وعلا وجوههم الأمل والإصرار وتفرقوا الى غايتهم متحابين متكاتفين وتساءل سالم اليس هذا التحول السريع اشارة طيبة الى حكمة العقلاء والإستعداد الطيب لدى الأهالى.

أول الغيث

استقبلت القيادة البريطانية في عدن وصول القوات المصرية في الشمال بحذر بالغ وتحفظ شديد بل أن التقارير التي كانت ترسلها القيادة البريطانية إلى لندن كانت في معظمها تقارير متشائمة وطلبات متتالية لدعم وتعزيز القوات في عدن ورغم نشاط المخابرات البريطانية في منطقة عدن ورصد مبالغ متزايدة لزيادة اعداد عيونها في المناطق المختلفة ألا أن كثيرا من المعلومات التي كانت تتجمع لدى القيادة البريطانية كانت في مضمونها غير دقيقة وكثير منها غير صحيح ومعلوم أن مصادر المعلومات لتحديد غرض أو توقع حدث من الضروري أن تكون متعددة ومتنوعة حتى يمكن تحليلها وتقدير صحتها وبالتالي اتخاذ القرار المناسب حتى يمكن اجهاض المسببات والحدث قبل وقوعه.

ولكن رصد الأحداث في منطقة عدن اوضحت بما لا يدع مجالا للشك عن ازدياد المعلومات الغير صحيحة والكاذبة التي تصل القيادة

البريطانية إلى زيادة مراكز التفتيش العسكرية الثابتة وكذلك الداوريات المتحركة وضاعفت من منشورات التحذير لجنودها بعدم السير فرادى والحذر فى ارتياد الأماكن العامة كالأسواق وتقليل الخروج بعيدا عن المعسكرات.

على أن يكون الخروج للضرورة ويجب أن لا يقل عن جنديين مسلحين يسيرأن جنبا إلى جنب مع صدور منشورات اخرى تدعو إلى عدم التجول فى المناطق ذات الكثافة السكانية مثل الشيخ عثمأن ومنطقة بوابة إليمن.

ورغم الإحتياطات المتشددة فقد انفجر لغم فى احد المدقات الفرعية من الطريق المؤدى إلى مركز القيادة فى كرتير ونتج عن ذلك تدمير السيارة المدرعة التى كانت لحراسة قول متحرك واصيب اربعة جنود اصابات بالغة ورغم التمشيط الجيد والبحث والتنقيب والإستدلال بمصادر المعلومات الا أن الفاعل ظل مجهولا.

ورغم تعدد أنفجارات الألغام المضادة للعربات فى المدقات الفرعية ورغم الإستنفار الدائم لجهاز المخابرات فى عدن آلا أن المحصلة النهائية للتحقيقات والتحليلات كلها كانت تدور فى فلك دون جاذبية ولذا تستمر الإستنتجات عن الفاعل بدون طائل.

وبزيادة معدلات زرع الالغام الأرضية وتعدد الأماكن المختلفة فى زراعتها واختيار هذه الأماكن بدقة وفهم عإلى للاستخدام الجيد لهذا السلاح واقتصار الإستخدام فى المدقات والطرق الفرعية الترابية التى لا يستخدمها سوى جنود القوات البريطانية فى تحركاتهم بغرض

المراقبة واحكام تنفيذ الخطط الأمنية أو مسارات قولات الآمداد بالطعام والماء.

وفى بضعة شهور قليلة تضاعفت خسائر الأفراد والمعدات ولم تستطع القوات البريطانية فى عدن الإمساك ولو بخيط واهى عمن يكون وراء هذه الأعمال المتكررة والتى كادت المخابرات البريطانية أن تصفها على أنها كارثة وفى ذلك اعتراف بقصور وسائلها ومصادرها وحتى فشلها.

وكأن أمام البريطانيون بديلا لايقاف مسلسل الألغام التى استشرت فى عديد من الأماكن والبديل الأول منع العربات العسكرية من السير فى المدقات الترابية ويترتب على ذلك تعديل اماكن بعض القوات البريطانية وحتى نقط المراقبة والتآمين لتكون على محاور اسفلتية وذلك فى مضمونه متعذر امنيا لأن كثير من مراكز المراقبة من الضرورى أن تكون على أماكن مرتفعة وفى سفوح وقمم جبل شمسأن حتى التلال المنفصلة تعدعسكريا افضل الأماكن اللانذار والأمن ولذلك فصار من الصعب المراهنة على ذلك التعديل وكأن البديل الاخر هو ا لقيام برصف هذه المدقات بالأسفلت رغم التكاليف العالية نظرا لأن هذه المدقات تكون على شكل منحدرات هابطة من أعلى أو المدقات صاعدة إلى أعلى تتخللها ثنيات ونتوءات عنيفة نظرا للمرتفعات وعنف تغير الطبيعة فى جبل شمسأن .

واستقر الرأى على أن تقوم القوات البريطانية برصف طرق الأقتراب الضرورية والإستغناء عن إستخدام المدقات تقليلا للتكاليف

مع الحفاظ على الحد الأدنى لحركة الجنود البريطانيون والحرص على ضمأن تأمين العناصر المكلفة بالحراسة فى أماكن بعيدة وعإلية.

وفى الجانب الأخر ارتفع راى بعض ضباط المخابرات البريطانية للاستغناء عن معظم العمالة الوطنية داخل المعسكرات البريطانية فولاء هذه العمالة غير مضمون وانتماءاتها غير واضحة وأن كانت التحريات للمخابرات البريطانية أن معظم افراد العمالة الوطنية ليس لهم أى ميول مذهبية أو عقائدية، ولم يستدل من تصرفاتهم على مايدينهم ورغم الحاح المخابرات البريطانية بضرورة تصفية العمالة الوطنية ألا أن القيادة البريطانية كان لها رأى أخر فى هذا الشأن فإذا تم الاستغناء عن هذه العمالة الوطنية فليس مستبعدا أن يتم انضمامها إلى التنظيمات المعادية فى عدن بل وتحولهم ليكونوا عناصر فاعله وإيجابية ضد المصالح البريطانية فى المنطقة هذا بالإضافة إلى أن مصادر بعض المعلومات الشبه المؤكدة والتى كان الحصول عليها مفيدا للقوات البريطانية كأن مصدرها بعض عيون افراد العمالة الوطنية التى نجحت القوات البريطانية فى أن تستميلهم لصلحتها وتجعلهم يقدمون لها المعلومات الحديثة عن اجتماعات التنظيمات الوطنية النشطة ومعرفة مصادر تمويل هذه التنظيمات الوطنية الفاعلة مصداقيه استمرارها.. مما يساعد القوات البريطانية على اتخاذ الأساليب الوقائية والدفاعية فى الوقت المناسب ضد هذه العناصر ولذلك رغم قيام القيادة البريطانية بالاستغناء عن عدد قليل من العمالة الوطنية داخل المناطق العسكرية الا انه تم الإبقاء على

الجزء الأكبر وزادت المخابرات من اساليب التفتيش والتدقيق والمتابعة والتأمين المستمر الذى يستلزم الحذر البالغ والحرص الفعال.

وقامت القوات البريطانية باستعواض ما تم الإستغناء عنه من العمالة الوطنية بإستخدام عناصر من جنوب شرق أسيا خاصة الهندية لتسد فراغات احتياجاتها من العمالة التى تخدم وجود قواتها العسكرية.

وبعد وصول القوات ا لمصرية إلى الشمال من عدن صار الحديث والمناقشات لا تنتهى فى مجالس الوطنيين فى عدن وحتى بين افراد القبائل وفى ديوانيات الأهالى حتى المناطق التى كانت مرتبطة بمعاهدات امن وحماية مع القوات البريطانية صار الحديث علنيا وتشعبات الحديث تتحدث بلا خوف عن فرحة وشعور مطمئن لوجود الجنود المصريين قريبا منهم بل أن الكثير من رجالات القبائل ورجالات العقائد المذهبية كانت توجهاتهم إلى طلب مساعدة القوات المصرية فى الشمال حتى فى حالات فك الإشتباكات بين القبائل المتنازعة وإزالة اسباب الصراع بين العناصر والتنظيمات العقائدية ذات الفكر والذى تلون معظمه بألوان مستوردة ودخيلة على البلاد.

ولم يكن يخفى على عيون المخابرات البريطانية تصاعد روح الثقة والتفاؤل بقرب طرد القوات البريطانية المحتلة فى عدن بين الوطنيين.

هذا التفاؤل والثقة استشرت فى انحاء عدن والمناطق القريبة بين رجل الشارع وبين الإنسان القبلى والرعوى فى الوديان والسفوح

والتلال بل حتى فى اعالى قمم الجبال حيث التجمعات السكانية النائية والبعيدة نسبيا عن مجريات الأحداث.

وزادت معدلات اجتماعات التنظيمات العقائدية التى تعددت وتكاثرت مع اختلاف مشاربها وتوجهاتها آلا أن مضمون وجود القوات المصرية فى الشمال حدث بالغ الأهمية ونقطة تحول ايجابية إلى جانب الوطنيين وفى غير صالح الوجود البريطانى وكأن يسود الأغلبية الترحيب بقرب وجود المصريين من دائرة الأحداث فى عدن.

وصار كثير من المساجد هو المكأن المفضل فى المناسبات الدينية والتى فيها يتحدث بعض الشيوخ وكثير من الشباب عن ضرورة مقاومة الوجود البريطانى فى عدن الذى لوث جو البلاد بعد أن كانت هذه البلاد حرة وأهلها متحابون وأن كانت صراعات مختلفة تجعلهم يتقاتلون فيما بينهم لاسباب تعارض المصالح وحب الزعامة حتى انه فى فترة من الفترات كأن فى منطقة عدن والمناطق القريبة منها ما يزيد عن عشرات السلاطين وتندر بعض العقلاء وكانوا يتفكهون بلادهم بلاد المائة سلطان فكل من كأن له بعض النفوذ على بعض المواطنين البسطاء كأن ينصب نفسه سلطان ومعظم هؤلاء السلاطين كان لاحول لهم ولاقوة.

حتى أنه من النوادر الطريقة التى تفصح دون ما حاجة إلى شرح أو إيضاح إلى أى مدى كأن البسطاء من الأهالى يلجأون إلى سلطان منطقتهم لكى يقوم بإستخدام نفوذه ووجاهته بين قومه فى حل بعض مشاكلهم البسيطة ويعيد الحق الى اهله فإذا تعذر على السلطان

القيام بهذه المهمة العادلة البسيطة فيلجأ حواريو هذا السلطان للاشاعة بأنه لم يحل هذه المشكلة ولم يضع الحق فى نصابه لهذه الحالة نظرا لأنه غير راض عن تصرفات المواطنين تحت امره وسلطانه ، ويقوم هؤلاء الحواريون للترويج برغبة السلطأن فى تنفيذ اعمال محددة وفى الغالب هذه الأعمال تكون للمصلحة الشخصية للسلطأن وعندما يقوم البسطاء بالتنفيذ فإنه سيفكر جديا فى إيجاد الحلول وارساء العدل والحق لكل صاحب مشكلة أو حاجة السلطأن فى واقع الأمر ضعيف ولايستطيع معاونة من يستظلون بسلطته ويقبعون تحت تاجه الواهى لأن السلطأن نفسه فى حاجة ماسة للمساعدة وطلب العون حتى أنه فى كثير من الأماكن بعد طرد الإمام من صنعاء صار الكثير من الأهإلى لايذهبون لصلاة الجمعة وعندما يتم استيضاح هذا التصرف المخالف للدين وتعإليم الإسلام يجيب البعض كيف تتم صلاة الجمعة بدون وجود إمام لقد ذهب الإمام فلا صلاة للجمعة بعد ذهابة فصلاة الجمعة بدون امام باطلة وكأن ذلك الخطأ الفاحش الذى يخالف الدين هو نتيجة تشار ما كأن يدعيه الإمام ومنافقوه وفى درجة اقل ما كأن يدعيه سلاطين المناطق ومنافقوهم من قدرات فائقة.

أنه بعد تواجد عدد من المتعلمين الذى حصلوا العلم من الشمال والغرب والشرق خارج البلاد بدأت تنحسر عن المواطنين بعض الأفكار والضلالات التى كان سائدة سنين عديدة.

ولذلك كلما زاد عدد المتعلمين زاد انحسار الأفكار العتيقة البإلية وتزايدت شعارات حماسية عن الحرية والإستقلال وطرد المعتدين

مـهـمـا كـانت قـوتهـم وعتـادهـم ومـالهـم من جبـروت وسـيطرة وتنوعت الأفكار الهادفة وغير الهادفة فى كثير من الأحوال وتعددت المذاهب ومعظمها كانت مذاهب وعقائد واهية وشعاراتها اضخم بكثير من مضمونها ولذلك زادت الصراعات والخلافات والنزاعات بين الجماعات المختلفة ولكنها اجتمعت فى معظمها على اللجوء إلى جانب الاخ الكبير لطرد القوى المحتل الذى يملك القوة العظمى والمقدرة والتفوق البالغين.

بقدر ما كان الارتباك يكاد يصاحب تصرفات القيادة البريطانية بعد وصول القوات المصرية فى الشمال بقدر ما كأن التنازل والتسامح يزداد بين اصحاب العقائد بين مختلف العناصر مهما كانت هوة الخلاف عميقة ومتباعدة.

وصدر عن المخابرات البريطانية تقارير إلى القيادة تشير إلى وجود عناصر من المصريين فى تعز وعناصر متقدمة فى بلدة البيضاء بل وصلت التقارير فى بادىء الأمر إلى الإشارة إلى وجود بعض المصريين فى مناطق حول عدن وهذه التقارير مهما حوت من مبالغات آلا أن اهتمام القيادة البريطانية فى كرتير كانت توليها العناية الفائقة وتضع فى خططها المستقبلية القريبة توقعات زيادة الإعباء الأمنية واحتمال زيادة معدلات التحرشات بين الوطنيين وبين القوات البريطانية وبتعزيزات معنوية وفكرية ومادية من قيادة القوات المصرية فى الشمال وخاصة العناصر المتقدمة ذات الخصوصية العالية والفاعلية المؤثرة بالغة التأثير والتى تمركزت قيادتها فى تعز.

ولم تكن القيادة البريطانية فى عدن فى حاجة إلى التنبؤ بأن عامل الوقت على المدى المتوسط لن يكون فى صالحها مادامت القوات المصرية تواجدت فى الشمال.

وسريعا ما بدأت بشائر الأحباط وزيادة القلق ينتابان القوات البريطانية في عدن فبعد أن اطمأنت بعض الشيء بعد رصف المحاور الفرعية والطرق الصاعدة والهابطة إلى المراصد الأمنية التى أنشأها البريطانيون وتوقعت أن تخف مع مرور الوقت وقوع الهجمات باستخدام الألغام فى كريتر إلا أن الهجمات استمرت والجديد فى الأمر أن الشاحنة البريطانية كانت تسير على طريق اسفلتى جيد الرصف والإنفجار حدث بعد بوابة كريتر العسكرية بمسافة لا تزيد عن كيلو متر واحد.

ولشدة الخسائر فى الجنود حيث أن الشاحنة كأن بها ثلاثة جنود غير السائق وكانت تحمل بعض صناديق الذخائر وعندما حدث الانفجار ساعد انفجار الذخائر إلى قتل جميع ركاب الشاحنة وتدمير محتوياتها بالكامل.

واسرعت فرق الأمن والجماعات الطبية واحاطت بالمكأن وكأن ما شد انتباه الجميع أن الانفجار اللغمى تم تحت الطبقة الأسفلتية وهذه غير مألوفة من قبل وقام افراد متخصصون فى القوات البريطانية بتجميع الشظايا المتبقية ورسم الكروكيات وتحليل حفرة الإنفجار وافصح التقرير النهائى أن اللغم الأرضى الذى انفجر كان من نوع جديد غير السابق استخدامه فى المدقات الغير مرصوفة وأن اللغم

قد تم وضعه بعد حفر مكأن وسط الأسفلت على قدر مساحة اللغم والطريقة الحديثة فى الاستخدام كانت تشير إلى أصابع المصريين فقد تم تغطية اللغم بخيش مبلل بالقطران مع اضافة بعض الأتربة ومعالجتها ليصبح لونها مماثل للون الأسفلت حتى أن الذى يراه لا يفرق بين مكان اللغم وباقى الأرض الأسفلتية ،أستخلص التقرير النهائى أن أسلوب زرع هذا اللغم اسلوب جديد على الوطنيين فى عدن بالإضافة إلى أن اللغم نوعية مختلفة ورغم أن الخسائر لم تكن ضخمة بالنسبة للقوات البريطانية فمصرع اربعة جنود وتدمير شاحنة امر مقبول فى تحركات الجيوش خاصة فى اراضى معادية.

آلا أن تحليل التقرير اشار الى أن الطريقة الجديدة لوضع اللغم وطريقة اخفائه بحيث لا يمكن تمييز مكان وجوده آلا بالفحص القريب والدقيق ومن المتعذر على السائق أو ركاب أى عربة تمييز مكان اللغم عند الإقتراب من موقعه هو أسلوب جديد ذكى وان يدا خارجية معاونة ظهرت اصابعها فى طريقة الترتيب والتنفيذ واصبحت المحاور الأسفلتية الرئيسية والطرق المستخدمة بواسطة القوات البريطانية غير امنة ومستهدفة والعربات التى تسير على هذه الطرق مهددة بخطر انفجار الألغام.

ومما زاد من خطورة تحليل الحدث ونوع الإنفجار وقوعه على مسافة ليست بعيدة عن مكان بوابة التفتيش الرئيسية والتى يحرسها جنود بريطانيون ومعهم اسلحة قوية كافية وما زاد من غرابة الموقف الصعب ان الإنفجار حدث فى منتصف النهار وان عربات وشاحنات

مـرت قـبل نلك على هـذا الطريق فى نفس يوم الأنفـجـار مما يؤكـد أن عناصـر التنفيذ كانت تراقب حـالة عـبـور السيارات جيدا وان التنفيذ وتركـيب اللغم فـى الأسـفلت تم فى وضـح النهـار ولابد أن تحـركـات الوحدات البريطانية اصبحت تخضـع للمراقبة وان العناصـر المنفذة صارت تتبع فى تنفيذها اسلوب مدرسة علمية ذكية.

وسـريعا مـا انتشـرت بين مناطق عدن حـادثة اللغم الأسـفلتى وتابع الكثـيـر من الأهالى فى مـجـالسـهم وفى ديوانيـاتهم بفـرحـة وتشـفى الحديث عن هذا الحدث الجديد ولم يسلم البريطانيون من التعليقات الوطنية السـاخرة فـالقوات البريطانية فى عدن قوية كثيرة لاتنافسـها قوة فى المنطقة ولديها المعدات والأسلحة من مختلف الأنواع والأشكال ولكن من الواضح انها باتت شبه عاجزة امام اعمال ذكية مثل اللغم الأسفلتى وسـرت بين المواطنين فكاهات لها مـغزى ومـعنى واشـارات محسومة السبب ناحية وجود الأخ الكبير فى الشمال.

وتكررت حـوادث الألغـام الأسـفلتية وتزايدت معدلات الخسـائر بين الجنود مما ترتب على ذلك ضرورة اضـافة قيود وتفصيلات امنية على تحـركـات البريطانيين وصـدرت التعليمـات المتتـالية بضـرورة ان يتم تقنين الحـركة على الطرق الأسـفلتية لتكون على هيئة قولات يتقدمها جمـاعة تأمين خاصة لفحص الطريق امام القول المتحـرك وعلى ذلك كانت القـافلة المتحـركة تسير ببطء شديد نظرا الى أن عناصـر تأمـين الطريق الأسفلتى كانت تقوم بمهمتها مترجلة البعض يسير متقدما لفـحص الطريق بالنظر وخلفه بقليل عناصـر تحـمل اجـهـزة لكشف

المعدن والألغام التى تم اخفاؤها بين الأسفلت ولذلك فكان معدل سير القافلة الراكبة نفس معدل السير للعناصر المترجلة التى تسير امامها فصارت تحركات القوات البريطانية مقيدة وقوتها مغلولة ومرونة استخدام اسلحتها القوية ضد المفاجآت قاصرة هزيلة واذا نظرنا من منظور عسكرى بحت إلى تلك القيود على التحركات لقوات ضخمة لها قواعد وقيادات متمركزة فى أماكن مختلفة ولديها مخازن للذخائر والسلاح وتحتاج الى امدادات بالطعام والشراب بصفة مستمرة ومنتظمة لتصورنا مدى التضرر والإحباط الشديد التى صارت اليه خطط وتنظيمات تواجد هذه القوات فى عدن.

فإذا كان الطريق طويلا فالجنود المترجلون امام القوافل المتحركة والمكلفون بتأمين الطريق كانت محدودة الجهد فيجب استبدال الجنود القائمون باستكشاف الألغام الأسفلتية بعد كل ساعة سير وفيها يتم سير القول مسافة لاتزيد عن اربعة كيلو مترات وهى المعدل التقريبى لسير الجندى الراجل فإذا كانت المسافة مضاعفة فإن جنود التأمين البريطانيين يتم مضاعفة عددهم ولذلك فإن المشاكل تتفاقم كل يوم خاصة إذا كانت مقاصد القول المتحرك ليست واحدة فاجزاء من القول تتجه إلى الميناء واجزاء اخرى تتجه الى المعلا واجزاء اخرى يجب ان تتجه الى المخازن البعيدة قريبا من بوابة اليمن ولذلك فإن تنظيم الحركة تفاقمت كمشكلة امنية يومية فى اجندة قيادة القوات البريطانية ومما زاد من صعوبة الأمر وتطوره حدوث المتغيرات السريعة والمستحدثة وأن القوات البريطانية اصبحت عاجزة عن القبض على أى واحد من الوطنيين الذين يقومون بتنفيذ الأعمال

العدائية وعجزت العيون المنتشرة فى كل مكان أن تقدم ادلة عن الفاعلين أو من هم وراءهم وساد بين القوات البريطانية هاجس الأشباح فالاعمال العدائية مستمرة ومتنوعة والمنفذون يختفون ولا يتركون اثرا وحتى اذا ابلغت عيون الرصد عن عناصر نشطة من الوطنيين واشارت التحريات الى ضلوع هذه العناصر فى الإعمال العدائية للقوات آلا أن الادلة التى تجعل قرار القبض عليهم مقبولا لم تكن متوافرة ولم تلجأ القوات البريطانية الى القبض على بعض الوطنيين النشطاء خوفا من تصاعد حدة العداء فى المناطق الشعبية الوطنية وما يترتب على ذلك من اثار سلبية على علاقة البريطانيين باعوانهم وعيونهم الراصدة والمفيدة لهم وتحسبا لتعرض هؤلاء المتعاونين لأنتقام الوطنيين وما قد يترتب على ذلك من انحسار هيبة القوات البريطانية فى عدن.

ولذلك كانت القيادة البريطانية تتحرك بحساب دقيق ورغم الخسائر المتلاحقة فظلت اوامرها بعيدة عن الإنفعال لا تحدث نكسة قد لا تستطيع تقليل اثارها واخطارها وفى نفس الوقت كان من الصعب على القوات البريطانية ان تستمر فى الخضوع لهذا الضغط العنيف وتجاهل القيود المؤثرة على تحركات وحداتها بالسرعة والحرية المناسبة والتى نجح الوطنيون فى فرضها واجبار القيادة البريطانية للالتزام واللجوء إلى شبكة معقدة من الترتيبات الآمنية والتحفظات العسكرية والواقع الجديد لزيادة الروح العدائية فرض على القيادة البريطانية اعباء جديدة ولذلك عمدت القيادة العسكرية فى كريتر بالإضافة الى تقليص التحركات العسكرية الى الحد الأدنى

وتكثيف الترتيبات الأمنية الى المدى المناسب ولجأت الى ترتيب اوضاع قواتها بصورة جديدة فى منطقة عدن وصوبت تخطيطها لكى تكون كل وحدة فى معسكرها لديها شبه اكتفاء ذاتى من الإمداد والتموين لاستمرار كفاءة الحالة القتالية للوحدات وضمان كفايةالأعاشة للجنود فى مواقعهم.

واعتمدت على شاحنات النقل المدينة التى كانت تؤجرها من التجار لنقل ما تحتاجه من مؤن طازجة حتى إلى داخل المعسكرات على أن يتكفل المقاولون الوطنيون بتوصيل كافة الأغراض المطلوبة الى الوحدات وبإستخدام سائقين وعمال من أهل البلاد وتقليص حركة الجنود البريطانيين إلى أدنى مستوى ماعدا التحركات الضرورية والملحة والتى لاغنى عنها وليس متوافر البديل المناسب ولقد ظهرت اثار هذه الخطوات والأساليب الجديدة فى سياسة القيادة البريطانية لمواجهة الأخطار المتصاعدة لاعمال الوطنيين الفاعلة ضد قواتهم وانفجرت بعض الألغام التى وضعها الوطنيون فى شاحنات وطنية وعربات يستخدمها الأهالى ونتج عن ذلك خسائر فى الأرواح والأليات المدنية المستخدمة.

وعمد البريطانيون الى توقيتات مختلفة لتحرك قوافلهم العسكرية حتى بات الأمر متعذرا على العناصر الوطنية ضد القوات البريطانية الاستمرار فى استخدام اسلوب واحد وان تراجع هذه العناصر احتمالات متباينة لتنفيذ عملياتهم فى الوقت الملائم وازدادت صعوبة الرصد والتخمين لتوقيت مهاجمة الهدف فبعد ان كانت القوافل

العسكرية تتحرك بصفة منتظمة وفى توقيتات معروفة مما يجعل هذه التوقيتات التى تتسرب الى العناصر المتربصة فتقوم بهجماتها الناجحة زاد الأمر صعوبة فقيادة القوات البريطانية سمحت للشاحنات والعربات الخاصة بالأهالى بالمرور على طرق كانت محظورة الا على تحركات البريطانيين وصارت الشاحنات وعربات الأهالى بمثابة دروع وقاية نسبية للقوات البريطانية المتحركة وظهرت اضافية نفذها البريطانيون بشكل غير مسبوق فبدأت طائرات هليوكوبتر للمراقبة تمر على الطرق القريبة المؤدية الى القواعد البريطانية وخاصة اذا كان قول القوات البريطانية قد صدرت اليه الأوامر بالتحرك فكان من الملاحظات الجديدة أن تسبق هذا التحرك طائرة مراقبة هليوكوبتر مسلحة برشاشات وقد تكون طائرتين احدهما تكون قبل القول المتحرك بمسافة والأخرى بعد زيل القول بمسافة محسوبة.

ورغم أن عمليةزراعة الألغام واخفائها ازدادت تعقيدا فكان بين الحين والأخر ينفجر احد الألغام المزروعة بعناية فى احد عربات القوات البريطانية المتحركة وذلك لان العناصر الفاعلة اخذت للمراقبة المتقدمة وعند اقتراب حافلات القوات البريطانية يتم التبليغ إلى عناصر التنفيذ القريبة والتى سبق لها اعداد وتجهيز كل ما يتعلق بزرع اللغم وعندما يتم استقبال الإشارة المتفق عليها من عناصر المراقبة يتم التركيب والأخفاء والتموية فى سرعةبالغة وكانت لغة الإشارة هى وسيلة التخاطب بين عناصر المراقبة والعناصر التنفيذية وكانوا يستخدمون مرايا عاكسة للضوء فى النهار وكاشفات اضاءة

صغيرة فى الليل وقد يلجأون الى استخدام قماش ذا لون معين يمكن تمييزه بالنظر.

ولكن خفت حدة الصراع بإستخدام الألغام نسبيا بعد ان تضرر بعض المواطنين من انفجارها فتعاظمت الخسائر بينهم ومات وجرح منهم عدد غير قليل وهنا بوعى وتفهم راق من قيادة التنظيم الوطنى ثم تقليص استخدام هذا السلاح ألا فى الحالات المؤكدة ضد البريطانيين.

فرغم ان التنظيمات الفاعلة فى عدن ضد الوجود البريطانى كانت كثيرة آلا أن الخلافات بينها كان لا يهدأ له فكر ولا يلتقى حتى على الحد الأدنى من تباين وجهات النظر رغم أن هدف الجميع هو طرد البريطانيين من عدن وهذا شعار مرفوع من معظم التنظيمات والتوجهات الا أن هذا الشعار لم يكن شفيعا لدرء النزاعات الشخصية والعقائدية التى كانت سائدة وقد تفهمت القيادة البريطانية هذه الحالة بذكاء واقتدار ولعبت مخابراتها على اوتار هذه الخلافات ونجحت فى اختراق بعض التنظيمات وجندت تنظيمات فى اذكاء روح الفرقة والإنقسام بين الأخوة اهالى البلاد وازدياد العيون التى تعمل لصلحتها فقد كان تواجد الأخ الكبير فى الشمال قريبا وقامت العناصر الوطنية بالإتصال طلبا للمساعدة ضد البريطانيين وحدثت نتائج طيبة ومبشرة نسبيا لتقليص حدة الفرقة التى زرعت بين الأخوة اصحاب المصلحة الواحدة وعملت القيادة البريطانية بكل قوة فى زيادة حدة الخلافات فما نجحت فيه القيادة البريطانية كان مؤقتا

بعد أن زادت فاعلية الأخ الكبير فى رأب التصدع ورتق النزاعات بل ووأد الدسائس ونزع بذور الشر التى نجح البريطانيون فيها نجاحا محدودا وصار الحدث المتداول بين التنظيمات لاشعارات فوق شعار طرد البريطانيين من عدن ولا قوة وعون إلا بالمصالحة الوطنية والتعاون بين الفرقاء وقبل الجميع ان تكون المصالحة وتوحيد الجهد ونبذ الخلافات تحت عباءة الاخ الكبير في تعز لقد وافقت التنظيمات رغم اختلاف توجهاتها على ذلك الأساس ونجح الأخ الكبير فى نزع فتيل الإشتعال واسباب النزاعات بين الوطنيين.

الأخ الكبير فى تعز

اقام الأخ الكبير فى تعز مركزا متقدما لمعاونة التنظيمات المختلفة فى عدن والعمل على اصلاح ذات البين ومعاونة العناصر الفعالة فى مقاومتها لاحتلال عدن.

واختار مجموعة من الرجال تتميز بالذكاء والخبرة وبعد النظر لادارة هذا المركز ولها من القدرة والصبر عيار مميز فى مواجهة الصعاب والتغلب على التعقيدات والإلتفاف حول قوة القوات البريطانية المتفوقة بالمرونة والكياسة والصبر.

وتعز مدينة صغيرة تقع على مجموعة تلال ويطل عليها جبل صابر الشامخ من الشرق والجنوب الشرقى وتعلو هامته قرية منفردة بيوتها ذات الألوان الزاهية تسمى قرية صبر كما يسميها اهل البلاد ورغم وجود القوات المصرية بكثافة عالية فى صنعاء وفى الشمال اقتصر الوجود المصرى فى تعز على عناصر ذكية مدربة ومؤهلة تأهيلا راقيا من النخبة المصرية.

ويقع فى جبل صبر فى الشمال الشرقى مبنى يسمى قصر الأمام تجاوزا لان المبنى فقير العمارة مبنى من الحجر الغير منتظم ومكون من دورين ويتكون الدور الثانى من ممر طويل نسبيا على جانبه حجرات بسيطة التجهيز وخالية من أى ديكورات معمارية اما الدور الأرضى من المبنى فكان به حجرة بعد بوابة المدخل مباشرة بغرض استقبال الزوار تمهيدا لمقابلة الأمام فى الدور العلوى والحجرة عارية من النقوش وارضية الحجرة عبارة عن قطع من الأحجار مرصوصة بدون تنسيق وكثير منها غير مثبت بأى مواد لاصقة وبعض هذه الأحجار متآكلة من كثرة الدهس عليها.

ويقع خلف المبنى قفص حديدى مستطيل ويطل هذا القفص على المدق الصاعد من تعز ويوجد فى القفص بعض الأسود الهزيلة ولايصدر عنها اى صوت فهذه الأسود سيئة التغذية والرعاية حتى وصلت حالتها ان لا تستطيع الزئير وهو السمة المميزة للاسود نظرا لعدم قدرتها عليه لشدة ضعفها حتى صارت عظامها بارزة ومن يراها وتكاد تكون هيكل عظمى لاسود لايربطها باسباب الحياة آلا حركة بسيطة فى مشيتها ونظرة كليلة من عينها ورغم ما بها من سوء تغذية وجوع شديد آلا أنها تكاد تكون مستأنسة ويقوم على رعاية هذه الحيوانات التى يطلق عليها اسود مجازا شيخ طاعن فى السن يمد يده ببساطة من بين فتحات القفص الحديدى إلى فمها ليظهر مدى سيطرته عليها لكل مشاهد ولكنها لا تأبه بالمداعبات فلا تقوى على الزئير ولا تقوى على الحركة ولا يربطها بالحياة سوى عينيها المسالمتين اللتين تتحركان فى ذهول مستمر.

وامـام هذا المبنى يوجـد مـبنى أخـر من دور واحـد وفى داخله حجرتين وامامهما صالة وساحة ارضها واسعة بها بعض التكسيات من البورسلين القديم الباهت وتتوسطها نافور لا تعمل صغيرة ولكن نقوشـها لازالت بحالة جيدة وتطل هذه الصالة على انحدار جبلى شديد يبلغ مئات الأمتار يجرى في أسفله مجرى مائى على فترات متقطعة طوال العام.

وفى الناحية الشمالية من المبنى تقع بعض المبانى البسيطة المكونة من دور واحد بعضها من قطع الأحجار المختلفة الأحجام المرصوصة فوق بعضـها بلا نظام ولا دقة ولا أسلوب هندسى وتقع هذه المبانى على سـفح من سـفوح جـبل صـابر والمطل فى شـمـوخ ورهبـة نظرا لارتفاعه الشديد.

والمبنى الصغير هذا كان عبارة عن ديوانية ومصيف للامام قبل قيام الثورة اليمنية وكان يستخدم المبنى الكبير لبعض مقابلات عناصر الوطنيين من عدن مع عناصر الاخ الكبير اما المبنى الرئيسى الذى كان يتمركز فيه عناصر الاخ الكبير فكان مبنى حديث يتكون من ثلاثة ادوار وحوله سور لا يزيد ارتفاعه عن متر ونصف المتر ولكى يكون الاخ الكبير اكثر قربا دفع عنصر من عناصره التى تم اختيارها بعناية الى بلدة البيضاء التى تقع فى الجنوب الشرقى من تعز وقريبة من بلاد اليافعى والعوالق وشبوه حيث يربطها بهذه المناطق طريق صالح لمرور السيارات والشاحنات ويتدرج للانخفاض فى اتجاه ساحل المحيط شرق ميناء عدن وفى نفس الوقت دفع عنصر اخر الى

الضـالع والتى كـانت تقع على الطريق الرئيـسى المؤدى الى الشـيخ عثمان فى عدن.

وتعز مدينة صغيرة وهادئة وجوها معتدل طوال ايام السنة وتسقط الأمطار عليها فى فترات ليست متباعدة والمدينة مبنية فوق عدة تلال عنداقدام جبل صابر العالى والأهالى فى تعز اكثر هدوءا واقل حدة فى حياتهم ومعظمهم يعمل بالتجارة والزراعة وترى من تعز تلال الجبال المحيطة المزروعة وقد تم تجهيز هذه التلال على شكل مدرجات مزروعة بانواع مختلفة من النباتات تسر الناظر اليها وترى هذه النباتات وفيرة الإنتاج لان الأرض قوية وفتية ونظرا لان تعز عدينة هادئة واهلها اقل عصبية ومسالمين ونعرات القبيلة فيها قليلة نسبيا فلم يكن فيها الا عدد قليل من الجنود المصريين وكان شاغلهم الرئيسى استتباب الأمن بالتعاون الوثيق مع مسئولى الأمن اليمنيين.

وقد تميزت العناصر التى ارسلها الاخ الكبير من المصريين فى تعز بالذكاء والكياسة والخبرة وعمق الممارسة ودراية باساليب وتنوع الأعمال الفنية عالية المستوى ويمكن باختصار الإشارة الى أن هذه العناصر كانت تجيد حرفة العمل وتحسن استخدام المؤثرات المتقدمة والوعى بتدريب الأفراد بمستوى راق ومميز.

وبدأت تتوافد على المقر الجديد للأخ الكبير فى تعز عناصر مختلفة من اليمنيين فى عدن وما حولها وفرقاء مختلفين احيانا ومتصارعين احيانا اخرى يطلبون لدى الاخ الكبير الحل والدواء وافراد عقائدين شتى عندهم اراء متباينة ونزعات متعارضة ورغبات

واهداف لا تحصى ولا تعد وعناصر دخيلة وعميلة ومن عيون القوات البريطانية للاستقصاء والترصد بالعناصر الفاعلة التي تبغى تحرير الوطن وتوافد عدد أخر من فرقاء هدفهم الكسب وبيع الكلام الرنان لعل صداه يبلغهم مرامهم ويوصلهم الى غايتهم فلم يكن معنى الشفافية شاملا وفود القادمين إلى المركز المصرى فى تعز وان وجد ولم يكن الكل مرادهم تحقيق الغرض السامي لتحرير الأرض وطرد القوات البريطانية من البلاد بل كان بين ذلك شوائب طامعة ومريدين راغبين مغنما شخصيا.

وكان باب الأخ الكبير فى تعز وراءه مجموعة من الرجال ذوى القدرة على النفاذ والتغلغل الى مختلف هذه النفوس البشرية رجال لهم من التدريب ومن الكياسة يقومون بالتمييز والفرز الجيد وتحليل العينات البشرية امامهم معايير تقديرية تفرق بين الجاد والهازل وتفصل بين من يبغى هدفا ساميا راقيا لتحرير بلاده ومن له رغبات شخصية محدودة وحتى من جاء يبغى على اهل المكان لصالح اعداء البلاد وكان فرز هذه الطوائف المتعددة الألوان والمشارب والأمزجة التى تأتى الى الأخ الكبير طالبة للمساعدة والعون فصارت مهمة الاخ الكبير صعبة ودقيقة وحساسة لكى يتم التمييز بين الغث والثمين ويميزوا بين الرغبات الوطنية الحقه والأخرى ذات الازدواجية الرغبات واللون وتلك تسعى إلى الكسب الشخصى.

الكل وطنيون على الشيوع ولكن التمييز بين الوطنى الفاعل لمصلحة وطنه الكبير والوطنى الذى تلوثت نفسه بفعل احتكاكه

واتصاله بقوات الإحتلال البريطاني كان يحتاج الى مصفاه وميزان حساس.

ولحسن الحظ فان الغالبية كان مقصدها شفافا ومرادها طرد القوات البريطانية وان تباينت الأساليب والطرق المؤدية للهدف والأقلية المتطفلة على الهدف السامي والمقصد الكريم لتحرير الأرض سريعا ما كان يتم كشف النقاب عن اغراضها الحقيقية وتترجم شعاراتها البراقة الى ما يتم تنفيذه على أرض الواقع ولذلك فان هذه العناصر الدخيلة والمتطاولة على الوطنية الحقيقية سريعا ما ينفرط عقدها وتذهب مذاهب بعد أن ينحسر عنها غطاء التلون ويزول منها جلد الحية التى تتقمص.

ولذلك كانت مهمة الرجال فى تعز مهمة متعددة التعقيد متداخلة الحساسية صعبة الفصل والحسم وقد واجهت هذه المجموعة المصرية المختارة فى تعز ذلك فى اسلوب مرن وتقدير واعى ومستوى راقى من الأخذ والرد والإستيعاب والتمييز الجيد والحسم الأخلاقى بما يضع النقاط فوق الحروف ويمد الجسور الحقيقية الى الهدف المشترك الغالى وهو طرد القوات البريطانية من عدن.

ولم يمضى وقت كبير آلا وبدأت دار الاخ الكبير فى تعز تصبح مقصدا للوطنيين وان اختلف الوانهم وعقائدهم ولكن بعد ان انسلخ معظم الدخلاء والمتطفلين وانكشف معظم امرهم وطفت نواياهم الغير مخلصة.

وللحقيقة فان الوطنيين اليمنيين المخلصين كانوا الأكثرية الساحقة والسواد الأعظم ولكن لا يسلم الأمر من دخلاء وعملاء فى كل تاريخ

وزمان ينحرفون عن الهدف الأسمى للمجموع وذلك لدوافع شخصية متعارضة ومأرب شتى أو حتى يعملون ضد الهدف السامى المستهدف.

وكان الهدف واضح ومختصر اما رجال الاخ الكبير فى تعز فمساعدة الوطنيين هدف محدد ومد يد المساعدة لعناصر المقاومة فى عدن وما حولها سياسة مقدسة وموحدة والمستهدف وضع الأيدى على الأيدى والإعتصام باليد الواحدة فى قوة وصلابة حتى يخرج اخر جنود الإحتلال البريطانى من عدن.

والسير مع الوطنيين المخلصين فى الطريق نحو الهدف المنشود وتحقيقا للامال المعقودة كان بالنسبة لعناصر الاخ الكبير فى تعز يسير على صراط من شواظى ملتهبة عليهم ان يحافظوا على شعرات الحساسية بين التنظيمات المختلفة بل والمتصارعة ويحصلون على الحد الأدنى من الترابط والتآزر بين الجميع.

وكان من حسن الفطن ان يعمد رجال الاخ الكبير بعد ان استقر مكانهم فى المبنى الرئيسى ان يتم تجهيز جزء من مقر الأمام السابق فى سفح جبل صابر كمركز للتدريب والتجهيز للعناصر الوطنية - فى ترتيب منطقتى ارتكاز متقدم احدهما فى البيضاء والأخرى فى الضالع وكان غاية هاتين المنطقتين الأماميتين الأستناد الى رؤية الأحداث المتتابعة داخل عدن وفى منطقة السلاطين حولها وكذلك استقراء لردود الفعل للقيادة البريطانية وجهاز مخابراتها والعمل على ايقاف المخططات المعادية للقوات المصرية فى الشمال.

وكانت مخاوف القيادة البريطانية من تواجد القوات المصرية فى الشمال فى محلها وسريعا ما ظهرت نتائج واثار هذا التواجد على الأحداث والاعمال المعادية للبريطانيين فى عدن سواء فى تطوير آلية الاعمال العدائية للجنود أو تحقيق شروخ بين القيادة البريطانية واعوانها فى الداخل.

وبدات القيادة البريطانية منذ اللحظة الأولى لوصول القوات المصرية فى الشمال تدرس وتحلل الأحتمالات والتقديرات المستقبلية واتجهت الى تقوية الوسائل الدفاعية فى عدن وما حولها مع تقليل الإعتماد على استخدام الوطنيين داخل المعسكرات البريطانية وتكثيف العيون وإعادة تنظيمها وترتيبها لسرعة الحصول على المعلومة والعمل على الحد من النتائج السلبية ومن ناحية أخرى كان هناك من ينادى بفرض القوة ومباشرة الأسلوب الهجومى ومد السيطرة البريطانية الى ما بعد لحج وحتى ردفان ضمانا لهيبة بريطانياالعظمى واستمرارا للوجود البريطانى فى عدن لما فى ذلك من تحقيق المصالح العليا وكان وراء هذه الدعوة الصارمة القادة العسكريون للقوات البريطانية بالإضافة الى وضع حجم التهديد للوجود المصرى فى الشمال فى حجمة الحقيقى المحدود ومحاولة حصر تأثيره.

وكان بعض السياسيين فى لندن يرون ضرورة تقوية وتفعيل معاهدات الحماية المعقودة مع بعض المناطق اليمنية والإعتماد على مساعدتهم واستمالتهم الى جانب استمرار الوجود البريطانى فى عدن مع ترتيبات دفاعية حول عدن وزيادة المراكز المتقدمة ودفع دوريات مشتركة بغرض توفير التأمين المستمر مع الحرص على تقليل الإنتشار الى الداخل.

وان اظهرت الأراء والتحليلات المختلفة تناقضا فى تقديرات الموقف الجديد فإن مدلول ذلك ان الأثر المباشر على القوات البريطانية كان مربكا ومقلقا للبريطانيين في عدن.

آلا أنه الى جانب الأراء السابقة والتقديرات التى تلت تواجد القوات المصرية فى الشمال ترددت بعض الأصوات الضعيفة في لندن وظهرت اراء جديدة على خجل واستحياء تنادى بسحب القوات البريطانية من عدن بعد التغييرات التى طرات على الساحة العالمية وانحسار النفوذ العالمى البريطانى وتقلص الأمبراطورية البريطانية وانسلاخ الهند عن بريطانيا بحصولها على الاستقلال وتعاظم حجم التيارات المناهضة الاستعمار وتقلص اهمية الوجود البريطانى فى عدن.

ظهرت بعض الأراء العقلانية تنادى بإنسحاب القوات البريطانية من عدن، الا أن هذا الإتجاه لم يكن له صدى وكان باهتا حتى أن مصلحة الأراء الأخرى غمرته بموجاتها القوية واغرقته فى البداية وابتدا ولم يجد مساندة ولا معينا وهكذا تم القضاء عليه وان تعلل اصحاب الرأى الأخر المتمسكين بالعظمة التاريخية والأمبراطورية التي لم تكن تغيب عنهاالشمس يوما ما والتعلق بالتقاليد بضرورة قتل الوليد الرأى في بدايته للمصلحة لعليا للبلاد.

ورغم ذلك فإن وجود المصريين فى شمال عدن صار امرا لايمكن اغفاله او التهوين من شأنه خاصة بعد أن تأكدت قيادة القوات البريطانية من الإتجاه الوطنى اليمنى لتأييد هذا الوجود بل وظهور مؤشرات غير خافية ان الوطنيين باتوا ينظرون الى وجود المصرين فى

الشمال كمصدر عون ومساندة لمقاومة الوجود البريطانى فى عدن وزادت لذلك ثقتهم فى انفسهم.

وعمد البريطانيون فى عدن انتهاج سياسة الحفاظ على الهيبة لبريطانيا العظمى فى المنطقة فمبدأ التمسك بالأرض ودعم الدفاع وزيادة حجمه واللجوء الى زيادة اسلوب شراء الأعين واستمالة الوطنيين بالرواتب وتقديم المساعدات العينية المختلفة أصبحت سمة السياسة البريطانية فى عدن بعد قدوم المصريين الى الشمال ولو أن اختلاط الأوراق للمسئول البريطانى فى رسم سياسة واحدة بعيدة المدى جعل الأمر صعبا بعدما تعددت الأحتمالات المختلفة وبرزت المحاذير بتوجهاتها المتباينة وأصبح من العسير على المخططات البريطانية ان يثبت لها فاعلية مستقرة ومستمرة وكأن اقرار سياسة الوضع المؤقت بات امرا مفروغا منه وكأن شعار البريطانيين فى عدن هو أن يبقى الوضع على ما هو عليه مع زيادة معدلات التشديد الامنى وترتيبات محاذير تصاعد المواقف فى أى وقت وابقاء مختلف الاحتمالات المنظورة فى المستقبل القريب تحت السيطرة وهكذا بدأت تتزايد سحب القلق والتوتر على القيادة البريطانية فى عدن بعد وصول القوات المصرية فى الشمال على مشارف عدن وبدأت نبرة عالية المستوى فى استخدام اساليب واسلحة الدهاء بين العناصر المصرية فى تعز وجهاز القوات البريطانية فى منطقة عدن.

الاجتماع الكبير فى الضالع

تزايدت اعداد القادمين الى تعز لغرض مطالبهم واحتياجاتهم بل وحتى لحل خلافاتهم على الاخ الكبير ـ وتعاظم جموع اليمنيين من التنظيمات المختلفة فى عدن وما حولها وكذلك اعداد الراغبين فى تكوين فصائل تنظيمية جديدة وتعددت اسباب الخلافات وزادت عن اسباب التقارب والتوحد امام الهدف المشترك وصار على العاملين فى دار الاخ الكبير فى تعز ان يقرأوا ويبحثوا ويدققوا فى الآراء الكثيرة والمتعارضة المطروحة امامهم حتى يكون تقديم العون ميسورا لطالبيه وان يكون تفعيل دور الاخ الكبير بايجابيه والوصول الى تحقيق نتائج ملموسة بغية طرد القوات البريطانية من عدن.

ورغم أن المكتب الرئيسى فى تعز قد دفع الى الأمام بمركزين فى البيضاء وفى الضالع آلا أن المتوافدين على المكتب الرئيسى كانوا فى ازدياد مستمر ولم يكن يخفى على الأعين المدربة فى المكتب الرئيسى عن وجود عناصر دخيلة من ضمن الوافدين بل وعيون المخابرات

البريطانية جاءت بغرض بعيد عن الهدف المشترك النبيل بين هدف رجال الاخ الكبير وهدف المواطنين الشرفاء القادمين عن شفافية ومقصد عظيم هو اجبار القوات البريطانية على الرحيل عن ارض اليمن.

وكان يتولى قيادة المكتب المصرى فى تعز رجل ذو حنكة وتاريخ طويل من الممارسة والتجربة وكان لايشغله عن هدفه الذى كلفته به القياد المصرية فى القاهرة شاغل ولا ينحرف عن امانة الوصول الى نتيجة الهدف.

ولم يكن رئيس مكتب تعز فى حاجة الى توضيح المهمة لرجالة من اعضاد المكتب وكان فى غنى أن يتشفع باسباب وقيم لحفز همم الرجال، فالجميع يعرفون الواجب الملقى عليهم والحماس لاينقصهم فلقد كان الرجال مجموعة من الأذكياء المخلصين وكان التوفيق فى اختيار نوعياتهم والنجاح كاملا فى فرز خبراتهم وقدراتهم - فصاروا كفريق واحد متناغم ويعزفون جميعا فى ترانيم عالية المستوى شفافة المقصد والهوية.

واختار رئيس المكتب فى تعز احد أبرز رجاله وهو مساعده الفنى ليجتمع بالعناصر الوطنية فى مكان قريب من تعز وتم اختيار الضالع كمكان مناسب لعقد هذا الإجتماع لتطوير نوعية العمل والأرتقاء بأسلوب وتقنية المقاومة الوطنية.

وكان يوما مشهودا فى الضالع فقد احتشدت جموع غفيرة وكأن اهالى عدن حضروا عن بكرة ابيهم ووطنيون من مختلف القبائل

والسلطنات وكثير من المحميات التى سبق وان عقدت اتفاقات حماية مع بريطانيا العظمى ورءوس التنظيمات المختلفة فى انحاء المنطقة والعناصر العقائدية والوطنيون الذين لايستهدفون سوى النضال والوطنيون الذين لهم أكثر من وجه فى التعامل ويجيدون صناعة الكلام وعيون ترقب وتستقبل الحدث عميله للوجود البريطانى.

وعلى ضخامة سعة مكان الاجتماع فوق تلال ومرتفعات الضالع ضاقت بمن أتى من كل حدب وصوب المكان فهذا أول لقاء يجمعهم مباشرة بممثل الاخ الكبير القادم اليهم من مصر وعلى صدر الساحة وضعت بعض المناضد والمقاعد لجلوس رءوس الحشد ومتحدثيهم.

وعند وصول مندوبى المكتب المصرى من تعز استقبلهم وجهاء الضالع ورحبوا بالقادمين ترحيب الاخ باخيه بل وذبحت بعض الذبائح ابتهاجا بهذا الحدث الفريد وكلما مضى الوقت زاد تقاطر الوطنيين الذين يبتغون سماع الخطباء ويشتهون المناقشة وكان ضمن الحاضرين محمد الكعبى ولم يستطع اثناء زوجته فاطمة عن اصرارها الشديد للحضور فحضرت معه ومعها شقيقها سالم وعلى وأن اختلف الغرض الحقيقى من الحضور فيما بين الشقيقين فسالم وطنى نقى نبيل المقصد وعلى تلوث وتلون هدفه بعد مصرع والده وتغلبت عليه نوازعه ورغباته المادية حتى وان كان الطريق الى تحقيقها ملوثا بالخيانة ولم تكن فاطمة السيدة الوحيدة التى حضرت هذا الإجتماع بل شارك فيه اربعة نساء اخريات وبعد صلاة العصر حضر مسئولى بعض التنظيمات العاملة فى عدن وبينهم ممثلى الاخ

الكبير فى تعز وعندما اجتمع عقد الحاضرين قامت مجموعة من شباب الوطنيين غير موحدى الزى فالملبس مختلف وغطاء الراس متنوع وكل شاب يحمل فى يده خنجرا واصطف الشباب فى صف واحد وبدأوا يهتزون يمينا ويسارا بضع خطوات ويقفون ليعود الأهتزاز من جديد وايديهم تحمل الخناجر الى أعلا مع تحريك اليد الحاملة فى حركة دائرة خفيفة ثم يخفضون ايديهم إلى أسفل وتنحنى اجسادهم ورءوسهم الى الأمام والخناجر فى ايديهم لا تتوقف عن الإهتزاز والحركة الدائرية ويصاحب ذلك ترانيم واهازيج يرددونها ثم يلتفون فى دائرة ويكررون حركاتهم والتلويح بخناجرهم الى أعلا وإلى أسفل وأصوات الأهازيج لا تتوقف ولم يكن ذلك سوى رقصة وطنية والغرض منها الترحيب بمندوبى مصر واستمرت هذه الرقصة ما يزيد على عشرين دقيقة ساد بعدها سكون شمل جميع الحاضرين آلا من همهمة هنا وهناك واحاديث متناثرة خافته بين الجالسين.

وقام وجيه القوم وكان يجلس عن يمن المندوى المصرى وطالب الجميع بالهدوء وحسن الإستماع وطلب من بعض الشباب الوطنى المستنير والذى سبق اعدادهم لذلك بأن يقوموا بتوزيع انفسهم فى الحشود الجالسة حتى يمكنهم نقل واختصار الأستفسارات والتساؤلات من الوطنيين مباشرة إلى المتحدثين فى الجلسة.

وفى اقتضاب شديد رحب بمقدم مندوبى الأخ الكبير مصر ـ واشاد بالمعنى الكبير السامى لحضورهم هذه الجلسة واشار الى أن

الأتحاد قوة خاصة أن ما يواجهونه عدو قوى وامبرطورية كبيرة نفوذها عظيم فى كل البلاد.

وقام متحدث آخر من المتميزين ببلاغتهم تسانده عقائدية ظهرت فى تراكيب جملة ومعانيها عند حديثه الى الحضور ولم ينس الترحيب بصفة عامة بقدوم الأخوان المصريين وايديهم ممدودة إلى الوطنيين لتقديم المساعدة والعون.

آلا أن المتحدث بدأ يشرح الحاجة الملحة والعاجلة لمطالب الوطنيين من سلاح وذخيرة وقد نصب نفسه مندوبا عن الجميع وتطرق باسهاب الى نوعيات السلاح المطلوبة بتفاصيل دقيقة وكأنه سبق ان درس ومارس عمليا استخدام مثل هذه الأسلحة.

وكان الملفت للنظر فى حديثه حجم الأسلحة الضخم التى يطلبها من المصريين لتساعد رجال المقاومة فى الداخل حتى ظن بعض المستمعين المستنيرين ان الهدف من هذه المطالب هو احراج المندوب المصرى نظرا لضخامة حجم الأسلحة المطلوبة وكان تعليل المتحدث الوحيد أن سبب ضخامة هذه المطالب لكى يستطيع الوطنيون الصمود ومواجهة الأسلحة الكثيرة المتنوعة فى يد القوات البريطانية فى عدن ولولا بعض الحياء لطالب المتحدث الأخ الكبير بتقديم طائرات لمواجهة الطائرات البريطانية المتمركزة فى خور مكسر فى عدن.

ولولا ان بعض الأصوات تعالت تطلب توقف المتحدث عن الكلام لكى يفسح مجالا ووقتا للاخرين راغبى التحدث حيث ان الوقت ضيق ويجب توفير الفرصة أمام الجميع لتوضيح اراءهم فما كان من

المتحدث الا اخراج زفرات استنكار والتلويح باشارات احتجاج وتبرم واضطر غير راغب الى الصمت والجلوس ساهما تحت اصوات المعارضة.

وقام احد المستنيرين من الوطنيين وكان يلبس الملابس الأوربية خلاف أغلبية الحضور فطالب باقتضاب شديد ان يقوم المصريون بتوفير تقنية عالية من السلاح حيث ان الأعمال التى يقوم الوطنيون بتنفيذها كثيرا ما تنتهى بحدوث خسائر عالية فى صفوف المقاتلين انفسهم خاصة وقد تعرض الكثير منهم للقتل والأصابة وتم القبض على عدد اخر وضعتهم القيادة البريطانية تحت ضغوط وممارسات قاسية لكى يرشدوا إلى رءوس عناصرهم وإلى قادة مجموعاتهم المقاتلة ووضعتهم فى السجون بصورة غير عادلة وبذلك حرمت ساحة القتال من جهد كثير من الشباب المتحمس وبدلا من الإستفادة من طاقتهم فى العمل الوطنى كان استجوابهم تحت عنف التعذيب مما جعل بعضهم يبوحون ببعض اسرار اعمال المقاومة واثر ذلك سلبا على مخطط العمليات فى عدن.

واختتم المتحدث الثانى هذا بضرورة زيادة حجم التدريب والارتقاء بمستوى المتدربين لتقليل الخسائر العالية والحد من فاعلية اساليب القوات البريطانية.

وتتابعت كلمات المتحدثين الوطنيين.. وكان الرجال المصريون يسمعون بعمق كل ما يقال ويستشفون مغزى كل حديث ومقصد كل متحدث فلم يكن الكلام نقيا على عواهنه ولم تكن الأغراض مستهدفه المصلحة جميعها فبين حديث وحديث يمكن استنتاج الكثير ويمكن

فهم صدق النية وقدسية المقصد من وراء هذا الحديث أو أنه حديث مدسوس يبغى ان يفرق ويسعى الشوشرة والتردد ولذلك كان الممثلين المصريين للأخ الكبير فى تعزالحاضرين هذه الجلسة يقننون الحدث ويزنون المعنى بميزان حساس من الإستنتاج والتفسير والتحليل ورغم من الظاهر ان الحشد جميعه من الوطنيين الا ان ذلك لايمنع من وجود مدسوسين ومدفوعى الاخر والغير منزهين وكأن الحالة كما يقول الشاعر فى مثل هؤلاء الدخلاء على النقاء والطهر والشفافية.

وغير تقى يأمر الناس بالتقى

طبيب يداوى الناس وهو مريض

واخيرا وقف مندوب الاخ الكبير وكان شابا قمحى اللون يتميز بعينيه النفاذتين وكأن من ينظر اليهما عن قرب تصيبه قوة جاذبه ساحرة تغشاه فتسيطر على باقى حواسه وطالت وقفه المتحدث دون ان يتفوه بكلمه كان يكتفى بنقل عينيه بين الحشود الجالسة والواقفة أمامه وظل كذلك ينتقل بناظرية فى وجوه الأخرين بعمق ونفاذ وحتى ساد الصمت المطبق وعم الهدوء الشامل المكان وتوقفت الهمسات الجانبية واشرابت الأعناق واصاخت الأذان تنتظر الكلمات.

بدأ المتحدث كلامه بالحمدلله والشكر للخالق على أن جمعه باخوه اشقاء من اليمن فى ساحة واحدة وعلى قلب رجل واحد وردد المتحدث وحدة الهدف وسموه والتشريف لمن ينضوى تحت راية الجهاد وأوضح باختصار ان المصريين قدموا اليهم فى ديارهم من

مسافات بعيدة ولكن رباط الأخوة قائم ومتين ونوة بقوة العدو المشترك وإمكاناته وحصونة وتنوع سلاحه وبأسه الشديد المعروف عنه.

وتدارك أن كل هذه الأسباب لا تدعو آلا لحفز الهمم وتشغيل العقل وتطويع المتاح من القوة لتكون فى صورة ضربات موجعة تنتقل من مكان الى أخر وبكثافة عالية وحتى لو كانت هذه الضربات صغيرة آلا أن كثافتها وتنوعها مؤلم للعدو خاصة إذا ما أحسن التنظيم والتخطيط وتعددت الأماكن التى توجه اليها عمليات المقاومة وعدم تركيزها فى مكان واحد ولكن تنوع هذه الضربات من الناحية التقنية وتكرارها فى كثافات عالية مدروسة واختيار توقيتاتها المناسبة المؤثرة على العدو سيكون ذلك قوة مضافة وصلابة محسوبة وبأس شديد من نتيجته حدوث ارتباك بين جنود العدو وقياداته فإن كان العدو قوة كبرى فإن وجوده بين أهل البلاد سيفقد فيها ميزة التفوق وستصيبه خسائر عالية ويترتب على الخسائر العالية قلق واحباط بين جنوده وضعف لروحهم المعنوية وهذا بيت القصيد واردف قائلا أن الطريق امامنا ليس سهلا ولكن رغم صعوبته فهو مضمون لبلوغ هدف جميع الشرفاء والوصول بالقيادة البريطانية فى عدن والجندى البريطانى فى بلاد الإغتراب عن وطنه الى طريق اليأس وحافة الإنهيار.

ثم اردف موضحا أن مصر لا تملك قوة سحرية تجعل العدو البريطانى يرحل بين وليلة وأخرى وليس عندها السلاح السرى الذى به يقضى على الوجود الأجنبى والمساعدة فى طرده الى غير رجعه ولكن ما اعدكم به هو تحقيق الإنتصار فى نهاية الأمر، ولن يأتى ذلك على طبق من ذهب ولايمكن الوصول اليه على بسط من حرير ولكن

الأمر يحتاج الى تكاتف وتعاون جميع العناصر الوطنية وتجميع التنظيمات العديدة الواحدة الهدف والمختلفة الأساليب والمعايير مما يؤدى الى أضعاف قوة الجميع وتعارض الأساليب فى سبيل الهدف الواحد وما ادعو إليه بكل قوة وعزم هو أن تبدأ هذه التنظيمات بتوحيد فاعليتها فى تنظيمين أو ثلاثة مادام هدف الجميع واحدا وامامهم عدو واحد وما تبغى من وراء هذا التوحيد آلا زيادة القوة المؤثرة على الوجود البريطانى واحكام السيطرة على أعمال المقاومة والحد من الآثار الجانبية للاختلافات المذهبية والعقائدية والمستهدف هو تحرير الأرض من الوجود البريطانى فمن الضرورى نزع الخلافات الشخصية من النفوس وتقليل النزاعات بين القبائل والجماعات المتباينة حتى يكون التركيز فاعلا والتأثير قويا.

ثم تابع المتحدث مشيرا إلى أساليب المواجهة محذرا أن المواجهة ليست فى صالح الوطنيين فالقوات البريطانية فى عدن قوات عالية التدريب ولديها اسلحة مختلفة ولديها القدرة فى التفوق عند عمليات المواجهة ومصر لا تدعى بأن لديها من القوة والفاعلية والسلاح مثل ما لدى بريطانيا العظمى ولكن عندما نعتمد على السرية التنظيمية ونظم الضرب و الكر والفر السريع والبعد عن المواجهة المسلحة المباشرة فإن ذلك فيه مصلحة كبيرة وما يعزز قوة الوطنيين أن القوات البريطانية يحيطها بحر من الأهالى فيمكن زيادة الضربات الموجهة بإستخدام العقل والتصرف السليم والإعتماد على الذات بحيث نضع القوات البريطانية فى موقف المدافع عن المجهول والعمل على إستمرار وضع الجندى البريطانى فى حالة استنفار دائم رافعا سلاحه ضد

اشباح مجهولين وهو لا يعرف كيف تمت الأصابة ولا من أى مكان انطلقت إليه وبمرور الوقت فلن يتحمل الجندى البريطانى هذا الموقف الغيبى لفترة طويلة واختتم المتحدث خطابة بالحمد والثناء لكل من حضر هذا اللقاء ومد يده مشيرا إلى رغبة مصر فى المشاركة الفاعلة والمؤثرة إلى جانب اصحاب الحق وجلس بعد ذلك وسط صيحات الإستحسان ونداءات الإستزادة وصرخات الموافقة والتأييد وتلويحات بالحماس الشديد.

وقام متحدث أخر من الوطنيين ضخم الجسم وفوق رأسه عمامة ضخمة سوداء اللون ويحمل على ظهره بندقية حديثه وذقنه السوداء متدلية حتى غطت كامل عنقه وصاح فى الحشود المتواجدة - متحدثا بصوت جمهورى قوى النبرات موضحا فى إيجاز شديد أن تنفيذ أعمال المقاومة ضد الكفرة البريطانيين ينتج عنه خسائر كبيرة فى الأفراد الوطنيين فإذا نجحت المقاومة فى قتل جندى بريطانى تكون خسائر المقاومة أكثر من مقاتلين أو ثلاثة وضرب مثلا بحادثة جنوب لحج ليلة عيد الأضحى عندما نصب المقاتلون كمينا لقافلة بريطانية واطلقوا وابلا من النيران الا أن البريطانيين قاموا بإطلاق نيران كثيفة واسرعت مصفحتين بتطويق اماكن المقاتلين بسرعة ولم تؤثر نيران البنادق فى البريطانيين داخل العربات المصفحة وتمكن الكفرة من قتل اربعة مقاتلين وقبضوا على اثنين جرجى أخذوهم معهم منذ أكثر من عشرة أيام والجميع من الأهل والقبيلة لايدرون إلى أى مكان ذهبوا ولا يعرفون حالتهم الصحية وهل هذين الاثنين لازالا على قيد الحياة أم لقيا وجه ربهماولم تحدث خسائر فى صفوف القوات الكافرة ثم

صمت قليلا وتابع حديثه الصاخب يطلب من مصر سلاحا قويا قادرا على الفتك بهذه العربات المصفحة واردف انهم لا يكتفون بطلب السلاح القوى ولكن من الضرورى أن يعرفوا اساليب جديدة وطرقا حديثة لمقاتلة الكفرة ويحدثون فى صفوفهم خسائر مؤلمة تجعلهم يعملون الف حساب عند مواجهة الوطنيين.

ولم يكد ينهى حديثه حتى تعالت الأصوات المؤيدة ومطالبة مصر بالكثير والكثير حيث يتوقعون منها معاونة عظيمة تعينهم وتزيد من فاعلية مقاومتهم وترفع معنوياتهم وتنزل الأحباط فى نفوس البريطانيين.

كان اللقاء فى الضالع حماسيا وانفعاليا ولانه اللقاء الأول بين ممثلى رجال مصر والكثيرين من الوطنيين فقد كان معظمه ينادى على مطالب كثيرة ومعاونةمرغوبة فاعلة وكبيرة وتردد فى هذا الإجتماع شعارات شفافة نقية أحيانا ونداءات بمطالب صعبة اغلبها مدسوس وماجور بغرض احراج موقف الأخ الكبير.

وقبل أن ينفض الإجتماع وقف أحد المستنيرين من المواطنين ويبدو أنه من القلائل الذين قاموا بالتحضير وتنظيم هذه المقابلة الهامة فى الضالع.

وبدأ يتحدث عن نجاح هذا اللقاء بين المواطنيين ومندوبى رجال مصر وبدأ يقرأ ما تم الوصول إليه فى هذا الإجتماع المشهود.

أولا: ضرورة عقد لقاء فى الداخل بين مسئولى التنظيمات المختلفة والعشائر والقبائل المتعاونة بغرض تقليص الأعداد الكبيرة من التنظيمات وتجميع معظمها فى تنظيم كبير مسئول وقوى.

ثانيا: تلافيا للخسائر الكبيرة فى صفوف المجاهدين إعادة النظر فى أسلوب أعمال المقاومة بمعاونة المصريين واتباع نظام الكر والفر والإيحاء للعدو المحتل بأن ما يواجهه هم مجموعة من الأشباح المقاتلة التى يصعب رؤيتها وأن يكون تنظيم عملها فى سرية وكتمان شديد حتى لا تصل إلى أسماع العدو أخبارها فتقوم بإحباطها.

ثالثا: استخدام وسائل متطورة من الأسلحة والمعدات تتسم بالذكاء الشديد والفاعلية المؤثرة ضد العدو وتضيف إلى جانب الوطنيين باسا وقدرات جديدة وهذا ما وعدنا به الأخوة المصريين.

وانفض اجتماع الضالع الأول وتفرق الحضور إلى أماكن قبائلهم قبل حلول الظلام ولم يكد يبزغ نور اليوم التالى آلا وكانت أخبار الإجتماع الكبير فى الضالع مع مندوبى مصر - وصلت إلى قيادة المخابرات البريطانية فى عدن بواسطة العيون الكثيرة التى كانت منتشرة بين الشرفاء الوطنيين.

وقفل محمدالكعبى وزوجته فاطمة والأخوة سالم وعلى عائدين إلى ردفان ولم يخطر ببال أحد من الأهل والأصدقاء أن على صار عميلا للمخابرات البريطانية ويعمل نظير اجر فى نقل أخبار الأحداث وهان عليه مقتل والده - وهانت عليه القيم الطاهرة فى نظير حفنة من المال الملوث وكان موقف على فى الخيانة - كقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

وعين السخط تبدى المساويا

البداية

ما كاد ينفض اجتماع المواطنين بمندوبى الأخوة المصريين فى الضالع حتى انتشرت أخبار هذ اللقاء المشهود فيما بين اليمنيين فى عدن وشيوخ القبائل والسلاطين فى مختلف المناطق - وتناقلت الألسن هنا وهناك ما ورد فى هذا الأجتماع من اراء ونتائج - وكان نقل الأخبار إلى الأخرين فيه أضافات كثيرة وبتر لبعض الأراء - وتوقعات مستقبلية بين متفائل ومتشائم وساخر يتوقف كل ذاك على موقع الحديث لمن حضر الإجتماع أو حتى لم يحضر ولكن كان الكلام فيه إجتهاد وما يتبعه من تحريف عن الحقيقة وأستطراد بعيد عن المعنى المقصود ويختلف حجم الاجتهاد من مصدر إلى مصدر حتى يصل إلى المستمع ممسوخا مشوها بفعل عناصر كثيرة لها مصلحتها فى ذلك.

وتلقفت المخابرات فى عدن المعلومات المختلفة من مصادرها المتباينة ودأبت على تحليل وتقييم المعلومات وتصور التوقعات

والإحتمالات المستقبلية ونشطت فى التركيز على الآثار القائمة والمحتملة بسبب وجود القوات المصرية فى الشمال وكذلك رصد المتغيرات بين الوطنيين خاصة بين شيوخ المناطق والقبائل التى سبق وعقدت معاهدات حماية مع القوات البريطانية.

وكان صدى اجتماع مندوبى الأخ الكبير مع الوطنيين فى الضالع مؤشرا بالغ الخطورة أشارت إليه المخابرات البريطانية فى تقاريرها المرفوعة وأوضحت المحاذير والمخاطر وأعمال المقاومة ضد الوجود البريطانى فى عدن ـ وتلخصت الرؤيا أمام القيادة البريطانية فى عدن بعدم التفاؤل بالأيام المقبلة.

وعاد محمد الكعبى وزوجته معهما سالم واخيه على إلى ردفان ليقضوا ليلتهم وسط اسرتهم الكبيرة ولم يتعدى الحديث طوال الطريق آلا عن تفاؤل كبير بمساعدة الأخوة المصريين كما وضح من كلام حديث المندوب المصرى فى الضالع وجود أصرار وعزم على تقديم العون الى الوطنيين فى عدن لمقاومة الوجود البريطانى وإن دعم الأخوة المصريين سيكون حافزا قويا وإملا منيرا لكل وطنى.

وصاح سالم اثناء الطريق بإنفعال بإن وقت الإنتقام لمصرع والدهم فى ردفان بات قريبا آلا أن فاطمة كانت أكثر انفعالا وحماسا فهى الوحيدة التى رات بعينيها المذبحة التى وقعت لوالدها مباشرة وصورة والدها وصديقه والطفلان وقد سالت الدماء حولهم فى وضع لايمكن أن تنساه فاطمة بل زاد رسوخا فى عقلها حتى بعد مرور الأيام الطويلة وتكلمت بصوت عالى غطى على صوت النقاش الدائر بين

زوجها واخوتها وهم في السيارة في الطريق الى البيت في ردفان فتنبه الآخرون وتوقفوا عن الكلام ما عدا فاطمة التي تكلمت وكانها تتحدث إلى نفسها وصاحت إنها أحق من الجميع بالانتقام لمصرع والدها فإن الذي رآته يقشعر له الابدان ولاتنمحي صورته من الذاكرة فهي اشد رغبة من الجميع في أن تتاح لها الفرصة للاخذ بثأر والدها والآخرون وتكلمت وصمت الجميع احتراما لمشاعرها فكانت الكلمات تخرج من فمها كطلقات مدفع رشاش وكأن ذخيرة هذا المدفع لا تنفذ ابدا - حتى وصلت السيارة الى ردفان.

والوحيد الذي لم يشارك في الكلام كان على الذي شعر إنه يعيش في واد واخر بعيدا عن الأحاديث المتداولة والصياح والحماس الذي كان يقطع سكون الليل في الطريق وكان ذهنه مشغولا بسرعة مقابلة مستر هارت مندوب المخابرات البريطانية في عدن والذي كان يتلقى منه التعليمات ويتلقى منه المنح ويدفع له الثمن.

وأستقبلت الأم في ردفان فلذات اكبادها وزوج إبنتها بالبشر والحبور وكانت تتوقع حضورهم في وقت متأخر فقامت هي وإبنتها الأخرى بترتيب طعام العشاء ولم يتبادل الجالسون المناقشات وكان شاغلي الرجال هو سرعة اختلاس ساعات قليلة من النوم حتى يخرجوا في الصباح الباكر إلى أعمالهم.

وكادت خيوط الفجر تتغلب على فلول الظلمة حتى أستيقظ الجميع كما هي عادتهم واستعد سالم ونسيبه محمد الكعبي للتوجه إلى عدن أما على فاوضح إنه سيذهب بشاحنته إلى الشمال لجلب بضاعة

لتجار عدن أما نيته الحقيقية فكانت خلاف ما ادعى فقد كان شاغله سرعة التوجه إلى عدن لمقابلة مستر هارت لابلاغه بمضمون ما حدث في الإجتماع وتلقى تعليماته والأهم من ذلك تسلم استحقاقه من المال الذى تعود مستر هارت أن ينفحه له تشجيعا وحثا لحماسه ولزيادة نشاطة فى خدمة بريطانيا العظمى، وعندما وصل على إلى بوابة عدن بالقرب من مقر مستر هارت ترك شاحنته فى مكان وقوف الشاحنات وسلم على زملائه من السائقين والذى كان يعج بهم المكان وتسلل خلسة ماشيا على قدمية إلى مكانه المرغوب حيث قابله مساعد مستر هارت وعلى غير العادة مع على تركه المساعد وحيدا فترة مايزيد عن الساعتين وهذا لم يتعود عليه على من قبل ولم يتم معاملته فى كل مرة آلا بالترحيب والتشجيع وها هو ينتظر مدة طويلة وهو الذى جاء إلى عدن عن طريق دروب ووديان ومسارات بعيدة عن الطريق الرئيسى حتى لا يقابلة أحد ممن يعرفونه ويبلغ أخاه ونسيبه وهو الذى أعلمهم بتوجهه إلى الشمال وليس الجنوب.

وأخيرا أدخله المساعد إلى مستر هارت فقابلة باشا وهاشا ومرحبا ومعتذرا بكلمات عربية مكسرة عن التأخر فى مقابلته لانشغاله واستمع مستر هارت لكل ما قاله على ولم يأت فيما قاله على بجديد فقد وصل إلى مستر هارت معلومات مفصلة من أكثر من عميل كانوا أسرع فى الوصول من على.

وبعد أن أستمع مستر هارت بهدوء وصبر لكل حديث على - ولم يقاطعه فى أى كلمة بل كان طوال ما يسمعه مشجعا مبتسما مما

جعل علي يفيض بكل مارأى وما سمع وعندما أفرغ ما في جعبته من معلومات زادت أبتسامة مستر هارت وأخبر علي عن الثقة الكبيرة في أجتهاده وإخلاصه جعلته يختارد لمهمة أكثر صعوبة ونصحة بالإستمرار في حضور الإجتماعات وخاصة مثل تلك الإجتماعات التي كانت بين المندوب المصري والاهالي في الضالع.

وكان وقع تشجيع مستر هارت طيبا على نفسيه علي خاصة بعد أن قام بمنحه مبلغا مضاعفا عما تعود أن يعطيه له من قبل وعندما حاول علي أن يستفسر عن نوع المهمة وتوقيتها نصحه مستر هارت بان هذه الأسئلة سابقة لاوانها وانه شخصيا يعتمد عليه لما لمس من نشاطه وحماسه لخدمه الأمبراطورية البريطانية.

وفي تعز اجتمع مندوبي الأخ الكبير الذين تم أختيارهم بعناية وكان رئيس المجموعة رجلا ذو خبرة ولا تفارقة الإبتسامة ويشعر من يقابله أو يتحدث معه بالإطمئنان النفسي والثقة فيما يقول وكان انشط عضو في المجموعة مسئول الشئون الفنية - يفور بالحماس ويأمل في تحقيق إضافة نجاح إلى المجموعة ولم يخف عن رئيس المجموعة ذلك الرجل الصلب ذو الذكاء المتميز الذى انضم اليهم مسئولا عن الشئون الفنية ولم يغب عن رئيس المجموعة ذو الخبرة والممارسة الفاعلة عن توهج الحماس السمة البارزة لذلك الشاب فتوقع منه اضافات كثيرة في مساعدة الوطنيين وتنبأ لوجوده تطويرا عاليا في إلية تنفيذ الأعمال الفنية.. وكما تنبأ رئيس المجموعة فإن ما تحقق فأق ما كان واعدا من قبل.

وكان عمل الرجال يبدأ فى الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل وبعد اجتماع الضالع ودراسة الأراء المختلفة للوطنيين استقر رأى رجال المكتب على تكليف مسئول الشئون الفنية للقيام بزيارة إلى مناطق الداخل ومشاهدة المواقع البريطانية على الطبيعة وتفهم مشاكل الوطنيين فى تنفيذ أعمال المقاومة بكفاءة وفاعلية ومن ناحية أخرى هناك فرصة الإحتياجات المبدئية من الأسلحة والذخائر والتجهيزات البسيطة للعمل على تخزينها فى اماكن قريبة من عدن وترتيب ايد امنة وطنية لاخفائها وتسليمها إلى الوطنيين فى الوقت المناسب.

الا أن توقيت هذه الرحلة ظلت دون تحديد ميعاد للقيام بها حتى انتشرت بين رؤساء التنظيمات الوطنية فى الداخل اشاعات وتوقيتات راهنوا على ميعادها الا أن كل توقعاتهم وكل تنبؤاتهم باءت بالفشل نظرا لحرص رجال الأخ الكبير فى صنعاء بضرورة أن يكون هذا الموعد له صفة السرية الفائقة لأن تقدير العاملين فى مكتب تعز كانوا على يقين بوصول اخبار مثل هذه الرحلة المدبرة إلى المخابرات البريطانية وأن عيونها فى كل مكان لن يتوانوا فى إرسال هذه المعلومات عن تجهيزات واعضاء العون من الأخ الكبير القادمة من تعز وحتى القضاء عليها وإذا فشلت على يد البريطانيين نجاح وصول التعزيزات المصرية انعكس هذا الفشل على مجمل العمل الوطنى فى عدن ويترتب على هذا الفشل فى حالة حدوثه نكسه قاتلة لجدية مساعدة الأخ الكبير والشك فى قدراته وظهور ضعفه أمام القيادة والمخابرات البريطانية المضادة.

وكان ذلك التدقيق فى أخبار التوقيت والسماح بتسرب إشاعات بمواعيد مختلفة امرا مقصودا وواعيا وبالفعل وصلت إلى المخابرات البريطانية فى عدن تأكيدات بمواعيد حددها العملاء الا أن كل هذه التوقيتات كانت كاذبة ونظرا لكثرة أخبار توقيتات بدء رحلة قافلة النوايا الطيبة - تضاربت تقديرات البريطانيون فى عدن وبدأوا يتشككون فى المعلومات الجديدة التى يقوم عيونهم بالإبلاغ عنها، وصار أمام المخابرات البريطانية أمرين لاثالث لهما فاما التذرع بالصبر والإستمرار فى الصبر حتى تنجلى الرؤيا وفى ذلك استمرار نزيف تكاليف العيون الراصدة الإضافية واما الأنسياق وراء التخمينات والتوقعات نتيجة ما يصل من معلومات ولعدم دقة هذه المعلومات وأختلاطها وما يتبع ذلك من ترتيبات واستنفار للجنود مما يعرض الجنود البريطانيون والعملاء للاحباط.

أما الرجال فى مكتب تعز فقد تعمدوا خلط الأوراق وسعدوا بوصول هذا الخلط للمخابرات البريطانية فى عدن - فهذا الخلط المتعمد اوقع البريطانيين فى تعتيم جعلهم فى موقف متضارب وأصاب تدبيرهم وخططهم بوهن كبير فصار مسار توقعاتهم بعيدا عن الصواب.

وتجمعت أمام المسئول الفنى فى مكتب تعز عدة مشاكل تقابل الوطنيين اثناء تنفيذ أعمال المقاومة ضد البريطانيين وكان أهم المشاكل تقلص استخدام الألغام كسلاح فعال ضد التحركات البريطانية.. لان القيادة العسكرية فى عدن كلما واجهت مشكلة

حاولت تصعيد اجراءات الأمن وتنظيم الوسائل المضادة لاجهاض عمليات الوطنيين وكان الوطنيون يجدون في أساليب زرع الألغام وسيلة ميسورة والخسائر في صفوف المحتل عالية والتأثير النفسي على الجنود البريطانيين كبير ومن جهة أخرى فالمخاطر التي يتعرض لها الوطنيون في تنفيذ هذه الأعمال قليلة.

ولكن البريطانيون كما سبق ذكره اخذوا يقللون من تحركات قواتهم وصاروا لا يسمحون بالسير الا للقوات الضرورية على صورة قولات مجمعة يسبقها افراد مجهزون بالات كاشفة مع تدبير أمني متشدد لحراسة هذه القولات فتمكنوا من أزالة بعض الألغام قبل انفجارها وحددوا مواعيد مختلفة لسير هذه القولات واحاطوا هذه التحركات بالسرية الشديدة واستمر هذا النجاح للبريطانيين بعض الوقت حتى تسرب إلى الجنود نوع من الأسترخاء في أعمال الكشف وفي أعمال التأمين.

الا أن تطورات الموقف وسرعة تتابع احداثه جاءت بما لا يشتهي العدو فاثناء تحرك قول كبير من خور مكسر إلى بوابة اليمن في عدن يتقدم هذا القول الجنود الكاشفون بإجهزتهم المختلفة والقول يسير ببطء وفجأة حدث انفجار هائل نتج عنه قتلى بالعشرات بين الجنود البريطانيون وكان من القتلى الجنود المكلفون بكشف الألغام وازالتها.

ووصلت على عجل قوات بريطانية إلى مكان الإنفجار واحاطوا المكان ومنعوا الإقتراب منه آلا للمسئولين وبدأ خبراؤهم يبحثون ويدققون ويسجلون ويحاولون استخلاص الأساليب والمحاذير ولكن

لفرط الدهشة والذهول الذى اصاب الخبراء البريطانيون الذين وصلوا على عجل أن حفرة الإنفجار لم تكن كما تعودا على الطريق الذى تسير عليه المركبات ولكن وجدوا حفرتين كبيرتين على جانبى الطريق خارج الأسفلت والمحير حقا أن الخسائر كانت عالية فى الجنود آلا أن المركبات كانت سليمة فيما عدا تحطم الزجاج لبعض سيارات النقل.

وأخذ البريطانيون يدققون فى كل صغيرة وكبيرة ويفصحون بقايا الإنفجار وحتى الطريق الأسفلتى السليم.

كان امرا مستغربا وجديدا على الخبراء البريطانيين وكان حدثا غير عادى فقد وجدوا خرطوما من البلاستيك ممتدا بعرض الطريق الأسفلتى ذو قطر صغير وتم إخفاؤه بعناية فى مستوى الطبقة الأسفلتية وتغطيته بمادة اسفلتية من نفس لون الطريق بحيث أن الجنود الذن يتقدمون القافلة المتحركة ومعهم اجهزة الكشف الخاصة بهم لاتسعفهم هذه الأجهزة فى الكشف عن هذا الخرطوم لأن هذه الأجهزه يقتصر اداؤها على كشف المعادن المستخدمة فى الألغام ولكن الكشف عن خرطوم بلاستيكى فلم يكن واردا فى تقييم هذه الأجهزة واستمر الخبراء فى الفحص والتحليل وأتضح لهم أن هذا الخرطوم هو من نوع خراطيم زيت الباكم المستخدم فى السيارات وعلى جانبى الطريق تم إخفاء العبوات الناسفة على أن يتم تشغيل مضختين صغيرتين تدفع ذراع التشغيل عند الضغط على الخرطوم البلاستيك وذلك بمجرد حدوث ضغط على الخرطوم عند مرور

السيارات يتحرك الزيت الباكم ليحرك المكبسين المجهزين فيحدث الإنفجار الهائل على جانبى الطريق فتسبب موجة الإنفجار الشديدة فى القضاء على الأفراد المترجلين أو الراكبين الذى أوقعهم سوء حظهم فى مركز الإنفجار وعند حدوث الإنفجار الشديد يؤثر على الأفراد بصورة قاتلة نتيجة الضغط الهائل للإنفجار والتأثير على جسم المركبات يكون طفيفا ولكن يتسبب فى خسائر عالية فى الأفراد وحدثت بالفعل الخسائر العالية فى الأفراد اصابت القيادة البريطانية بالم شديد فتسارعت البرقيات إلى لندن لإرسال مزيد من الخبراء للبحث عن علاج لهذا الداء الوبيل الجديد والعمل على الحد من احتمال تكرار ذلك العمل الجديد القاتل ولا يخفى أن تنفيذ ذلك يحتاج إلى مهارة عالية ولذا فالمصريون داخل عدن.

وترتب على وقوع هذا الحادث حدوث تأثيرا سلبية على نفوس الجنود البريطانيين واصبح التكليف بالإشتراك فى القوافل المتحركة هو طريق بلا عودة حتى أنتشرت بين الجنود ظاهرة تبليغ وصاياهم لذويهم وتوديع زملائهم فيما يشبه الوادع النهائى إذا جاء الأمر لهم بالتحرك رغم الجهد المبذول من القيادة البريطانية لبث الطمأنينة فى نفوس جنودها والتأكيد على نجاح الخبراء فى افساد هذا الأسلوب الجديد.

أما بالنسبة للأهالى فكانوا لا يخفون فرحتهم سواء فى مجالسهم الخاصة أو فى مقاهى عدن أو فى المساجد كان الإرتياح النفسى غامرا لدى الأهالى بل وكلمات التشفى فيما حدث للجنود البريطانيين

يتداولها المواطنون فهذه أول مرة يتم حدوث خسائر كبيرة سواء فى عدد القتلى وفى عدد الجرحى فى عملية واحدة دون أن يصاب أحد من المنفذين للعملية بأى أذى والمثير أكثر لدى المواطنين فى عدن هو الطريقة الحديثة فى التدبير والتنفيذ حتى أن خطباء بعض المساجد كان حديثهم مركزا على النكسة المؤلة التى لحقت بعدو البلاد وظاهرة التفوق فى مبارزة الذكاء التى كانت قائمة بالفعل بين مسئولى المخابرات البريطانية والمساعدة الماهرة التى عاون فيها الرجال المصريين وظهر التفوق فى غير صالح البريطانيين.

ووجدت قيادة القوات البريطانية نفسها فى مآزق لا تحسد عليه. فالجيش لا غنى لو حداته عن التحرك وتأمين هذا التحرك اصبح باهظ الثمن - وإضطر خبراء الجيش البريطانى فى عدن إلى زيادة إعداد الأفراد ا. دربين على كشف الألغام وخاصة أن مهمتهم أصبحت لا تقتصر على تأمين الطريق الأسفلتى بل زادت إلى تأمين أجناب الطريق الصخرية المرهقة وبرزت الخسائر العالية فى الجنود كظاهرة خطيرة وكابوس مظلم يؤرق قادة القوات البريطانية ولذلك عمد البريطانيون إلى زيادة مراكز التفتيش وكمائن الطرق ولجأوا إلى تقليص اعداد كبيرة من العاملين الوطنيين بالمعسكرات المختلفة وتم استبدالهم بأفراد من الهنود ومن جنسيات أخرى غير وطنية.

أما سالم فكان مستر كلارك حريصا على بقائه وأستمراره فى العمل فهو ساعده الإيمن فى بيع الذخائر للقبائل والأفراد وتهريبها بطرق ووسائل شتى ولم يكن كلارك هو الوحيد والصورة الفريدة

للجندى البريطانى الذى كان يسعى فى غربته بعيدا عن بلاده وبلا هوية محددة عن أسباب وجوده فى هذا المكان النائى بل أن عددا أخر فى معسكرات أخرى كانوا يقومون بمثل ما يقوم به السير جنت كلارك لكى يستفيدوا ويتربحوا حتى لو كان ذلك يمس سمعة بلدهم ولكن عدم وضوح بعض شعارات عتيقة عن الإمبراطورية ومجدها السابق كانت السبب.

وأصبح سالم عضوا بارزا فى أحد التنظيمات التى تسعى لمقاومة الوجود البريطانى فى عدن وكان التنظيم فى العادة يتخصص فيه أفراد لتنفيذ أعمال المقاومة الإيجابية ضد الجنود البريطانيين وأفراد يسهمون فى مواقع عملهم فى عدن لمساعدة التنظيم والعمل على توفير بعض احتياجاته مثلما كان ذلك ينطبق على سالم وزملاء له مهمتهم التخطيط والتدبير والتنظيم والتأمين للعمليات أما على فكان قد انضم إلى تنظيم آخر فى الظاهر يقوم بخدمة التنظيم فى نقل بعض الأسلحة والذخائر وتوفير دعم بدفع اشتراك شهرى وفى الخفاء كان يقوم بنقل كل مايحصل عليه من معلومات إلى مسئول المخابرات البريطانية نظير مكافأة يتقاضاها من قاتل والده مبرراً موقفه أمام وازع ضميره باحتياجه للمال لتملك الشاحنة التى يعمل عليها وبناء مسكن جديد مستقل له وأسرته.

وقد لمس مسئول المخابرات فى على مميزات تضفى على تعاونه طابع الشرعية فوالده مات قتيلا بقنابل الطائرات البريطانية - ولا يشك أحد فى وطنيته من هذا المنطلق - وعمله كسائق شاحنة يجعله يعرف

الطرق الرئيسية والفرعية ويتنقل بين القبائل والعشائر والتنظيمات فى سهولة ويسر ويستطيع جمع محصلة معلومات من لقاءاته ومقابلاته قد تكون مفيدة للجانب البريطاني.

واستدعى مسئول المخابرات على لتكليفه بعمل ذو أهمية كبيرة وبعد اسهاب وشرح له والتلويح لعطايا فعلية أن يقوم بالاتصال بالمكتب المصرى فى تعز ويعرض خدماته ويظهر حماسة حتى يكسب ثقتهم ويخترق نطاق سريتهم وذلك كما أفهموه فى عدن لأنهم يريدون أن يعوفوا بعض الأعمال التى يخطط لها المصريون لمساعدة الوطنيين لامكان ترتيب افشالها قبل أن تقع وبذلك ينفرد على بكل من النجاح المحسوب له ويقدم فائدة عظيمة للامبراطورية البريطانية... وقد افهمه ضابط المد ابرات بأنه تم اختياره من بين الكثيرون للقيام بهذه المهمة وكان على سعيدا لهذا التكليف فمصلحته الشخصية فوق كل اعتبار بعد أن تسلم منحة مالية معتبرة من مندوب المخابرات البريطانية وبعد أن أوضح له المسئول انه تتردد الشائعات المتضاربة حول أفراد من المصريين من المكتب فى تعز ومعهم امدادات من الذخائر والسلاح للقيام بهجمات ضد القوات البريطانية فى البلاد خاصة فى منطقة عدن - وان عليه أن يسعى لمعرفة ميعاد قيام هذه الزيارة الاستكشافية والطريق الذى ستسلكه.

أما فاطمة فكانت أشد المتحمسين للانتقام من الجنود البريطانيين فهى الشاهدة على مذبحة والدها وصديقه والطفلان ومنظر القتلى فور وقوع الحادث ظل محفوراً فى ذاكرتها يؤرق أيامها بعنف وماكان

معروفاً عن فاطمة بصلابة الرأى والعود والصحة والعافية التى اكتسبتها من الطبيعة الجبلية ساعدتها على الالحاح على زوجها محمد الكعبى فى أن يأخذها معه إلى تعز حتى أباحت له برغبتها بالذهاب إلى مكتب الاخوة المصريين فى تعز تعرض مشاركتها ضد العدو المحتل و تطلب العون وتطلب المساعدة فى الثأر للأعزاء الذين قتلوا أمام عينها وكان زوجها يعرف صلابة رأيها واصرارها ولا يتوانى عن بذل أقصى جهده فى تحقيق طلبها كلما أمكن ذلك فهى أثيره عنده بقدر حماسها ورأيها الصائب فى معظم الأحيان ولكنه اعترض على أن يأخذها معه إلى تعز فى إحدى زياراته التى كان يقوم بها لرجال مكتب الأخ الكبير حسب تكليفات التنظيم الذى سبق الانضمام بفاعلية إليه وكان عليه أن يكون مندوب اتصال بين التنظيم وبين الرجال المصريين فى تعز.

وبدأت آثار وجود الأخ الكبير فى الشمال تظهر بوضوح على مسرح العمليات فى عدن وفى الجوار فازدادت الأعمال المعادية للجنود البريطانيين وبدأوا ينكمشون فى معسكراتهم ولا يخرجون منها إلا للضرورة وبحساب دقيق وزادت مراكز التفتيش والمراجعة خاصة عند مناطق الاقتراب من المعسكرات البريطانية وأماكن الادارة الهامة مثل الميناء ومخازن الوقود الكبرى فى عدن الصغرى واتسمت فاعلية الأعمال المنفذة ضد الجنود البريطانيين بالذكاء والحماس والعشوائية ولعل أول ما نبه إليه رجال المكتب فى تعز الوطنيين اليمنيين بأن هناك حقائق لاسبيل إلى إنكارها فالقوات البريطانية فى عدن قوات مجهزة بمعدات وأسلحة متطورة عما يستخدمه رجال

المقاومة وكذلك تتمتع القوات البريطانية بتدريب راقى ونظام أمنى عظيم وطائرات هليوكوبتر تجوب أنحاء المناطق وتراقب أبسط التحركات هذا بالإضافة إلى العيون النشطة الكثيرة التى تم اغراؤها بالمال للاستقصاء والاستخبار لصالح القوات البريطانية ومع وجود هذه الحقائق فان الحماس الذى كان يملأ نفوس اليمنيين ليس كافياً لإصابة العدو إصابات مؤلمة والنيل منهم بفاعلية ولذلك فليكن العقل والتدبير والذكاء لهم الأسبقية عن الحماس لقد تعمد الاخوة المصريين فى تعز على الاعتماد واللجوء إلى حسن استخدام ما هو متاح بأقل خسائر فى صفوف الوطنيين وبأعلى خسائر بين الجنود البريطانيين وأن تكون الضربات لها صفة الاستمرار وفى أماكن متعددة وفى أوقات مدروسة وبتفكير صافى وحاذق مما يريك صفوف جنود الاحتلال بعد أن يتم تحييد استخدامهم لأسلحتهم القوية وابرز الأخوة المصريين للفصائل فى الداخل نظرية الكر والفر اللازمة وشعار يقول لتكن ولا تكن فى كل مكان وفى كل وقت بمعنى اضرب واختفى هاجم بحيث لايراك العدو ومن حيث لايتوقع أن تهاجمه وبذلك الأسلوب يمكن موازنة المعادلة الصعبة بحيث تفوز كفة الوطنيين فى عدن وتقود القوات البريطانية إلى طريق واحد لابديل عنه هو الهروب من عدن.

كما أشار رجال الأخ الكبير إلى ضرورة إذا كان على المواطن أن يموت فداء لبلده فعليه أن لايموت دون مقابل لموته مؤلم للجنود البريطانيين فالموت ليس غاية للوطنيين ولكن الغاية الملحة هو طرد الجنود المحتلين من عدن بأقل مايمكن دفعه فى فاتورة الحياة.

واستوعب معظم من في عدن هذا الشعار وجذبهم مثل هذا الأسلوب الحكيم ومايشمله من مرونة وفاعلية وذكاء ويتطابق مع طبيعة ارضهم ولايخفى أن الوطنيين في اليمن يتميزون بالذكاء الفطرى العالى الذين اكتسبوه من طبيعة البلاد العنيفة فالتضاريس حادة سريعة التغيير وكأن الكرة الأرضية أصرت على أن تكتمل عناصرها في منطقة واحدة بالجبال والسهول والوديان والسواحل والانحدارات الشديدة والنتوءات والانخفاضات مجتمعة في منطقة صغيرة فيصعب في هذه المناطق المطاردة ويسهل الاختباء عن الأعين - وكان ذلك سلاح مميز للعناصر اليمنية في كرها وفرها ضد الجنود البريطانيين.

وقد مرت ليالى عديدة على النخبة المصرية في تعز وهم يشتهون النوم وأخذ بعض الراحة ولايستطيعون فقد نجحوا في الامساك بخيوط عديدة في عدن وفي المناطق المحيطة بعدن وهذه الخيوط كانت روافد معلومات لاتنضب ومنابع لأساليب مستحدثة في مهاجمة الجنود وكثيراً ما صار قناعة لدى الجنود البريطانيون أنهم يحاربون أشباحاً ويقاتلون شياطين ولم يكن يتوقف الحديث بين الجنود القدامى الذين خاضوا من قبل حروباً يواجهون فيه جنوداً أعداء وأسلحة موجهة لهم ولكن الآن في عدن فلا يستطيعون تحديد من يواجهون ولا يعرفون نوعية السلاح الموجه إليهم بالإضافة إلى عدم وضوح الهدف من بقائهم في عدن حتى كان الاحباط بالنسبة لهم سيد الموقف.

رحلة المفاجآت

اطمـأن الرجـال فى تعـز إلى وصـول رسـالة خلط الأوراق. إلى القوات البريطانية وتأكدوا من أن الحيرة والارتباك قد أصابت عناصر استخبارات البريطانيين حتى اصبحوا يتشككون فى قيام رجال تعز بتـدبيـر مـثل هذه الزيارة المحـفوفـة بالمخـاطر خـاصـة اذا وقـع احـد المصريين فى قبضة القوات البريطانية فان ذلك اعلان صريح عن عداء معلن للمصريين ـ حتى توصلوا إلى مايشبه اليقين انه لا بد ان يعيد المصريون حساباتهم بعيدا عن مخاطر المجاهرة بالعداء السافر ان كان العداء الشديد قائما تحت عباءة العمل السرى.

ولكن المكتب فى تعـز كـان لـه رأى أخـر غـيـر ذلك الذى كـاد ان تتوصل إليه المخابرات البريطانية فشاغل رجال تعز دراسة المواقف على الطبيعة والاطمئنان إلى وصول بعض المعدات والاسلحة لتدعيم العناصـر المقاتلة فى الداخل وتاكيـد ان يد العون للاخ الكبيـر اقرب مما يتـصـورون وقـدرة الاخ الكبيـر فـاعلة ومـؤثرة لتـصل إلى مـناطق

البريطانيين فى عدن - رغما عن المهارة والقدرات المتفوقة لقوات الاحتلال.

وتعمد على ان يكثر من تردده على مكتب تعز ويلح فى عرض خدماته خاصة انه يعرف بدقة غير متوافرة للكثيرين مسالك امنه ودروب غير معروفة من الشمال حتى عدن وعزز الحاحه بمقتل والده فى ردفان على يد البريطانيون ورغبته فى المساعدة النابعة من رغبته فى الانتقام من قاتلى والده.

وعكف مسئول مكتب تعز على تحليل المعلومات التى تجمعت عندهم حول على ومدى خبرته ووطنيته وما كان يحتاجه من وراء تحليل المعلومات انه كان يرتب البدائل وحسن الاختيار والذى يعتمد عليه للعمل كدليل للقافلة يعرف مسالك غير مأهولة وتمر فى أماكن بعيدة عن عيون المخابرات البريطانية ورغم انه فى بادئ الامر رجحت كفة على الا انه اثر ان يؤجل قراره لمزيد من الدراسة والحصول على معلومات اوفر.

ونجح على فى زياراته المتكررة لمكتب تعز ان يحصل على بعض التشجيع والتأييد من مساعد رئيس المكتب وفسر على هذه البادرة على انه قرار ليكون دليلا لقافلة العون والاستكشاف إلى عدن وسارع ليقابل مندوب المخابرات البريطانية ليبشره بأن مساعيه نجحت فى اختياره ليكون دليلا للقافلة المتوقعة وارتسمت علامات السعادة على وجه المسئول البريطاني فهذا بداية خيوط النجاح المأمول وفى بادره طيبة اعطى على مبلغا من المال واعدا اياه بالمزيد والكثير فى حالة النجاح فى القبض على القافلة المصرية المخطط لها الذهاب إلى عدن.

صار علي يتردد كثيرا على مكتب مسئول المخابرات البريطانية قرب بوابة اليمن - وذلك حسب التعليمات التى اعطيت له - وحتى تكون المخابرات البريطانية على علم بكل ما يستجد أولا بأول خاصة أن على كان يتردد كلما اتجه إلى الشمال على مكتب الاخوة المصريين فى تعز.

ونتيجة لتكرار زيارته للبريطانيين فى عدن - وتشجيع مسئول المخابرات البريطانى ودعمه له بالمنح وحب علي للمال وتسرعه فى مسابقة الاحداث فقد على بعض حذره وسرية تحركه فى عدن - ولقد لمحه زميلان له من سائقى الشاحنات وعضوين فى تنظيم للمقاومة يخرج من المكتب المشبوه فى عدن - وفى البداية لم يصدقا نفسيهما وكذبا ما رأياه رأى العين وعظم ما ظناه معاكس للحقيقة آلا ان الحقيقة كانت واضحة وهما يعرفان على معرفة لصيقة ولحسن الحظ لم يلحظ على عند خروجه من مكتب مسئول المخابرات البريطانى زميلاه نظرا لانشغال ذهنه عما حوله وتركيز تفكيره حول الاحتمالات والتوقعات والحسابات للمكافأة المنتظرة.

واسرع على الخطى إلى طريق جانبى طويل بعض الشئ ومدقات غير مطروقة إلى حيث مكان وقوف شاحنته أما زميلاه اللذان شاهداه يخرج من مكتب مسئول المخابرات البريطانى فقد تحيرا فى أمر ما شاهداه وذهبا إلى مجلسهما فى حى الشيخ عثمان وقد عبس وجهيهما على غير ما عودا زملائهم من مداعبات متبادلة واتخذا قرارا فيما بينهم بالامساك عن اخبار احد بما شاهداه فيما عدا سالم

ونسبية محمد الكعبى فكلاهما على صداقة طيبة ورفاق فى أعمال المقاومة واعضاء فى احد تنظيماتها وفضلا الكتمان على ماراياه عن الاخرين لان ذلك فيه صدمة خاصة لما يتمتع به سالم من مكانة بين الوطنيين وكذلك محمد الكعبى فكلاهما من الرجال الذى يوثق بهما وكلاهما سبق لهما المشاركة بفاعلية وايجابية ضد الوجود البريطانى فى عدن واستغلا فرصة وجود سالم ومحمد الكعبى على انفراد فى مقهى بجانب مسجد العبداروس وقاما بلقائهما وبعد تمهيد قصير وتردد فى المفاتحة بما رايا من موقف على المشين واتصاله بالمخابرات البريطانية وحرصا على تداعى الصدمة عليهما وانكار هذه المعلومة من جذورها سواء عند معرفة سالم أو محمد الكعبى بخطورة ما عندهما من معلومات تمس شرف العائلة ونقاء وقدسية مشاركتهما فى معركة تحرير الارض وبما يعود على ناقلى الخبر بالضرر البليغ نتيجة هياج سالم أو محمد الكعبى وشدة انفعال ما سمعا فيقومان بالاقتتال معهما أو حتى قتلهما.

ولذلك تمهلا فى الوصول إلى قمة الاثارة فى الخبر بحثهما على الهدوء وان ما شاهداه يمكنهما ايضا ترتيب مشاهدته ورؤيته باعينهما وذلك برهان على صدق مايحملان وانهما وذلك حرصا على صداقتهما واحترام لقدرهما لم ولن يخبرا سواهما عن الحدث وعندما وصلا إلى نهاية المطاف والقيا بالخبر القنبلة انتقض سالم كمن لدغته حية وامسك بخنجره يبغى القضاء على من امامه الا ان محمد الكعبى أخذ يهدئ من روعة ويخفف من الصدمة العصبية وجلس

سالم وان لم يستوعب احداث الموقف وساد موقفه الانكار ورفض قبوله.

الا انه تم الاتفاق على تدبير مشاهدة ذلك على أرض الواقع حينما يصل على بشاحنته من الشمال.

وبعد بضعة أيام عاد على إلى عدن - وكعادته إلى حيث مجلسة المفضل فى الشيخ عثمان فقد قابله سالم شقيقة بابتسامة فاترة وكذلك قابلة نسبية محمد الكعبى الا انهما قد اضمرا امرا مع زميلاهما الاثنين الاخرين بان تتم مراقبة على بدقة متناهية وسرية كاملة عما يجرى لكى لا يتسرب أى معلومة إلى احد من رواد المقهى من اصدقائهم ومن المؤكد فى حالة معرفة الوطنيين لخيانة على فلن يسلم من القتل - فعلى عضو احد التنظيمات الفاعلة وعلى غير مشكوك على الاطلاق فى هويته وامانته الوطنية وحرصا على تلك العواقب الوخيمة المحتملة كانت السرية المطلقة والكتمان الكامل.

وتاكد لسالم خيانة اخوه وتردده على مكتب المخابرات البريطانية ولم يستطع تمالك اعصابه ولا قوى على تهدئة نفسه بمفرده - فقد بقى معه مرافقا محمد الكعبى وزميلاه الاثنين الايام التى بقى فيها على فى عدن - واثر الجميع التفكير بهدوء وبعيدا عن الانفعال الشديد نتيجة الصدمة النفسية التى كادت تعصف بهم.

. وحتى تم الاتفاق فيما بينهم على ان التدبير الجيد من حسن الفطن - وكتموا السر الذى يعرفونه عن على إلى حين الوصول إلى الرأى الصواب.

واصبح هاجس سالم موقف اخيه المدموغ بالخيانة وحتى اذا لم يكن على امينا على ذكرى مصرع والده بيد الجنود البريطانيين - فعلى من ستكون امانته وصادق نيته.

وقام على بتحميل شاحنته ببضائع التجار في عدن متجها بها إلى الشمال ولم يخطر بباله ان سره الدفين انكشف عند اخيه ونسبيه.

وكان القدر الذى لا يرحم فى انتظار على الذى دفعه جشعه لحب المال واندفاعه الارعن للحصول عليه بشتى الوسائل حتى انه فى هذه المرة حمل شاحنته باحمال ثقيلة تخص عددا من التجار وسار إلى الشرق من عدن فى اتجاه شقرة ثم متجها للشمال ثم ومنها عبر سلسلة من المرتفعات الحادة والمسارات الملتوية إلى دمان عند منطقة ارتفاعها غير متدرج ولذا يلزم الجذر الشديد خاصة من دمان إلى البيضاء - وفى لحظة قضاء حاسم انفجر الاطار الامامى للشاحنه التى يقودها على وانقلبت الشاحنة دون ان يستطيع كبح جماع اندفاعها السريع إلى هاوية سحيقة بين المرتفعات الحادة ومات على حيث ان الشاحنة انقلبت عدة مرات ومات وسره البغيض معه.

وعندما علم سالم ومحمد الكعبى بالحادث فقابلا زميلاهما اللذان سبق لهما رؤيهة على يتعامل مع ضابط المخابرات البريطانى واقسم الاربعة على كتاب الله الكريم ان يبقى سر على فى نفوسهم حتى يلاقون ربهم وذلك لاسباب كثيرة منها امه العجوزة المكلومة فى ابيه ومنها مايحدث من اهتزاز للثقة فى نفوس بعض الوطنيين عندما يعلمون ان بين صفوفهم خونه.

وشـهقت أم سـالم عندمـا جاءوا بجثمـان ابنها ليدفنوه حيث نشـأ وترعرع وكادت ان تقضى نحبها حزنا والما على فراق ابنها بعد ان فقدت اباه من قبل ـ اما اخته فاطمة فقد كان مصابها فيه كبيرا واخذت تصيح وتولول وتردد بين شفتيها كلمات مبهمة بين الحين والاخر وبين فترات الهدوء من الصياح والصراخ المفجع ـ وسمعها زوجها محمد الكعبى تكرر قولها لم يعد هناك وقت للانتظار وان الاوان للانتقام وكان محمد الكعبى رحيما بزوجته رحيما بوالدتها اذ كان من العارفين بالحقيقة المؤلمة والقابضيين على جمرة الخيانة بصبر وسكون أما رجال الاخ الكبير فى تعز فقد اصابهم الحزن ـ ولم يكن يخطر ببال احد ان على بات قريبا والانتظار طالت مدته لحسن اختيار من يقوم كدليل للقافلة فى المناطق الوعرة بعيدا عن اعين المخابرات البريطانية وكان من ضمن المرشحين على ولكن حتى وفاته لم يكن الرجال قد اتخذوا قرارا وحددوا شخصا بعينه.

ولفت نظر محمد الكعبى حالة زوجته فاطمة بعد مضى ايام عدة على حادثة وفاة شقيقها وكانت لاتكف عن البكاء وتردد كثيرا كلمات حان الوقت لاقوم بالعمل.

وزاد هزالها بمرور الايام وهى الشابة العفية القوية الغضة وكان محمد الكعبى يكن محبة عميقة لزوجته ويسوءه ان يراها على حالها الذى لايسر الخاطر واحتراما لمكانة فاطمة الاثيرة عنده لم يفاتحها فى فى امرها وما وصل اليه حالتها من تردى وفجأة هى التى بادرت بالكلام لزوجها بعد ان روت وجهها دموعا لا تنضب وغلفها هزال

لايخفى عن نظر من يراها ورغم ذلك فوجهها لازال فاتنا وعيناها فيهما وميض وحضور مميز وطلبت من زوجها ضرورة ان تشارك فى عمل ضد الجنود البريطانيين أو حتى تقديم المساعدة للوطنيين الذين يقومون بعمليات المقاومة وافصحت بوضوح انه لن يقر بالها ولن ترتاح نفسها آلا اذا قدمت جهدا على قدر استطاعتها لاعمال المقاومة الوطنية.

ونظر اليها زوجها لايدرى بماذا يرد على طلبها فليس فى مقدورة ان يحقق لها طلبها وهل قضى جميع الرجال نحبهم حتى تتقدم فاطمة وتباشر هذه المهمام الصعبة القاسية ـ كان فى قراره نفسه رافضا متألما وهو الزوج الذى لم يكن ليرد لها طلبا احتراما لقدرها على نفسه واعزازا لها فظلت فاطمة طوال ثلاثة اسابيع مع والدتها فى ردفان... لان والدتها كانت حالتها تزداد سوءا منذ مصرع زوجها وها قد زاد الهم والبلاء ومات ابنها.. ولكبر سنها فان الالم قد هد كيانها وصارت تتحدث كثيرا إلى نفسها فاثرت فاطمة إلى البقاء بجوارها مع اختها الاخرى كى تعنيها على امرها وتخفف من مصابها وشفع لمحمد الكعبى حالة فاطمة فوافق على بقائها بجوار امها بعض الوقت وحتى يلتئم بعض جراحها النفسية.

وفى يوم الخميس من أحد الاسابيع حضر إلى ردفان مساء سالم ومعه صهره محمد الكعبى على ان يغادرا فى الصباح الباكر إلى تعز وذلك لمقابلة الاخوة المصريين هناك وذلك حسب تكليف التنظيم فى عدن لكليهما.

وما ان علمت فاطمة بذهاب زوجها وشقيقها إلى تعز صباح يوم الجمعة حتى تمسكت واصرت على مرافقتهما والحت وبكت كثيرا ووافقا اخيرا على اصطحابها معهما فى الصباح إلى تعز لعل ذلك يهون عليها من الامور التى تعانى منها وقد يخفف الالام التى اصابتها مؤخرا.

وقابلا المسئول فى تعز الذى اخبرهما بانه قد وقع الاختيار على احدهما كدليل للقافلة المزمع ارسالها إلى عدن ورحب الاثنان بذلك آلا ان محمد الكعبى رجحت كفته فمن ناحية معرفته الطرق الامنة كان اكثر خبرة ومعرفة بالطرق خاصة فى بلاد اليافعى وما فى شمالها ومافى جنوبها أما سالم فقد يثير غيابه بعض الوقت شكوك من يعمل معهم من الجنود البريطانيين خاصة السيد كلارك الذى كان يعتمد على سالم فى مكان عمله بالمعسكر والذى كان فيه فائدة كبيرة للتنظيم فى عدن فهو يقوم بمراقبة العربات الخارجة من المعسكر ويرصد توقيتاتها فى ذاكرته واحيانا يعرف ماتحمله هذه الشحنات من اسلحة وعتاد وجنود وتوفير هذه المعلومات يفيد كثيرا رجال التنظيم فى التخطيط والتدبير - خاصة ان المعسكر الذى يعمل فيه سالم كان من اكبر المعسكرات للقوات البريطانية فى عدن والحركة فيه لا تهدأ ونهر المعلومات لا ينقطع ولاينضب ولذلك فقد تم اختيار محمد الكعبى بعد دراسة ظروف عمله المناسبة اكثر من موقف سالم ولكن وان كان قد وقع الاختيار على محمد الكعبى الا ان تحديد ميعاد تحرك القول بات فى علم الغيب ولم يتم تحديد أى موعد وكان على محمد الكعبى بناء

على هذا القرار الذى عليه ان يحتفظ بسره فى نفسه وان يكون على اهبة الاستعداد عندما تحين ساعة التحرك.

وتعمد رجال مكتب تعز إلى اطالة فترة انتظار محمد الكعبى للتأكد من تنفيذه سرية الاختيار الذى وقع عليه والاستدلال من الشائعات التى كانوا يحصلون عليها من الوطنيين الذين ياتون اليهم فى تعز من ان حكاية القافلة القادمة من المصريين اصبحت فى خبر كان وان المصريون فى تعز قد صرفوا النظر عن القيام بها على الاقل فى وقت قريب.

واختار رجال تعز توقيتا مناسبا وكان يوم احتفال الجنود البريطانيون بعيد الميلاد المجيد حيث ينشغل الجميع بالاحتفال الكبير وبالتالى يقل انتباههم ويسرى بينهم الاسترخاء ويفقدون جزءا من حذرهم نتيجة تجرعهم كميات كبيرة من الخمور.

وكلف رئيس الرجال فى تعز مسئول الشئون الفنية واحد المختصين بشئون القبائل فى الداخل لمرافقة الرحلة وكانت التعليمات الصادرة اليهم ان يدرسوا كل صغيرة وكبيرة ويشاهدوا المتاح لهم من مواقع ومراكز ذات اهمية للقوات البريطانية والتأكد من وجود مكان قريب من عدن يصلح ان يكون موقعا متقدما لامداد الوطنيين بالاحتياجات اللازمة وجاء بالمصادفة البحتة إلى تعز اثنين من الصحفيين المصريين الذى يعملون كمراسلين حربيين بغرض القاء بعض الاضواء على رجال المقاومة الوطنية ضد الجنود البريطانيين فى عدن.

وقد اصرا على الدخول مع القافلة رغم المحاذير التي شرحها رجال المكتب في تعز وان الرحلة محفوفة بمخاطر متعددة.

ومن ناحية أخرى ظهر ضعف محمد الكعبي في أخر لحظة أمام الحاج زوجته فاطمة واباح لها بالسر الدفين قبل قيامه بالتوجه إلى تعز بساعات قليلة لتنفيذ مهمته كدليل لقافلة الدعم للوطنيين - وقد كان الافصاح عن هذا السر هو الامل الذي تعلقت به فاطمة واصرت على مرافقة القافلة مع زوجها فهو وان كان يعرف معظم المسارات الامنة آلا انها تعرف بعضها عندما كانت ترافق احيانا شقيقها على في بعض سفرياته إلى بلاد اليافعي حيث مقر زوجها.

وتشبثت فاطمة بطلبها ولم يجد محمد الكعبي مناصا من اخذها معه لثقته الكبيرة في كتمانها السر خلاف بنات جنسها وللتخفيف عن آلامها الشديدة التي كانت تعاودها بين الحين والاخر ففي مرافقة القافلة وسيلة للتنفيس عن غضبها وتخفيف من الامها.

وان مشاركتها في اي صورة من صور اعمال المقاومة أو المساعدة لهذه الاعمال فيه فائدة مرجوة ومأمولة لها. وهكذا وافق محمد الكعبي على مشاركة زوجته له في رحلته السرية وكان ذلك امرا غريبا وينكره الاغلبية الساحقة من الوطنيين في مشاركة امرأة في أعمال هي من صميم اعمال الرجال ولكن فازت فاطمة بهذا الشرف ومنذ لحظة موافقة زوجها تبدلت حالها بسرعة وسرت الدماء النشطة في كل اجزاء جسمها ولم تفارقها البسمة الهادئة الجميلة التي كانت تتميز بها.

توجه محمد الكعبى مع زوجته فاطمة إلى بلدة البيضا وتركها هناك عند زوجة خالها التى كانت تقيم فى البيضاء وتابع بعد ذلك طريقة لمقابلة رجال الاخ الكبير فى تعز وذلك حسب طلبهم ولم يكد يصل إلى المبنى الرئيسى فى تعز حتى استقبله احد الرجال بحرارة ووجهه تملأه ابتسامة عريضة وتم تكليفه بمرافقة القافلة مساء ذلك اليوم على ان يكون المسار إلى الداخل بعيدا عن الطرق الرئيسية خوفا من الاعين التى بثتها القيادة البريطانية فى معظم الاماكن وان يكون بدء السير من تعز عند اخر ضوء من نهار اليوم وبعد ان تأكد الرجل المسئول من استيعاب محمد الكعبى للمحاذير والسلبيات التى من المحتمل مقابلتها اثناء الرحلة. انفتح الباب ودخل ستة رجال من الوطنيين العاملين فى الداخل وبعد التعارف المبدئى مع دليل القافلة محمد الكعبى اخبره الرجل المسئول ان هؤلاء الرجال من الفاعلين فى منظومة المقاومة فى عدن وان مسئوليتهم حماية القافلة اثناء سيرها حتى الوصول إلى بلدة خنفر جنوب يافع السفلى وتكون مهمة محمد الكعبى قد انتهت عند هذه المرحلة.

وقد اتفق الرجال على ميعاد التحرك مع القافلة التى كانت مكونة من اربعة شاحنات ووانيت ملك محمد الكعبى وسيارتين نصف نقل صغيرتين من تلك العربات التى يستخدمها المواطنون فى الداخل للتنقل ونقل الافراد والاغراض عبر البلاد.

وبدأ تحرك القافلة من خور فى الشرق من جبل صابر الذى يشرف على مدينة تعز. ورافق القافلة الصحفيين القادمين من مصر

وكان احدهم المرحوم جمال حمدى الصحفى بمجلة روزا يوسف المصرية.

وكان لباس الجميع هو اللباس الوطنى للاهالى المكون من غطاء للرأس عبارة عن قطعة قماش طويلة تلتف حول الرأس على هيئة عمامة ضخمة ويتدلى طرفها العريض على الظهر حتى الجزع والالوان السائدة كان اللون الاسود ويتخلله خيوط من الوان اخرى زرقاء وحمراء وبنية واحيانا بيضاء ثم قميص واسع فضفاض يحبس فى وسط الجسم بقطعة اخرى من القماش العريض فتعقد على جانب الجسم ويتوسطها الخنجر اليمنى فى منتصف الحزام أو يميل قليلا عن ذلك ومكان تثبيت الخنجر والسروال عبارة عن قطعة من القماش يتم لفة حول الخنجر اسفل الجسم ويصل طوله تحت الركبة بقليل ويتم تثبيت هذا السروال بالحابس الاوسط الذى يوضع فيه الخنجر والسروال خال من اى مخيط فانه يتم لفه حول مؤخرة الجسم لفة واحدة بحيث تسمح بسرعة الحركة وعدم اعاقة القدمين اما فى القدمين فنعل بدوى له منايم لاصابع القدم وبعض السيور الجلدية للتثبيت.

وكان لباس المصريين المرافقين للقافلة هو اللباس الوطنى لاهل البلاد وزيادة فى التمويه تم اعداد هذه الملابس لتكون كالمستعملة فترة زمنية من قبل وحتى لا تجذب النظر إلى انها ملابس جديدة تثير الشبهة وذلك زيادة فى الحيطة والحذر وتحركت القافلة عند هبوط الظلام بعد صلاة المغرب وكان محمد الكعبى فى المقدمة لانه الدليل

ويعرف جيدا المسالك الجانبية ومخرات السيول والسهول الحادة بين المرتفعات حتى وصلت القافلة شرق بلدة البيضاء وتوقفت ونزل محمد الكعبى ليقابل المرافق المصرى ويفصح له عن سر سبب توقفه وانه عاهد زوجته على أن ترافقهم وتشاركهم فى هذه الرحلة وان ذلك ظل سرا يحتفظ به حتى كشفه فى اللحظة وكان الرجل متفهما ابعاد موقف محمد الكعبى - فرحب برايه ووافق بابتسامة مشجعة ومؤيدة.

وانتظرت القافلة وانسل محمد الكعبى فى سيارته بعيدا والمرافقون يتساءلون ويستفسرون عن تصرف الدليل.. الا ان المسئول المصرى طمأنهم وهدأ من قلقهم ولم يمضى وقد كثير حتى رجع محمد الكعبى إلى القافلة وبجواره زوجته فاطمة.. وقد ادهش المرافقون للقافلة هذا الموقف واستغربوا بل وانكروا حضور امراة معهم الا ان فاطمة نزلت من سيارة زوجها وقد ربطت راسها بقماش اسود اللون وعقصت العقدة على جانب رأسها الايسر وجلبابها طويل به زركشة من الوان متناسقة وقد لفت وسطها بحزام من القماش العريض وبرز مقبض الخنجر على يسار وسطها مثلما يفعل باقى الرجال ووجهت كلامها إلى رجال القافلة فى نبرات ثابتة وعزم واصرار واضحين وقالت انه بعد مصرع والدها كانت تنتظر لحظة المشاركة مع الرجال فهى تعرف خيران بين ثنيات الجبال وبعيدا عن الاعين حتى زوجها لايعرفها وكان المرحوم شقيقها يأخذها احيانا معه متجها إلى بلاد اليافعى حيث عائلة زوجها.

وسريعا مازالت دهشة الرجال وخفت حدة الذهول لديهم وبدأت عبارات الترحيب من أعضاء القافلة وخاصة الصحفيان المرافقان فان

فى وجود فاطمة حصيلة دسمه ومصدر رحب لاستقاء المعلومات المثيرة عن المرأة اليمينية التى كانت بمثابة لغز معظم القراء فى مصر.

وانطلقت القافلة تسير عبر وديان ضيقة صعبة وملتوية كانها الأفعى ونظرا لوعورة الطريق الشديدة فان القافلة كانت تسير ببطء خلف عربة محمد الكعبى وزوجته فاطمة التى اصبحت المرشدة فى السير على الطريق التى مرت بها بالمسالك من قبل بهذا المكان مرات عديدة.

وعند تباشير الفجر كانت القافلة إلى شمال بلدة خنقر فى بلاد اليافعى السفلى وكان فى انتظار القافلة مجموعة من الوطنيين ومسئولى بعض التنظيمات فى عدن.

وكانت المرة الأولى التى تصل فيها مندوبين للاخ الكبير الى هذه المنطقة ولذا كان الترحيب من الحاضرين حارا والمشاعر دافئة وانتشرت بين القادمين والمستقبلين مظاهر المودة والشوق وطيب اللقاء وخفف البشر على وجوه المستقبيلين والسعادة البادية عليهم مشقة الرحلة وصعوبة الطريق فى الظلمة فكان ذلك خير هدية للقادمين مسحت عنهم الكثير من التعب خاصة مشاعرهم انهم ليسوا غرباء فى هذه البلاد.

وذهب الجميع الى بيت كبير منعزل حوله سور من الحجر وكان هذا البيت هو احد بيوت وجهاء المنطقة واصطف الجميع لصلاة الفجر وبعد ذلك جلسوا فى مضيفة البيت وسط عبارات الترحيب والثناء الذى لاتنتهى ولايضعف لها حماس.

ولم يغب عن المستقبلين ابداء اندهاشهم الكبير وتعجبهم بل واستغرابهم عن هوية المرأة المرافقة للقافلة أمرأة غير عادية ممشوقة القوام تحمل خنجر مثلها مثل الرجال وكانت أكثر القادمين ابتساما وفرحا واشدهم نشاط وحيوية وكاز أحد المستقبلين يعرف محمد الكعبى وعائلته فهم من بلاد اليافعى ويعرف قصة مصرع الشيخ ابو سالم فسارع الى الاخرين يوضح ويفسر ما غمض من الأمر وسرعان ما تصايح القوم بعبارات التحية وهتفوا الله أكبر الله أكبر مرحبين بها بينهم فكان ذلك أكبر جائزة لفاطمة واسعد لحظة فى حياتها.

وتجاذب الجالسون اطراف الحديث بعد الصلاة وقامت فاطمة بمساعدة بعض الرجال فى تقديم الافطار للضيوف ولم يبرح وجهها الابتسامة ونشاطها الدوءب ويعبر عن السعادة والفرحة وعند الضحى احضر الوطنيون الذين كانوا فى استقبال القافلة سيارتين نصف نقل ويسمونها الوانيت وقد تم تزيين كابينة القيادة بستائر مزخرفة عليها بعض الشعارات الدينية وسطحها الخلفى مجهز بجوانب من الحديد المشغول وتمتد الزخارف والألوان المحلية على سائر جسم السيارة حتى العجلات هذا بالرضافة إلى معلقات مزخرفة من الأقمشة سواء من الامام أو من الأجناب كما أن مقدمة السيارة مغطاة بقماش اسود اللون به فتحات للكشافات وذلك كما أوضح الرجال لتقليل تأثير اندفاع ذرات الرمال عند الطوز فيقل تأثيرها الضار على مقدمة السيارة ولايخلو الأمر من بعض المعلقات على مقدمة السيارة وعلى اجنابها مثل شكل انسان من المعدن اللامع وشكل حدوة الحصان وحتى بعض قطع من ماركات السيارات المتنوعة.

وكان سائقا السيارتين من أهالى عدن وجوهم مألوفة لدى الجنود البريطانيون عند مراكز ونقاط التفتيش فى مفارق الطرق وعند مداخل الطرق الهامة التى تخترق عدن وخاصة تلك الطرق المؤدية للمعسكرات البريطانية.

وتم الاتفاق ان تتحرك احدى السيارتين فى اتجاه وفيها صحفى واحد ورجل من رجال الاخ الكبير وفردين اخرين من أهالى عدن وجلس بجانب السائق أحد الوطنيين أما الأربع رجال الاخرين ومعهم أحد الرجال المصريين فقد وقفوا فى الجزء الخلفى من السيارة والغريب للضيوف بالسيارة أنه تم احضار ثلاث اقفصة كبيرة بها عدد كبير من الدجاج والبط وزاد على ذلك أربعة من الديوك الرومية كل ديكين مربوطين بعضهما البعض من اقدامها حتى لايستطيعا التحرر من العربة والعربة الأخرى ركب فيها الصحفى الثانى ومسئول الشئون الفنية مع الوطنيين خلاف سائق السيارة وبجانبه عنصر وطنى اخر اما الاغرب من ذلك أن باقى الفراغ فى خلفية السيارة قد تم ملأه بحزم كثيرة من القات واحضر مسئول التنظيم ثلاثة زجاجات من الويسكى الانجليزى ودسهم داخل حزم القات وكان هذا الترتيب مثارا للتعجب من زملاء الرحلة الغرباء عن المنطقة.

وكان الاتفاق أن يتم اللقاء للسيارتين بعد الجولة فى عدن عند منطقة الشيخ عثمان بجوار جامع العيداروس وكل سيارة لها اتجاه مخالف للاخرى ولكن مكان اللقاء فى نهاية المطاف واحد.

وانطلقت السيارتان فى اتجاهين مختلفين بركابهما وسط حيرة الركاب الغرباء وعند أول نقطة تفتيش بريطانية على الطريق المؤدى

الى قاعدة خور مكسر وقفت السيارة ونزل سائقها وهو يتحدث اللغة الانجليزية العامية كأحد أبناء بريطانيا نزل ضاحكا لرئيس نقطة التفتيش وسلم عليه كأحد أبناء بريطانيا نزل ضاحكا لرئيس نقطة التفتيش وأخذ يتبادلان الضحكات والكلمات الودية وقام أحد الجنود وهو مدجج بسلاحه لينظر ما تحويه السيارة وتطلع الى وجوه الرجال الواقفين دون اهتمام يذكر وجاء بسرعة السائق واخذ يتجاذب مع الجندى الحديث وبطريقة ودية تتخللها الضحكات واسرع السائق ففك قيد أحد الديوك الرومية ليعطيه للجندى الا أن الجندى اشار إلى ديك آخر سمين واكبر حجما فاوما السائق برأسه موافقا ولم يتوقف عن الكلام واطلاق النكات باللغة الانجليزية وضحك الجندى أخيرا وكأن النكتة قد اعجبته واستلم الديك السمين وانطلقت السيارة عبر معبر التفتيش مودعة بتلويح الجنود بأيديهم للركاب وتعلو وجوه رئيسهم ابتسامة عريضة وكان الديك السمين هو جواز المرور السرى المتفق عليه ويبدو أن السائق افهمهم أنه ذهب حيث يتاجر فى الدجاج والبط وأن الأفراد معه من الأهالى محل ثقته ويركبون فى سيارته وعند المرور من نقطة تفتيش اخرى يتكرر المشهد ويأخذ الجنود جواز المرور ومثل ما حدث للسيارة الأولى حدث مع ركاب السيارة الثانية ولكن عند معبر التفتيش الى بوابة اليمن كان جواز المرور السرى احد زجاجات الويسكى وتكرر نفس السيناريو عند كل مركز للتفتيش وكأن جواز المرور يرقى الى الحصانة الدبلوماسية فلا تفتيش ولاتدقيق فى هوية الركاب.

وهكذا تجولت السيارتان فى إنحاء عدن المختلفة ومروا من بوابات التفتيش المتعددة دون أن يساور الجنود شك أو ريبة فالسائقان معروفان جيدا

ومن يجلس بجانب السائق أيضا مألوف للجنود من كثرة مرور السيارتان فى عدن.

وقد كان الوقت مشحونا بالعمل وكثرة الانتقال من مكان الى اخر وقام مسئول الشئون الفنية بمراقبة قول القوات البريطانية المتحرك على الطريق وأمامه صف من الجنود ومعهم أجهزة الكشف يسيرون على الطريق وعلى جانبى الطريق وخلفهم قول السيارات العسكرية يسير بنفس سرعة الجنود القائمين بكشف الألغام وتمت المراقبة من احد الثنايا المرتفعة من جبل شمسان كما شاهد قاعدة خور مكسر وكيف أن الطائرات تهبط إلى المطار عن طريق البحر كما تمت مراقبة مواقع القيادة البريطانية فى كريتر وشاهد اماكن المغارات غرب جبل شمسان التى كان الوطنيون يختبئون فيها ويخزنون بعض اسلحتهم ومعداتهم وكانت هذه الزيارات وجبة دسمة للصحفيين المرافقين ومن ناحية أخرى شاهدوا عدة نقاط مراقبة وانذار للقوات البريطانية على بعض قمم جبل شمسان ومكثوا فترة مع بعض المقاتلين فى مكان أمين شمال غرب جبل شمسان وتفهموا مشاكل اعمال المقاومة والصعوبات التى تعترضهم وافتقادهم الى نوع متطور من الأسلحة حيث أن الخسائر فى أفراد المقاومة كانت عالية حيث تقوم القوات البريطانية بالاعتماد على داوريات عسكرية محمولة ومجهزة تجهيزا

عاليا وتسارع الى مناطق الاشتباكات وكثيرا ما حاصرت بعض أفراد المقاومة وقتلت بعضهم واسرت بعضا آخر ومروا بمنطقة المعلا ومنطقة التواهى ولاحظوا أن فى كل مراكز التفتيش تقف عربة أو عربتين مدرعتين على أهبة الاستعداد للتدخل ومساندة جنود المركز اذا حدثت هجمات معادية.

وتقابل الرجال فى منطقة الشيخ عثمان فى الموعد السابق الاتفاق عليه وقد قامت التنظيمات الداخلية بترتيب مكان اللقاء بعيدا عن جامع العيداروس تجنبا لكثرة العيون البريطانية فى المنطقة وضمانا لتأمين الضيوف حتى لاتتسرب الشائعات ويعرف البريطانيون وجود رجال مصريين فى المنطقة وذلك مالا تحمد عقباه ويصبح الخطر على وجود الضيوف امرا مؤكدا.

واستمع مرة أخرى الضيوف لعدد محدود من مسئولى التنظيمات الفاعلة فى عدن ورصدوا طلباتهم وشكوى بعضهم من قصور وجود الأسلحة والذخائر وعرض بعض مسئولى التنظيم شكاوى متعددة لافتقارهم لبعض المعدات والأسلحة ذات التقنية المتطورة وتكررت الشكوى من كثرة الخسائر فى الأفراد وضرورة ايجاد الوسائل للحد من ذلك ليكون فى مقابل استشهاد كل مقاتل من الوطنيين مقتل جندى بريطانى على الأقل أن لم يكن أكثر ولكن بقاء الحال على ما هو عليه يستشهد الكثيرون دون مقابل وهذا ما يضعف الروح المعنوية لهم ويصيبهم بالاحباط فى بعض الاحيان.

وما كاد الظلام يرخى سدوله حتى تحركت العربتان عائدتين الى المنطقة بجوار بلدة خنفر وكذلك عند العودة كان هناك طريق مخطط

لكل عربة مختلف عن طريق العربة الاخرى وعادت العربتان الى حيث بدأت التحرك خالية الا من الرجال وقد تم تصريف القات والويسكى والدجاج والبط وعادوا بسلامة الله ومروا من مراكز التفتيش المتعددة وقوبلوا بمظاهر الترحيب احيانا من الجنود البريطانيين وهم فى غفلة بان من فى العربة اصدقاء وزملاء السائق وهو صديق وصديق الصديق صديق عاد الضيوف بعد الجولة الصعبة والمرهقة ووجدوا القاعة قد تم اعدادها لاحضار الطعام وبعد أن اجتمع جميع الرجال قاموا لصلاة العشاء وامهم مسئول الشئون الفنية - وبعد ذلك جلسوا القرفصاء وهلت على الحضور فاطمة بقوامها المشوق وابتسامتها النضرة وفرحتها التى لاتخفى عن الناظر اليها دخلت وخلفها لاول مرة ثلاث شابات يمنيات يحملن صوانى الطعام وضحكت فاطمة وكأنها كانت تقرأ التساؤلات الصامتة فاوضحت ان هؤلاء الشابات اليمنيات اصررن على التطوع لخدمة الضيوف وتجهيز الطعام مع فاطمة وكانوا فى غاية الحماس عندما علموا أن ضيوف من مصر موجودين بينهم وتابعت فاطمة كلامها نيابة عن الفتيات اليمينات فقالت انهن من عوائل عريقة من بلاد اليافعى وعندما اصررن على اشتراكهن مع فاطمة فى الترحيب بالضيوف كان وازعهم ذلك رغبة فى المشاركة مادمن لا يستطعن حمل السلاح كالرجال فاقل الممكن نيل شرف الترحيب وتقديم المعاونة والخدمات.

ووجد الصحفيان ضالتهم وكانت بمثابة مناسبة للتعرف على الفتاة اليمينية وتوجهاتها واحلامها وامطروا الفتيات خاصة بالاسئلة

المختلفة رغبة فى سبر غور الألغاز التى تختفى خلفها وكانت وليمة اضافية من المعلومات المبهرة عن ابنة اليمن.

وكان فرحة الصحفيين عالية عندما وافقت الفتيات على التقاط صور لهن ولكن بعد اخذ اذن من ذوى الشأن وأولى الامر بذلك وكان الترتيب المسبق ان يغادر الضيوف فى اليوم التالى مباشرة خوفا من انتشار خبر قدوم مصريين إلى عدن ورد الفعل المعادى المتوقع فى حالة معرفة القوات البريطانية بذلك ورغم حرص الوطنيين على الكتمان ورغم الترتيبات الامنية والمحاذير التى رصدت مسبقا عن التوقعات المحتملة الا ان خبر وجود مصريين من رجال مكتب تعز سرعان ما وصلت الى المخابرات البريطانية ولكنها وصلت بعد نجاح مغادرة المصريين منطقة عدن ولكن زيادة فى التمويه روج بعض الوطنيين العاملين فى عدن استمرار وجود المصريين فى المنطقة وبالتالى عزز البريطانيون نطاقات الامن وزادت قوات الحراسة وكثف البريطانيون من تشددهم فى مراكز التفتيش وواصلت الداوريات المتحركة مرورها فى الاماكن الشعبية الا ان المصريين كانوا قد غادروا فى سلام ونظرا لكثافة استنفار الجنود البريطانيون فى الاماكن الحيوية فى عدن بادر الوطنيون إلى استغلال فرصة الاستنفار العاجل وضعف التنظيم والتأمين ونصبوا عدة كمائن قرب منطقة جنوب جبل شمسان وشرق خور مكسر حيث يسهل عمل القناصة وسهولة الانسحاب والاختباء بطريقة امنة عند قيام البريطانيون باعمال التمشيط العاجلة لتطهير منطقة الحادث وفق الاسلوب المتعارف عليه عسكريا.

اما الضيوف فى خنفر فقاموا يجهزون انفسهم للعودة ومعهم رجال الدعم والحراسة والادلاء الا انه قبل مغادرتهم المكان توافدَ عدّد من الوطنيين من شقرة وبلاد اليافعى وحتى لحج جاءوا مرحبين ترحيبا حارا بوجود الاخوة المصريين بينهم حتى ان بعض الوافدين كانوا قد اعدوا قصائد شعرية من الشعر اليمنى المسمى الشعر النبطى للتعبير عن الحفاوة.

واصروا ان يقوموا برقصة وطنية مستخدمين الخناجر والغناء فى الساحة المحيطة بالمكان وتحت اصرار الوافدين على اظهار مشاعرهم وفرحتهم اضطر الاخوة المصريون للبقاء حتى تنتهى هذه الرقصات واستمر الرقص وإلقاء قصائد الشعر النبطى مدة ليست قصيرة وان كانت وسائل التعبير عن التَرحيب ظلت مستمرة ولم يبدو لها قريب نهاية حتى عمد أحد مسئولى التنظيمات ومن وجهاء المنطقة برفع يده صائحاً بضرورة الحرص على وقت الاخوة المصريين ويكفى ما ظهر من مشاعر وطنية عفوية وتحركت ثلاث عربات إلى طريق العودة وسط مظاهر ومشاعر المحبة والإخاء الجميلة وإن أفصحت عن شيء فهو المحبة والثقة فى وقوف رجال مصر مع دعم وحسن تفعيل وتطوير أعمال المقاومة اليمنية فى إجلاء القوات البريطانية عن البلاد. وسارت قافلة العودة الصغيرة إلى تعز وأثناء سير قافلة العودة وجدت مجموعة من الرجال يقفون فى عرض الطريق يحملون السلاح وهنا استشعر مسئول التنظيم المرافق ببوادر خطر فهذا أمر غير طبيعى إلا فى حالة قطاع الطرق وخففت العربات من سرعتها واستعد الرجال المرافقين بأسلحتهم للدفاع إلا أن الرجال القابعين على الطريق ظهر

أنهم يلوحون بأيديهم لكى تقف القافلة وتوقفت العربات بالفعل مع أخذ الحذر من رجال الحراسة وكان مسئول التنظيم اليمنى ومسئول الشئون الفنية فى تعز يركبان فى أول عربة وعندما توقفت العربة الأولى فى محاذاة الرجال الواقفين وتأخرت العربتان التاليتان كنوع من انواع الاستعداد للدفاع ان لزم الامر.

الا انه ظهر ان الرجال الواقفين عبر الطريق كانوا يغنون بعض الاهازيج الوطنية ويبستمون فى ود ويلوحون بايديهم علامات ترحيب.

ويبرز من بين هؤلاء الرجال رجل ضئيل الحجم نسبيا وكانت عمامته ضخمة بالنسبة لحجمه فكأنه استخدم خمسة امتار من القماش لكى يلف مثل هذه العمامة حول رأسه والقماش كان من النوع الاسود وبه خيوط فضية وظهر وجه الرجل بصعوبة وسط العمامه الضخمة الا ان عينيه كانتا نفاذتين وواسعتين وظهر الخنجر الوطنى فى وسطه من النوع المميز ذو المقبض الفضى المزخرف وتدل الزخارف على انه من اغنياء ووجهاء القوم وكان يحمل خلف ظهره بندقية روسية الصنع من نوع سريع الطلقات الا انه كان قصير القامه نحيفا رغم ملابسة الملفوفة حوله توحى بضخامة مفتقدة لديه.

واشار الرجل إلى باقى الرجال بيده فتوقفوا عن اهازيجهم وتحدث مع ابتسامة مشرقة مقدما نفسه انه السلطان جعيل سلطان المنطقة التى تمر فيها القافلة وانه علم بقدوم الاخوة المصريين فاصر ان يحتفى بهم ومن معهم وانه من الضرورى عنده تقديم واجب الضيافة العربية لهم ويود لو يشاركوا رجاله الطعام وتحدث مسئول

التنظيم إليه بأن وقت الضيوف محدود وعليهم المغادرة بسرعة وحاول أن يعتذر نيابة عن الجميع إلا أن السلطان أشاح بيده ويبدو انه أقسم قسماً عظيماً بما يعنى أنه من المستحيل مرور القافلة إلا بعد قبول دعوته وأوضح مسئول التنظيم للمسئول المصرى بأنه إذا لم يقبل دعوة السلطان فسيكون ذلك إنقاصاً من قدره أمام أهله وإلى رجاله إساءة بالغة لاتغتفر أبداً.

وعليه تقدم القافلة عربة وانيت قادها السلطان بنفسه وقفز الرجال بمهارة فائقة فى صندوق السيارة الخلفى أثناء بدء سيرها وبعض رجال السلطان كانوا يجرون خلفها عندما أسرعت ويقفزون فى خفة ومهارة.

ووصل الركب عبر مدق جانبى إلى ساحة على سفح أحد التلال تحيط بها الأشجار الكثيفة وفى وسطها ثلاثة بيوت أو كما يسميه أهل البلاد ثلاثة أحوش وهى عبارة عن منازل دور واحد يحيط بها سور فيه فتحة للدخول والخروج ولكن ليس مجهزاً بباب يقفل ويفتح وظهر أن الحوش الأوسط مدهون جزء منه باللون الأبيض خاصة براويز الفتحات وعندما دخلت القافلة إلى الساحة أخذ الرجال فى عربة السلطان يطلقون نيران أسلحتهم فى الهواء وقابلهم مجموعة أخرى من الرجال فى طرف الساحة يطلقون نيران أسلحتهم فى الهواء وقد صنعوا من أنفسهم دائرة تتمايل وهذه طريقة الترحيب بالضيوف رفيعى المقام واستمر إطلاق الرصاص دقائق بعدها نزل السلطان من أمام مقود سيارته وأشار بيده فتوقف إطلاق النيران إلا أن الأهازيج الوطنية استمرت لفترة أطول.

وجلس الضيوف ومرافقوهم فى قاعة واسعة بالمبنى الذى يتوسط الساحة وقد فرشت أرضية القاعة بنوع من الحصير الرقيق الخفيف ذو الملمس الناعم والنقوش المنقولة عن الطبيعة وجمالها ويطلق اسم الفرشة بفتح الشين على هذا الحصير المصنوع من نباتات رقيقة ويستوردونه من جنوب شرق آسيا حيث ينمو هذا النبات بكثرة فى هذه الأماكن واصطفت المساند المزركشة بجوار الحوائط حتى يسند الجالسون ظهورهم فى راحة وعندما استقر الحال فى جلوس الحاضرين دخل اثنين من الرجال يحملون مباخر وسرعان ماعبقت رائحة البخور المكان خاصة عند مرور حامل المبخرة أمام أحد الحاضرين يقوم الضيف بدفع دخان البخور بيده عدة مرات حتى تمتلئ رئتيه وأنفه ومال أحد الوطنيين على مسئول الشئون الفنية يوضح له أن نوعية البخور التى تم إطلاقها فى القاعة تعتبر من أغلى أنواع البخور ويباع الوزن منه بالجرام لغلاء ثمنه الباهظ ويسمونه دهن العود الأصلى بعد أن تمت مهمة حاملى المباخر وخرجوا من القاعة دخل أربعة رجال آخرين مقسمين إلى مجموعتين وكل مجموعة عبارة عن فردين الأول يحمل فناجين صغيرة لشرب القهوة والثانى يحمل إبريقًا من النحاس ملفوف الجزء السفلى منه بالقماش وفيما يبدو بغرض الإبقاء على حرارة المشروب أطول فترة ممكنة وبدأ صب القهوة للضيوف والقهوة مصنوعة من حبات البن الأخضر المغلى وبدون سكر ولذلك فطعمها أقرب للمرارة منه إلى الطعم الحلو ويقف أمام حامل فناجين القهوة ويصب فى الفنجان للضيف حوالى ثلثه ويكفى الشارب رشفة أو رشفتين ليفرغ ما فى الفنجان فإذا أرجع

الضيف الفنجان بعد شرب رشفات القهوة من فنجانه الأول ثم قام بهز الفنجان يمنة ويسرة بين أصابعه فهذه تعنى للساقى بأن لاداعى أن يصب مرة ثانية وفى ركن من القاعة وعلى ترابيزة مرتفعة كان يوجد مسجل كبيرة قام فرد بتشغيله ليصدح صوت أم كلثوم رائعًا وسط القاعة وصوتها العذب الرائع بأغنية يانيل وكان لذلك وقع جميل فى نفوس الضيوف ولمسة راقية من صاحب القاعة بمجاملة أهل صاحبة الصوت الرائع وأضفى صوت أم كلثوم الجميل مشاعر الدفء والتواد والتواصل وحمل صوتها الذهبى نغمات المحبة على خيوط من الأوتار الذهبية مست شغاف القلوب وكان السلطان يتوسط الجالسين وكان صاحب نكتة وحديث طلى لاينضب من النوادر التى قابلته فى الوديان والجبال بالمنطقة لأنه منذ نعومة أظفاره شب يحب الصيد وحب الطبيعة من حوله والحق كانت البسمة لاتفارق وجهة واستحوذ على معظم الحديث بما له من دراية وأحاسيس بالمنطقة ودخل الرجال بصوانى الطعام فوضعوا أولا أمام الضيوف ثلاث صوانى مملوءة بالأرز وفوق أحد الصوانى حيوان مشوى أما الاثنين الآخرين مملوءتين بالأرز أيضًا وفوقهم شىء غريب وتوالى إحضار الصوانى ورصها أمام الآخرين ونظر الضيوف الغرباء عن المنطقة كل إلى الآخر خاصة الزميلان الصحفيان يملأهم استغراب وعلامات الاستفهام والاستنكار يكاد يتحدث فى صمتهم وشرودهم المفاجئ ولما تحققا من رأس الذبيحة المشوية وبها عينين جاحظتين وقد غرس فى كل عين عيدان الفجل الأخضر وبعد تمعن قليل تعرفا على أنه غزال مشوى أماعندما جالت الأنظار بما فوق الصوانى الأخرى فهنا كانت

الطامة الكبرى والاستنكار الكبير وعافت نفوس الضيوف شكل الطعام ولم يتمالك أحد الصحفيين نفسه وخرجت عفوية من بين شفتيه كلمة تمساح صغير وساد وجوم على أوجه الضيوف وسرت همهمة على أنها تماسيح غريبة فهى عبارة عن تماسيح صغيرة قصيوة الذيل ولكنها عريضة أسفل الرأس مباشرة وينتهى بذيل رفيع وأما الرأس فمثل رأس السلحفاة وليس رأس التمساح وقد تم فتح الفم وكشفت عن أسنان صغيرة وتم وضع بعض عيدان خضراء فى الفم المفتوح ولما كان المتعارف عليه فى مثل هذه الموائد التى يحكم العرف والتقاليد فيها تصرفات الحضور فكان على صاحب الوليمة أن يبدأ يتناول الطعام وتقطيع اللحوم بالطريقة التقليدية أو أن يقوم كبير الضيوف بهذه المهمة وذلك تأكيداً على رغبة أهل المكان إظهار المبالغة فى إكرام ضيوفهم.

ونظر السلطان يمنة ويسرة وانتظر من ضيوفه المصريين أن تمتد ايديهم للطعام بل وجد بعض الأعين مغمضة من رؤية هذه التماسيح الغريبة المشوية.

ونبه أحد الحضور من المثقفين المرافقين للضيوف بأن المصريين لم يتعودوا أن يأكلوا مثل هذا النوع من الطعام وبادر المثقف موجهاً حديثه للمصريين الجالسين فى صمت ورهبة من الموقف فان واجب الكياسة والذوق أن لا يرفضوا طعام المضيف الذى رحب بهم هذا الترحيب الكبير كما أنه كان العرف السائد فى البلاد أن الضيف الذى لا يأكل مما يقدمه له مضيفه يعتبر إهانة موجهة بطريقة مباشرة ومن الصعب إزالة آثار هذه الإهانة.

واستطرد المثقف فى حديثه موضحًا أن هذا الحيوان يسمونه (الضب) وهو حيوان صحراوى يكثر فى المناطق خاصة تلك التى تنبت بها بعض الحشائش التى يتغذى عليها ويعيش فى كهوف مختبئًا معظم النهار القائظ الحرارة ولا يخرج إلا مساء وعند الفجر وحتى شروق الشمس لكى يبحث عن طعام كما أثار المتحدث واصفًا لحم الضب بأنه كما ترون لحم يشابه لحم السمك إلا أن لونه الأصفر بعد شيه على النار نتيجة وجود الكارى وهو نوع من البهارات الهندية الحارة المذاق وبلباقة وذكاء فطرى وجه المثقف كلامه إلى السلطان جعبل بأن يسمح للاخرة المصريين بعدم تناول لحم الضب هذا مادامت نفوسهم تعافه ولم يتعودوا على أكله فى بلادهم.

وهم لايريدون أكله فابتسم السلطان ابتسامة حميمة وقبل عذر الضيوف وسارع إلى تقطيع لحم الغزال وأخذ يوزع على ضيوفه الغرباء مؤكدًا أنه أطيب لحم هو لحم الغزال وأخذت الأيدى تقبض على كرات الأرز وتقذفها فى جوفها مع قطع اللحم خاصة لحم الضب الغريب الذى وجد شهية كبيرة لدى رجال السلطان.

ورفعت الصوانى فارغة الا من بقايا عظام وفضلات من الارز المتبقى وكان احد الصحفيين الضيوف لديه سيل من التعليقات التى لا تنضب كما انه لايجعل حدثا مهما صغر امره يمر دون ان يضيف اليه حواشى صحفية واضافات فكاهية وكانت نفسه تحدثه مؤقتا بعد مشاهدة تلك الحيوانات المسماه الضب وهى مشوية وموضوعة فوق تلال الارز كما ان ايدى الضيوف امتدت إلى لحم الغزال على

استحباء وقنع الضيوف ببضع حبات من الارز وان صادف فقطعة صغيرة من اللحم ولم يستطيعوا منع اعينهم من مشاهدة لحم الضب على الصواني الاخرى وهى تختفى فى لمح البصر ويقبل على التهامها الرجال بشهية يحسد عليها القوم وتذكر الصحفي قول الشاعر فى هذه المناسبة:

ولم ار ظلما مثل ظلم ينالنا يساء الينا ثم نؤمر بالشكر

وحقا فالضيوف لم يأكلوا شيئا وعافت نفسهم الوليمة الا انهم قدموا الشكر الكبير لصحاب الدعوة السلطان.

الا ان الوقت قد ازف وحان آذان العصر ولابد من المغادرة حتى تصل القافلة إلى تعز قبل العشاء وبشتى الطرق قدم رئيس الضيوف اعتذرات متعددة ومبالغا فى حجمها حتى يسمح لهم السلطان بالعودة وبرروا طلبهم ذلك بمواعيد فى تعز سبق الاتفاق عليها حتى يستجيب الداعى وبعد سلامات عديدة غادر الضيوف قاعة الطعام وخرجوا إلى الساحة من المبنى فوجدوا رجلين ينتظران ومعهما ناقة وقف احد الرجلين يمسك بالناقة ويقوم الاخر ومعه وعاء من المعدن يحلب لبن الناقة فى الوعاء وقام بتقديم وعاء اللبن ليشرب الضيوف وكان من الضرورى شرب بعض لبن الناقة لان ذلك مظهر من مظاهر الرجاء إلى الله ان يعم الخير والمحبة الجميع وانتقل وعاء اللبن من فم إلى اخر حتى فرغ ما فيه وماكاد الضيوف يسارعون إلى عرباتهم حتى استوقفهم احد الرجال واشار لهم باتباعه وجذب السلطان رئيس الوفد المصرى من ذراعة وتبعا الرجل حتى وصلا إلى سور من

السلك الذى يطلق عليه فى مصر سلك الارانب وفى قاعدة السلك امتدت الواح من الخشب بارتفاع لايزيد عن ستين سنتمترا وقسم الداخل بحواجز إلى اقسام منفصلة بعضها عن البعض وتقدم احد الرجال ليشرح نوع الحيوانات الموجودة داخل اقسام الحواجز فهذا ضب اصفر اللون وذلك ضب احمر فيه علامات بيضاء على ظهره وذلك ضب اخر ابيض اللون وهذا ضب له ذيل طويل مخطط يسمى الورل وهذا الورل لا يؤكل وعضته سامة كما وجدوا فى احد الاقسام ثلاث افعات من التى يطلق عليها ذات القرنين وهى حية ليست ضخمة ولا طويلة وراسها عريض ويعلوه قرنان صغيران فوق الراس وأشار الرجل إلى أحد هذه الافاعى التى كانت ترفع جسمها وتسير على الجزء المتبقى لذيلها وتسير متموجة ورافعة رأسها إلى أعلا واوضح ان هذه الافاعى شديدة السمية عضتها تقتل الانسان الشاب وليس لها علاج.

وعلق احد الصحفيين على هذه المشاهدة بان ذلك عبارة عن حديقة حيوان صغيرة جدا وكل ما فيها من الغرائب.

وعاد الرجال إلى المكتب فى تعز بعد ان اصاب المسئول عن المكتب القلق والتوتر للتأخير الذى حدث مخالفا ماسبق الاتفاق عليه من تعليمات.

وكان الارهاق باديا على مسئول الشئون الفنية والصحفيين ولم يكد يستقر بهم المقام حتى اعتراهم على فترات الام فى المعدة ورغبة ملحة في تفريغ محتواها وسرعان ما حضر طبيب مصرى من

المستشفى القريبة وعلم انهم شربوا لبن الناقة فابتسم وهز رأسه وقدم للمرضى بعض الحبوب الطيبة واوضح أن لبن الناقة شديد الدسم ومن لم يتعود عليه تصيبه الام فى معدته قد تستمر يوما أو يومين وبالعلاج تزول هذه الاثار وانصرف عائدا إلى عيادته وترك الرجال يتلون من الآلام فى معدتهم.

أما رئيس الرجال المصريين فقد خفت حدة قلقلة بعض وصول الرجال عائدين ولكنه ظل متشوقا لمعرفة نتائج الرحلة وماتحققق منها لصالح اعمال المقاومة خاصة انه بناء على نتائج هذه الزيارة لعدن والمناطق المحيطة بها سيتم تخطيط اضافات مؤثرة على الخريطة التخطيطية لمساندة الوطنيين فى الداخل وايضا بناء على تحليل المضمون والكشف عن الثغرات والعمل على تطوير حرب الذكاء الدائرة بين المخابرات البريطانية فى عدن والمخابرات المصرية فى تعز هذه الحرب الغير معلنة وان كانت مشتعلة ومتوهجة معظم الوقت.

وتزداد وتتصاعد حدتها بمرور الوقت فحرب الذكاء من أعقد الحروب وتعتمد علي السرية والكتمان واستخدام أسلحة غامضة وعامل المفاجأة حاسم وعليه منعطف التحول لصالح طرف ضد الطرف الآخر.

مدافع مواسير المياه

اجتمع رئيس المكتب فى تعز مع رجاله لدراسة تقرير الرحلة إلى عدن وكان التقرير شاملا وموضحا المصاعب الكبيرة التى تواجه الوطنيين فى عدن - حيث عمد البريطانيون إلى اتباع اسلوب العصا الغليظة واعتمدت القيادة البريطانية على اسلوب التشدد مع الوطنيين وعمدت إلى الاخذ بالشبهات والتحقيقات التى لا تنتهى ولجأت إلى نظام باب الحجز المفتوح الذى كان مخالف حتى لابسط القواعد الانسانية - فإن مسئول المخابرات البريطانية فى عدن وبمساعدة عيونه المنتشرون فى انحاء متعددة يقوم يحجز الوطنيين الذين يشار اليهم بالنشاط ويتم حجز المشتبه فيهم فى اماكن تشبه السجون لمدد مفتوحة وقد انعكس هذا التشدد على الوطنيين بالتسبب فى آثار سلبية عليهم وعلى اسرهم فصار المواطن فى عدن يسعى إلى رزقه ولا يضمن أن يعود إلى أسرته إذا وشى به العملاء ولو لمجرد الشبهة

وقد يبقى فى فى الحجز لايام عديدة تصل إلى عدة شهور فى الحالات الاستثنائية التى يصل فيها الشك إلى درجة الاتهام.

وتعجز اسرة المحتجز حتى عن معرفة مكانة واذا نجحت فى معرفة مكان المحجوز فمن المستحيل ان تستطيع مقابلته .

وظهرت اثار سلبية كثيرة من تطبيق هذا النظام العشوائى الذى مارسته المخابرات البريطانية فى عدن فقد اصاب الاذى الكثيرين ووصل عدد كبير إلى درجة الاحباط فالسعى للرزق اصبح مهددا وشعر العديد من المواطنين بالقهر ونتيجة لذلك زاد عدد الوطنيين الذين انضموا إلى تنظيمات المقاومة وبلغ الامر مداه ان المواطنون فى عدن صاروا وكأنهم قد اختاروا اسلوب العصيان المدنى للحاكم البريطانى وذلك كان امرا طبيعيا فكثرة الضغط تولد الانفجار وكل فعل له رد فعل.

ولم تغب عن رؤية الرجال فى تعز تزايد الاثار السلبية على البريطانيين فى عدن واصبحت السياسة المتشددة للقيادة البريطانية فى عدن تعطى اوراقا رابحة للوطنيين وللمصريين فى تعز.

وظهرت من التقرير الذى قدمه مسئول الشئون الفنية فى تعز عدة محاور يجب التغلب عليها لتفعيل دور المقاومة وتنشيط اثارها وكان المحور الاول هو كثرة الشكوى من المجاهدين لحدوث خسائر عاليه بين افرادهم فالقوات البريطانية كانت كلما مر الوقت زادت فى عدد مراكز المراقبة والتفتيش وعمدت إلى تحديد حركة وتنقل المواطنين ونظمت الداوريات المسلحة المتحركة والتى تراقب وتؤمن الطرق

والمدقات هذا بالاضافة إلى نظام الحجز العشوائى وبذلك ضاق الخناق على الوطنيين القائمين بتنفيذ اعمال المقاومة وتكررت اخطاء استخدام مدافع الهاون ضد المعسكرات البريطانية فما يكاد المقاتلون يطلقون أول قذاعف الهاون حتى تنطلق الكشافات اذا كان الوقت ليلا تضئ المنطقة وتحيل الليل إلى نهار وتتحرك داوريات التأمين المتحركة بعرباتها المدرعة ويتم رصد مكان الهاون واصابة أو قتل افراد طاقمه والاستيلاء على الهاون هذا بالاضافة إلى عدم دقة التصويب للطلقات القليلة التى يمكن اطلاقها قبل الوقوع بين كماشات العدو الامنية.

ومن ناحية أخرى فالمحور الثانى أن المقاومة عمدت إلى نظام القنص لافراد العدو من أماكن حصنية تم اختيارها بعناية فائقة فى المرتفعات والثنيات الارضية وهذا الاسلوب لم يحدث نجاحا ملموسا لان الجنود البريطانيون كان بتحركهم داخل عرباتهم المدرعة والتى لا تنفذ منها طلقات البنادق ولذا فنتيجة الخسائر كانت قليلة اما خسائر البريطانيين فكانت مرتفعة نسبيا بين جنود الكشف عن الالغام والذين كانوا يسيرون امام القافلة الرئيسية.

ومن خلال هذه الرؤية التحليلية استقر رأى قيادة مكتب تعز على استحداث نظم جديدة ترفع درجة الأمان للوطنين المنفذين للعمليات وتسبب خسائر عالية فى صفوف الجنود البريطانيين والاعتماد على كثرة الهجمات وتنوعها وتعدد اماكنها المختلفة حتى يتسبب ذلك فى ازدياد الارتباك بين البريطانيين وتشتيت تركيزهم ومن ناحية اخرى اختيار نوعية من ذوى الحرف الكهربائية والميكانيكية لتكثيف جرعات

التدريب المتطور نوعا واسلوبا بغرض تحسين الاداء والوصول إلى شعار للمقاتلين «لاتموت دون مقابل».

وهكذا كان من نتيجة الرحلة إلى عدن زيادة اضافات عملية وتقنيات متطورة لتحسين اعمال المقاومة ولاحظ مسئول الشئون الفنية في تعز عزوف الوطنيين عن استخدام مدافع الهاون وهذه كانت امرا طبيعيا لنتائج الاستخدام التى تؤدى معظمها إلى الفشل وحدوث كثير من خسائر بين المجاهدين، واستقر قرار رئيس الرجال فى تعز على دفع عناصر مصرية ذات خبرة مميزة للعمل إلى جانب رجال المقاومة الوطنية في عدن فى التنظيم والتخطيط والتحديث للأساليب القتالية.

وتم اختيار منطقة مرتفعة شبه منعزلة تقع جنوب شرق جبل صابر وهى منطقة متوسطة بين تعز والعند لتكون منطقة للتجارب والتدريب التطبيقى وتم تجميع بضعة عناصر من الوطنيين الحرفيين الذين لديهم استعداد لتفهم بعض الاساليب المتطورة البسيطة ليتم تدريبهم تدريبا مكثفا ويكونون نواة لتفريخ عناصر جديدة فى الداخل يملكون المهارات الفنية ويتفهمون الاساليب المستحدثة.

ولم تمضى فترة طويلة إلا وحدث حدثا مروعا للقافلة البريطانية الرئيسية التى كان يتم تأمينها من الالغام بالجنود البريطانيين المزودين بالمكتشفات الصوتية المستخدمة لمثل هذا الغرض.

فرغم كل احتياطات التأمين واجهزة الكشف والرصد انفجرت فى القافلة العسكرية انفجارين كبيرين فى نفس اللحظة عند منحنى جبلى على الطريق الهام بين كريتر مركز القيادة البريطانية وقاعدة خور

مكسـر الجـوية ورغم ان هذا الطريق مـراقب طوال الوقت لاهمـيـتـه القصوى ألا أنه على عكس ماهو متـصور بالنسبة للقيادة البريطانية حدث ووقع المحظور مسـببـا الما موجعـا للبـريطانيين كان الانفـجار اضـخم من ان يكون لغمـا أو لغـمين واختـيار مكان عند منحنى حاد عبر ميول جبل شمسان اختيار ليس عشوائيا والـخسائر فى القافلة كانت جسيمة وحسب مانشرته جريدة الجيش فى عدن وهى مصدر مـوثوق فى بيـاناته فـإن عـدد القـتلى من الجنود وضـبـاط الصف بلغ اربعـة عشرة والمصـابون بلغ ضـعف هذا الرقم بالاضـافة إلى تدمـير عربة جيب واتلاف عربيتين مدرعتين لقد ظهر ان الـخسائر من العيار الثقيل وبسرعـة كبيرة وصلت من القاعدة البريطانيـة عربات الاسـعاف وبعض الـخبراء إلى مكان الكارثـة حسب المسمى العسكرى ومما زاد من حجم الاصابات تصدع بعض الاحجار من الجبل وسقوطها على العربات لمتحركة ... نتيجة ضخامة الانفجار.

ووقف الـخبراء البريطانيون يضـربون اخمـاسـا فى اسداس فـمكان الانفـجار على جانبى الطريق تم اخـفـاء انبوبة ذات قطر صـغـيـر من النوعية التى تستـخدم زيت الفرامل فـى السيـارات وتم اخـفاء الانبوبة بعناية فـائقـة بـحيث لم يتم مـلاحظتـهـا بالنظر ولا عن طريق اجـهـزة الكشف عن الالـغـام وعند مـرور أول سـيـارة تم ضـغط زيت البـاكم وتحركا ذراعان على الجـانبين ليقفـلا دائرات التفـجير ـ وتم احـاطة منطقـة الكارثة بسيـاج امنى كبيـر واسـتمر الفـحص والتدقيق حتى ساعة متأخرة من الليل وسقط فى يد المخابرات البريطانية فى عدن أن الانفـجار حـدث بعد تعذر رؤية أو الـكشف عن انبـوب البـاكم التى تم

اخفاؤها بعناية فى الطريق المرصوف وعند الضغط على انبوبة الزيت بفعل مرور احدى السيارات ثم حدوث الانفجار الشديد على جانبى الطريق فى لحظة واحدة وحدثت الخسائر العالية فى الجنود نتيجة صدمة الانفجار القوية ووقوع بعض الجنود فى دائرة التفريغ لغاز الاكسجين نتيجة التفاعل الكيميائى للعبوات الناسفة وتحولت الطريقة الجديدة للتحكم الميكانيكى إلى كارثة فادحة فلم تستطع اجهزة الكشف الاستدلال على انبوب التحكم فى التفجير وبهذا الانفجار وضع القوات البريطانية واجهزة التأمين فى مأزق حاد وأشارت أصابع المخابرات البريطانية إلى المصريين من حيث التخطيط والتنفيذ لهذا السلاح الجديد.

وتم تبليغ لندن بسرعة عن تلك الكارثة وما استجد من استخدمات وبدقة متناهية وخاصة انبوبة نظام استخدام الزيت الضاغط والتى كانت من المبتكرات ذات الصفة السرية فى ذلك الوقت ورغم الستار الحديدى الذى فرضته القوات البريطانية فى عدن الا انه تسربت الاخبار ونتائج الانفجار والخسائر العالية فى الجنود إلى المواطنين فى الشارع العدنى التى سببت خسائر مذهلة للآله الحربية البريطانية فى عدن واصابت معنويات البريطانيين باحباط كامل وفى الاتجاه المعاكس زاد تفاؤل الوطنيين وثقتهم فى مساعدة الأخوة المصريين.

وقام الخبراء البريطانيون بفحص كل صغيرة وكبيرة وتصوير المخلفات الناتجة عن الانفجار وحضر خبراء جدد من لندن وتبلورت نتائج الفحص والتحليل إلى دلائل مذهلة - من حيث فكرة الاستخدام

الحديثة وفشل أجهزة الكشف بالاجهزة الخاصة عن ذلك مما يضيف تعقيدا اضافيا لقيادة القوات البريطانية فى عدن والاخطر من ذلك هم اولئك الافراد ذو المواهب المبهرة ودقة التحكم الراقية الذين قاموا بتجهيز مثل هذه المصيدة القاتلة وكان الرأى الراجح استبعاد الوطنيين من قائمة المميزين الذين يستطيعون تركيب مثل هذه الادوات الجهنمية بعضها ببعض بهذه الطريقة الجيدة ولذلك فهناك احتمالين كلاهما منتهى الخطورة فاما عناصر متخصصة من المصريين أو عناصر ذات مهارة عالية من الجنسيات الاجنبية الاخرى والخطورة العالية من هذا التقرير هو كيف يتمكن هؤلاء العناصر من التواجد فى عدن وهى المدينة التى تخضع لرقابة شديدة ونظام امن وتفتيش بالغ الدقة واحتمال تواجد عناصر اجنبية لتدعيم اعمال الوطنيين يجب وضعها فى الحسبان وتحديد المحاذير المتوقعة لذلك وهذا تصور القيادة البريطانية وتقديره بأن الوطنيين لا يستطيعون مهما بلغ تدريبهم ان يقوموا بتجهيز مثل هذه المصائد البالغة التعقيد والذكاء ولكن تقديرات البريطانيون كانت خاطئة فاليد الوطنية تم تدريبها بعناية واستوعبت تفاصيل التدريب ومهارة الاعداد والتجهيز وكان نجاح الوطنيين المذهل نجاح للاخوة المصريين فى تعز فقد كانت معاونتهم صادقة وأمنية وكما يقولون أول الغيث قطره ولذلك فبداية النجاحات المتتالية كانت أوسمة للرجال فى تعز تخطيطا وتدريبا وتنفيذا وبدأ رد الفعل للقيادة البريطانية والبدائل صارت ضئيلة والتقديرات صارت خاطئة - فصار رد الفعل الوقائى للبريطانيين فى عدن باهتا ضعيفا ليس على مستوى تلاحق الاحداث وتتابع استخدام

مصائد الذكاء وزادت صعوبة توفير الحماية لقولات الجنود المتحركة ووصل الامر إلى أن الجنود الذين يرافقون تحرك القولات ويأتى عليهم الدور كانوا يودعون بعضهم البعض ويكتبون خطابات إلى أهلهم على اعتبار أنها الرحلة بلا عودة ولاريب أن ذلك الحال تسبب في خفض الروح المعنوية والأحباط لدى الجنود.

وبدأت القيادة البريطانية تضاعف أطقم التفتيش التى تسير أمام القولات وصار هناك جماعتان يحملون الأجهزة الكاشفة الجماعة الأولى للتدقيق بالنظر والفحص اليدوى والجماعة الثانية ومعها أجهزة الكشف الالكترونية لأن احتمالات نصب مصائد مزدوجة أمر كان واردا.

وما كادت القيادة البريطانية تلتقط بعض الانفاس من كارثة انبوب الباكم وفى اثناء سير القول الرئيسى قادم من ميناء عدن فى اتجاه خور مكسر وكل ترتيبات التأمين تنفذ بدقة كاملة ونظرا لان القافلة القادمة من الميناء كانت محملة بمواد وادوات ضرورية وكثيرة فقد رافق سيرها طائرات هيليوكوبتر تراقب حول المكان وتستطلع ما تخبئه سفوح جبل شمسان ومخراته العميقة واثناء سير القافلة هناك شبكة لاسلكية مفتوحة بين قيادة القول وطائرة الهليوكوبتر والقيادة البريطانية في كريتر وفجأة قطع الصمت انفجار عنيف تلاه مباشرة زوبعة من الاتربة والدخان تكاد تخفى القول على طوله وارتفعت اعمدة الاتربة والدخان فى السماء حتى لتكاد تخفى قرص الشمس عن الاعين - وبعد ان انقشعت كثافة الدخان ظهرت النتائج ووضحت

الخسائر البشرية فكانت كثيرة فمجموعات التفتيش تناثرت اشلاء جنودها والعربة الخفية التى كانت فى المقدمة انقلبت اجزاؤها وتطايرت لمسافات بعيدة وقتل جميع من كان فيها اما العربة المدرعة الاولى فقتل قائد المدفع الذى كان يطل من برج العربة والسائق وباقى الجنود فى الداخل اصيبوا اصابات مختلفة وعاد الصمت القاتل بعد الانفجار وتوقف قول العربات وترجل الجنود والضباط بعشوائية وانضمت طائرتين هيلوكوبتر إلى الطائرة المرافقة للقول يقومون بمسح شامل للطريق جيئة وذهابا وارسلت القيادة فى كريتر خبرائها لفحص أجهزة الهجوم الصاعق الذى تعرض له القول العسكرى واستنفرت القيادة كثير من الجنود احترازا لأى تطورات غير متوقعة وكان الظن ان الانفجار قد حدث باستخدام انابيب الضغط كما حدث من قبل ومنذ فترة زمنية بضع ايام الا أن النتائج جاءت مختلفة والمصيدة الجديدة القاتلة كانت مختلفة التجهيز والتجديد فتعذر استكشافها قبل ان تنفجر وتعرض الجنود إلى ما يشبه المذبحة على الطريق ورغم البدء فى حصر وتجميع بقايا الانفجار وانضمت بسرعة عربات الاسعاف لنقل القتلى والمصابين وإخلاء المكان من بقايا كارثة جديدة وتتابع رنين الهواتف من المسئولين يستفسرون ويتساءلون ويحاولون الوصول إلى أى معلومات عن الحدث إلا أن المؤشرات الأولية للخبراء أفادت بأن أسلوب الانفجار والسيطرة عليه أسلوب غريب وطالبوا بارسال كبير الخبراء أو الاتصال بلندن لإرسال خبراء ومتخصصون خبراء أعلى تخصصاً وأكثر تجربة وما كادت الشمس تافل لتختفى فى خدرها فى ذلك اليوم إلا وتردد أن سبب الكارثة استخدام نظام

يعرف بالخلايا الضوئية القاطعة وهو أسلوب عالى التقنية خاصة أن مثل هذه الأجهزة المسيطرة كانت فى مراحل تطويرها الأولى فى ذلك الوقت ولازال أمرها يحتاج إلى تجارب وأضافات وتطوير لا تتم إلا فى المراكز الراقية فى أوربا وأمريكا وروسيا فكيف تصل مثل هذه التقنية المعقدة إلى عدن وتسربت معلومات إلى الجنود داخل المعسكرات أن الوطنيون فى عدن يستخدمون سلاح الخلايا الضوئية وهو سلاح غامض وجديد وحديث حتى بالنسبة للقيادة البريطانية وزادت مهمة البريطانيين صعوبة وكانوا غير مؤهلين لمواجهة المخاطر الغامضة وأساليب المصائد القاتلة وروج بعض الجنود أن منطقة عدن تسكنها أشباح وعليهم أن يحاربوا هذه الأشباح وتندروا فيما بينهم وصنعوا الفكاهات فشر البلية ما يضحك.

أن مجرد استخدام الوطنيين فى عدن أسلوبًا مبتكرًا مثل الخلايا الضوئية القاطعة والتى تعبر سرًا كبيرًا فى ذلك الوقت كان إعلان للمخابرات البريطانية أن مستقبل وجود القوات البريطانية فى عدن بات أمرًا أمامه أكثر من علامة استفهام وكانت رسالة صريحة من الاخوة المصريين فى تعز والوطنيين في عدن تدق ناقوس الخطر للجنود البريطانيين وللقيادة فى عدن وحتى فى لندن.

وتفتق تفكير الخبراء البريطانيون لتلاقى نجاح استخدام الخلايا الضوئية بأن القول الرئيسى البريطانى أثناء تحركه يتم دفع سيارة مدرعة محكمة الاغلاق ومثبت على مقدمتها قائم بارتفاع ثلاثة أمتار يستخدم لقطع الدائرة الضوئية وحدوث الانفجار بعيدًا نسبيًا عن

باقى القول الرئيسى المتحرك وبذلك يتم تقليل الخسائر فى الأفراد إلى الحد الأدنى ومع أن هذا التجهيز نجح نسبيًا فى الحد من الآثار المدمرة للخلية الضوئية إلا أن السيارة المدرعة صارت مستهدفة بانفجار الألغام التى عاد الوطنيون لوضعها على الطريق واخفائها تحت الأسفلت مباشرة بحيث يصعب ملاحظة وضع الألغام فى الطريق بالفحص النظرى. وأما مجموعات التفتيش فقد توقفت نتيجة الخسائر العالية التى تحدث بين أفرادها فكان أول من يقتل يكون بين جنود الاستكشاف ولم تتوقف استخدام الطرق البديلة لزرع الألغام فى طريق الداوريات البريطانية كوسيلة فاعلة ومربكة ومؤلمة للجنود وكان من المستحيل على القيادة البريطانية أن تسد جميع الثغرات وتغطى جميع الاحتمالات فى تنوع تجهيز المصائد القاتلة وبتعدد وتنوع وسائل هذه الشراك الخداعية زاد إحباط العدو.

واستمر حيرة قسم العمليات فى قيادة القوات البريطانية وارتباك قسم المخابرات البريطانية فكلما حاولوا قفل باب للخطر انفتحت أبواب أخرى من الجحيم وساد الذعر بين الجنود وظهرت حيل وأساليب جديدة تحتاج إلى المعالجة وصاروا كمن يحرثون فى البحر.

ولأول مرة تقوم القوات البريطانية بتوزيع منشورات تناشد المواطنين فى عدن التعاون مع القوات البريطانية للكشف عن الفاعلين وراء مصائد القتل بل ان بعض المنشورات أشارت إلى قرار القيادة البريطانية فتح أبواب العمل لمن يرغب من الوطنيين فى المعسكرات البريطانية ومن الطبيعى أن تلجأ القيادة البريطانية إلى تقديم مكافآت

مالية كبيرة لمن يرشد عن الوطنيين الذين يقومون بدق أسافين العداء بين البريطانيين وأصدقائهم الوطنيين وما أقسى السجن بلا أسوار فقد صار حال الجنود كالمسجونين بين الوطنين فى عدن.

ولجأت قيادة الاحتلال إلى اغراءات عديدة مادية وعينية لعلها تستميل بعض الوطنيين لوقف نشاطهم فالحالة فى صورتها الجديدة وتتابع تطوير مصائد القتل رفع معدلات الخسائر بين الجنود البريطانيين بدرجة عالية جعلت الصحف فى لندن تهاجم القيادة البريطانية فى عدن وتصفهم بعدم الكفاءة وضعف الادارة وطالبت بعزلهم.

ومن الغريب أن هذه المنشورات الصادرة من المخابرات البريطانية امتلأت بها أماكن كثيرة فى عدن كملصقات الحوائط وفى الأسواق وعند المعابر الأمنية ونقاط التفتيش البريطانية ومما يزيد من غرابة الموقف انه ماكاد يتم لصق مثل هذه الاعلانات فى مختلف الأماكن وخاصة على الأماكن التى يتجمع فيها كثافة من الوطنيين إلا وتكون معظم الاعلانات قد أزيلت أو تمزقت فى أماكنها أو تم الشطب عليها باللون الأحمر أو تم تغطيتها بروث الماشية تعبيراً عن رفض فحوى هذه المنشورات ورفض الوجود البريطانى فى أرض الوطنيين وصارت القيادة البريطانية فى معالجتها للأحداث المتلاحقة تتخبط وتفتقر إلى الحلول المؤثرة.

وكانت فرحة فاطمة غامرة ومعنوياتها مرتفعة يوم أن رافقت الرحلة مع الأخوة المصريين وأرشدتهم على الطريق الوعرة السرية بدلاً من

أخيها على الذى توفى من قبل ومنذ ذلك الوقت فضلت البقاء مع زوجها وأولادها الصغار فى بلاد اليافعى موطن وأهل زوجها محمد الكعبى حتى تكون قريبة من الأحداث فى عدن ،تتوارد فى ذهنها الأمانى لعل يسعدها الحظ فتشارك مع عناصر المقاومة وتشفى غليلها منذ وفاة والدها بيد الجنود البريطانيين ولم يمض عليها وقت طويل فى بلاد اليافعى وفى ليلة صافية السماء فاتح محمد الكعبى زوجته فى أمر هام وأخبرها أنه أصبح مسئولاً عن اخفاء الذخائر والأسلحة والمحافظة على صلاحيتها وتهريبها إلى داخل عدن وقد وصلته التعليمات بذلك وأنه يفكر جديًا فى أن تقوم فاطمة بما عهده فيها من إصرار وصبر وحماس على المساعدة فى أحكام الرقابة على مكان هذه الذخائر والأسلحة بعيدًا عن الأعين الكثيرة التى استؤجرت عن طريق القيادة البريطانية فى عدن وفى سياق حديثه مع فاطمة حاولت التعليق أو إبداء بعض الآراء إلا أن محمد الكعبى أصر على الاستمرار فى كلامه إلى آخره شارحًا المهمة بكامل أركانها ولم يكن أمام فاطمة بديل عن الصبر وحسن الاستماع.

ولكنها فوجئت بزوجها يسألها عن معرفتها بعدد من صويحباتها التى تثق فيهن ويثقن فيها وان كان لديهم دوافع وطنية بغرض مساعدتها فى هذه المهمة الصعبة والدقيقة ولم تفكر فاطمة كثيرًا فلديها بضع صويحبات يحملن المواصفات المطلوبة ويحرصن على كتمان الأسرار.

واستمر محمد الكعبى فى حديثه إلى فاطمة بأن التكليف الذى وصل إليه ترك له حرية الاختيار للمكان والأفراد الذين يعاونونه فى هذه المهمة ودرءًا لأى ريب أو شك فأوعز له تفكيره بأن الاستعانة بفاطمة ومجموعة صويحباتها هو الأسلم والأفضل هذا إذا تم تدبير المكان المناسب لحفظ الذخائر والسلاح وترتيب المساعدة الكاملة فى الإخفاء والتمويه عن عيون العدو المتلصصة الكثيرة العدد وبسرية كاملة.

وفكر محمد الكعبى فى منطقة جبلية شمال بلاد اليافعى وهى منطقة يقيم فيها نسيبه الحاج حسين وتتميز المنطقة الجبلية باحتوائها على عدد من المغارات العميقة والواسعة والتى تتناسب للغرض وأن تكون مخازن للذخائر والأسلحة خاصة أن مداخل هذه المغارات مغطاة بصورة طبيعية من أشجار كثيفة ونباتات طبيعية وهذه المغارات عميقة وفوقها منطقة رعى ممتازة حيث تجود فيها نمو الحشائش التى ترعاها الأغنام والمنطقة كلها آمنة فهى منطقة الشيخ حسين وهو رجل مسن تقدم فى العمر حتى قارب على الخامسة والسبعين عامًا وكان يشجع ويحفز الشباب على أعمال مقاومة الكفار كلما أمّ المصلين يوم الجمعه أو فى مجلسه مع المواطنين القريبين وكعادة المخابرات البريطانية لم يكن يخفى عنها كلمات الدعوة إلى المقاومة التى صارت لازمة من لوازم خطبة الجمعة صار الشغل الشاغل للقيادة البريطانية فى عدن السيل المتطور من الأعمال العدائية والتى لم يعد يسلم منها مكان والبحث عن الوطنيين المنفذين ولذلك غضت الطرف عن كثرة وجود الشعارات المعادية وتجاهلت نداءات التحريض ضد الجنود

البريطانيين كنوع من أنواع احتواء المضمون الصامت في بعض نفوس الوطنيين وإظهار صورة بريطانيا المتسامحة مع حرية التعبير.

وكانت مسئولية فاطمة هي وزميلاتها المتطوعات تنظيف المغارات وتهويتها من وقت إلى آخر وسرعة الإبلاغ عن الشك في أي موقف مريب يقوم به بعض عيون البريطانيين وذلك لامكان نقل الذخائر إلى مغارات بديلة وليس بعيدة ومع استمرار المحافظة على هذه المغارات البديلة في حالة جيدة وصالحة ونظيفة لتخزين هذه المواد الحساسة.

وأصبحت سفوح تلال يافع السفلي منطقة رعي ومستقر لفاطمة وزميلاتها يأتين بقطيع الغنم والماعز عند أول خيوط النهار ويرجعن عندما يرخي الليل سدوله وبذلك ابتعدت الشبهات عن المنطقة وتجاهلتها العيون الراصدة وان كان الشيخ حسين ومعه بعض مريديه يراقبون المكان ويحفظون الأمان لفاطمة وزميلاتها ويكتمون سر السفوح الخضراء وماتخفيه في جوفها من ذخائر وأسلحة.

ووصلت إلى سالم تعليمات من التنظيم الذي ينتمي إليه بالايحاء لرئيسه الرقيب كلارك أمين المخازن في القاعدة أن بعض القبائل ترغب في شراء مادة البارود الأسود والتي توضع في عبوات بلاستيك وتستخدم كقوة قاذفة للقنابل خاصة قنابل الهاون وعندما استفسر الرقيب كلارك عن سبب شراء مثل هذه المادة دون شراء قنابل أخبره سالم بأن طلب الشراء سيكون على مراحل وكان كلارك دائمًا في حاجة إلى المال لا تفارقه الضائقات المالية فهو يعب الخمر من الحانة ويحب النساء الصوماليات ويلعب أحيانًا الميسر ولذا عندما

أخبره سالم بحجم المواد المطلوبة ظهرت البسمة على وجهه واهتز شاربيه غبطة وفرحًا ونجح سالم والسير حنت كلارك في تهريب كميات كبيرة من البارود الأسود وقد تفتق فكر البريطاني على نقل بعض هذه المواد وتمريرها بعيدًا عن الأعين من خلال السور السلك الشائك حول المعسكر وكانت الواتيتات تنتظر خارج السور يخفيها ظلام الليل البهيم وقد اضطر كلارك إلى ضم زميله العريف نورمان مسئول حراسة جزء من السور الشائك والذى من خلاله يتم التهريب إلى سفوح بلاد اليافعي السفلى الخضراء وفاطمة وزميلاتها يقمن بما تم تكليفهن به خير قيام.

ولم تمض فترج طويلة آلا وكانت الطلبات من قنابل مدافع الهاون ٦١ ملليمتر تتزايد وشراهة كلارك والعريف نورمان للمال تزداد أيضا.

واصبح مسئول الشئون الفنية فى تعز يتردد على عدن وبلاد اليافعى ولحج وزنجبار متخفيا فى اللباس الوطنى متابعا الذخائر التى أمكن تخزينها وساعدة فى ذلك بعض الرجال الذين سبق تدريبهم وتجهيزهم للمشاركة الفعالة... وقد الموا الماما جيدا بالتدريب وكانوا على المستوى الوطنى والمسئولية والالتزام فكانوا خير مساعدين وافضل المستوعبين وكانت التقارير تصل إلى رئيس مكتب تعز أولا بأول وثقته عالية فى مساعده المتواجد فى عدن بين صفوف الوطنيين وعنده من التفاؤل والذكاء برجاله فكان يلبى معظم الطلبات ويذلل معظم الصعوبات وبعض رجاله يعملون مع الوطنيين فى عدن ويسببون كثيرا من الخسائر فى صفوف جنود الاحتلال.

أما القوات البريطانية فقد باغتها استخدام الوطنيين اليمنيين لتقنية عالية فى حينها وصار شاغلهم الحد من كثافة اعمال الالغام التى صارت تؤرق الجنود والقيادة بخرطوم الباكم وعبوات ناسفة كبيرة الحجم تعمل باستخدام الخلايا الضوئية فالتطوير وكثرة الاستخدام اصابت الجنود بخسائر عالية.

وكانت اعمال التجارب الميدانية تسير وفق الخطة الموضوعة ومن نتائج تحليل التجارب على أرض الواقع كان هناك ثقة مفقودة بين الوطنيين اليمنيين واستخدام مدافع الهاون فكثير من العمليات باءت بالفشل والرجال أما استشهدوا أو اصيبوا أو تم القبض عليهم بواسطة القوات البريطانية والكمائن سريعة الحركة وكان استخدام مدافع الهاون يلغى النظرية للمقاومة التى تقول لا للموت دون مقابل.

ونجحت تجارب استخدام مواسير المياه قطر ٢ر٥ بوصة ألا أن مدى قذيفة الهاون كان قصيرا لا يتجاوز بضع مئات الأمتار وهذا المدى القصير لايتحقق منه الرجاء المأمول.

وقد تم استحداث صاعق كهربائى مسيطر عليه للتحكم فى اطلاق قذيفة الهاون من ماسورة المياه وهذا تقدم كبير فى حد ذاته ولكن العنصر الثانى هو أن يكون مدى وصول قذيفة الهاون ماسورة المياه تصل إلى ثلاثة كيلو مترات على الأقل.

ولكن جسم ماسورة المياه لا يتحمل الضغط الهائل للوصول للمسافة المطلوبة فبدأ الرجال يضفحون أسفل ماسورة المياه خاصة عند خط الاتصال المجلفن وقد تم قفل أسفل الماسورة بقرص من

الحديد القاسي السميك ماعدا فتحة صغيرة فى منتصف هذا القرص القاعدى يسمح بمرور سلك الصاعق الذى بواسطته تبدأ سلسلة الاشعال للبارود ثم الانطلاق للقذيفة.

ورغم أن قطر ماسورة المياه المجلفن كانت أوسع قليلا من قطر قذيفة الهاون ٦١ ملليمتر ألا أنه تم التغلب على ذلك بلف شرائط من البلاستر حول قذيفة الهاون لكى يناسب قطرها الجديد قطر ماسورة المياه حتى يمكن اندفاع القذيفة من الماسورة تحت ضغط هائل وتم زيادة تدعيم الماسورة من أسفل بلحاك دعائم من الصلب السميك ويقل التصفيح كلما ارتفعنا عن قاعدة الماسورة بحيث يزداد قدرة الماسورة على تحمل الضغط القاذف لقذيفة الهاون.

وكان يوم فرح كبير وسعادة عظيمة يوم نجاحهم فى الوصول بالمقذوف إلى مسافة تجاوزات الثلاث كيلو مترات ومائتين مترا.

ووصلت تعليمات للمسئولين فى عدن بشراء مواسير المياه من المحلات فى عدن ومخازن الاعمال الصحية بشرط أن تكون جيدة الصناعة وخاصة اليابانية ونقلها إلى منطقة التدريب والتجهيز شمال بلدة العند تم يتم تقطيع هذه المواسير إلى أطوال معينة ويتم لحام قاعدتها وتجهيزها بفتحة السلك الصاعق وتقوية أسفل الماسورة بتدعيمها بصفائح باللحام ثم حساب سمكها ومساحتها من واقع التجارب.

وكان هذا الطلب أمر بالغ الغرابة ولكن تعود الرجال كل فى اختصاصة أن يقوم بالتنفيذ دون اثارة اى تساؤلات واستفسارات

وكما تعود أن يكون فى سرية تامة فعلى الرجال الاستعانة بالكتمان فهذا فى حد ذاته سلاح يجب المحافظة عليه وعندما كانت تمر بعض الوانيتات المحملة بمواسير المياه إلى خارج عدن كان الجنود البريطانيون لا يبدون استغرابا ولا تثير ذلك لديهم أى شبهات فمواسير المياه مواد يحتاجها المواطنون كوسيلة طبيعية لنقل المياه من الآبار خاصة تلك الآبار الكبيرة المركب عليها ماكينات رفع ميكانيكية وهذه بحكم التطور الزمنى صارت تستخدم بكثرة ولذلك كانت تمر العربات المحملة بمواسير المياه دون اثارة أى شك عند مراكز التفتيش والاغرب من ذلك أنه وصلت تعليمات اضافية بشراء مواسير مياه قطر نصف وثلاثة ارباع البوصة بحيث تكون حمولة العربات بها اقطار متنوعة من مواسير المياه وكان محمد الكعبى يقوم بمهمته خير قيام ويرسل المواد المطلوبة الى الشمال ويتم تجهيزها واختبارها واعدادها كمدافع كهربائية ثم يشرف على استقبالها مجهزة ولكن مفككة ومعه رجال مدربون ويتم حفظ بعضها فى تلك المغارات السرية التى تقوم فاطمة وصويحياتها على الاشراف عليها.

ولم تكن مخازن اليافعى هى المكان الوحيد بل كان هناك مخابئ مختلفة فى منطقة لحج وفى بلاد العقربى وفى اماكن أخرى ثانوية وسبق ان اقسم الرجال على الكتمان والحفاظ على الاسرار المقدسة كل فيما يكلف به وتعلم الرجال فى الداخل السرية المطلقة فيتجنب الاخ الحديث مع اخيه عما يعرفه وحتى عن اي تنظيم ينتمى اليه فقد تدربوا ان ذلك من اهم اسلحتهم واقواها امام سلاح الجنود البريطانيين المتفوق فى نوعية السلاح والتجهيزات والمتربص بهم فى

كل لحظة سواء من العيون العميلة أو فى مراكز التفتيش الثابتة والمتحركة فى عدن.

وبعد النجاح الباهر فى تجهيز مدفع مواسير المياه الجديد لدفع قذيفة الهاون إلى مايزيد عن ثلاثة كيلو مترات باستخدام دائرة كهربائى ة بسيطة كان من الضرورى المحافظة على السرية المطلقة لمواصفات السلاح الجديد حتى يكون مفاجأة استخدامه ضد الجنود فيها التأثير المطلوب.

وحتى بين الرجال العامليين فى مكتب تعز لم يكن يعرف سوى رئيس الرجال ومسئول الشئون بالفنية عن تطوير استخدام مواسير المياه فى اطلاق قذائف الهاون فرئيس الرجال شخصية خبيرة ذكية عندما اخبره مسئول الشئون الفنية بنجاح التجارب ظهرت على وجهة بسمة الرضا والتشجيع ولكنه شدد على بقاء هذا السر فى طى الكتمان بينهما حتى تظ هر نتائج التنفيذ العملية. ورغم ان مجموعة الرجال كانوا يعملون للوصول إلى هدف واحد مع الوطنيين اليمنيين الا ان الصمت والكتمان كان اساس عملهم فهم يعلمون ان ذلك وسيلتهم إلى ابواب النجاح والتوفيق بل ان رئيس الرجال نبه بصورة قاطعة مسئول الشئون الفنية ان يبذل جهدا مضاعفا لتكون التجارب كاملة النجاح فلا زال الطريق صعبا وشاقا والجنود البريطانيون يسيط رون على الارض وتتحكم القيادة البريطانية فى مفاتيح السيطرة وكان مسئول الشئون الفنية عند حسن ظن رئيس الرجال وأوصى بدوره الوطنيين الذين اختارهم بدقة للتدريب بقدسية السرية

والكتمان واقسم الجميع على كتاب الله بالالتزام بذلك والحرص على السرية المطلقة فهى سلاحهم القوى.

تعود مسئول الشئون الفنية ومعه بضع مساعدين ونخبة قليلة من الرجال الوطنين ان يتنقلوا فى منطقة عدن والاماكن المحيطة بها والتى تتمركز فيها اهم المعسكرات للقوات البريطانية وكانوا عندما يمرون من خلال مراكز الامن والتفتيش يشاهدون لوحات ورقية مرسومة عليها صور لاوجه بعض الاشخاص التى تم رسمها بعد تجميع المواصفات التقريبية لمجموعة المعلومات المتفرقة التى ادلت بها العيون المنتشرة للمخابرات البريطانية ومكتوب تحت هذه الصور التقريبية كلمة Wanted أى مطلوب القبض عليهم واحيانا يكون هناك بعض المكافآت المرصودة لمن يدلى بمعلومات تقود إلى القبض على احدهم ورغم ان المرور من مراكز التفتيش كان يتم فى اوقات متفرقة ورغم تشدد الجنود فى اجراءات التفتيش والتدقيق على الملامح للاشخاص المارين الا ان دقة التنكر والحذق فى تقليد كل صغيرة وكبيرة وكانهم من الوطنيين الذين يعملون فى مهن مختلفة فى انحاء عدن والمناطق المجاورة كانت تخدع جنود التفتيش واختار الرجال وعلى رأسهم مسئول الشئون الفنية الاماكن العسكرية التى تمثل أهداف حيوية وكان التدبير ان يتم الاختيار وعلى افضل الاماكن مع حساب تقريبى للارتفاعات ومسافات البعد عن الهدف خاصة فى الاماكن المأمونة فى جبل شمسان.

وكان التدبير ان يتم قصف عدة مناطق حيوية للجنود البريطانيين فى وقت واحد حتى تكون المفاجأة والارتباك المصاحب لها مسببا

لكثير من الاصابات*في صفوفهم وتم تجهيز المدافع الجديدة لتكون كل خمس قذائف يتم توصيلها بدائرة كهربائية يتم التحكم فيها بواسطة ساعة زمنية تحدد توقيت الانطلاق فعند اللحظة المطلوبة يتم قفل الدائرة الكهربائية وانطلاق خمس قذائف في لحظة واحدة على الهدف المحدد.

ووقع الاختيار على قاعدة خور مكسر الجوية التى تقع عند اقدام جبل شمسان جنوبيا وقيادة عدة كريتر حيث تتمركز رئاسة القوات البريطانية وقاعدة عسكرية عند بوابة اليمن ومعسكر كبير في منطقة المعلا عند اطراف جبل شمسان الشمالية ومعسكر قرب ميناء عدن مكدس بالعربات العسكرية والذخائر والاسلحة.

وخضعت دراسة الخطة لاحتمالات كثيرة وتوقع مسئول الشئون الفنية بان نسبة من القذائف لن تنطلق نتيجة خطأ فى التنفيذ ونسبة اخرى تنطلق ولكن لن تنفجر القنبلة بسبب سوء التخزين وطول مدته فكان فى تقديره ان نسبة القذائف الناجحة والتى كان من المتوقع ان تصيب اهدافها لن يزيد عن ٤٠٪ ورغم توافر عدد كبير من قذائف مواسير المياه فى اماكنها السرية الا أن تجهيز هذه القذائف للتشغيل تأخذ بعض الوقت خاصة ان معظم المعسكرات كانت تستخدم كشافات متحركة للمساعدة فى الحراسة وتكلف داوريات متحركة تمر حول المعسكرات من وقت لاخر وليس لهذه الدوريات مواعيد منظمة كاسلوب امنى حتى يمكنها مفاجأة عمليات التسلل وتضعف فاعلية المراقبة المستمرة.

وتم وضع هذه العوامل وعوامل اخرى ثانوية وتم اختيار ليلة ظلماء غاب فيها القمر وزاد من الظلمة تلبد السماء بالغيوم واختار الرجال ليلة الاحد كميعاد مفضل للتنفيذ فهو ليلة الراحة والاسترخاء لدى الجنود البريطانيين حيث يكون التشدد فى استخدام وسائل الحراسة والأمن اخف من الايام العادية.

وانطلق الرجال جنبا إلى جنب مصريون ويمنيون ومعهم تجهيزاتهم البسيطة فى توقيتات يحملونها على اكتفاهم ويسيرون إلى حيث الاهداف التى تم تحديدها بمهارة ومعرفة مسبقة بهذه الاماكن وكان المنفذون للهجوم لديهم ثقة عالية فى فاعلية وتأثير سلاحهم الجديد لانهم يقومون بتركيب هذه القذائف وضبط توقيتاتها ثم هناك من الوقت مايسمح بعودتهم إلى اماكنهم وإلى حتى بيوتهم بعيدا عن رصد القوات البريطانية والداوريات المتحركة التى تمكنت من افشال كثير من الهجمات السابقة باستخدام مدافع الهاون العادية فها هى مدافع ذاتية موقوتة وما عليهم الا ان يحفروا حفرة صغيرة لكل قذيفة من قذائف مواسير المياه ويحكموا توصيل الدوائر الكهربائية ويعودون سالمين تحت ستار الظلام من حيث اتوا ويتركون الجنود تحت رحمة ماتخبئه لهم ظلمه هذه الليلة من خسائر وتدمير.

وفى وقت واحد قبل اذان الفجر بنصف ساعة انطلقت مواسير المياه على اهدافها فى فترة هجع الجنود فى فراشهم وسكنت الحركة فى انحاء المعسكرات بعد ليلة حفلت باللهو والمرح ليلة الراحة التى

ينتظرها معظم الجنود كل اسبوع نعم حدثت بعض فروق فى توقيت انطلاق بعض القذائف ولكنها كانت فروق غير مؤثرة.

سقطت قنابل على كريتر وخور مكسر وبوابة اليمن والمعلا والميناء سقطت القنابل فى توقيت يكاد يكون واحد ففرق بضع دقائق بسبب الساعات المتحكمة فى التشغيل لن تكفى للانذار أو اكتشاف المفاجأة واخذ الاحتياط المناسب داخل المعسكرات البريطانية.

انطلقت واحد وستون قذيفة وانفجرت ثلاثة وخمسون قنبلة على المعسكرات المحددة فتسبب ذلك فى مقتل عدد من الجنود فى مهاجعهم واصيب عدد كبير منهم بل لقد اشتعل حريق فى منطقة المعلا لان احد هذه القذائف أصاب خزانا للوقود يستخدم فى تموين العربات المسلحة.

لقد قطع السكون المطبق قبل الفجر صوت الانفجار فى انحاء مختلفة من عدن وبرق فى الظلمة الحالكة الأضواء الناشئة عن الانفجارات واستيقظت القيادة البريطانية وحسب البعض ان تأثير الخمور التى تجرعرها فى اوائل الليل قد زادت فاعليتها عن المعتاد فى اواخر الليل وانطلقت الداوريات المتحركة تفتش حول المعسكرات وانشغلت الوحدات الطبية فى استقبال الجرحى وخرجت قوات على وجه السرعة مجهزة تجهيزا كبيرا لمواجهة الاعداء المهاجمين وارتفعت الحرارة فى اسلاك التليفونات الممتدة بين القيادة والمعسكرات الاخرى وانطلقت اجهزة الانذار والحريق وانقلبت المعسكرات التى كانت هاجعة منذ وقت قصير وفقد مسئول المخابرات توازنة ووقف

امام القيادة يلملم بقاياه بعد فشله في توقع هذا الهجوم الغريب المفاجئ والتنبؤ بمثل هذا الحدث المفزع فيما يزيد عن خمسين قنبلة هاون انطلقت في وقت يكاد يكون واحدا وحدث ذلك على عدة معسكرات في زمن واحد فأي شياطين وراء هذا القصف.

وخلال ذلك كان الوطنيون المنفذون قد وصلوا إلى اماكن راحتهم وبعضهم ذهب إلى بيته وراح في نوم لذيذ وراحة ممتعة وغمرت الجميع غلالة من فرحة ونشوة التفوق واكتشف الجنود في الصباح بعد ان اضاءت الشمس المنطقة مواسير مياه عجيبة مزروعة في اماكن بعيدة ومعظمها فارغة ولكن بعضها لازال فيه القنابل لم تنطلق وتجمع الخبراء حول السلاح الجديد العجيب يدرسون ويحللون ويفحصون وتم فرض حالة طوارئ على مناطق عدن المختلفة ومنعت الداوريات البريطانية ومراكز التفتيش المواطنين من التحرك إلا في أضيق الحدود لأداء مصالحهم المتنوعة والمعتادة وصدرت أوامر عسكرية بفرض حظر التجوال في عدن وحتى في الميناء لحين صدور تعليمات أخرى.

ورغم ان القيادة البريطانية فرضت التعتيم الشديد على تسرب الاخبار الا ان اليمنيين سادت بينهم مشاعر الرضا وهم يرون الجنود البريطانيين يتجولون في مختلف المناطق وعلى استعداد كامل لاطلاق النيران على اى مخالف للتعليمات وحتى كبار السن من اليمنيين في عدن اللذين شاهدوا تحركات القوات البريطانية اثناء الحرب العالمية الثانية الا انها لم تكن بمثل هذه الكثافة الذى ساد بعد انفجارات

مواسير المياه وحتى ظن البعض ان مثل هذا الهجوم لا يستطيع عليه الا قوات نظامية كبيرة.

وصدرت الصحف القليلة التي كانت تصدر في عدن بعد يوم من القصف المفاجئ بعناوين شتى واحتمالات وتنبؤات صحفية فقد كانت المعلومات المتوافرة قليلة ولكن جريدة الجزيرة انفردت بعنوان فريد يقول قذائف مواسير المياه السلاح الجديد في يد الوطنيين وسريعا ما انتشرت بين اليمنيين اخبار قصف المعسكرات البريطانية بقنابل ذاتية الانطلاق قنابل الهاون التي كان استخدامها من قبل بمثابة كارثة صارت وسيلة مرغوبة امنة ومرعبة للجنود البريطانيين.

وبعد يومين اصدرت القيادة البريطانية منشورات إلى المواطنين تحذرهم من استخدام قنابل مواسير المياه التي تصيب القائمين بالتنفيذ وتنفجر فيهم ومنشورات اخرى تقلل من اهمية هذا السلاح وفاعليته ضد بريطانيا العظمى ومنشورات اخرى تتضمن التهديد والوعيد للمهاجمين ولكن اين المهاجمين وسادت روح الفكاهة والتهكم بين الوطنيين على بعض هذه المنشورات فقوات الاحتلال البريطانية تخاف على الوطنيين وتبغى سلامتهم وتحرص على حياتهم وهذا الموقف المتناقض أثار أسئلة حائرة واستفسارات بين الأهالي فكيف تصبح قوات الاحتلال البريطانية بين عشية وضحاها تملك هذا الحنان الكبير وتخشى على الوطنيين ما تخشاه على جنودها وهذا الموقف المتطور لايقبله عقل ولا منطق فالقوات البريطانية وجودها غير مرغوب في عدن فهي لا تعدو عن كونها قوات احتلال تنفذ مصالح

دولتها فى بريطانيا اما مصلحة اهل البلاد الذين منذ اللحظة الأولى كانوا يقاومون هذا الاحتلال بما تيسر لهم من اسلحة بدائية وبسيطة فالقاعدة لدى اهل البلاد رفض الوجود البريطانى على ارض بلادهم ولذا فكانت المشاعر العدائية تعم معظم الاهالى فيما عدا القليل من المستفيدين والمنتفعين وحتى البسطاء من المواطنين وكبار السن سمعوا ما جاء في المنشورات البريطانية زهزوا رؤوسهم وعلت البسمة وجوهم لغرابة ما جاء فى هذه المنشورات واستحسانا لما قام به الشباب ضد الجنود.

حتى ان الشعر النبطى تزايد فى هذه الفترة تعبيرا عن تفاعل الانسان اليمنى مع الحدث وانكاره ان تظل بلده محتلة بقوات اجنبية ـ وظهرت على المقاهى المنتشرة فى عدن منطقة الشيخ عثمان اغانى قام بعض الشباب اليمنى بتلحينها وغنائها.

وردد هذه الأغانى الشيوخ والشباب فالانسان اليمنى بسيط نفسه راضية وقلبه بعيد عن الشوائب مثله مثل هواء اعالى جبال البلاد النقى وصفاء سطح البحار المحيطة بالبلاد ومشاعره جميلة مثلها مثل الزهور البرية التى تنبت في الاماكن المختلفة من البلاد وحتى لتجد زهرة برية رائعة البهاء قد شقت الصخرة وخرجت إلى الحياة تسر الناظر وتسعد خاطر من يقترب منها وكانت الاغنيات السائدة بين اليمنيين بعد حادثة قنابل مواسير المياه تحمل معانى التهكم من العدو المحتل وترمز لرفض اليمنى واصراره على طرد الجنود من ارضه ومن هذه الاغانى التى انتشرت فى ذلك الوقت منها.

قالوا ولاد الكفار جينا نساعدكم

مابنى مساعدة ولا طالبنا مساعدتكم

قالوا بنخاف عليكم ونحمى دياركم

بقى معقول ذابح الذبيحة يبى حمايتكم

اصاب الشارع اليمنى فرحة كبيرة وصارت القيادة البريطانية فى مأزق حرج والجنود صاروا يئنون من وطأة الضغوط النفسية ومشاعر العداء السائدة بين الوطنيين وترتب على ذلك ان قامت لندن بتغيير قائد القوات البريطانية فى عدن وكذلك مسئول المخابرات فى عدن وكذلك تم دعوة رئيس اركان القوات البريطانية للذهاب إلى لندن بلا عودة وكان هناك تفكيران رئيسيان فى العاصمة البريطانية الفكر المتشدد المتمسك بالتقاليد والذى لايزال يعيش مرحلة الماضى وأمجاده والتفكير الثانى ظهر على استيحاء بانه لاجدوى من استمرار احتلال الاراضى بقوة السلاح وبالتالى اعادة النظر فى سياسة الاستعمار القديم.

ورغم ان هذا الرأى بدأ ضعيفا لا يجد صدى الا ان الايام جذبت اليه عدد لا بأس به من المؤيدين وضخت فى أوصاله قوة وارتفعت الاصوات المطالبة بالانسحاب الا أن هذا التيار لم يصل إلى مستوى المنافسة المؤثرة على الرأى الاول المتمسك بالهيبة التى من المفروض ان تستمر وتبقى لدولة بريطانيا العظمى.

ونظرا لاستمرار التيار المتشدد فانه تم اختيار قائد القوات البريطانية الجديد ورئيس اركانه من البريطانيين المتمسكين والمدافعين عن اسم بريطانيا العظمى.

وحتى مسئول المخابرات الجديد فى عدن كان من المدرسة التقليدية المتمسكة باستخدام القوة ورفض المهادنة مع الوطنيين تحت الاحتلال.

ومن المفاجآت ذات المغزى ان ليلة وصول قائد القوات البريطانية الجديد إلى عدن تسبقه سمعته القاسية وغطرسته البالغة فى هذه الليلة الأولى تم استخدام قنابل مواسير المياه للمرة الثانية وتم تركيز القصف قرب مقر اقامة قائد القوات الجديد فى كريتر.

وكان الجديد فى اطلاق قذائف مواسير المياه فى تلك الليلة ان القصف لم يتم فى توقيت واحد بل تم ترتيب اطلاق هذه المواسير بفاصل زمنى بين عشرين دقيقة وستين دقيقة فاستمر القصف لفترات طويلة وعلى غير ما كان متوقعا لدى الجنود البريطانية فأن القذائف الجديدة العشوائية كان يتم إطلاقها دفعة واحدة ويترتب عن ذلك خروج الداوريات البريطانية لتمشيط المنطقة حول المعسكرات المتضررة وتزيد حدة الانوار الكاشفة والباحثة الا أنه ما تكاد حدة المفاجآت على القوات البريطانية نتيجة القصفة الأولى الا ويعود القصف مرة اخرى على اماكن اخرى أو حتى على المعسكر الواحد تحدث اكثر من قصفة وتتكرر عملية القصف وتتكرر المفاجأة وتزداد الخسائر. فمدافع مواسير المياه يتم اخفاؤها بعناية وبخبرة بين ثنيات

الجبال وبين الشجيرات المنتشرة هنا وهناك ويتم تجهيزها للانطلاق والمنفذون في اماكنهم الآمنة بعيدا عن أى خطر فكان المعسكر الذى يتم قصفه بقنابل المواسير. يقوم الجنود المتأهبين بالتحرك خارج سور المعسكر للتفتيش للبحث عن الفاعلين والبحث عن المهاجمين رغم انه من التجربة الاولى - كان الجنود يعلمون انهم يبحثون عن وهم وينقبون عن اشباح - اما باقى الجنود الذين فى وقت الراحة فانهم يعودون سريعا إلى النوم. مطمئنين إلى ان الهجوم قد توقف والامر عاد إلى طبيعته هادئا ومستقرا - وما يكاد الجنود يغطون مرة أخرى فى نومهم حتى يفاجأوا بقصف جديد وشديد مما يضطرهم إلى مغادرة اسرتهم والاستعداد الاقصى فى حالة طوارئ لمواجهة الاعداء المهاجمين ويتم بتخطيط بديل من القيادة تجهيز قوات محملة أخرى لتندفع خارج المعسكر لتقوم بالتمشيط دون طائل وعلى غير امل باكتشاف أحد من الفاعلين فى هذه الهجمات. ولذلك بتكرار حالة التوتر على الجنود تزيدهم اضطرابا وتصيبهم بسوء التقدير والاحباط فالسلاح القوى فى أيديهم والمعدات والاجهزة رهن اشارتهم ولكنهم عاجزون فمثلهم مثل من يحارب طواحين الهواء.

يقول العسكريون المتمرسون فى القتال ان أكبر رهبة تحدث للجندى فى القتال تحدث فى بداية فترة الاشتباك - يكون التوتر فى ذروته والخوف ايضا فى قمته ولكن عندما تزداد حرارة المعركة يتلاشى بمضى الوقت الخوف والتوتر ويندمج الجندى في المعركة اما فى مثل هذه الحالة الفريدة بالهجوم على المعسكرات البريطانية بقذائف مواسير المياه - على فترات غير معلومة فان منحنى الخوف

والتوتر يرتفع إلى حده الاقصى بعد القصف مباشرة وينخفض التوتر والخوف ولكن عندما يتم القصف مرة ثانية وفجأة يرتفع مرة أخرى منحنى الخوف والقلق لدى الجنود ويحدث في مثل هذه الحالة مايسمى تردد منحنى الخوف والترقب والانتظار المؤلم والذى يؤدى بالجندى نتيجة هذا الضغط الهائل المتكررة إلى الوصول إلى ضعف السيطرة على النفس وكذلك يتسبب في عدم اخذ الجندى كفايته من الراحة التى من اساسياتها حالة الاطمئنان وقلة التوتر والأمان الذى صار مفقودا وببساطة شديدة نجح المواطنون فى وضع الجندى البريطانى تحت ضغط نفسى هائل وتوتر ذهنى مستمر وقلق عصبى متزايد حتى يصل إلى حالة تشبع بالاحباط واليأس.

ان المثل يقول وقوع البلاء ولا انتظاره. وهذا المنطق شاع بين الجنود وتبعه اثار سلبية عديدة عليهم وعلى قادتهم فى عدن.

فالقيادة الجديدة فوجئت بهذا الترحيب الملتهب و كأنها رسالة من الوطنيين للقادة البريطانيين تعلن لهم ماكاد يخفى عليهم بان الا قوى ليس هو من يمتلك مدافع ودبابات وطائرات وجنود على اعلى مستوى من التدريب والتسليح وجاء ليحتل ارض الغير والسجن المفتوح اشد قسوة من السجن المغلق الابواب فالظاهر يقول ان الجنود البريطانيون يسيطرون على الارض ولهم الكلمة العليا فى الامر والنهى ظاهريا ولكن فى الحقيقة صاروا جنودا رهن الاعتقال واصبحت قيود العجز ومقاتلة العجز ومقاتلة الوهم ابرز سماتهم.

ومهما طال الوقت وتعددت مظاهر قوة المحتل الا انها مؤقتة وليست مستديمة وان صاحب الحق مهما كانت وسائلة بسيطة

وادواته لاسترداد حقه ضعيفة الا أن الوقت محسوم لصالحه ـ وما ضاع حق وراءه مطالب.

ان أول ليلة للقادة البريطانيين في عدن ـ كانت بمثابة كارثة بمختلف المعايير على الجنود البريطانيين فانطلاق كثير من قذائف مواسير المياه والنظام الحديث لأطلاقها على فتراتها متقطعة ووصول حالة معظم الجنود إلى الحد الاقصى من التوتر والقلق ـ وفشل القوات البريطانية فى القبض على المنفذين لهذه الهجمات أو حتى الاستدلال على اماكنهم واسترجاع الجنود بعض قصص الرعب والفزع التى انتشرت قبل قرون فى انجلترا وان معظم هذه القصص تدور حول الاشباح ومصاص الدماء ومثل ما جاء فى هذه القصص تنطبق على وضعهم اليائس فى عدن وكانت الاسئلة المتلاحقة تشغل تفكيرهم اين الاعداء، ومن يحاربون وعلى من يطلقون النار لا يوجد سوى الاشباح الا أن قائد القوات البريطانية فى عدن وجد فى هذا الترحيب الساخن عند حضوره اهانة قاسية لعظمة بريطانيا واعلان عن سخرية به واستهانة بقدرته الشخصية واستهزاء بما كلفته به قيادته فى لندن وعقيدته المتمسكة بالتقاليد باسم بريطانيا العظمى لقد كان قائدا متغطرسا قديم الفكر والتوجه فكرته عن الوطنيين انهم شبه بدائيين ترهبهم ببساطة اشهار العصا الغليظة وتبهرهم رؤية النقود فلم يتوانى عن اصدار اوامره باستمرار فرض خطر التجول من المساء إلى الشروق كل يوم ولم يتردد فى القبض على من يشتبه فيه من الوطنيين ووضعه فى السجن دون محاكمة قانونية فالمواطنون يتم اخذهم بالشبهات وما أكثر الشبهات اذا كانت العيون الواشية كثيرة

العدد ترصد فى كل مكان يسانده فى سياسة العنف رئيس الاركان المنفذ الفاعل واليد الطولى للبطش بالمواطنين يعمى بصيرته وهم كبرياء خادع يتملكه وشعارات بالعظمة الكاذبة لبريطانيا العظمى ومسئول المخابرات البريطانى الذكى ابن الحسب والنسب المتعالى والذى شرع ينظر إلى الوطنيين من برج عال متباعد عن الحقيقة والواقع.

صار اليوم فى عدن اثنا عشرة ساعة اما باقى اليوم فعلى الوطنيين ان يلزموا بيوتهم ويقفلون محالهم ويفتقدون استكمال مصالحهم وصارت مدينة عدن التى كانت تعج ليل نهار بالحركة والنشاط فى صمت وظلام كاملين منذ لحظة حلول الليل حتى نور الصباح واصبحت المدينة التى لا تهدأ هامدة وقفلت المقاهى وخاصة فى منطقة الشيخ عثمان وصدرت الاوامر للقائد البريطانى بان على خطباء المساجد يوم الجمعة ان لا يهاجموا فى خطبهم الوجود البريطانى بعدن وان يمتنعوا عن قول مافيه تحريض للمواطنين ضد قوات الاحتلال وتوهم القائد الجديد انه باصدار هذه الاوامر المتشددة وبمضى الوقت فان الامور اصبحت رهن امره وقيد ارادته وتوهم انه قد حقق نجاحا جانب التوفيق من جاء قبله من قادة وارسل الرسائل بما توهمه إلى لندن مبشرا ومستبشرا بالايام القادمة وواهما نفسه بان فاعلية المقاومة على كل مايعكر صفو وراحة جنود بريطانيا العظمى فى عدن قد تداعت وامكن احكام السيطرة عليها.

ان تكون قويا شئ جميل ولكن ان تكون ذكيا هو الاجمل والافضل وكانت المقاومة فى عدن مقاومة مستنيرة وذكية يساندها بقوة رجال اذكياء ويدعمها مجموعة من خيرة الجنود المجهولين الذين كانوا يخوضون مباراة فى فنون الذكاء ويحترفون اساليب المناورة والكياسة ويلبسون ملابس المكر والدهاء خصمهم الاقوى والمسيطر ولكن العبرة باحراز الاهداف وتحقيق الفوز فى نهاية المباراة.

هدأت الامور مؤقتا فى عدن ـ وبدأ الطرفان يعيدان حساباتهما ويقدران خطوتهما المستقبلية.

وصارت العربات المدرعة تجوب انحاء عدن عندما يحل الظلام وتنصب القوات البريطانية الكمائين عند المعابر والطرقات وذلك تنفيذا لقانون القوة الغاشمة الذى تم فى عدن ومراقبة تنفيذ اوامر منع التجوال فى المواعيد المحددة.

وكان الرجال فى اماكنهم الامنية مستمرون فى عمل التجارب على استخدام مواسير قنابل الانفجار الهوائى لقد نجحت اطلاق القنبلة اليدوية العادية من قاذف صغير من مواسير المياه المدرعة من أسفل وأصبح للقنبلة اليدوية ذيل من مواسير المياه قطر ثلاثة ارباع البوصة ـ وكانت الفكرة بسيطة وماكرة فى نفس الوقت فبدلا ان يقوم الوطنى بالقاء القنبلة اليدوية على العربات الحاملة للجنود واقصى مسافة تصل إليها بالقذف اليدوى تصل إلى ثلاثين أو خمسة وثلاثين مترا وبارتفاع لاعلى لا يزيد عن عشرة ا متار.

صار القاذف الجديد يعمل بوسيلة سيطرة كهربائية وتنطلق القنبلة اليدوية مسافة تتجاوز اربعمائة مترا وترتفع إلى اعلا مسافة تتجاوز الثلاثين مترا وبدلا من ان تنفجر على سطح الارض بعد فك تأمينها بمدة أربعة ثوان تم التعديل ليتم الانفجار فى الهواء عند ارتفاع لايزيد عن اربعة امتار وبالمفهوم العسكرى فان الشظايا التى تؤثر من الانفجار الهوائى كانت اضعاف الشظايا المؤثرة اذا تم الانفجار على سطح الأرض وبالحساب والتجارب الموقعية امكن بذكاء تعديل فترة تأخير انفجار القنبلة اليدوية بعد فك قيد الامان لتكون ستة ثوانى بدلا من اربعة ثوانى وكانت هذه الفترة الزمنية الجديدة كافية لوصول القنبلة الطائرة إلى المسافة المذكورة وحدوث الانفجار الهواء على الارتفاع المقنن لذلك.

ونتيجة لسياسة القيادة البريطانية الجديدة ومرور الداوريات المسلحة نهارا وليلا وبكثافة غير مسبوقة كل هذا التشديد لكى يثبت القائد الجديد مصداقيته وحزمه لايقاف حالة النزيف المستمر لدماء الجنود البريطانيين ولتحجيم فاعلية عمليات المقاومة ولم تستمر فترة الهدوء الحذر كثيرا فقد استوعبت المقاومة المستنيرة الموقف الجديد وتفهمت صيغة التشديد فى السيطرة وطريقة استخدام العصا الغليظة لم يخرج عن نظام الامن الذى تم فرضة فى مختلف انحاء عدن.

وبدأت قذائف مدافع مواسير المياه تعود وتفرض وجودها بعد اكتساب الوطنيين خبرة اضافية فى التنفيذ وتغير استخدام عدد كبير من القذائف لتنطلق فى وقت واحد على المعسكرات البريطانية.

استخدام القذائف بطريقة جديدة اذ كان يتم تجهير مواسير المياه وتركيب الدائرة الكهربائية البسيطة وتنطلق لتسقط على المعسكر البريطانى فى أى وقت يشاء ذلك الوطنى الذى قام بالتجهيز والاعداد لجأ الوطنيون إلى استخدام قذيفة واحدة يستطيع اى فرد أن يخفى مدفع ماسورة المياه على ظهره وخلف عباءته التى عادة ما يلف بها نفسه وهذا اللباس هو الذى يستخدمه افراد القبائل حول عدن - وتم ابتكار حمالة صغيرة تثبت فى حزام الوسط العريض من الخلف والخنجر يتدلى فى الجزء الامامى من الحزام وذلك لابعاد الشبهة والشك من قادة دوريات التفتيش المعادية.

وكثر الاقبال على استخدام مدفع مواسير المياه وتنافس الوطنيون لتنفيذ مثل هذه العمليات البسيطة والعشوائية وتضاعفت اعداد القنابل التى تصيب المعسكرات البريطانية فاستخدام هذا السلاح الماكر بسيط وامن ويتم التحكم فى اطلاقه فى أى وقت.

واصبح الجنود البريطانيون لاتكاد تمر ساعة أو بضع ساعات ألا ويقع انفجار قد يصيب عددا من الجنود أو لا يصيب وفى كلا الحالتين فتأثير الانفجار النفسى محبط على الجندى البريطانى فعند حدوث الانفجار فى معسكره يسارع إلى الاستنفار بحثا لوقوع المزيد من الانفجارات وعلى قيادته ان تدفع بعناصر القوة المسلحة الراكبة للتمشيط وتتعدد الاتصالات التليفوية للاستفسار عن خسائر القصف من الرئاسة وكثيرا ماتطلب القيادة تحديد مصادره والخسائر والاحتياطات الاضافية وكيف تتصور الحالة بين الجنود والانفجارات

صارت مستمرة طوال الاربع والعشرين ساعة فما اسهل على الوطنى ان يحمل ماسورة المياه ويتحرك بها فى اماكن القصف العشوائية حول المعسكرات البريطانية المنتشرة فى عدن وضواحيها ومما ساعد الوطنيون على حسن استخدام مواسير المياه القاذفة سهولة تثبيستها فى الارض وسهولة ضبط الدائرة الكهربائية البسيطة وسهولة الابتعاد عن مكان الاطلاق بعيدا عن الاعين الراصدة رغم كثافة مرور الداوريات البريطانية الفاحصة والمندفعة - فجبل شمسان وتعرجاته وحدة قممة وشدة انحداره فى مواقع عديدة وكثرة الثنيات الارضية على سفوحه وفى منحدراته واحاطه جبل شمسان بمعظم المعسكرات الهامة البريطانية فى عدن تؤمن المكان اللازم لاطلاق قذائف مواسير المياه وتكون خير ساتر لاى وطنى يقوم بتنفيذ مهمته وعندما تعثر أحدى الداوريات على قاذف ماسورة المياه سواء تم اطلاق قذيفته أو لازالت فيه لم تنطلق وما تكاد الوحدات المتخصصة تقوم بازالة مثل هذه المواسير حتى يحدث انفجار شديد يقتل ويصيب العديد من الجنود فلقد اضافت المقاومة الذكية إلى قاذف ماسورة المياه الذى يبقى بعد اطلاق قذيفته أو لازالت فيه لم تنطلق وماتكاد الوحدات المتخصصة تقوم بازالة مثل هذه المواسير حتى يحدث انفجار شديد يقتل ويصيب العديد من الجنود فلقد اضافت المقاومة الذكية إلى قاذف ماسورة المياه الذى يبقى بعد اطلاق قذيفته فى مكانه مغروسا فى الأرض الجبلية بعض المصائد الشيطانية التى تجعل الماسورة تنفجر بمجرد محاولة نزعها من مكانها واستفحل ضراوة اطلاق قذائف مواسير المياه وزاد معدلات القصف ليلا ونهارا وبطريقة

عشوائية والانفجار الذى لا يصيب يقلق ويضيف عبئا وضغطا على نفسيه الجنود البريطانيين ومما زاد من تعقيد الامور تلك المصائد الذكية التى تقتل الكثير من الجنود فصدرت التعليمات من القيادة وعندما تكرر انفجار هذه المصائد الذكية فى الجنود صدرت التعليمات من القيادة بترك المواسير القاذفة واتلاف الدائرة الكهربائية فقط اذا كانت القذيفة لم تنطلق من قاذفها وصارت البلاغات العسكرية تتوالى على القيادة البريطانية بحدوث انفجارات لمواسير المياه القاذفة بصورة مستديمة ليلا ونهارا وتنهال الاوامر من القيادة العسكرية بضرورة القبض على أى وطنى من القائمين بالتنفيذ دون صدى ودون اجابة فكيف يتم القبض على أى وطنى من القائمين بالتنفيذ متابعة وملاحقة اشباح تختفى قبل اطلاق القذائف وسقط فى يد القيادة العسكرية استمرار حالة الجنود المحبطة هذه ان عاجلا أو اجلا صار من المستحيل الابقاء على قدر من معنوياتها ولابد سيصل الجندى إلى حالة من اليأس والاستسلام.

الا أن الانفجار الهوائى الذى اصاب جنود احدى الداوريات المحمولة والخسائر النسبية العالية اضافت الكثير من المتاعب للقيادة العسكرية فهرول الخبراء وعربات الاسعاف إلى مكان الحادث فى منطقة المعلا وحضر بعض القادة العسكرين ليشاهدوا الحادث العجيب فحادث الانفجار لم يكن نتيجة لغم ارضى ولم يكن نتيجة صاروخ موجه إلى العربات المدرعة ولكنه انفجار حدث فوق العربة المدرعة الحاملة للجنود نعم كانت عربة مدرعة ولكن اضعف مكان بهذه العربة هو الجزء العلوى للعربة حيث يقبع الجنود البريطانيون

لقد اصابتهم الشظايا الطائرة وظن الفاحصون في بادئ الامر ان احد الوطنيين قد القى بقنبلة من احد المنازل على العربة المدرعة ولكن هذه المنازل كان يسكنها بعض العائلات البريطانية وهى مطلة على خليج عدن الصغرى وتعددت التخمينات والتفسيرات إلى أن تم العثور على قاذف القنبلة اليدوية البسيط وكان عبارة عن قطعة من ماسورة مياه قطر نصف بوصة مزروعة فى الارض ومتصلة بمصدر كهربائى بسيط . وتبعد عن مكان الإنفجار بمسافة تزيد عن أربعمائة متر والمثير فى الحادث ان قاذف مواسير المياه الكبيرة يتم تنفيذه بواسطة دائرة كهربائية ولكن اتضح اطلاق القنبلة اليدوية تم تنفيذه يدويا وبعد فحوص عديدة ودراسات الخبراء البريطانيين تنبهوا إلى ان الداوريات المتحركة يتم مراقبتها من مسافة بعيدة ومن مكان يمكن الرؤية الجيدة منه ومن ثم يتم اطلاق القنبلة اليدوية ويشير تقارير الدراسة ان اطلاق القنبلة الطائرة يلزمه عنصرين احدهم للمراقبة عن بعد واعطاء الاشارة فى التوقيت المناسب والعنصر الاخر يقوم باطلاق القنبلة وتحت جنح الظلام يتم انسحاب المهاجمين والعثور على آثار انسحاب المهاجمين يلزم على الاقل البحث فى دائرة قطرها لايقل عن كيلو متر وطبيعة الارض لا تسمح للجنود البريطانيين بالقيام بمثل هذه المهمة خاصة ان عامل الوقت بعد الانفجار هو العامل الحاسم فكلما زادت الفترة الزمنية بعد الانفجار دون اتخاذ اجراءات سريعة كلما تمكن المهاجم من الانسحاب إلى اماكن ابعد واكثر امنا وحتى اذا تم القبض على المشتبه فيهم فليس امام البريطانيين دليل أو قرينه يدين ويؤكد الفاعل الحقيقى.

ان الجندى البريطانى فى عدن جندى عالى التدريب جيد التسليح يتميز بكفاءة قتالية عالية ـ وهو مجهز نفسيا للحرب ولكن ضد جندى نظامى مثله بحيث يكون النزال بين انداد والقتال بين قيادتين تحكمها تكتيكات ونظم قتالية مدروسة.

ولكن الجندى البريطانى فى عدن لم يكن يحارب فى اطار التكتيكات القتالية العالية التى تدرب عليها فالطبيعة الجغرافية للمكان كان سلاحا طبيعيا فى صالح المواطنين وطبيعة الانسان اليمنى معروفه بالغموض وسرعة التلون حسب مقتضيات الزمان والمكان وبحكم القياس والمقارنة فان هذه الخصوصية اليمنية المميزة باسلوبها الهجومى المتنوع وبالتالى اتخاذ موقف الدفاع الملائم وجد الجندى البريطانى نفسه أمام آليه ذكية تدير حربا عشوائية ضده ومقاتلون لايراهم ولا يعرف مكانهم وكأنهم مجموعة من الاشباح والتى صار ذكرها بالنسبة لهذا الجندى تثير كوامن خوفه وقلقه وارتباكه ومما ضاعف من رجحان كفه المواطن اليمنى ان الجندى البريطانى كان بعيدا عن بلده واهله والحرب بالنسبة له فى هذا المكان ـ غير واضحة المعالم وان حاول القادة تقديم تفسيرات باهته خاصة عن عظمة الامبراطورية البريطانية وهيبتها الا أنها صارت وهما من الماضى وامر لايفيد خصوصياته ولذلك صار يعانى من الاكتئاب ومما زاد من حيرة الجندى البريطانى كثرة القتلى والجرحى بين زملائه وقناعته ان الدائرة مستمرة وسيأتى عليه يوم يفقد فيه حياته ان عاجلا أو اجلا. وهذه العناصر كانت اسلحة فتاكة فى جانب الوطنيين وهذه الاسلحة اشد فتكا مما تم تجهيز الجندى البريطانى به من اسلحة متطورة

ومدافع ذات اعيرة كبيرة ولاحتى الطائرات للمساعدة في تأمين وضمان سلامته وكانت لذلك كلة قوة السلاح في يد الوطنيين امضى واكثر فاعلية من السلاح الذى كان في يد الجندى البريطاني وكانت كفة الوطني هي الراجحة والمتفوقة خاصة بعد التحديث الجيد على نوعية سلاحة وبراعة المناورة في استخداماتها وكان لا يضع نفسه في مواجهة مع الجندى المحتل فانه يعرف في هذه الحالة انه الاضعف بلا جدال.

كان القائد البريطاني الجديد ممن يؤمن بمبدأ استخدام القوّة والعنف في بسط السيطرة على المواطنين واشهر عصاه الغليظة بكل قسوة وبلا رحمة ولا شفقة وكان يؤخذ المواطنيين اليمنيين بالشبهات ويتم التحقيق معهم بل واصدار الاحكام عليهم دون فرصة دفاع شخصية يسمح بها لهم وهذا الاسلوب المتشدد صار سلاحا اضافيا ليس في يد الجنود البريطانيون ولكن في يد الوطنيين الذين زاد حنقهم وبغضهم على وجود الغريب في أرضهم وحتى من كان لاهيا عن هذا الوجود شعر بالخطر يقترب منه فانضم إلى صفوف المقاومة الوطنية.

وحضر من لندن بعض اعضاء البرلمان البريطاني ومعهم اخرون من ذوى النفوذ والقوة في دائرة صنع السياسة البريطانية جاءوا إلى عدن لاستطلاع الحقائق من الواقع بعد ان تزايدت رسائل القائد البريطاني بان السلام اصبح يعم عدن وانه قريب من القضاء على الخارجين عن القانون حسب وصفه وان بريطانيا العظمى تحتفظ بمهابتها وقدسية عظمتها في المنطقة.

ومن الطبيعى أن تظهر القيادة والسيطرة البريطانية بمظهر متكامل أثناء وجود الضيوف القادمين من لندن فأقيمت الحفلات وتم ترتيب بعض الجولات هنا وهناك وتم تنظيم برامج ترفيهية ومن هذه البرامج قيام بعض الأعضاء الزائرين بجولة بحرية فى اليخت المخصص لقائد القوات وتم تقسيم أعضاء الوفد الزائر إلى مجموعات تركب كل مجموعة اليخت وتجوب في أنحاء ميناء عدن وخليج عدن الصغرى والمرور حول جزيرة شقرة وعن بعد من ميناء وخليج عدن الصغرى كانت تقف سفينتين بريطانيتين شامختين كقلاع شديدة المنعة والقوة وترفع أعلام الامبراطورية البريطانية وعندما يمر اليخت قريباً من هذه القلاع البحرية كانت صفارات السفينيتين تنطلق تحية وإجلالاً لمجموعة الضيوف وقد تم تقسيم المجموعات الزائرة بحيث تقوم كل يوم مجموعة برحلة ترفيهية بحرية.

حيث أن اليخت لم يكن كبير الحجم ليستوعب كل الزائرين هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تنفيذاً لتعليمات أمنية حرصاً على سلامة الزائرين.

ولم تكن أعين العناصر الوطنية بغافلة عن هذه المناسبة الدسمة لقيام يخت القائد البريطانى وفيه بعض من صفوة البريطانيين فى لندن بجولاته البحرية الترفيهية ولم يكن فكر رجال الأخ الكبير بغائب عن الاستعداد لمثل هذا الموقف وسرعان ماوصل رجلين وشاحنة صغيرة إلى حيث مكان مخبأ الذخائر والسلاح ومعهم محمد الكعبى زوج فاطمة التى كانت تقوم مع زميلات لها بالرعى حول المكان وتنفيذ

تعليمات النظافة والتهوية والاخفاء الجيد لهذه المخازن ووقفت الشاحنة أسفل الوادى بعيداً وتقدم الرجال الثلاثة إلى داخل المغارة ورغم أن فاطمة لمحت زوجها ضمن الرجال فهذا يعنى أنه جاء لتنفيذ أمر هام وكما تعلمت فاطمة من قبل لم تبدر منها أى بادرة للتحدث أو النداء على زوجها بل استمرت فى الثرثرة فوق السقح مع زميلاتها حتى لا يلاحظ أحد العيون العميلة المكان السرى وتتسبب فى كسر طوق الأمن ووقف الرجال أمام عدة صناديق كتب عليها بألوان سوداء وخطوط غير مفهومة وقاموا بأخذ صندوقين محددين فلم تكن الصناديق متشابهة ولكن يبدو أن رفقاء محمد الكعبى كانا خبيرين بما يريدان وانسحبت الشاحنة الصغيرة بعيداً بعد أن قام الرجال بوضع الصندوقين بعناية تحت البضائع المختلفة التى كانت تحملها الشاحنة.

وفى المساء اجتمعت بعض العناصر المتخصصة ومعهم اخوان لهم المصريين وتم اخراج محتويات الصندوقين فى مكان أمين وتم توزيع أدوار العمل ونقل التجهيزات إلى عدد من مراكب الصيد الصغيرة المملوكة لليمنيين الذين يعتمدون فى رزقهم على صيد الأسماك قريباً من الميناء وفى الصباح الباكر وصلت حافلة صغيرة نقل آخر فوج زائر من أعضاء مجلس العموم البريطانى ليقوموا بجولة ترفيهية فى الميناء حول الأماكن الهامة علي سواحل عدن كالمعتاد وبدأ اليخت يسير خارجاً عن مكان رسوه وما كاد يبتعد عن الميناء ويقترب من السفن الحربية البريطانية التى أخذت تطلق صفيرها بالتحية والضيوف فى حالة استرخاء واستمتاع بما يشاهدونه وضباط وجنود

السفينيتين الحربيتين يلوحون بأيديهم للزائرين وبدون سابق إنذار انفجر اليخت وعلت فوق بقاياه كرة كبيرة من اللهب وتناثرت أشلاء كل من كان باليخت وحطام اليخت ذاته على صفحة المياه ولم يستغرق هذا الحدث إلا ثوانى معدودات بعدها اختفى ما بقى من اليخت والزائرين فى أعماق مياه المحيط وسَاد سكون عجيب نتيجة صدمة عظيمة من أثر موجة الذهول التى ألجمت كل من كان على السفينيتين ملوحاً منذ مدة وجيزة ومحيياً الزائرين الكبار وبعد أن خفت حدة ذهول الموقف الطارئ نزلت قوارب من السفينيتين الحربيتين واتجهت إلى مكان الانفجار الرهيب لعل يمكن العثور على أحياء فيتم إنقاذهم ورغم تزايد عدد القوارب وقدوم قوارب أخرى من مراسيها لتكثيف البَحث والفحص إلا أن سكون البحر فى هذا الصباح صار مثله مثل سكون القبور واختفت من السماء الطيور التى كانت تحلق فى هذا الوقت ودفعها الفزع من صوت الانفجار إلى الطيران بعيداً عن المكان واختفت مجاميع الطيور وصارت السماء ساكنة سكون صفحة المياه وسيطر على المكان الصمت القاتل وبمرور الوقت تحولت أعمال الانقاذ إلى عمليات انتشال بقايا جثث القتلى وبقايا حطام اليخت واستمرت الأعمال حتى حل المساء ورغم الظلام استمرت عمليات الانتشال الممكنة تحت ضوء كشافات السفن وقوارب الانقاذ التى هبت للنجدة من ميناء عدن.

لقد جاء قائد القوات ورئيس أركانه بعد الانفجار مباشرة فى أحد قوارب الانقاذ التى كانت راسية فى الميناء ولكن ماذا يفيد وجود الرجل القوى والقائد صاحب العصا الغليظة ومساعده وقد انتهى كل

شىء فى بضع دقائق ولن يبق لديهم سوى الوهم فى أن تتمكن القوارب من انقاذ أحد يكون على قيد الحياة ولكن كان حتى الوهم فى غير موضعه وعاد الزوار إلى لندن وبجوارهم أشلاء زملائهم الذين شاء حظهم العاثر أن يكونوا ضمن النزهة الأخيرة والتى ذهبوا فيها بلا عودة.

وبدأ الخبراء يفحصون بقايا حطام اليخت - وبقايا الشظايا التى أمكن انتشالها من قاع البحر واتضح أن الأمر كان بالغ الغرابة بالنسبة لهم فمن المعروف لهم أن المواد والتجهيزات التى تستخدم تحت الماء لابد أن تكون ذات تقنية عالية وهالهم مستوى التنفيذ الغير متوقع إلا على مستوى خبراء فالقنبلة التى نسفت اليخت تم تثبيتها بمغناطيس قوى على جسم اليخت أسفل سطح المياه وكان وضع القنبلةيدن على خبرة ودراية بالمكان السليم المؤثر فى وسط ماكينة اليخت لتنفجر بعد مغادرة اليخت المرفأ الذى كان راسياً فيه باستخدام جهاز توقيت حساس ومتطور يتحمل العمل الشاق تحت الماء واتضح للخبراء أن جهاز التحكم فى التفجير كان من نوع حديث ميكانيكى الحركة يشغل صاعق سلسلة التفجير عندما تصل الحركة الميكانيكية لموتور اليخت إلى درجة معينة.

وذلك بعد أن يسير اليخت لفترة تكفى لبعده عن الشاطئ مما يزيد من صعوبة وصول وسائل الانقاذ واتضح بعد التحليل والدراسة المكثفة أن السيطرة على القنبلة كانت وسيلة ميكانيكية تقفل دائرة الصاعق عند وصول سرعة اليخت إلى حد معلوم.

وتضمن تقرير الخبراء أن لا يجب الاستهانة بقدرة أعمال المقاومة والعناصر التنفيذية فلديها الخبرة والتدبير المحكم وأدوات التطوير المستمر بحيث صارت أجهزة القيادة فى عدن لا تستطيع متابعة تغيير وسائل التفجير المتطورة والهجمات الحديثة المتتالية وأصابع الاتهام المباشر ترفع إلى مكان المصريين فى تعز وأخذ مسئول المخابرات البريطاني يكثف خطة الانتقام منهم.

وسقط في يد قائد القوات البريطانية المتغطرس بعد أن تعالت بعض الأصوات وتسابقت الجرائد اللندنية فى الهجوم على سياسته وادارته على الموقف فى عدن وحلت مناسبة مولد العيداروس الكبير وفى هذه المناسبة يحتفل اليمنيون كل عام بمولده ويأتى إلى عدن زوار من كل صوب خاصة من حضرموت والعوالق ولحج واليافعى والعقربى فهى مناسبة ينتظرها اليمنيون وتمتلئ الساحة أمام مسجد العيداروس عن آخرها ويتعذر أن تجد موطئًا لقدم ويبقى الزائرون ومعهم أولادهم وعائلاتهم لعدة أيام ويأتى أصحاب الألعاب المختلفة يعرضون صنوف ألعابهم ويستغلون هذه المناسبة لكسب بعض المال ويتجمع بعض اليمنيين فى حلقات يعرضون فيها بعضاً من فنون أهل اليمن الشعبية العريقة والموغلة فى القدم فيقومون بالرقصات الوطنية المختلفة مثل رقصة العدة التى يؤديها الرجال ورقصة الزريادى التى اشتهرت بها عائلة الزريادى من وادى حضر موت وانتشرت فى اماكن متعددة من اليمن وكذلك رقصة الخناجر ورقصة العارضة وتتم هذه الرقصات على الحان الدان ويستخدم العازفون انواعا مختلفة الاحجام من الطبول مثل الهاج وهو الطبل الكبير والمرواس اى الطبول

الصغيرة وكذلك بعض الالات الموسيقية المحلية مثل الطاسة والمزمار والدربوحة والناى والشبابة.

ويشارك الراقصون شعراء شعبيون يقولون الشعر النبطى ويرتجلون بعض الاشعار ويقوم الاخرون بالتغنى والموسيقى بسيطة والالحان الوطنية قريبة الشبه من بعضها البعض ومناسبة مولد العيداروس من المناسبات الحافلة وتستمر الاغانى والرقصات والالعاب طوال ايام سبعة متتالية وينشط فيها التجار الصغار واصحاب الالعاب التى تدخل السرور على قلوب الاطفال وفى الليل تمتلئ الساحة بالاضواء بواسطة اجهزة الانارة اليدوية.

والقيادة البريطانية فى حالة هم وغم منذ حادثة الانفجار التى اودت بحياة بعض الزائرين من لندن والقائد البريطانى يفتش فى ورقة ويستعيد ماضى خبرته عن طرق التأديب والتهذيب والاصلاح وقد اشتد به الغيظ وزاد فى نفسه الحنق على الاهالى فكان دائم التفكير فى مايمكن ان يتخذه من تدابير جديدة تحسم الموقف وتوقف هؤلاء الوطنيين عن استمرار اعمال المقاومة وايقاف هجماتهم المتتالية المؤثرة على جنوده.

ووصلت إلى ضابط المخابرات البريطاني صورة واضحة عن تقاليد اليمنيين بالاحتفالات والمناسبات الوطنية أو الدينية وانهم سيبدوان الاحتفال بذكرى مولد العبداروسى الكبير بعد يومين وهى مناسبة شبه مقدسة لايمنعهم القيام بها أى مانع مهما كان حجمه ولايمنعهم عن المشاركة فيه اى شاغل مهما كانت اهميته وتنبه ضابط المخابرات

إلى صعوبة تنفيذ أوامر خطر التجول والذى سيترتب على استمرار تنفيذ منع الاحتفال بذكرى العيدراوس وهى عادة متأصلة لدى الاهالى.

اثناء هذه المناسبة يأتى اليمنيون من أماكن مختلفة من انحاء اليمن وتصور حجم التصادم المتوقع بين الاهالى والجنود فى حالة اصرار القيادة على تنفيذ خطر التجول واسر فى اذن قائد القوات البريطانية بتوقعاته وقدم تقريرا مفصلا بوقوع مايشبه الكارثة لو تدخل الجنود البريطانيون لمنع الاحتفالات الموسمية واشار فى تقريره أن أوامر خطر التجول لاتنفذ فى الحقيقة كاملة الا فى أماكن محدودة مثل المحلات بالسوق والمقاهى فى بعض الاماكن فى عدن أما عدا ذلك فخطر التجول كان حبرا على ورق فما من قوة تستطع ان تمنع اليمنى من التجول فوق سفوح الجبال وفى الشعاب المنتشرة والوديان العميقة ولذلك فمن الاكرم لهيبة بريطانيا العظمى ان يتم ببادرة حسن النوايا الغاء أوامر حظر التجول واستغلال توقيت مناسب لاتخذ هذا القرار ولن يكون هناك توقيت انسب قبل بدء احتفال اليمنيون بمولد العيداروسى الكبير ورغم ان قائد القوات البريطانية كان مترددا ونفسه مملوءة بالغيظ والحنق والغضب على اليمنيين بعد ان وجهوا اليه ضربة فى الصميم واصابوا هيبة بريطانيا العظمى بتنفيذ انفجار اليخت وقتل من كان فيه من الزوار القادمين من لندن.

وحذر مسئول المخابرات فى تقريره من ضرورة كسب ود الاهالى والعمل على رضائهم حتى لا تتفاقم المشاكل الامنية وتتصاعد حدة.

الاعمال العدائية وضرورة كظم الغيظ والحنق لأنه من علامات الضعف.

ووافق قائد القوات البريطانية رغم ان نفسه كنت ثائرة ثورة بركان ونقمته كبيرة على اليمنيين اشد النقمة وبعد موافقته على ماجاء بالتقرير نظر إلى مسئول المخابرات وبنبرات حاسمة نبه إلى ضرورة الانتقام من تعز ويعنى الانتقام من رجال الاخ الكبير فى تعز ويقصد رجال الذكاء المصرى الذين حولوا جنة عدن إلى جحيم بالنسبة لجنود الاحتلال.

ومرت مناسبة مولد العيداروسى الكبير بسلام وتوقفت اعمال داوريات تنفيذ اوامر خطر التجول وتنفس الجنود البريطانيون الصعداء فكان تنفيذ اوامر خطر التجول عبء جسيم ناء به كاهلهم وكانت الاوامر الجديدة بالغاء حظر التجول هى طوق الخلاص والتقاط الانفاس بالنسبة للجنود الذين وقعوا تحت هجمات فاعلة وقاتلة ضدهم حتى تعبت نفوسهم من اليأس وباتوا فاقدى الأمل فى تحسن الحالة.

وهكذا فرضت طبيعة المنطقة والعادات والتقاليد والشعائر الدينية للاهالى قوتها وتفوقت على عجرفة القائد البريطانى وجعلته يلجأ لسياسة المهادنة وأسلوب الترغيب والترهيب.

وأن جنحت القيادة لبريطانية إلى فتح سياسة التودد إلى أهل البلاد ألا أنه من ناحية أخرى قامت أجهزة المخابرات بالتشدد مع العمالة التى كانت فى الميناء وكذلك الاهالى صائدوا الاسماك فى

قواريهم البسيطة فقد تم القبض على الكثير منهم وبدأت سلسلة طويلة من التحقيقات بعد حادث انفجار اليخت مباشرة وفى مثل هذه التحقيقات تحدث تجاوزات بعيدة عن الناحية الانسانية فلابد ان وراء المنفذين تنظيم ووراء هذا التنظيم قيادة مدبرة ومساندة من الأخ الكبير بطرق يحوطها الغموض بل وصلت القيادة معلومات كثيرة عن وجود المصريين إلى جانب اليمنيين في تنفيذ المهام المعادية.

ويصر الاهالى على كتمان مايعرفونه مهما بالغت التجاوزات فى التحقيقات والعنف النفسي والبدني وكان من ضمن المقبوض عليهم محمد الكعبى الذى كانت اصابع المخابرات البريطانية تشير إلى فاعليته واشتراكه فى حادثة الانفجار ورغم الضغوط العنيفة وطرق التحقيقات التي ينوء عن تحملها الانسان تحمل محمد الكعبى كل ذلك وانكر التهم التى تم توجيهها اليه وحاول ضابط المخابرات التلميح له بانهم يعرفون انه اشترك مع الفاعلين فى الانفجار بل وان المعلومات التى لديهم تشير إلى انه احد المسئولين عن التنظميات الفاعلية ضد الوجود البريطاني فى عدن وتعرض محمد الكعبى لاساليب شتى والام مبرحة ولكنه ظل صامتا لاتلين قناته ولا يضعف رفضه وعناده وفى محاولة اخيرة اخبرة الضابط البريطانى بان لديهم ادلة قوية على اشتراكه فى الاعمال المعادية وبدلا من التعامل معه بقسوة وعنف فخير له ان يعترف بالحقيقة واخيرا تكلم محمد الكعبى كلمات معبرة بسيطة ردا على كل هذه المحاولات فقال بهدوء انه عمل مع القوات البريطانية فترة ليست قصيرة واذا كان لديهم مايدينه فيحق عليه اشد العقاب وكرر قوله انه برئ وان الحقيقة يعلمها الله وحده فهو يعلم

مافى الصدور ووصل ضابط المخابرات إلى حافة اليأس من محاولات الوصول إلى بعض المعلومات من محمد الكعبى الذى تم وضعه فى سجن كريتر فى زنزانة مفردة ليتم سجنه سجنا انفراديا بعيدا عن السجناء الاخرين وكان ضابط المخابرات عنده شك كبير فيه ولكن ليس لديه قرينة تدينه فقد كان محمد الكعبى كما هى طبيعة اليمنى ذكيا كتوما حريصا ملتزما بما تأتيه من تعليمات من التنظيم فى داخل عدن.

ووصل إلى فاطمة خبر اعتقال زوجها فحزنت حزنا شديدا ولكنها لم تظهر ما يريب لانها بحكم فطنتها وتجربتها تعرف ان الاشجار لها اذان وان التباب والوديان لها عيون ترصد كل شئ وتتم الابلاغ عنها للبريطانيين فكان الصبر خير ملاذ.

فقد تعاهدت مع زوجها على ان مايقومان بتنفيذه عمل مقدس وفى سبيل الله وان طرد الكافرين من البلاد يحتاج إلى كثير من التضحيات وهى منذ البداية تقدمت الصفوف وتحمست للعمل ضد الجنود البريطانيين.

وفقد التنظيم فى الداخل جهد أحد رجاله النشطاء الأذكياء فقد كان محمد الكعبى علاوة على مسئوليته فى نقل الذخائر والسلاح إلى الأماكن الأمنية كان يقوم بحلقة الوصل بين الاخوة المصريين فى عدن وفى تعز وتدريب وتجهيز بعض المواطنين المؤهلين على الأساليب المتطورة وطرق استخدام التجهيزات الفنية الراقية ضد العدو البريطانى.

وكانت التنظيمات المختلفة لأعمال المقاومة ترتب لكل عنصر عامل ومؤثر بديل عند حدوث الخطر فيكون البديل جاهزا لسد الثغرة فى اعمال المقاومة عند سقوط احد الرجال وهكذا تعلموا من الأخ الكبير اسلوب أن يظل أى تنظيم مكتملا لعناصره الفاعلة والبديلة فالخطر من حولهم والعدو قوى شديد البأس والقوة والخسائر وارده فى صفوف الرجال فاذا سقط احد الرجال قام البديل مكانه وتكامل التنظيم مرة اخرى واستمرت المقاومة.

فأعمال المقاومة لاتتوقف على شخص بذاته ولاتعتمد بصورة مطلقة على قائد واحد ولايرتهن نشاطها واستمرارها على فكر انسان محدد ولكن فلسفة المقاومة هو عدم الاعتراف بالقصور والعجز عند فقد احد الرجال أو حدوث كارثة مفاجئة بين الصفوف فالمقاومة عمل من أجل الوطن الكبير وليس من أجل شخص ولا من أجل الأخذ بثأر من أحد لقد تفهم رجال المقاومة الدر س جيدا واضاف لهم الاخوة المصريين فى تعز اضافات عديدة وأنواع وحسابات جديدة وضعوها نصب اعينهم وان استمرار المقاومة معناه استمرار الارادة وان الجنود البريطانيون رغم أنهم أقوياء ويسيطرون على أرض ويتحكمون فى أرزاق العباد ألا انهم فاقدى الإرادة فى البقاء وان اجلا أو عاجلا سيغادرون البلاد عائدين الى وطنهم اما ارادة الوطنى فهى شامخة عالية هادفة ومستمرة وعلى ذلك فارادته ملكه وستقوده بصورة مؤكدة إلى النصر.

رأس الافعى

تعرض قائد القوات البريطانية فى عدن إلى سلسلة من الهجمات الصحفية فى لندن بعد حادثة انفجار اليخت بالزائين واستنكر كثير من الصحف اللندنية فشل قائد القوات البريطانية فى توفير الحماية ومنع كارثة مقتل الرجال المرموقين عند زيارتهم إلى عدن. وكيف لمثل هذا القائد أن يوفر الحماية الكافية لجنوده ـ ونادت بعض الصحف بعزل هذا القائد وتعيين قائد بديل لضمان سلامة جنود بريطانيا العظمى فى عدن عند استخدام قنابل مواسير المياه وكذلك تطور استخدام القنابل اليدوية والانفجارات الهوائية ـ وتزايد عدد الاصابات فى صفوف الجنود البريطانيا القتلى والجرحى واستمرت فى عمل التحقيقات الصحفية مع اهل واقارب الجنود القتلى ـ وبعد أن كان الصوت المعارض لبقاء الجنود البريطانيين فى عدن ـ واهنا وضعيفا الا أن كثرة المؤيدين زاده قوة واصبح صوت النداء عاليا واقعيا ومنطقيا له مؤيدين من ذوى النفوذ فى اروقة الحكم فى لندن.

الا أن قائد القوات البريطانية فى عدن كان له عدد من الاصدقاء الذى يتمتعون بنفوذ وسلطان بين صانعى القرار فى لندن فكانوا يعارضون مؤيدى نداءات عزل القائد البريطانى ومعاونيه وكان سندهم فى ذلك هيبة بريطانيا العظمى وان في التسرع ما يمس هذه الهيبة ويضعف من سمعة البلاد ويقلل من قوتها ومكانتها بين القبائل التى دخلت فى معاهدات حماية معها من قبل - ومن جهة اخرى قد يقوى التسرع فى مثل هذا القرار من شوكة الاعداء فى اليمن ويضاعف من نفوذ المصريين وتغلب مؤقتا الرأى الرافض للتسرع فى عزل القائد البريطاني بما يتسبب فى هذا اهتزاز صورة الامبراطورية امام الصديق والعدو في اليمن.

من جانبه اعتبر قائد القوات البريطانية حادث انفجار اليخت ببعض الضيوف الزائرين صفحة مهينة لماضيه العسكرى وضربة مذله لسيطرة قواته على عدن - واهانة قاسية لهيبته امام الوطنيين فى عدن والمحميات المجاورة والذين يتربصون بجنوده ولذلك حث قواده المساعدين على اليقظة ورفع معدلات تأمين جنوده فى المعسكرات الرئيسية وكان ساعده الايمن مسئول المخابرات النشيط والذى اشار له اكثر من مرة أن اصابع المصريين فى تعز لم تكن بعيدة عن المشاركة فى تدبير حادث انفجار اليخت وعليه فأن القيادة البريطانية يجب أن تقوم بالرد بقوة واصابة رأس الافعى فى تعز كما كان يحلو لقائد المخابرات البريطانية اطلاق هذه الصفة على الرجال المصريين فى تعز.

ان المعاناة التى يلقاها الجنود البريطانيون فى عدن والشوكة المؤلمة التى تحد من فاعليه النفوذ البريطانى فى المنطقة كان مصدرها - الرئيسى فى تعز والرجال الأذكياء هناك ولذا سيطر على مسئول المخابرات البريطانية ضرب هذا المصدر واصابته فى الصميم واخذ يرتب لتحقيق هذا الهدف خاصة أنه كان ذا خطوة ونفوذ كبير لدى قائد القوات البريطانية فى عدن.

وتزايدت الهجمات باستخدام القنابل اليدوية الطائرة ذات الانفجار الجوى الذى يتسبب فى وقوع خسائر كثيرة بين الجنود البريطانيين المحمولين فى عرباتهم المدرعة وانشرت مصائد القنابل اليدوية لبساطة استخدامها وخفة وزنها وتأثيرها الكبير ضد الجنود وكانت مسافة اطلاق هذه القنابل تصل إلى اربعمائة متر - وهى مسافة كافية ليسارع الوطنى المنفذ بالهرب من منطقة الخطر والنجاة من عمليات تمشيط المنطقة بقطر لايقل عن ثمانمائة متر وكانت الهجمات تتم فى كل وقت من الليل والنهار وفى مختلف الاماكن التى تجوب فيها الداوريات البريطانية بل لم تسلم مراكز التفتيش واماكن الحواجز على الطرق الهامة من هجمات الوطنيين مستخدمين هذه القنابل ورغم نشاط المخابرات فى عدن وحماسها للقبض على احد العناصر للتحقيق معه واجباره على الادلاء باماكن تجهز هذه القنابل المسئول عن توزيعها وتخزينها الاانها محاولات باءت بالفشل وفشلت ايضا القيادة البريطانية فى الوصول إلى طريقة دفاعية فاعلة ضد استخدام مثل هذه القنابل بل وصل الأمر إلى عجز القوات البريطانية للحد من

كثرة استخدام هذه القنابل القاتلة والتى كان الجنود البريطانيون يطلقون عليها حاصرة الارواح الخفية لكثرة الخسائر بين الجنود.

ولذا عمدت القيادة البريطانية إلى تقليص انتشار القوات البريطانية إلى الحد الادنى وتقليل عدد الداوريات المحمولة ومنع السير فى المناطق ذات الكثافة الوطنية منعا لاثارتهم ومنعا لتعرض مسارات الداوريات البريطانية للمخاطر.

وطالت فترة القبض على بعض الوطنيين العاملين فى الميناء وكذلك الصيادين الذين كانوا يعملون على سواحل عدن من الغرب حتى شقرة فقد صادرت القوات البريطانية قواربهم منذ حادث انفجار اليخت وبدأت تتصاعد موجة التذمر بين عائلات المقبوض عليهم واقاربهم واصحابهم فقد منعت المخابرات البريطانية الزيارة وفرضت ستارا من التعتيم والسرية وكان واضحا الموقف المتعسف للبريطانيين والغير مبرر لطول فترة حجز الافراد المقبوض عليهم وانتشرت فى عدن منشورات تحدد يوما للعصيان المدنى وتدعو إلى ضرورة وقف جميع الاجراءات الغير انسانية واطلاق سراح المسجونين وذلك بعد مرور ثلاثين يوما منذ القبض على هؤلاء الرجال العاملين بميناء عدن وبعض الصيادين بالمنطقة وفى اليوم المحدد والذى حددته المنشورات كان التضامن كاملا فالمحلات مغلقة وتوقفت جميع انواع السيارات المدنية وامتنع من تبقى من الوطنيين العاملين فى المعسكرات البريطانية عن الذهاب إلى اعمالهم وتوقفت مراكب الصيد عن السعى وراء الرزق فى ذلك اليوم وفى الساعة العاشرة تجمعت مظاهرة

صامتة عند بوابة اليمن وكان الملفت للنظر أن جميع من كان فى المسيرة الصامتة من النساء زوجات واخوات وامهات المقبوض عليهم وكانت فاطمة فى مقدمة المسيرة هى وصاحباتها والعجيب انهن كن يقدن بعض الغنمات والماعز امام المسيرة وارتدت جميع النساء ملابس سوداء وأن كان ذلك امرا طبيعيا فى اليمن فمعظم ملابس النساء يغلب عليها اللون لاسود ولاتخلو من بعض الزخارف ذات الالوان الاخرى ولكن كان النساء فى المسيرة يلبسن الملابس السوداء بدون أى زخارف وامامهن قطعان الحيوانات المختلفة مثل الغنم والماعز والحمير والابل وكن يحملن فى ايديهن بعض افرع النباتات الذابلة وكانت اربعة نسوة يسرن فى المقدمة وقد حملن قاربا من قوارب الصيد فى وضع مقلوب تعبيراً عن توقف الأنشطة المختلفة من زراعة وصيد ورعى نتيجة استمرار حجز الزجال وتقدمت المسيرة من الحاجز الامنى الذى كان عليه الجنود البريطانيون المزودون بعربات قتالية مدرعة وسرعان ماوصلت تعليمات سريعة وحاسمة بضرورة عدم اعتراض المسيرة واحترام كون المسيرة كلها من النساء واذا مس احد النساء بسوء فالموت اهون بالنسبة للرجل اليمنى ولذلك كان مسئول المخابرات البريطانية يفهم جيدا العواقب الحادة اذا حدث ان تعرضت مراكز التفتيش لمسيرة النسوة.

وواصلت المسيرة العجيبة تقدمها فى صمت مطبق الا من بعض اصوات الحيوانات فى مقدمة المسيرة والتى كانت تقتات على بعض من حشائش الأرض فى طريقها ووصلت سيارة صالون صغيرة ووقفت امام المسيرة ونزل منها مراسلان صحفيان اخذا بعض

الصور من مختلف الاوضاع وحاولا محادثة احد النسوة ممن كانوا بالمسيرة الا ان محاولتهما باءت بالفشل فقد كانت المسيرة يغلفها الصمت المطبق.

ووصلت فى نهاية المطاف المسيرة إلى مركز القيادة البريطانية فى كريتر وتوقفت وفى صمت جلست النسوة فى مظاهرتهن الصامتة على الأرض ولم تمض مدة طويلة إلا وظهر احد الضباط البريطانيون ويبدو أنه من جهاز الاستخبارات فى عدن ومعه مترجم وتكلم برود مصطنع وبهدوء متكلف فى مكبر صوتى يدوى واعلن أنه احتراما لحضور النساء وتقديراً لمسيرتهن فأنه سيتم الافراج عن المقبوض عليهم فى اقرب وقت وفجأة قامت فاطمة وتحدثت بصوت عال ومرتب فاوضحت أن بريطانيا بلد عظيم واننا نثق فى وعدها ولكنا نريد تحديد ميعاد مضبوط لاطلاق سراح ازواجنا وابائناواقاربنا ويبدو أن الضابط المتحدث ارتبك لدقائق وتشاور مع المترجم وانضم الية ضابط اخر وبعد همهمة بين الاثنين تحدث الضابط قائلا أنه قد وصل فى هذه اللحظة وعد من القيادة البريطانية بأنه سيتم اطلاق سراح المحجوزين يوم الخميس القادم.

وقامت النسوة وفى سكون شامل فقلن راجعين من حيث اتين وامامهن حيواناتهن المختلفة واوفى البريطانيون بوعدهم واطلقوا سراح المحتجزين الا من عدد قليل يحسب على اصابع اليد الواحدة لانهم يريدون استكمال الاستقصاء والتحقيق ومن حسن حظ فاطمة أنه تم اطلاق سراح محمد الكعبى ونشرت الصحف الغربية صور

المسيرة النسائية المغلفة بالسواد والصمت - وخرجت بعض عناوين الصحف تقول الصمت يتكلم - واول مسيرة نسائية فى عدن - احتجاج النسوة الصامت - والصمت الغامض والنساء الغاضبات - والتهديد الصامت للجنود فى عدن.

وفرضت احداث المسيرة النسائية فى عدن نفسها على صناع القرار فى لندن وعكفوا يحللون ويدرسون الحدث من جميع زواياه الا أن المحصلة للنتائج كانت فى غير صالح القيادة البريطانية فى عدن.

وسقط فى يد مسئول المخابرات فى عدن - بعد ان تلقى اللوم من رؤسائه فالاسئلة الحائرة لاتجد اجابات شافية - والمسيرة النسائية كانت منظمة ومرتبة وتجمع النسوة على هذه الصورة كان وراءه تنظيم دقيق وتخطيط جيد.

والمسيرة اتخذت اسلوبا حضاريا للاعلان عن احتجاج ولوعة تتاجج في النفوس وتم التعبير عنها بالصمت واحيانا يكون الصمت ابلغ من الكلام.

ورغم العيون العميلة فى اماكن عدة وسخاء ضباط المخابرات البريطانية معهم الا أنه لم تصل أى انذار بتوقع حدوث مثل هذه المظاهرة العجيبة والمنظمة تنظيما جيدا وبلوغ هذه المظاهرة الفريدة هدفها بل أن احداث المسيرة الصامتة للنساء كان لها صدى سلبى فى لندن وفى بعض العواصم الاوربية.

وافردت لها الصحف فى الخارج مقالات عديدة وكان معظم الحديث يدور حول تصدر المرأة اليمنية مسيرة العصيان المدنى

والمشــاركــة إلى جــانب الرجل اليــمنى لـلاعــلان عن رفض الوجـود البـريطاني في عـدن ـ واشـارت بـعض الصـحف اللندنيـة أن المظاهرة النسـائية تعبير عن رفض الظلم واعلان الاحتجاج على القبض على الرجال وذلك دلالة علي فشل مسئولى المخابرات فى عدن أن الجنود البريطانيون اصبحوا يعيشون فى عدن وعليهم أن يحاربوا الاشباح ويقبضـون على الوهم ويتمسكون بشـعارات حالمة منها العظمة والقوة والامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس وقد تم اعدادهم لقتال جنود انداد لهم وسـلاحـهم اقـوى من أى سـلاح أخـر ولكنهـا عـقـدة دون كيشوت ومحاربة طواحين الهواء والتى سيطرت على قادتهم وأن حزبا من البراغيث يغلب حزبا من الفيلة لخفة حركته وكثرة المتاعب التى يسببها للعدو رغم ضخامة حجمه وقوته الطاغية.

ونشط مسئول المخابرات البريطانية فى التجهيز والاعداد للقضاء على رأس الافعى كما توهم وهدفة مـهاجمة الرجال فى تـعز وكسـر شـوكتهم ونفوذهـم فى عقر دارهم وان امكن الضـربة تكون قـاتلة لهم حتى تستعيد بريطانيا فى عدن يدها القوية الطويلة.

وكان الرجال فى تعز يقيمون فى مبنى كبير مكون من ثلاثة ادوار وله حـوش حـوله سـور ،وكـان المبنى يقع على أحـد التـلال فى اطراف تعز الشمالية والمنطقة حول المبنى غير مستوية بل تتكون من مجموعة من التـلال والخـيران وتقع على الطريق الرئيسى المؤدى إلى اب فى الشمال وللمبنى بوابة بجانبها حجرة استقبال صـغيرة وبها تليفون يقوم احد الافراد بالتبليغ عن القادمين من الوطنيين ويرغبون فى لقاء

لمقابلة أحد الرجال في المبنى ويقف فرد آخر مهمته فتح وقفل البوابة ولم يكن أحد من الرجال مسلحا لانة منذ وصل رجال الاخ الكبير مصر إلى تعز. استقبلهم المواطنون بمودة واخوة وترحيب كبير ولذا فمنذ اللحظة الاولى شعر الرجال بأنهم بين اخوانهم الاشقاء اليمنيين . وكان وجهة نظر رئيس الرجال أنهم لم يأتوا إلى تعز الا عونا للمواطنين في مواجهة القوات المحتلة ولذا رفض تسليح الرجال حتى لايثير هذا التصرف احدا من القيادات الشعبية في تعز أو في البيضاء أو في الضالع ويتسبب في حساسية لديهم ويكون مبعثا للريبة والشك وكانت التعليمات لدى الرجلين عند بوابة المبنى أن لايردوا احدا من اليمنين يطلب مقابلة احد الرجال المصرين ولكن مهمتهم بالدرجة الأولى تنظيم توقيتات هذه المقابلات وتسجيل اسماء الزائرين وتوضيح الغرض من الزيارة تليفونيا للمسئول المصرى المرغوب مقابلته.

وكان جميع اعضاء التنظيمات في عدن تتردد على مكان الرجال المصريين في تعز . فالاخبار كثيرة متلاحقة والحاجة إلى السلاح والحصول على الدعم مستمرة ومتزايدة والرغبة في الوصول إلى الجديد من الوسائل الفاعلة والتدريب عليها امر ضرورى وحتى التخطيط لتنفيذ بعض العمليات المدروسة كانت قضية مطروحة فمثل هذه العمليات كان تاثيرها يعتبر نقطة تحول إلى جانب الوطنيين اليمنيين وضغطا مؤثرا على الجنود البريطانيين ولذا لزم وجود عناصر من المصريين ذوى الخبرة يدا بيد إلى جانب اخوانهم من اليمنيين في عدن.

ولم يكن يغيب عن فكر رئيس الرجال المصريين فى تعز الاحتمالات القوية لتعرض رجاله للمخاطر الامنية وماورده من أخبار عن محاولات مسئول المخابرات البريطانية فى عدن - مهاجمة مقر المصريين فى تعز ووضع الخطط لتحقيق هذا الهدف.

عن طريق استخدام بعض العملاء فى عدن لضرب رأس الافعى كما كانت المخابرات البريطانية ترمز إلى مقر الرجال فى تعز وكانوا يطلقون على رئيس الرجال ناب الافعى القاتل ويعملون لفكره وتدبير وذكاء رجاله المدروس في خبرة والمعادى لوجودهم ألف حساب واحتراز.

ورغم الافتقاد فى تعز إلى ترتيب خطة تأمين الرجال العاملين الا أن وجهة النظر المصرية كانت تستند إلى محورين المحور الأول هو أن تكون فى مأمن افضل وسط مواطنين يحبونك ويؤيدونك لا أن تكون خلف سلاح يهدد هؤلاء المواطنين والمحور الثانى أن تكون اشد امنا بين وطنيين يكنون لك الاحترام والتقدير والعرفان للمساعدة التى تقدم اليهم والتكاتف الأخوى الذى يلمسونه وكان خير مثل لنجاح ذلك هو ما يحدث فى عدن فالجنود البريطانيون رغم قوة السلاح والعتاد الذى يعتمدون عليه فى توفير الأمن الاانهم كانوا بين وطنيين لايحبونهم ولايحترمونهم ولايرغبون فى وجودهم ولذلك فشلت القوة القاهرة فى عدن وافتقدوا الامن والامان رغم انهم القوات القوية المحتلة.

ورغم الفرق الهائل بين مايملكه الجندى البريطانى من سلاح فى عدن والوطنى اليمنى الذى قد يحصل على القليل والضعيف من سلاح - والمساعدة الذكية من الأشقاء المصريين فى تعز.

كان تنفيذ عملية ضرب رأس الافعى تشغل بال مسئول المخابرات البريطانية فى عدن بعد أن صار الجنود البريطانيون فى موقف دفاع والروح المعنوية للوطنيين تزداد قوة وفى ليلة يغيب عنها كامل القمر وتختفى النجوم خلف غلالة كثيفة من الغيوم وتعز المدينة الصغيرة وقد اوى معظم سكانها إلى بيوتهم وقفلت المتاجر ابوابها وفرغ شارعها الوحيد من المارة وبدأ يستعد الرجال فى المبنى الكبير إلى النوم بعد تناول العشاء وقضاء يوم شاق فى عملهم.

انطلقت قذائف صاروخية على المبنى فاسرع الرجال إلى اطفاء الأنوار وترقبوا فى حذر تتابع حدث الهجوم على المبنى ولم تستمر فترة اطلاق القذائف سوى دقيقة ونصف وساد سكون تام وظل ترقب الرجال فى انتظار تكرار الهجوم واطلاق الصواريخ.

والحيطة من احتمال حدوث جولة ثانية من الهجمات وبعد مضى مايزيد عن عشرين دقيقة والسكون سائد تم اعادة الأنوار ـ ونزل بعض الرجال لاستطلاع تأثير اطلاق الصواريخ على المبنى وتنفس الجميع الصعداء فلم تحدث أى خسائر ولااصابات فى الأفراد وأن كان تأثير اطلاق ثلاث صواريخ مضادة للمدرعات ذات عيار صغير اصابت الحوائط فى عدة اماكن الا أن اى من الانفجارات لم يتسبب فى احداث فجوة فى الحائط المبنى من الحجر الجيرى والاعمدة المسلحة وضعف حجم التأثير على الحوائط يدل على أن نوعية القذيفة صغيرة والقائم بالقصف ضعيف التدريب ـ وأن القصف تم تنفيذه من مسافة بعيدة نسبيا.

وبعد فترة وصلت عربة شرطة يمنية وتفحصت المكان ولكن كان من غير المفيد البحث فى الوديان والشعاب والانحدارات المتعددة حول المبنى فى الظلام الدامس الذى كان يغشى كل مكان هكذا قال قائد عربة الشرطة وابدى استعداده مع رجاله للبقاء فى فناء المبنى للحراسة حتى الصباح الا أن رئيس الرجال فى المبنى شكر المسئول عن عربة الشرطة اليمنية الذى انصرف بعد ذلك وهجع الرجال إلى حيث ينامون الا من فردين للحراسة على البوابة الرئيسية وقد تم تزويدهما بكاشف لانارة المكان اذ استدعى مايوجب ذلك.

وفى الصباح جاءت عربة من الشرطة اليمنية ورافقها بعض الرجال المصريون فى عربتهم وقاموا بجولة حول المبنى وفى التلال المحيطة والخيران العميقة الا انهم لم يتمكنوا من العثور على أى شئ من اثار هجوم الامس.

وفى صباح اليوم التالى استيقظ الرجال فى تعز على جمهرة من الوطنيين اليمنيين وقد ازدحمت بهم ثلاث عربات من نوعية الوانيت وهم يحملون اسلحتهم الشخصية وعلت اصواتهم العنيفة التى تدل على الغضب وتوقفت العربات امام بوابة المبنى وقابلهم رئيس الرجال وعلم منهم انهم جاءوا من عدن وضواحيها بعد أن علموا بمهاجمة مقر الاخوة المصريين وأنهم حضروا خصيصا ليقوموا بحراسة المبنى وحراسة رجالة ورغم المحاولات المتعددة والملحة لاثنائهم عن غرضهم وتقديم الشكر لهم الا انهم اصروا على البقاء واتخذوا مواقع حول المبنى ولم يمضى وقت طويل الاوحضرت عربات اخرى محملة

بالوطنيين يبغون حماية اخوانهم المصريين ويعبرون عن بالغ غضبهم واسفهم لهذا الهجوم معتبرين أن ذلك الهجوم تم تنفيذه بواسطة خونة فيه اهدار لشرفهم وكبريائهم وإهدار لكرامتهم.

ولم يمضى اليوم الا وكان حول المبنى بضع مئات من الوطنيين اليمنيين من الضالع والعوالق وردفان واليافعى وحتى من قبائل العقربى جاءوا من كل مكان تعبيرا عن المشاعر الاخوية وحرصا على سلامة الاخوة المصريين جاءوا ليعلنوا رفضهم لمحاولة المخابرات البريطانية فى عدن - توجيه ضربة الانتقام من اشقائهم المصريين.

واحاط اليمنيون بالمبنى احاطة السوار بالمعصم وكان العجيب فى الامر أنهم سريعا ما اتفقوا على مكان اقامة كل مجموعة واتخذوا مواقع دفاعية حول المبنى ولم تنفع المحاولات الملحة ولاعبارات الشكر والثناء على شهامتهم من الرجال المصريين فى تغيير رغبتهم ولاثنائهم عن قرارهم.

وتحولت المنطقة حول المبنى إلى خلية نحل - وجاء بعض وجهاء القوم من جبل صابر والمناطق المحيطة به وذبحوا الذبائح ترحيبا بالقادمين وكان من الملفت للنظر أن رجال بعض القبائل المتنافرة والتى كثيرا ماكان يقع بينها معارك وخلافات جلس رجالهم متجاورين ومتوادين وزال مؤقتا على الأقل الخلاف وتكاتف الكل تحت شعار الشهامة والنخوة العربية فى سبيل اظهار المشاعر الطيبة إلى أخوانهم المصريين والافصاح عن عميق محبتهم لهم وكانت المنطقة فى الليل تضاء بالمصابيح البترولية وتصدح الموسيقى اليمنية وتقام

حلقات الرقصات الوطنية وكثيرا مايقف بعد شعراء النبط يلقون باشعارهم معبرين عن تضامنهم مع اخوانهم المصريين وسخطهم الشديد علي عدو البلاد جنود الاحتلال البريطاني.

ووقف رئيس الرجال يتطلع في اجلال واكبار إلى هذه المشاعر الفياضة العفوية وتنهد طويلا ثم ردد في صوت سمعة رجاله أن هناك مشاعر متبادلة عميقة ومحبة دفينة في القلوب بين الاخوة العرب ولكن لايجب لهذا الفيض الغالي من المحبة أن يظل حبيسا في النفوس ولا رهن الاحداث والمصادفات لينطلق من عقاله ولكن من الضروري أن يمهد امامه المجال للاستمرار وتنطلق كوامنه على سجاياها ويتم نزع مكامن الاختلاف وتجاهل النزعات الشخصية ويسود تضامن المحبة والود والمصالح المشتركة لهذه الأمة الأمة العريقة الأمة العربية ذات الثقافة واللغة والدين الواحد.

وساد الصمت من كانوا حوله يستزيدون من حديثه وآذانهم في شوق لسماع المزيد فتابع حديثه بهدوء واستطرد في كلامه قائلاً لعل هذا المشهد من حولنا بعد أن غمرنا اخواننا اليمنيين بهذا الفيض من الحب والتقدير لأقوى من أي سلاح وأعظم من أي نظام قد يتم تخطيطه لتأمين الرجال وكان الصمت بين الجالسين أبلغ تأييد لحديث رئيس الرجال المصريين.

وما كاد مسئول المخابرات البريطاني يسعد بتحقيق ماخطط له لضرب رأس الأفعى ويزف الخبر السار إلى رئيس القوات البريطانية حتى بلغته الأخبار المعاكسة وتجمع الوطنيون اليمنيون حول المصريين

مستنكرين ماحدث مهنئين اخوانهم بسلامتهم ممن يكيد لهم فعدوهم واحد ورأس الأفعى كما زعم مسئول المخابرات البريطانى ودبر للقضاء عليها بتخطيط طويل وصرف أموال كثيرة فكانت النتيجة انتكاسة مهينة وبعثرة مال بدون طائل وأظهرت الحقيقة المعاكسة للأمانى فى عدن وزادت من قوة الترابط بين الوطنيين والرجال المصريين الذين جاءوا يشاركون فى شرف وبذل وسخاء فى دحر قوة الاحتلال من عدن وفشل المخطط البريطانى لضرب مقر رئاسة الرجال المصريين فى تعز

واستمر اليمنيون بالمبنى فى تعز لمدة أسبوع وتحت الحاح مستمر من قائد الرجال قبلوا الانصراف وأقسموا أن ذلك لن يتكرر وان كان هناك من خان وقام بتنفيذ مثل هذا العمل الخسيس فلابد أن نعرفه يومًا ونقتص منه اشد القصاص.

لقد قام اليمنيون بعفوية مطلقة بمظاهرة حب وتأييد للرجال فى تعز وعبروا عن مشاعر الوفاء والعرفان بالجميل والثقة العالية فى يد الأخ الكبير الممدودة إلى الوطنيين تساعدهم وتعاونهم بلا حدود.

وجاءت محاولة المخابرات البريطانية الفاشلة بنتائج عكسية فازداد أعداد الرجال الذين يرغبون فى الإنضمام إلى التنظيمات الفاعلة وتقلصت بعض الأعين العميلة اسحياء وخجلاً وعكست محاولة النيل من الرجال فى تعز حالة فشل وانتكاسة لتخطيط وتنظيم مسئولى المخابرات البريطانية فى عدن.

الضوء الأحمر

كان لفشل مخطط ضرب رأس الأفعى تداعيات سلبية على القيادة البريطانية فى عدن فإلى جانب التأثير المباشر الذى ظهر بوضوح فى مشاعر الوطنيين اليمنيين وتضامنهم مع اخوانهم المصريين فى تعز تقلص عدد العملاء فى عدن وانفرط عدد منهم وكشفوا للتنظيمات الوطنية ماالديهم من معلومات وتكليفات وقطعوا علاقتهم بالبريطانيين وعدد لايستهان به استمر فى علاقته بالمخابرات البريطانية ولكنه كعميل مزدوج وبموافقة من قيادات التنظيم الوطنى حتى يكونوا فى مواقعهم مصدر فائدة لمعرفة النوايا البريطانية لكسر شوكة المقاومة الوطنية وتصاعدت عمليات القصف باستخدام قذائف مواسير المياه بعد أن أتقن العديد من الوطنيين تنفيذ طرق الاستخدام الصحيحة وأجادوا التحرك من مكان إلى آخر وصار القصف للمعسكرات البريطانية يتم تنفيذه فى أى وقت ومن أى مكان ويتكرر على فترات طوال اليوم فى النهار وفى الليل وصار الجنود البريطانيون فى

مهاجعهم تحت ضغط مستمر فيكفى إطلاق قذيفتين من مواسير المياه على أحد المعسكرات لكى يتسارع سلسلة من الاستنفارات الأمنية والتحركات الوقائية داخل وخارج هذه المعسكرات والأصعب للجندى البريطانى أنه كان يحارب بدون أى معايير قتالية تدرب عليها من قبل فالهجمات تتوالى على الجنود البريطانيين مما كان يجبرهم على ترك أماكن نومهم عندما يحل الظلام ويفضلون الخروج بعيداً عن معسكراتهم حتى يتجنبوا هذه القذائف القاتلة ورغم محاولات القيادة البريطانية لمنع الجنود من النوم خارج معسكراتهم إلا أن القيادة لم تستطع حل اللغز والإجابة على السؤال وما هو البديل لضمان سلامة الجنود وتكاثرت عمليات استخدام قذائف مواسير المياه لقصف البريطانيين نظراً لسهولة التنفيذ وتزايد عدد المتدربين وإلى جانب ذلك فإن عمليات استخدام القنابل اليدوية فى تنفيذ الانفجارات الهوائية أضاف الكثير من الضغط على الداوريات البريطانية المحمولة وتسبب ذلك فى خسائر متعددة مما دفع القيادة البريطانية إلى تقليص عدد الداوريات وانكماش تحركاتها إلى حدود المعسكرات وصار معظم فكر القيادة البريطانية فى محاولة رفع الروح المعنوية فى الوقت الذى كان الارتباك هو سيد الموقف فى القيادة البريطانية فى عدن فان الوطنيين بمساعدة رجال الأخ الكبير مصر عكفوا على تدبير انتقام مناسب يكون رد فعل مؤلم للبريطانيين واستغلوا حالة الاحباط النسبى بين الجنود فى عدن وتقلص تحركات القوات البريطانية تقليلاً للخسائر ولاذ معظم الجنود البريطانيين داخل معسكراتهم وحينما ينكمش الانتشار وتقل الداوريات المحتلة تضعف قبضة الاحتلال وينتج عن

ذلك ثغرات أمنية وتداعيات سلبية يستفيد منها على الوجه المقابل المقاتلين الوطنيين وتسهل تحركاتهم وتضعف القيود على تنفيذ الكثير من أعمال المقاومة.

وتعود المقاتلون اليمنيون الذين يتولون التخطيط والتدبير مع اخوانهم المصريين على أن يتخفوا فى صور متنوعة بحيث يظهرون على غير صورتهم الحقيقية وتدربوا على استخدام مكياج الاخفاء والتمويه أثناء تنقلاتهم فى أماكن عدن المختلفة ومرورهم عند مراكز التفتيش البريطانية التى زاد تشدد الجنود فيها وصاروا من شدة خوفهم يفتشون ويدققون فى كل صغيرة وكبيرة وكان خبراء من المصريين من تعز تفرض الظروف تواجدهم فى منطقة عدن فى أوقات كثيرة للمشاركة فى التخطيط للأعمال الرئيسية على أرض الواقع وتقديم تقنيات جديدة وحديثة لتسهيل أعمال المقاتلين اليمنيين وللاحتراز كان كثيراً مايتم تغير شكل وجهه وغيير ملابسه وتزويده ببطاقات مزورة معتمدة من مسئولى الجيش البريطانى مثله فى ذلك مثل قادة التنظيمات والذين تم تزويدهم بالهويات المزورة ولذا كانوا يمرون من مراكز التفتيش فى عدن ويفاجأون ببيانات معلقة عند المرور ومكتوبة باللغة العربية ترصد مكافآت مالية لبعض الأسماء المطلوبة لمساعدة البريطانيين فى القبض عليهم ومن ضمن هؤلاء المطلوبين بعض الرجال المصريين ولكن معظم الاسماء كان مكتوبًا مغلوطًا فلم تغفل التنظيمات اليمنية على ان يكون للخبراء المصريين إلى جانب الوطنيين اليمنيين ذوى المهام الصعبة أكثر من اسم مستعار ولذا كانت بعض الأسماء المعلنة خاطئة بالكامل وبعضها لايكون صحيحًا

سوى الاسم الأول وكان المرور من نقط التفتيش أمرًا صعبًا ويخضع لاجراءات متشددة وفى حالة شك الجنود البريطانيون فى أحد العابرين فكان يجادلهم بأن الانسان لايؤخذ بمجرد الشك وحده بل لابد من دليل وقرائن على الادانة وبريطانيا دولة عظيمة وشعبها يتمتع بالحرية وهناك الرأى والرأى الآخر وكثيرًا ماينتاب ضابط مركز التفتيش الخجل ويسمح بالمرور إظهارًا للحرية والسماحة التى تتمتع بها بريطانيا العظمى.

عكف الخبراء المصريون ومعهم مسئولى بعض التنظيمات فى عدن على دراسة ترتيب هجوم جديد من جبل شمسان خصوصًا قممه المرتفعة وتلك من أنسب الأماكن لتوجيه الضربات المؤلمة إلى معسكرات القوات البريطانية وكانت هناك منطقة فى جبل شمسان يسميها اليمنيون الركبة ومنطقة أخرى تسمى الظهر وكلاهما يشرفان على قاعدة خور مكسر الجوية وكثيرًا ما كانوا يراقبون الطائرات الجاثمة والطائرات عند صعودها وهبوطها ومعظمها طائرات حربية قتالية وللنقل الجوى وطائرات مروحية وكانت الرغبة عارمة لدى المقاتلين لمهاجمة هذه القاعدة الهامة إلا أن الأماكن المناسبة للقصف كانت تبعد أكثر من أربعة كيلومترات وهى خارج مدى ماهو متوافر لديهم من سلاح ومن الصعب استخدام الهاون كبير العيار ففى ذلك مخاطرة كبيرة فرغم بعد الأماكن المناسبة للقصف إلا أن القوات البريطانية رصدت قمم جبل شمسان والتلال الهامة وأقامت داوريات ثابتة على التلال وتبعد بمسافة قليلة عن هذه القمم كما أنه تم تركيب كشافات قوية تضاء فى الوقت المناسب للكشف عن مكان السلاح

المستخدم للقصف فكانت الترتيبات الأمنية حولها مميزة إلا أن الرجال ومعهم اخوانهم المصريين نجحوا في تعديل استخدام الصاروخ المضاد للدروع الانجليزى الصنع ذو العيار الكبير وكان السير جنت كلارك سبق وباع لمن يشترى أعدادا من هذه الصواريخ التى كان يتم حفظ كل صاروخ فى أنبوبة من الكرتون أما القاذف فكان من النوع الكبير الحجم وكان التسلل إلى الأماكن المناسبة فى جبل شمسان تتم ليلاً وخاصة عندما يغيب القمر حيث يساعد ذلك على الاختباء عن أعين الرقابة البريطانية.

ونجحت المحاولات الدءوبة على تجهيز صاعق ضعيف القوة بحيث عند تشغيله يحدث نفس القدر من قوة الضغط على كبسولة التشغيل الذى تحدثه طرقة القاذف الأساسى على كبسولة الصاروخ وفى نفس الوقت نجحت التجارب فى استخدام أنابيب الحفظ الكرتونية لتكون بمثابة قاذف للصاروخ وتمت هذه المحاولات فى صمت وصبر كبيرين وغلفت ذلك السرية المتكاملة حتى عن كل الرجال فى مقر تعز.

وفى يوم أسرع المسئول الفنى إلى رئيس الرجال يزف له البشرى أنه تم نجاح المحاولات فى إطلاق هذه القذائف الصاروخية بوسائل صعق كهربائية واستخدام الأنابيب الكرتونية للاطلاق الغير مباشر ووصل مدى هذه التعديلات ليكون أكثر من أربعة كيلومترات بقليل ويحسبه يسيره عند الاستخدام غير المباشر ومن ارتفاعات يمكن الوصول إلى مدى القصف إلى خمسة كيلومترات وهو مدى مناسب وآمن واستمع رئيس الرجال لذلك الشاب النابه مسئول الشئون الفنية

والابتسامة العريضة تملأ وجهه وفي حزم الرجال المسئولين حذره من اخبار آخر الوطنيين عن نتائج النجاحات التى توصل إليها إلا فى الوقت المناسب وليكن تحديد الأهداف من ضمن مجموعة الأسرار التى يحتفظ بها حتى ينجح التنفيذ عندما يحين ميعاده وكان مسئول الشئون الفنية عند مستوى المسئولية الكاملة ويحظى بقدر عظيم من الثقة من رئيسيه.

ويتمتع بمحبة مرموقة وسط رؤساء التنظيمات فى عدن وبين الوطنيين المقاتلين فتجمعت بذلك لدى هذا الرجل عناصر واعدة فى نجاحات متتالية.

ولاحظت فاطمة حركة غير عادية فى المنطقة التى فيها الأغنام هى وصويحباتها ولم يكن هذا مهمتها الرئيسية فى هذه المنطقة ولكن كما تم الاشارة من قبل أنها وصويحباتها كانت مهمتهم الأولى تنظيف مغارات الذخائر وتهويتها إلى جانب رعاية الغنم وسيلة لاخفاء المكان عن عيون البريطانيين وفى هذه المرة يأتى بعض الرجال ومعهم أربع جمال وأخبروا فاطمة بكلمة السر المتفق عليها وسلموا إليها علامة مميزة من زوجها محمد الكعبى وتسلموا بعض الصناديق من مغارات الذخيرة وحملوا صناديقهم على ظهر الجمال وثبتوها جيداً بالحبال وتوقف قادة الوطنيين عن استخدام الشاحنات الصغيرة لنقل الذخائر فى أما هذه الفترة وذلك بسبب زيادة حجم المراقبة المعادية والتفتيش الشديدة بالإضافة إلى أن العربات كانت تسلك دروبًا وممرات جانبية إلا أنها مرصودة وتحت أعين الرقابة الصارمة من البريطانيين أما

باستخدام الجمال يسهل كثيرًا من مهمة نقل الذخائر ويمكن أن تسير الجمال بعيدًا عن المدقات المرصودة فى أمان نسبى.

وفى المغارات الشرقية لجبل شمسان كان يتم تخزين بعض الذخائر تمهيدًا لاستخدامها السريع فى تنفيذ عمليات قتالية عاصفة بمعنى أن هذه الذخائر خاصة وأن أماكنها كانت قريبة من الأماكن والمعسكرات الهامة للقيادة البريطانية.

وفى سرية كبيرة وفى يوم كان الظلام حالكًا ولكن نور المطار ومحركات الطائرات كان يتم مشاهدتها وسماعها بوضوح من فوق مرتفعات جبل شمسان ويتم هبوط وإقلاع الطائرات شرق المطار ومخازن الوقود وهاجع الطيارين ومبانى الخدمات الأخرى وحضر بعض من الوطنيين المدربين تدريبًا حديثًا وجيدًا وتم تركيب مجموعات من الصواريخ كل مجموعة مكونة من أربع صواريخ مسيطر عليها بدائرة كهربائية صغيرة وفى فترة لاتزيد عن ساعة تم تجهيز خمسة مجموعات صاروخية فى نفس الوقت قام نفر آخر بتجهيز مجموعتين من الصواريخ فى منحدرات شمسان الجنوبى واشرف على التنفيذ والتجهيز بعضا من الفنيين المصريين.

وقبل أذان الفجر انطلقت أول مجموعة من الصواريخ وتبعها انطلاق باقى المجموعات وكذلك المجموعتان المجهزتان فى جنوب جبل شمسان وفى خلال ربع ساعة انطلق ثمانية وعشرون صاروخًا على المطار ولحسن حظ الوطنيين أصابت بعض الصواريخ خزان الوقود وبعض الطائرات وشب حريق كبير وكاد أن يغطى الدخان الأسود

الكثيف ميناء عدن وكريتر واستمر اشتعال الحريق حتى ظهر اليوم التالى مما أتاح لجميع المواطنين فى عدن رؤية كثافة الدخان التى تدل على شدة الحريق وتأثيره وعرف الجميع أن القاعدة الجوية البريطانية معقل القوات البريطانية فى عدن وحصنها المنيع وقعت تحت قصف الوطنيين وحققوا نجاحًا غير مسبوق وكان لأول مرة يتم قصف هذه القاعدة الرئيسية رغم ترتيبات الحراسة وداوريات الأمن التى لاتتوقف ليلاً أو نهارًا.

ولم يمض ثلاثة أيام على عملية قصف قاعدة خور مكسر الجوية بنجاح وحدث انفجار هائل نتيجة قصف خزانات البترول الرئيسية وتكرر الهجوم بالصواريخ فى عدن الصغرى نتيجة القصف بالصواريخ الحارقة واستمر الحريق فى هذه الخزانات أكثر من يومين حتى تم اخماده بعد تكثيف كل امكانات القيادة البريطانية فى عدن التى لم تستطع اخفاء نتائج القصف فآثاره واضحة لجميع المواطنين فى عدن وان كانت المعلومات المتسربة من قاعدة خور مكسر تشير إلى خسائر فى الأرواح واصابة طائرة نقل بأعطاب كبيرة وكانت المفاجأة المذهلة للقيادة البريطانية سقوط بعض الصواريخ على المعسكرات فى فترة لاحقة من الهجوم على قاعدة خور مكسر ومنطقة مستودعات البترول فى عدن الصغرى.

ولم تكن هذه الصواريخ لكى تنفجر وتدمر الأهداف التى تقع عليها ولكنها تم تجهيزها بمهارة وتم تعبئة أجزاء هذه الصواريخ بالمنشورات الموجهة للجنود البريطانيين.

فقد تم نزع صاعق التفجير الأمامى وتم ملء التجويف الخلفى للصاروخ بمنشورات تخاطب الجندى البريطانى ورغم مسارعة مسئولى المخابرات بتجميع هذه المنشورات إلا أن بعضها وقع فى ايدى الجنود وانتشر محتواها ومما ساعد على ذلك شدة هبوب الرياح ومساعدته فى نقل هذه المنشورات على مساحات واسعة وكانت المنشورات مكتوبة باللغة الانجليز وجاء فيها.

إلى جندى بريطانيا العظمى

أنت فى مكان بعيد عن وطنك وبعيد عن أهلك وأحبابك فاسأل قادتك لماذا أنت موجود فى هذا المكان؟ فأهل البلاد لايحبون وجودك فى بلادهم والمواطنون يكنون لك العداء وأنت معرض للقتل فى أى وقت وماهو هدف أن تضحى بروحك ويفقدك أعزاء لك فى بريطانيا دون سبب مقنع.

فكر جيداً فى أن تعود إلى بلدك قبل أن تفوت عليك الفرصة وبقاؤك فى عدن مرهون بأن تقتل جميع المواطنين فيها وهذا أمر مستحيل فلاسبيل إلا حزم حقيبتك وترحل عائداً إلى بلدك.

إمضاء

مواطن يحترمك

وانتشرت هذه المنشورات بين الجنود رغم جهد القيادة الكبير فى العمل على حجبها وإعدامها ولكن المنشورات كانت موجودة فى الشوارع وقرب مراكز التفتيش وملصقة على البيوت وتحملها أحياناً الصواريخ إلى داخل المعسكرات.

ونشطت المخابرات البريطانية وألقت القبض على عشرات المواطنين لاستجوابهم لمعرفة مصادر هذه المنشورات وهذه القنابل والصواريخ واضطر المحققون إلى استخدام العنف والتعذيب فى سبيل الحصول على معلومات عن مصادر هذه الأعمال وتماسك كثير من المواطنين أمام وسائل التعذيب وانهار آخرون ولكنهم فى الحقيقة كان معظمهم لايعرف الكثير فهم يعترفون انهم من مجموعات لمهاجمة الجنود البريطانيين ولكنهم لايعلمون من أين تأتى هذه الذخائر وتحت شدة وقسوة التعذيب يلجأ بعض الوطنيين للادلاء بأقوال وهمية من صنع خيالهم وهدفهم ارضاء المحقق إلا أن الحقيقة كانت عكس ذلك فما يضطرون إلى قوله كان فى الغالب غير ماتخفيه نفوسهم ورغم أن السير جنت كلارك كان يحمى سالم إلا انه لم يسلم من القبض عليه والتحقيق معه وتعرض لعديد من الضغوط النفسية والتعذيب الجسدى ولكنه أصر على عدم معرفته لأى شىء وانه مخلص لبريطانيا وانه حريص على رزقه ولايمكن أن يخون مصدر رزقه إلا أن سالم أكد للمحقق انه لم يعترف إلا بالحقيقة ولن يثنيه تعذيب يقع عليه عن قول الحقيقة وانه مهما كان شدة التعذيب الذى يقع عليه فلن يتمكن المحقق من الغوض داخل نفسه التى لايعلم سرها إلا الله واستمر سالم فى كلامه إلى المحققين معبرًا عن إيمانه العميق بالله العظيم ولن يصيبه إلا ما قدر له.

وان على المحققين أن يريحوا ويستريحوا وإذا تم قتله فسيموت وسيموت سر نفسه معه وما أقوله لكم هو الصدق والله على ما أقول شهيد ومن حسن حظ سالم ان المحقق وجد فى كلامه شبه اقناع

ومنطق فأطلق سراحه وكان أكثر الفرحين باطلاق سراح سالم هو السير جنت كلارك فقد كان سالم بالنسبة له هو الدجاجة التى تبيض ذهبًا وهو همزة الوصل بين طالب شراء السلاح ومسئول مخازن السلاح البريطانية.

ووصلت خطابات وبعض صور من المنشورات من عدن إلى بعض الساسة البريطانيين فى لندن مكتوبة بيد بعض المستنيرين اليمنيين ويعلن أعضاء مجلس العموم البريطانى فيها صورا من المنشورات التى انتشرت بين الجنود وتدعو هذه الخطابات إلى تحكيم أصول المنطق صوت العقل فى بريطانيا ليثبت تواجده ومصداقيته ويرتفع صوته بعيدا عن الصورة القديمة التى تمارسها القيادة البريطانية فى عدن برفع سلاح القوة فى افراط مقصور بدون بديل للحوار البناء واستخدام وسائل حضارية أرقى فى المستوى وأكثر تأثيرًا ونفعًا لحقن الدماء.

وعمدت بعض التنظيمات المستنيرة فى عدن إلى إرسال هذه الخطابات إلى لندن لكى تساعد فى إجلاء الحقائق وتقليل حدة التعتيم عن الخسائر والموقف المرتبك الذى وصل إليه حال القيادة البريطانية فى عدن.

وعادت مرة أخرى ترتفع أصوات العقلاء فى لندن بالدعوة إلى الرجوع إلى الإنصاف والحق هو الفضيلة لبريطانيا العظمى وانسحاب القوات من عدن بات أمرًا ملحًا أحس به المواطن البريطانى وارتفعت أصوات رفض أهالى الجنود فى عدن المقتولين والمصابين

على وجه الخصوص على استمرار القوات البريطانية فى هذا المستنقع.

ونجحت الأصوات العاقلة على أن تتخذ لندن قرارًا بإرسال لجنة لتقصى الحقيقة الكاملة والهدف الثانى هو إطلاق الضوء الأحمر بترك عدن إن لزم الأمر ومتروك القرار إلى القيادة السياسية فى لندن.

لقد لعبت الصحافة الحرة فى بريطانيا دورًا مثيرًا فى إلقاء الضوء على تطور الأحداث السريع فى عدن فبعض الصحف نشرت فى صور صفحاتها عناوين تقول «المعسكرات البريطانية فى عدن تحترق» وأخرى تقول «الضباب يغلف لندن والدخان الأسود تغلف قيادة القوات البريطانية فى عدن» تساءلت صحيفة لندنية تقول «أما آن للعقلاء أن يفكروا عن سبب وجود الجنود فى عدن» ونشرت صحيفة أخرى رسائل حزن وأسى على لسان أهالى بعض الجنود القتلى والمصابين.

ولذا فإنه كما كان الموقف يزداد حرجًا واشتعالاً ضد الجنود البريطانيين فى عدن تغلبت الأصوات العاقلة فى لندن إلى ضرورة وضع حد لاستمرار نزيف الدم البريطانى فى منطقة عدن وبعد أن بدأت هذه الأصوات خافتة ضعيفة صارت عالية وازداد مؤيدوها وقامت بعض المظاهرات فى لندن احتجاجًا على استمرار الوجود البريطانى فى عدن وتقدم بعض هذه المظاهرات بعض أمهات وعائلات الجنود الموجودين فى عدن حتى إن أحد المظاهرات كان يتقدمها الأمهات والأقارب من النساء وحملن بعض الشعارات وأهمها شعار

كبير يقول «اخجلى يابريطانيا العظمى» وشعارات أخرى «أمهات الجنود يطالبن بعودة أبنائهم».

ومخاطبة الضمير الإنسانى لرجل الشارع فى بريطانيا كان سلاح إضافى وقوى وسند فاعل مؤثر ورسالة انسانية إلى المثقفين البريطانيين ففى بلد يحظى أفرادد بمساحة كبيرة من الحرية يكون تأثيرهم كبيراً على أصحاب القرار خاصة أن الصحف أفردت بعض صفحاتها لمقالات معارضة لاستمرار الوجود البريطانى فى عدن بعد أن هزت القلوب نزيف الدماء اليومى ومحصلة الخسائر العالية بين الجنود وبات كثير من العقلاء من الصفوة يتبنون قاعدة البديل عن استمرار استخدام السلاح كوسيلة وحيدة للقضاء على أعمال المقاومة وراهن كثير من مفكرى بريطانيا على أن الاستعمار عن طريق السلاح واحتلال الأرض والسيطرة على الوطنيين بالقسوة صار أسلوبًا عتيقًا باليًا وفى بعض الصحف أشاد بعض المفكرين بكفاح الشعب اليمنى وان شدة أعمال المقاومة حان وقت احترامها وتقدير أهدافها وإذا كانت مصر تساعد الوطنيين فإنما تساعد أصحاب حق وتناصر مظلومًا ورغم مرارة وقع هذه المقالات على صاحب القرار فى لندن إلا أنها كانت منصفة للحق راعية لصوت العدل ورفع الظلم عن الوطنيين فى عدن.

الزيارة

عمدت القيادة البريطانية فى عدن إلى التركيز على رفع الروح المعنية للجنود فزادت من فترة الاجازات الممنوحة وسمحت للجنود باختيار مكان قضاء الاجازة خاصة فى تايلاند و الفلبين وفى سنغافورة علاوة على الاجازات الممنوحة للجنود للسفر إلى بريطانيا لقضاءاجازتهم بين اهاليهم - وضاعفت القيادة البريطانية من عدد ونوعية وسائل الترفيه ولجا المسئولين إلى الاكثار من الملاعب الرياضية واستقبال بعض الفرق الرياضية للعب مباريات مع الفرق المتخصصة من الجنود فى عدن - بل ذهبت القيادة إلى ابعد من ذلك . فنجحت فى دعوة عدد من نجوم الرقص والغناء فى بريطانيا لزيارة عدن وعمل حفلات متنوعة للجنود وتم افتتاح عدد من نوادى الضباط ونوادى الجنود فى كل مكان من كريتر وخور مكسر والمعلا كما تم افتتاح بعض الاماكن الترفيهية التى كانت تشابه إلى حد كبير ماهو موجود فى بريطانيا ففى داخل المعسكرات تم تجهيز بعض الاماكن

لتكون مماثلة لما يسـمى PUP فى انجلترا وهو مكان يقدم خدمات الوجبات والمشروبات الخفيفة ويوفر بعض الالعاب للتسلية وهو يشابه بطريقة غير مباشرة ما يطلق عيه المقاهى فى القاهرة.

وكان بؤرة اهتمام القيادة البريطانية هو التجهيز لاستقبال لجنة تقصى الحقائق من لندن والتى وافقت الحكومة البريطانية على ارسالها لدراسة الموقف على الطبيعة فى هذا الوقت الحرج عكر صفو الهدوء النسبى فى عدن نجاح المقاومة الوطنية فى قصف نادى الضباط البريطانى على شاطئ المحيط الذى تم اختيار مكانه فى موقع من الصعب الوصول إليه فالنادى كان داخل نطاق معسكر القيادة العسكرية فى كريتر وحيث ان كريتر كانت مقر قيادة القوات البريطانية فى عدن فقد استلزم ذلك وضع خطة امنية عالية المستوى واقامت القوات البريطانية مراكز مراقبة على سفوح جبل شمسان الجنوبية وتم تجهيز الاسوار بكشافات الاضاءة القوية ليلا وفى النهار كانت توجد حراسة من الجنود بطول سور المعسكر هذا بالاضافة إلى الداوريات المتحركة التى كانت تجوب حول المعسكر ليلا ونهارا وكان هذا النادى الرئيسى يجتمع فيه الضباط فى وقت الراحة ومجهز بعدد من المطاعم وبعض الالعاب الرياضية ووسائل التسلية وحلقات الرقص التى كانت تمتلئ عن اخرها بالمجندين والمجندات خاصة ليلة الاحد من كل اسبوع.

ولذ فكان من المتعذر تجهز الصواريخ الذاتية الاطلاق من جهة جبل شمسان فالمسافة ابعد من مدى هذه الصواريخ والاماكن التى

يمكن تركيب وتجهيز الصواريخ عليها مكشوفة للمراقبة الامنية فى الليل وفى النهار وفى حالة نجاح الوطنيين فى قصف هذا النادى يكون الوطنيون قد ضربوا عصفورين بحجر واحد فقصف هذا المكان خاصة عندما تمتلئ قاعاته ليلة الاحد ستحدث اصابات بين الضباط البريطانيين ومن جهة اخرى لم يخفى على الوطنيين ان ميعاد وصول لجنة تقصى الحقائق من لندن باتت على وشك الوصول ورد فعل القصف لهذا المكان المؤمن يعتبر انتكاسة خطيرة لقيادة القوات البريطانية وسيكون تاثير ذلك عند وصول لجنة تقصى الحقائق فى صف الوطنيين اليمنيين.

وبعد تدبير وطرح البدائل بين قيادة عناصر الاخوة المصريين والوطنيين ظهرت فكرة قصف هذا النادى من جهة البحر فهو المكان الوحيد الذى يمكن فيه تنفيذ القصف باحكام وبعيدا عن توقعات القيادة البريطانية.

ان المنطقة المواجهة للساحل حتى جزيرة صيرة كانت من افضل الاماكن الا أن القيادة البريطانية كثيرا ما اصدرت اوامر مشددة لمنع الصيد فى هذه المنطقة لدواعى امنية او كوسائل للضغط على الوطنيين اليمنيين بغرض أن يؤدى هذه الضغط إلى قفل باب الرزق أمام الصيادين من الاهالى فتسبب ضغطا عليهم واستخدمت القيادة البريطانية كثيرا هذه الورقة لممارسة نوع من الترهيب والتحذير حتى يتم وقف أى تعاون بين الصيادين والمقاتلين اليمنيين ولكن مسئول الشئون الفنية مع مساعديه المصريين إلى جانب نخبة من الوطنيين

اليمنيين قرروا توجيه ضربة مؤلمة لقوات الاحتلال قبل وصول لجنة تقصى الحقائق.

وفى هذا الوقت عمدت القيادة البر يطانية إلى تقديم تسهيلات للأهالى لابراز صورة ولو مؤقتة لعلاقة طيبة وحميمة بين الأهالى والجنود البريطانيين لابراز صورة ولو مؤقتة لعلاقة طيبة والعلاقة بين الطرفين فى صورة جيدة ولذا سمحت لقوارب الصيد اليمنية بالصيد فى هذه المنطقة وكان ذلك تعبير عن ابداء حسن النية من القيادة العسكرية. اما الاخوة المصريون والوطنيون فى عدن فاستغلوا ذلك ورتبوا أن يتم مهاجمة نادى الضباط من البحر وتم تجهز عوامة مسطحه فى مواجهة النادى وتبعد عنه مسافة اربعة كيلو مترات وسحبت العوامة إلى مكانها المحدد بواسطة قاربى صيد وتم تثبيت العوامة فى مكانها بواسطة اربعة مثبتات حديدية من تلك التى تستخدمها السفن الصغيرة عند المراس.

وذلك حتى لا تؤثر عليها الرياح والامواج وتغير اتجاه اطلاق الصواريخ عن هدفها وقام الوطنيون المدربون على تجهيز ثلاثة مجموعات من الصواريخ المضادة للدروع والتى نجحوا من قبل فى استخدامها فى القصف الغير مباشر والعشوائى من انابيب كرتونية ونظرا لدقة العملية تواجد الاخوة المصريين للاشراف الدقيق على التجهيز والتنفيذ لضمان النجاح.

وكل مجموعة من هذه الصواريخ كانت تتكون من اربعة صواريخ مع دائرة تحكم كهربائية بسيطة ولم يغفل عن بال القائمين بالتنفيذ أن

حركة الامواج والريح ستؤثران تأثيرا قويا على اتجاه ومدى هذه القذائف فكان التقدير بعد تنفيذ الترتيبات الفنية أنه يكفى أن يصيب الهدف صواريخ مجموعة واحدة فذلك نجاح له معنى ومغزى بأن نادى الضباط البريطانى ليس فى مأمن وهو المكان الذى رصدت له القيادة البريطانية الكثير من العناصر الامنية والرقابة والحماية المستمرة فاذا نجح جزء ولو بسيط من اصابته بالقذائف فهذه رسالة عملية إلى الضباط البريطانيين بأن ليس هناك مكان أمن لهم على أرض عدن.

وكأن الامواج والريح فى هذه الليلة قد قدرت تقديم اغلى عون للوطنيين فكان سطح البحر ساكن والرياح هادئة للغاية فكأن الطبيعة تقدم افضل مساعدة وانسحب قاربى الصيدمن المكان وعليهم الرجال بعد تجهيز العوامة وتوجيه الفوهات الكرتونية نحو الهدف المرموق وكان ذلك الترتيب والتجهيز ليلة يوم الأحد الذى يتوافد فيه الضباط والمجندات ويملأون جنبات النادى يمرحون ويرقصون ويشربون ويرفهون عن انفسهم ويحاولون نسيان الكابوس المحيط بهم والاعمال الشيطانية ضدهم ليلا ونهارا وانطلقت مجموعات الصواريخ على التوالى قبل منتصف الليل وهو الوقت الذى يزدحم به المكان وكما قدر الوطنيون من قبل فأن خمسة صواريخ اصابت قاعة الرقص والمطعم وقاعة التدخين فى النادى ورغم أنه لم تصدر عن القيادة البريطانية فيما بعض أى افصاح عن الخسائر فى الافراد الا أن الرسالة التى كان يهدف إلى تحقيقها الوطنيون قد وصلت إلى هدفها واحدثت تأثيرها السريع فحضر إلى المكان عربات الاسعاف والمطافئ وحضر

نائب قائد القوات وبدأت التحقيقات السريعة والاجتماعات العسكرية المتوالية لدراسة انعكاسات هذا القصف البحرى على بريطانيا العظمى سيدة البحار ووقعت القيادة فى مأزق صعب جدا فاق ماهى فيه من قبل من مأزق واحباطات وسريعا ما طار خبر قصف نادى الضباط فى عدن إلى الصحف فى لندن وكأن ذلك بمثابة مقدمة للترحيب بلجنة تقصى الحقائق القادمة إلى عدن فنظرا لتوالى الاحداث والتهاب المواجهات فى عدن صار بعض المراسلون الحربيون لبعض الصحف اللندنية يقيمون بصفة شبه دائمة فى عدن لمتابعة مجريات الأمور والأحداث المتسارعة.

وظهر أن قصف نادى الضباط البريطانى كان ضربة قاسية للقيادة البريطانية فى عدن فى وقت أشد حرجا وقبل وصول لجنة تقصى الحقائق من لندن ببضعة أيام والذى بناء على تقريرها إلى القيادة السياسية سيكون شهادة اثبات لاتقبل التبرير عن فشل او نجاح القيادة البريطانية فى عدن واستدعى قائد القوات البريطانية مسئول المخابرات بعد القصف البحرى الذى يحدث لاول مرة ووجه إليه نقدا عنيفا لتقصيره الشديد فى التنبؤ فى احتمالات لأماكن الهجمات بواسطة الوطنيين اليمنيين ودعاه إلى الانتباه واليقظة خاصة وان بعثة تقصى الحقائق صارت على الابواب والمراسلون الصحفيون فى عدن لايتركون كبيرة ولا صغيرة تحدث الا ويبعثون بها إلى الصحافة فى لندن.

ومن الطبيعى أن تحدث اجتماعات كثيرة للقيادة البريطانية فى عدن لترتيب الاحتفالات والتأمين الدقيق للاماكن البريطانية الهامة فى

عدن وترتيب لقاءات على الطبيعة مع العناصر الشعبية العدنية بعد توفير كامل الامن لاعضاء الوفد الزائر ومن ضمن القرارات السريعة منع قوارب الصيد من المرور فى نطاق الحرم الامن للمعسكرات البريطانية التى تشرف على البحر وكان هذا القرار ضربة مؤلمة وغير انسانية تجاه الصيادين اليمنيين للبحث عن رزقهم بالصيد فالظلم يعم.

ورتبت القيادة البريطانية مباراة فى كرة القدم بين الجنود البريطانيين والوطنيين العدنيين لاضفاء جو من الود المفقود وتجميل صورة تواجد القوات البريطانية فى عدن.

واتفقت القيادة البريطانية مع فريق الهند للبولو باللعب مع فريق الجيش البريطانى فى عدن ولعبة البولو من الالعاب العريقة فى بريطانيا والتى يلعبها عليه القوم وقد انتقلت إلى الهند اثناء فترة الاحتلال البريطانى وصار لها مشجعين ومحبين عديدين بين الهنود حتى كان يعد فريق الهند للبولو من الفرق المرموقة وكان برنامج الزيارة التى تمت موافقة لندن عليه هو قيام الوفد الزائر.

. بمقابلة شعبية فى الشيخ عثمان مع ضمان السلامة والامن وتحت المسئولية الكاملة للقيادة فى عدن جعلت ذلك فى مقدمة اهتماماتها اثناء الزيارة حتى تتحسن الصورة امام انظار اعضاء الوفدالزائر.

لم تكن لندن بغافلة عن عمق الأحداث وتطوراتها فى عدن وذلك منذ تواجد القوات المصرية فى اليمن وتواجد عناصر ماهرة وذكية فى تعز والضالع والبيضاء وحتى فى عدن ذاتها تخطط وتنفذ الأعمال

العدائية لقوات الاحتلال إلى جانب الوطنيين وكانت تصل التقارير التفصيلية تكشف الحقيقة الكاملة إلى لندن فاحصاءات الخسائر فى الأرواح والإصابات بين الجنود البريطانيين تزايدت بشكل ملفت للنظر حتى انه لم يكن يمر يوم واحد دون وقوع أحد الخسائر بين الجنود وعند التقييم لاستمرار هذه الخسائر فان محصلتها باللغة العسكرية استنزاف مرتب ومرسوم للقوات البريطانية فى عدن لايظهر له حسم فى القريب المنظور أو حتى البعيد وفى العرف العسكرى يسمى ذلك هزيمة والانسحاب أفضل وان مس كرامة القوة والمهابة والعظمة وان لمس وترًا حساسًا فى عقيدة الوهم لبعض القيادات البريطانية بأن امبراطورية بريطانيا العظمى يجب أن لا تخنع لضغط حزب البراغيث كما كان يسمى الوطنيين اليمنيين بعض المتمسكين بالتقاليدالقديمة.

ولكن هذه الأصوات باتت ضعيفة وبأهتة بعد نشر بعض الصحف اللندنية كشوف خسائر الجنود البريطانيين المتلاحقة وكانت لندن قد أيقنت بضرورة سحب قواتها من عدنٍ رغم ما قد يسفر عنه تقرير لجنة تقصى الحقائق فان ابتكار وسائل غير تقليدية مؤثرة وفاعلةضد الجنود وحرب الأشباح فى الليل وفى النهار قد صعب المهمة على الجندى البريطانى الذى وجد نفسه يحمل سلاحًا فتاكًا متطورًا ويستعمل وسائل للتحرك وفرض السيطرة القاهرة على الوطنيين إلا أن هذا الجندى صار لا يعرف من يواجهه فالوطنيون كلهم أعداء وان لم يظهروا ذلك له بصورة سافرة والمصريون يقدمون ويساعدون الوطنيين مساعدات وكأنها السحر فنظرية اضرب واختفى أصبحت مضمونة ضمانًا كاملاً للوطنيين ولذا لم يفكروا فى استخدام البنادق

في الصـراع القـائم فـالبندقيـة في يد تواجـه عدواً له مـدفـع في يده تخـسـر والندية غـيـر مـتكافـئـة اذا كـانت في مـواجـهـة مع الجندي البريطاني.

ولقد صار الجندي البريطاني يفتقد الأمان حتى وهو بين زمـلائه وفي حمـاية أسلحته المتفوقة القـادرة وصارت عوامل الاحـباط التي يراها أمـام عينه تنخر فيما تبقى من معنوياته وعزيمته هذا بالاضـافة إلى فـشل قـيـاداته في الـتـوضـيـح له أهمـيـة تواجده في هذا المسـتنقع البغيض واستغل الوطنيون اليمنيون طبيعة بلادهم وبمساعدة جوهرية من اخوانهم المصريين لصالح عمليات المقاومة أفضل استغلال وأذكى استخدام.

عكفت القـيـادة البريطانية على ترتيب أمـور الزيارة والتـجـهيـز لها وتوفـيـر أسـبـاب النجـاح لهـا لأن في نجـاح هذه الزيـارة إبراز لنجـاح القيادة البريطانية في عدن حتى وان كان تحقيق النجاح الشـخـصي يتـعـارض مع مـصلحة لندن فالطبـيـعة البشرية متـقـارية في المشـارب والرغبات حتى وان جارت بطموحاتها عن مصلحة المجموع.

وصل أعـضـاء لجنة تقـصي الحـقـائق من لندن وكـانت ترتيـبـات الاستقبال حافلة فقد كان ضـمن المستقبلين وفد من وجهاء اليمن إلى جـانب القيـادات البريطانيين وكان ذلك وقـعه طيباً على أعـضـاء اللجنة ووقف أحد أعضاء الوفد من اليمنيين لالقاء كلمة ترحيب حارة وباللغة الانجليزية.

ولم ينس الاشارة بعظمة بريطانيا والاهتمام الذى توليه القيادة البريطانية فى عدن لأهالى البلاد حتى ان الخطيب فى كلمة الترحيب أشار إلى أن بعض الناكرين للفضل فى عدن يقومون من حين لآخر ببعض الأعمال العدائية للوجود البريطانى وان ذلك يعبر عن قلة محدودة منبوذة على حد قول الخطيب من باقى المجتمع اليمنى ونجحت القيادة البريطانية فى توظيف بعد عملائها لاضفاء صورة ولو خطابية عن التالف الغير مفقود بين أهل اليمن والبريطانيين فى عدن.

بدأت الزيارة تسير فى الخط المرسوم لها وحضر الوفد الزائر مباراة رياضية فى البولو بين فريق القوات البريطانية فى عدن والهند وقبل المباراة انطلقت البالونات الملونة مكتوب عليها عبارات الترحيب بالضيوف وكان من ضمن الحاضرين بعض وجهاء عدن والمحميات الذين دعتهم القيادة البريطانية ليكتمل إطار الصورة الجمالية أمام الضيوف وجاء عدد من المصورين من الصحف المحلية والأجنبية لتغطية المباراة والتقاط مختلف الصور للقيادات البريطانية وأعضاء الوفد الزائر إلى جانب بعض وجهاء اليمن ـ وقد ساد جو متفائل بالود والألفة الحاضرين خاصة قائد القوات البريطانية الذى لم يستطع إخفاء سعادته وعلت وجهه طوال المباراة ابتسامة عريضة مفتعلة أمام الضيوف للتخفيف من آثار التوتر وعدم الرضا بعد قصف نادى الضباط فى كريتر قبل وصولهم بيوم واحد وكان الوفد الزائر يرغب فى الاجتماع مع العناصر الشعبية اليمنية لمعرفة الرأى الآخر أو على الأقل استنتاج الحالة على أرض الواقع وكان رأى القيادة أن يتم ترتيب اللقاء فى قاعة فى أحد المعسكرات البريطانية ـ

لتبادل الأفكار فى إطار كامل من الأمن والأمان، ولتدعيم هذا الرأى أوضح قائد القوات أن القاعة فى المعسكر تتسع لما يزيد عن أربعمائة شخص وأنه يمكن أن يحضر نصفهم من المواطنين اليمنيين إلا أن أعضاء الوفد كان لهم رأى آخر بأن يتم اللقاء على الطبيعة ويستكشفون كامل الحقيقة ورغم بعض المحاذير التى ساقها قائد القوات إلا أنه لم يجد طلبه صدى وكان رد فعلهم سلبيًا وكان غرض القيادة البريطانية تجنب الاحتمالات العدائية الغير متوقعة والمفاجئة فحزب البراغيث كان يلدغ فى الوقت الذى يراه مناسبًا ويقفز بعيدًا قبل أن يمسه ضرر وكأنه شبح من الأشباح ويصل إلى المكان الذى يريده فى الوقت الذى يراه وبعد أن ينقل الأذى يختفى مهما كان الاجتهاد فى البحث والاستقصاء عنه.ومنذ الصباح الباكر قامت مفرزة من العربات المدرعة البريطانية بالمرور ذهابًا وإيابًا على الطريق من مكان قيادة القوات البريطانية فى كريتر حتى ساحة الاجتماع بالشيخ عثمان وصارت العربات المدرعة تجوب هذا الطريق ذهاباً وإيابًا خوفًا من أى أعمال عدائية وتم تكليف بعض المتخصصين استخدام أجهزة الكشف عن الألغام فى تأمين الطريق وانطلقت من قاعدة خور مكسر الجوية ثلاث طائرات هليوكبتر لمراقبة الطريق الذى ستسلكه عربات الوفد الزائر واحاطت بمكان الاجتماع بعض العربات المدرعة وجلس الجنود فيها فى وضع استنفار أقصى وأيديهم على زناد أسلحتهم تحسبًا وتوجسًا من حدوث ما يريب وتقدمت عربة مدرعة أمام ركب الوفد الزائر وخلفها عربة جيب حربية يركب فيها ضابطين وخلف العربة الجيب سارت عربة صالون فيها أيضًا بعض

الضباط ثم بعد ذلك ثلاثة عربات يحملن الوفد الزائر وخلف ذلك عربتين مدرعتين وسارت هذه المظاهرة العسكرية من بوابة كريتز إلى الشيخ عثمان حيث الساحة الذى تقرر الاجتماع فيها وفى أول الثلث الأخير من الطريق قرب الشيخ عثمان حدث انفجار شديد أصاب العربة الجيب ونتج عن ذلك مصرع الضابطين والثلاث جنود الذين كانوا يركبونها وأصابت بعض الشظايا العربة الصالون الأولى وتسبب فى تحطيم زجاجها بالكامل ولم تكد تخف كثافة سحابة الدخان الناشئة عن الانفجار حتى اندفعت عربتان مدرعتان إلى أجناب الطريق وقام الجنود بتمشيط المكان باطلاق طلقات متقطعة وعشوائية من المدافع الرشاشة وساد الوجوم جميع أعضاء الوفد الزائر واكفهر وجه القائد البريطانى واندفع مسئول المخابرات البريطانية الذى كان مرافقًاصائحا هنا وهناك فى مجموعات التأمين العسكرية للتماسك وتمشيط المنطقة بدقة عالية وكما فى حالة الطوارئ القصوى حضرت على عجل عربات الاسعاف وعربتين للجنود المتخصصين فى الكشف عن الألغام والمصائد الأرضية من معسكر كريتر فور الاتصال بهم لاسلكيًا واستمرت الطائرات الهليو كوبتر الكاشفة تدور حول مكان الانفجار تفتش فى كل بقعة وتفحص الأرض والجنود أيديهم على زناد أسلحتهم واستقر رأى الزائرين على العودة إلى القاعدة العسكرية فى كريتر حيث أن الحالة غير مناسبة لعقد الاجتماع الذى كان مخططًا له من قبل ورجع القائد ومساعده إلى كريتر مع الوفد الزائر والجميع فى حالة غضب واستنكار وخيم الوجوم والذهول على القائد فلم يتوقع مثل هذه المفاجأة المذهلة ومهما

كان حجم تشاؤمه ومحور توقعاته أن يتم تنفيذ بعض عمليات القصف بعيداً عن أعين الزائرين لا أن يتم الهجوم أمامهم وكأنهم المستهدفين بهذا الهجوم وعندما استقر بهم الحال فى مكتب القائد تبادلوا التساؤلات حول هذا الانفجار الاستفزازى فالعربات المدرعة تجوب الطريق وتفتش الأماكن حوله والطائرات الهليوكبتر ترصد وترقب كل كبيرة وصغيرة والأعين البريطانية فى كل مكان على جانبى الطريق ورغم الاحتياطات العالية الدقة والحذر البالغ يحدث الانفجار ويتسبب فى قتل وجنديين وكان من قام بتنفيذ هذا النفجار المدبر يقدم دليل على اثبات دامغ عن أن مقاومة الوطنيين صارت قوية وذراعها أصبح طويلاً ومؤلمًاوصارت تختار الوقت المناسب لتوجيه ضرباتها الموجعة.

وبعد مايزيد عن ساعة بقليل حضر كبير الخبراء البريطانيون ودخل على قائده وقد اكتسب وجهة حالة من الذهول وهو يبلغ قائده بأن الانفجار كان نتيجة انفجار عبوة ناسفة كبيرة تم اخفائها على جانب الطريق بعيداً عن حدود منطقة التأمين المقررة وقد وضعت هذه العبوة بعناية فائقة فى داخل بروز حجرى على يمين الطريق وفى تجويف طبيعى اختفت فتحته بشجرة اقتلعها الانفجار من جذورها وكانت وسيلة التحكم فى الانفجار باستخدام جهاز لاسلكى للسيطرة على الانفجار من بعد وقد تم تجميع ماتبقى منه وسيتم فحصه جيداً لأن هذا الجهاز لأول مرة يتم استخدامه بمعرفة الوطنيين ويعتبر أسلوبًا متطورًا للغاية وقد أعطيت تعليمات بتفتيش المنطقة حول مركز الانفجار بقطر ميل واحد على الأقل حيث انه بصفة مبدئية يتم السيطرة والتحكم فى الانفجار بواسطة جهاز ارسال يبعث باشاراته

اللاسلكية فى حدود مدى معين فيستقبله جهاز الاستقبال لتشغيل الصاعق والانفجار كان حديث كبير الخبراء كاملاً أمام أعضاء اللجنة الضيوف وكانوا يسمعون الحديث وهم فى حالة دهشة عالية من أن حزب البراغيث كما يدعى القادة فى عدن يستخدم مثل هذه الأجهزة الراقية النادرة وأنه لأمر غريب حقًا مستوى تدريب القائمين بالتنفيذ والذين خططوا لمثل هذا الانفجار المثير للجدل ووقع كثير من الخبراء البريطانيين فى حيرة كبيرة وكانت تقديراتهم وتحليلاتهم من تعليقات الصحف البريطانية ووصولها إلى أن الانفجار كان يستهدف أعضاء الوفد القائم بتقصى الحقائق إلا أن المنفذ للحادث قد أخطأ بأن أطلق الانفجار على عربة أخرى.

وأجمع أعضاء لجنة تقصى الحقائق بضرورة قطع زيارتهم والعودة إلى لندن فى نفس يوم الانفجار رغم المحاولات اليائسة التى بذلها قائد القوات البريطانية ومساعدوه لتبريرهم للحادث ومحاولة التخفيف من اثاره والوعود التى قطعوها على أنفسهم لمعالجة هذا الموقف والوصول للمنفذين الحقيقيين ومن يقف وراءهم وتوقيع العقاب الرادع القوى لأخذ زمام المبادرة والسيطرة على الموقف بعد أن صار تأمين القوات البريطانية وجودها فى عدن أمر مشكوك فيه ومعلق تحت رحمة هجمات الوطنيين وأمسكوا أو كادوا بزمام الأمور بتنفيذ هجمات منظورة ومؤثرة وفى الوقت الذى يقررون فيه ذلك.

انتهت الزيارة وقفل الأعضاء عائدين إلى لندن وقد تملكتهم قناعة كاملة بأنه لابديل عن سحب القوات البريطانية من عدن فكلما طال

وجود البريطانيون فى عدن زادت الخسائر بين الجنود وزاد الاحباط بينهم رغم المحاولات بينهم رغم المحاولات المستميتة التى بذلتها القيادة البريطانية بتجميل الصورة واضفاء طابع الاستقرار والهدوء بين الجنود البريطانيين أهالى البلاد.

ان اسلوب التشدد والقهر الذى أتى به قائد القوات البريطانية إلى عدن قابلة الوطنيون بالرفض وعبروا عن ذلك بأساليب شتى ضد الوجود البريطانى فى عدن وكانت أصابع الاتهام من قيادات القوات البريطانية تشير إلى الرجال المصريين فى تعز فهم وراء كثير من التدابير المحكمة والعمليات الناجحة والتى أصابت الجنود البريطانيين بالكثير من الاحباط وهبوط المعنويات بينما تمكنت روح الاحباط واليأس بينهم وقد نجحت المخابرات البريطانية مرة فى قصف موقع الرجال فى تعز وان كانت النتائج مخيبة للآمال المعقودة وحاولت المخابرات البريطانية فى عدن تدبير هجمات أخرى فى تعز ورغم سخاء الوعود وبذل الأموال الكثيرة إلا أن المحاولات التى بلغ عددها ست كان العملاء المكلفون بالتنفيذ من الوطنيين يأتون طواعية ليقابلوا الرجال المصريين ويسلمون الأسلحة والذخائر التى سلمها لهم مسئول المخابرات البريطانية لتوجيهها ضد الرجال المصريين وكان الوطنيون بذلك تطوعًا ويضيفون الكثير من المعلومات المفيدة برضائهم حتى إن قائد الرجال قرر تخصيص مكان داخل مقر الامام أسفل جبل صابر ليكون مخزنًا لهذه الأسلحة والذخائر البريطانية التى يتم تسليمها فى مركز رجال الذكاء المصريين.

الفرصة الأخيرة

صار الجنود البريطانيون فى عدن فى مأزق لايمكن أن يحسدوا عليه ورغم تمسك قائد القوات بخشونته وغطرسته فى التعامل مع المواطنين ومع الحوادث المتجددة فى عدن ورغم أن مسئول المخابرات كان يعتنق مذهب قائده ويدين بالولاء لقوة وضع اليد وبأس السلاح وان جاهد أن تظل ظواهر الأمور متماسكة إلا أن الأرض التى كان يقف عليها القادة البريطانيون فى عدن بدأت تهتز اهتزازات متتالية حتى صارت بواطن الأمور عند تحليلها لاتبشر بالخير بل صار ان عاجلاً أو آجلا فعلى حزب الأفيال رغم ضخامته لابديل إلا أن يرحل ويجهر بهزيمته أمام حزب البراغيث الذى صار لايرحم وكان كل نجاح مهما كان صغيراً دعوه إلى تحقيق نجاح أكبر وكل تعثر للقيادة البريطانية يستفيد منه الوطنيون ويطوعه أهل البلاد ليكون بداية لتعثر أكبر وأضخم واستغلت القيادة البريطانية حادث الانفجار فى قافلة أعضاء لجنة تقصى الحقائق وتشددت فى اجراءات حظر التجول

والتوسع في ايجاد مبررات للقبض على بعض الوطنيين ورؤساء بعض التنظيمات النشطة في عدن تحت دعوى غريبة وهي تحريض المواطنين على مهاجمة الجنود البريطانيين وتحت زعم أن بعض التصرفات الوطنية تهدف في باطنها إلى اهانة العلم البريطاني فقد كان بعض الأهالي يلجأون إلى تعليق نموذج لعلم بريطانيا على واجهات بعض المحلات وبعض البيوت ويتعمدون رسم أسد باللون الأسود على هذه الأعلام وقد قطع ذيل الأسد أو يرسمون الأسد وقد فتح فاه وتم انتزاع أنيابه الحادة أو يرسمون جسم أسد ورأس حمل كما كانوا يعمدون إلى تنكيس وضع هذه الأعلام وقطع بعض أطرافها بطريقة عشوائية.

بل إن بعض الشاحنات وعربات الوانيت كانت تعلق صورًا لأسد على صورة العلم البريطاني وقد فقئت عينا الأسد أو يظهر الأسد والدموع تتساقط من عينيه بل في كثير من الأحيان يعمد بعض المواطنون إلى صنع تمثال أسدًا متهالكًا على قدميه الأماميتين أو تمثال لأسد تم إظهار مخالبه المقطوعة ويجوبون بعض الشوارع عند بوابة اليمن وفي الميناء عند نزول بعض ركاب البواخر لزيارة المدينة وينادون على بضاعتهم وباللغة الانجليزية «أسد للبيع» وأحيانًا ينادون «أسد عجوز للبيع» أو « أسد وديع للبيع».

ان مثل هذه الأفعال البسيطة كانت مبعث سخرية وتسبب المعاناة النفسية للجنود البريطانيين هذه الحالة العدائية السلمية وعمليات المصائد القاتلة التي كانت دائمًا في تصاعد وتزايد جعلت القيادة

البريطانية تحتجز العديد من الأهالي وتفتح تحقيقات لا نهاية لها معهم وكان من ضمن المقبوض عليهم سالم ونسيبه محمد الكعبي وانشغلت القيادة البريطانية في هذه الفترة بالعمل على محورين المحور الأول القبض على كل مشتبه في ممارسته نشاطًا معاديًا للحد من العمليات العدائية المتنوعة والتي زاد تصاعدها وكثر عددها بحيث كان لا يمر يوم بسلام على الجنود البريطانيين في عدن والمحور الثاني هو العمل على رفع معنويات الجنود وحصر تحركاتهم بين المعسكرات البريطانية ومنع نزولهم إلى ا لمدينة خوفًا من الكوارث المتلاحقة التي تصيبهم وزيادة النشاط الرياضي واستدعاء بعض الفرق الرياضية الخارجية لعمل مباريات والترفيه عن الجنوود وزيادة فترة الاجازات والحد من المواجهة بين الجنود والأهالي ففي تقدير مسئول المخابرات البريطانية أن كل فرد من الأهالي عدو بصورة أ و بأخرى ان لم يكن يحمل سلاحًا ولم يجاهر بهذا العداء ولازالت صورة ذلك الوطني الذي تم القبض عليه في فترة سابقة واعتقد المسئول البريطاني أن لديه معلومات وأسرار عن الوطنيين في عدن فأمر بزيادة جرعات التعذيب والاستجواب المصحوب بالاهانة والايلام النفسي وتحت هذه الضغوط الكبيرة بدأ المواطن اليمني يدلي بمعلومات كثيرة اتضح فيما بعد أنها وهمية وكاذبة ولجأ المحققوون إلى وسائل أشد في التعذيب وعندما خارت قواه صرخ أمام ضابط المخابرات وقال ان هذا التعذيب مهما بلغت قوته فلن يستطيع معرفة ما في نفسه والتي علمها عند الله وحده وسرها خفي عند الواحد الأحد حتى لو تم شق صدري واقتلاع قلبي فلن تعرفوا شيئًا دفين

فى نفسه يعرفه الخالق وحده وإذا كان موتى بعد هذا التعذيب فسأموت مع سرى وعقيدتى وإيمانى.. وصمت رجال التحقيق عن عجز وقلة حيله إزاء هذا الإيمان القوى وأمر مسئول المخابرات بالافراج عنه بعد أن قال للمواطن انه يحترم اليمنيين ويحترم خصوصياتهم ورجال بريطانيا ليسوا من فاقدى الإنسانية فهم وان تجاوزوا أحياناً فهم رجال متحضرون يحترمون إنسانية وعقيدة الإنسان ويقدرون حريته فى التعبير أن صورة هذا المواطن لم تكن فريدة بل تكررت فى صور شتى حتى ان القيادة البريطانية أصدرت تعليماتها باطلاق سراح المواطنين الذين لم يثبت ضدهم اتهامات.

ولجأت القيادة البريطانية فجمعت بعض وجهاء اليمنيين فى اجتماع كبير ووقف أحد القادة البريطانيون يعلن رغبة القيادة البريطانية فى التفاهم مع العناصر الوطنية وان يتم فتح صفحة جديدة من التعاون المتكافئ وقررت القيادة البريطانية تقديم بعض المعونات للوطنيين وفتحت مراكز توزيع لهذا الغرض كل ذلك بغرض ترغيب العناصر اليمنية لكسب موافقتهم إلى سلام وصداقة كما أعلن تخفيض بعد الإجراءات المتشددة فى التفتيش عند ا لمعابر المختلفة وأضاف انه فى حالة نجاح السلام المأمول وتوقف المشاغبين من الأهالى عن إثارة المشاكل وإنهاء الصور العدائية المستمرة للوجود البريطانى فى عدن فإن لندن ستعمل على زيادة ا لمعونات وستزيد مايصرف على الخدمات لصالح جميع المواطنين.

كانت القيادة البريطانية فى عدن تبذل قصارى جهدها فى التودد إلى العناصر الوطنية خاصة والأهالى فى عدن بصفة عامة وتحاول استقطاب بعض وجهاء البلاد عسى أن يكون تأثيرهم على المواطنين فى صالح القوات البريطانية ولجأت القيادة البريطانية إلى زيادة جرعات المنح والهدايا والرواتب فى الفترة الأخيرة خاصة بعد حادثة الانفجار فى قافلة لجنة تقصى الحقائق بعد هجمات الصحف اللندنية الشرس على أسلوب القيادة فى عدن وعلت أصوات داعية إلى سحب الجنود من عدن إلا إذا كان يتعارض مع مصلحة الامبراطورية البريطانية وحتى لجأت بعض الصحف إلى التحريض على قيام مظاهرات للضغط على الحكومة لاتخاذ قرار عاجل بسحب الجنود البريطانيين من عدن دون أدنى شروط ومهما تعارض ذلك مع رغبة بعض الساسة الذين يتمسكون بعراقة التقاليد ومهما كان اختلاف نزعات الصحف فى لندن إلا أنها أجمعت على أن يتم سرعة تغيير قائد القوات البريطانية فى عدن وبعض مساعديه ويتم ذلك بصفة عاجلة لأن تقرير لجنة تقصى الحقائق أشار إلى ارتباك القيادة فى السيطرة على الموقف وفشلها فى تأمين تحرك أفراد لجنة تقصى الحقائق ولم يكن تقرير اللجنة بالتقرير الذى صعب على بعض الصحف اللندنية فى الحصول عليه ونشره كاملاً فى صدر صفحاتها ووجدت الصحافة تأييداً كبيراً من الأهالى فى دعوتها إلى سحب قائد القوات فى عدن خاصة أمهات وعائلات الجنود البريطانيون والرسائل المتبادلة فيما بينهم وبين أهلهم والتى كانت تسعى فى لهفة لنشر هذه الرسائل حتى إن إحدى الصحف اللندنية أصدرت مقالة فى مقدمتها

جدول يبين الأضرار والفوائد لاستمرار وجود الجنود فى عدن وخرجت بنتيجة نسبية إلى أن نسبة الأضرار تتجاوز ٨٠٪ من المحصلة فى حين تقديرات الفوائد على احتمال حدوثها لاتتجاوز ٢٠٪.

وهكذا وجدت القيادة البريطانية وضعها فى مأزق شديد ورغم محاولتها المستمرة واجتهادها الدءوب بعد سفر لجنة تقصى الحقائق فى تحسين صورتها سواء فى عدن أو فى لندن إلا أن فشلها وإحباطها كان بارزًا ومحاولتها محكوم عليها بالهزيمة الساحقة ولذلك عمدت القيادة البريطانية إلى زيادة حجم التودد إلى أهالى البلاد ونجحت أيضًا فى توجيه بعض عملائها فى عدن إلى إرسال خطابات إلى بعض الصحف فى لندن تدعو إلى استمرار حملة التنوير والتطوير التى تقوم القيادة البريطانية بتنفيذها فى عدن وذلك مايبرر استمرار بقاء الجنود فى عدن.

فعدن صارت سجنًا كبيرًا مفتوح الأبواب لقوات الاحتلال البريطانى رغم الصوت العالى لعقلاء الرجال والذى يبحثون عن الحقيقة الغائبة ويضعون المضمون فى مكانه الصحيح ورغم العبر التاريخية كان التفاؤل لدى القائد بمثابة الطفل الوحيد لوالديه له كل الحب والتدليل والآمال.

وفى صباح اليوم التالى ذهب القادة العسكريون إلى مكاتبهم فى وحداتهم وانعكس تفاؤل القائد على مساعديه ووصلت فى هذا الجو الذى غشيته أحلام التفاؤل عبارة عن خطابات بالاسماء الشخصية

معنون بخاص جدا إلى القادة ليقوم على فتحها وترتيبها وتنظيمها سكرتيرى القادة ويعرضون عليهم الأهم ثم المهم.

ووصلت مع البريد اليومى ثلاثة ألبومات للصور مع خطابات رقيقة عن حفلة البولو التى حضرها بعض القادة العسكريون ومن بينهم القائد ونوابه ومساعده لشئون المخابرات وكانت ذكرى هذه المباراة طيبة ومناسبتها عزيزة لايمكن نسيانها بسهولة تلك المباراة الجميلة التى أقيمت خصيصاً على شرف بعض الزائرين القادمين من لندن وللترفيه عن جنود بريطانيا العظمى فى عدن وصلت هذه الألبومات مع كتب رقيقة حرص كتابها إلى إبراز مباهج وروعة يوم الاحتفال الرياضي والذى انتصر فيها فريق الجيش البريطانى وفى لهفة قام أحد القادة بفتح ألبوم الصور لمشاهدة صوره فى هذا الحفل الجميل وما كاد يفعل حتى انفجر الألبوم فى يديه وفى وجهه وأصيب القائد إصابات بالغة وفى مكتب آخر لأحد القادة من مساعدى رئيس الأركان وفى توقيت واحد بدأ القائد يتصفح بريده ولفت ألبوم الصور والكتاب الرقيق الموجه إليه والصور الرائعة المرفقة لسعادته وقد زادت القائد كل هذه المغريات الطيبة مما جعله يتخلى عن حذره وفتح الخطابات فانفجر بين يديه مسبباً جروحاً بليغة وقد هرع مساعدوه عند سماع الانفجار فوجدوه ملقى على أرض المكتب والدماء تناثرت فى مكتبه وأصابه الإغماء هكذا أصيب القائد الثانى أما الألبوم الثالث فقد تأخر المرسل إليه عن الحضور إلى مكتبه فى هذا اليوم وسارعت إدارة التأمين لفرض طوق شديد فى مكتب توزيع البريد وفحص جميع الرسائل المختلفة الواردة من الخارج ومن داخل عدن - وكان حدث

انفجار الطرود في معقل القيادة أمر خارج كل تقدير وبعيد الاحتمال عن أي تصور لمخططي القيادة في عدن وزاد ذلك من تعقيد الموقف أمام قائد القوات البريطانية وكان انفجار الطرود عملية بالغة الخطورة على جميع أفراد القوات البريطانية من أعلى رتبة إلى الجندي العادي - الذي رأى أن قيادته غير آمنة فكيف ستوفر له جزء من الأمان والمصير الذي ينتظره ورغم تتابع سلسلة الأعمال المعادية للوجود البريطاني إلا أن استخدام المراسلات المتفجرة ونجاحها في الوصول إلى أهدافها كانت ضربة قاصمة وسببت قهرًا نفسيًا عنيفًا - وحسمت كثيرًا من التوقعات في غير صالح الجندي البريطاني.

لقد رتبت العناصر المقاتلة اليمنية بذكاء شديد وفطنة لاتخفى عملية الهجوم بالرسائل الشخصية كانوا ينظرون إلى المقاومة الوطنية من برج عالي متغطرس وكانوا يأمرون جنودهم في تعاملهم مع الأهالي المسالمين بكل غلظة وترفع وتسببوا في ارتكاب جرائم لا إنسانية في حق الشارع العدني حتى ان أسماء هؤلاء الضباط الذين وصلت إليهم الرسائل المتفجرة كانوا معروفون بالاسم لدى الشارع العدني وكانوا يحظون بكره ومقت شديدين لدى المواطن العادي بسبب مااقترفت أيديهم من ردود أفعال بغيضة أصابت كثير من الوطنيين المسالمين بأضرار بليغة.

نجاح الوصول للقائد فى مكتبه

حدث انفجارين جديدين وبأسلوب حديث لا يجول بخاطر القيادة العسكرية وأصيب قائدين من أعلى الرتب إصابات بالغة لا نجاة من ناتج انفجاراتها القاتلة وحدثت الانفجارات فى مكاتبهما القيادية وحولهما حرسهم الحديدى وبعد عنف الصدمة والذهول لهول المفاجأة اجتمعت القيادة البريطانية على عجل لدراسة تداعيات الحادث الجديد والذى تسربت أخباره ونتائجه إلى الصحف المحلية وصحف لندن ونشرت إحدى الصحف المحلية فى عدن مقالة افتتاحية استهلتها.

«العناصر اليمنية تهاجم بالطرود المتفجرة القادة البريطانيين فى عدن رغم الحصون القوية من الجنود البريطانيين المزودين باقوى الأسلحة».

وافتتاحية لصحيفة عدنية أخرى تقول:

«القيادة البريطانية فى مازق ولا يوجد إلا طريق واحد

للنجاة منه وجريدة ثالثة تقول فى تهكم وشماته».«القيادة البريطانية فى عدن تحت رحمة اليمنيين».

وتتابعت المقالات فى الجرائد اللندنية ونشرت صوراً لألبوم الصور التى لم تنفجر وأخذت تعدد المحاذير للوقاية والاحتياطات الواجب اتباعها فى عدن.

لقد سيطر الذهول على قائد القوات البريطانية فى عدن وانهارت أحلامه العتيقة وتكشفت أمامه حقائق كانت خافية عليه حقائق ذات معايير بعيدة كل البعد عن أى قياس وخارج نطاق المقارنة المنطقية فلقد صار ومساعدوه من القادة فى وضع مباشر لهجمات العناصر اليمنية رغم التحصينات الكثيرة والحواجز الأمنية المشددة التى يحيطون بها مكاتبهم وتراقصت صور ومشاعر شتى فى ذهنه كشريط سينمائى وعادت به الذاكرة إلى يوم تصفح فيه إحدى الصحف القادمة من لندن ولفت انتباهه مقالة لأحد المفكرين البريطانيين يعلن فيه أن عصر الاستعمار باستخدام الجنود لاحتلال الأراضى قد انتهى ويجب على العقلاء ذوى التفكير الراقى أن يفكروا فى أسلوب جديد للاستعمار ولكن بدون جنود وبدون احتلال أرض.

لقد قرأ هذه المقالة ورفضها رفضاً قاطعاً فى حينها شكلاً وموضوعاً لأن مثل هذا الكلام مثل إلقاء قطعة من المعدن على قالب من الثلج فتأثير إلقاء قطعة المعدن لن تؤثر على القالب المتجمد أن عقيدته متجمدة مثل قالب الثلج ومدرسة تفكيره محصورة فى هذا الإطار ولذا كان الرفض الكامل لمضمون المقالة فى ذلك الحين..

ولكن أصبح على رأس قوات عسكرية عالية الكفاءة وفائقة التفوق فى الأسلحة والمعدات وتسيطر على أرض على بعد آلاف الأميال من بلاده ويشاهد كل يوم طرقًا ووسائل لمهاجمة جنوده ورغم خبرته الكبيرة ودراساته العالية كان يقابل أحيانًا وجهاء الأهالى فى عدن يبتسمون فى وجهه ويتملقون قدره ومكانته ويتحدثون عن العيش فى سلام على أرض اليمن ورجاله يجذلون العطاء ويقدمون المعونات لكسب قلوب الأهالى ولكن لم يتمكن من الغوص فى نفوسهم لمعرفة المشاعر الحقيقية فهذه المشاعر عادة لايفصح عنها اللسان ولايكشف سرها البيان وجال فى خاطر القائد انه رغم عراقة التقاليد التى يعتنقها ورغم نشأته الارستقراطية أثناء فترة زاهية من حيث أن بلاده امبراطورية عظيمة لا تغيب عنها الشمس ولكى يتعامل مع متغيرات الأحداث تخلى عن بعض التقاليد الموروثة وتنازل عن بعض كبريائه وصلفه وأخذ يظهر المودة للأهالى الذين تضطره المقتضيات مقابلتهم والتحدث إليهم ورغم هذه المحاولات التى أولاها اهتمامه وهو فى الحقيقة الحاكم بأمره فى تصريف شئون قواته القوية القاهرة ونفوذه يمتد على قطاعات كبيرة يسكنها الوطنيون وتحت امرته سفن حربية فى الميناء وقدرات مالية تسمح له أن يمنح ويجزل العطاء لمن يقدم خدماته لما فى ذلك مصلحة بريطانيا وجنوده ينتظرون اشارته لتنفيذ مايريد ورغم ذلك فهو يشعر انه مقيد وجنوده فى مأزق بل وسمعة بلاده العظيمة تتأرجح وهو يشعر فى قرارة نفسه انه وجنوده فى سجن كبير سجن بلا أسوار وبلا حراس وبلا قيود وأقسى السجون من كان بلا أسوار ومن الغرائب والطرائف أن من بيده مفاتيح هذا

السـجن الكبيـر كـانوا الأهـالى فى عـدن ومـاجـاورها فـهم يهـاجمـون جنوده وقت مـايشـاءون ويهاجمـون المعسكرات فى أى وقت ويقـصفون منشـآت القوات البريطانية حينما يريدون ومن يراهم فى ظاهرهم يرى قومًا مسـالمين على طبيعتـهم السـمحة متوادين متعـاطفين ولكن فى باطنهم العداء المر وفى مكنونهم لوعة ورغبة فى الانتقـام ومنطقة عدن ظهرت على حقيقتها منطقة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

وتغيـر حـال قـائد القـوات وهو جـالس وحيـدًا فى مكتبـه يـفكر على ماالحاق بقـواته من خسـائر واستنزاف مسـتمر لقدراتها حتى أصبحت محـاولة رفـع الروح المعنوية للجنود أمرًا عـسـيرًا عصـى التنفيـذ بعد مـعـايشـتـهم المسلسل اليـومى لمصـرع زمـلائهم وكـان حـال القـائد البريطانى قد أفصح عنه الشـاعر العربى فى قوله:

ألا أيها السـجان هل فككت قيدى فلربما أنت غافل فالقيد فى يديك

وأثناء تفكير القائد وشرود ذهنه فيما يحدث لجنوده فى عدن طرق أحد ضـباطه باب مكتبه وبعد أن أدى التحية أخبره بأنه وقعت حادثة جديدة أمـام بوابة كريتر مركز القيادة فى عدن فقد تم نسف سيارة مـسـاعـد رئيس المخـابرات الذى قـتل ومـعـه سـائقـه وأصـيب جنديين للحراسـة معه فى نفس العربة وان التقرير المبدئى عن طريقة الهـجوم انه تم اسـتـخـدام وسـائل السـيطرة عن بعد ولم يبـعـد الانفـجـار عن البوابة الرئيسية لمركز القيادة البريطانى على مسـافة أربعمـائة متر وصمت الضـابط قليلاً وتابع حديثه بنبرات تنبض بالألم انهم لم يعثروا على أى آثار للفاعل وان خبـراء مـقـاومـة الانفـجـار يقومـون بفـحص

الأجزاء المتبقية لدراستها وتقديم تقرير تفصيلي فيما بعد واستمع القائد لخبر هذه النكسة الجديدة ولم يعلق بشيء بل ساد الصمت فقطعه قول القائد في صوت خفيض موجهًا أمره للضابط الواقف أمامه اتبعوا الاجراءات اللازمة وعاد القائد إلى شروده بعد انصراف الضابط من مكتبه ولم تمض أيام إلا وقد وصلت عدن رسالة من لندن تتضمن قرارًا بتعيين قائد جديد للقوات البريطانية في عدن وعدد من القادة المساعدين الجدد.

وتزايد صوت العقلاء في لندن وأصبح هو الصوت الغالب بضرورة سحب القوات البريطانية من هذا المستنقع الذى لايبدو له نهاية ان عدن صارت مثل ظاهرة الرمال المتحركة خادعة المظهر ولكنها تبتلع في باطنها كل من يدرس أرضها.

ولم يكن يخفى على أحد أن القائد الجديد قد جاء لترتيب انسحاب الجنود من عدن فصوت العقل الصائب صار عاليًا ولا منافس له في أعلى الهرم السياسى في لندن.

وهكذا كانت عدن أول منطقة على البحر الأحمر يسيطر عليها البريطانيون وكان وجودهم فيها ذو نفع عظيم لبلادهم خاصة أثناء سيطرة بريطانيا على الهند وأثناء الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية فعدن كانت ذات أهمية خاصة لبريطانيا العظمى فهى بمثابة برج كبير للمراقبة والاستطلاع على القرن الافريقى غربًا وعلى شبه الجزيرة العربية شمالاً وشرقًا ومنارة للارشاد على ساحل المحيط للانطلاق عند الضرورة والدفاع عن المصالح البريطانية هذا

بالاضافة إلى كونها مركزًا هامًا لتموين السفن وترويج التجارة الصناعية البريطانية ولايخفي عن ان عدن كانت تمثل قاعدة انطلاق ووثوب عند الضرورة لكل مايهدد كيان الامبراطورية العظمى ولذلك فكانت بريطانيا تتشبث باستمرار تواجدها فى عدن نظرًا لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية ولكن دوام الحال من المحال واضطرت بريطانيا العظمى إلى سحب قواتها من عدن وانزال العلم البريطانى عن هذه المنطقة وكانت آخر منطقة تنسحب منها على البحر الأحمر بعد احتلال دام مائة وتسعة وعشرون عامًا وكان الاحتلال تحت منطق الاستعمار لبناء الامبراطورية على حساب المستضعفين من الشعوب وكان يطلق على الاستعمار بلغة أكبر دولة مستعمرة.

(Grepire Building Cotionalism)

ويوم تم انزال العلم البريطانى من عدن اجتمعت أسرة الحاج أبو سالم حول كبيرة الأسرة أم سالم وحضر الأبناء والأحفاد ليزوروا قبر جدهم الذى مات بقنابل الطائرات البريطانية.

وعند قبر أبو سالم تكلم سالم بأنه جاء إلى قبر والده بعد أن تحقق الثأر له والثأر لكل اليمنيين الذين قتلوا دفاعًا عن بلدهم وأهلهم ووقف الجميع لحظات صمت وبجانبه أمه وفاطمة ومحمد الكعبى وكثير ممن يحفظون عهد أبوسالم ويفتقدونه لحظات صمت من الأبناء والأصدقاء والأحفاد ترحمًا على روح الفقيد وفرحًا بعودة الوطن إلى أهله.

وإن طال الزمن على نجاح الأخذ بثأر أبوسالم إلا أن الصبر كان سلاحًا قويًا وطول الزمن لم يضعف جذوة الأخذ بالثأر للأبرياء والشرفاء.

وسلام إلى رجال كانوا فى تعز هؤلاء الجنود المجهولون لمن كان منهم على قيد الحياة ورحمة ومغفرة وفوز فى جنة الخلد أعدت للصابرين لمن قضى نحبه فقد عملوا فى صمت وصبر وقدموا الكثير من الوفاء لوطنهم العظيم الكبير وامتهم العربية العريقة وقدموا جهدًا لايمكن أن تنساه الأجيال لأشقائهم فى اليمن ومن عاصر ذلك من اليمنيين اليوم يتذكرون بحب ومودة كبيرة الجهد والتفانى والحماس والمشقة التى رفعها الرجال المصريون فى تعز شعارًا مقدسًا وكانوا بذلك عند حسن ظن الجميع وعند مستوى المسئولية التى تم تكليفهم بها وسيأتى يوم بعد أو قرب سيذكر التاريخ بعد أن يفصح عن أسراره ويذكر أولئك الوطنيين اليمنيين الذى تنبهوا مبكرًا للعدوان وقاموا منذ اللحظة الأولى لاحتلال أرضهم والسيطرة على بلادهم رغم ضعف ما توافر فى أيديهم من سلاح وعون ولكن كانوا صادقون العزم والعزيمة وقابلوا يد الاخوة المصريين بكل الحب والعون وتعاون الجميع على هدف واحد وقصد شريف محدد ونجحوا من خلال صعوبات وتعقيدات وسطوة للعدو المشترك وراهنوا منذ اللحظة الأولى على أنهم سينتصرون رغم وهن احتمال النصر وانهم سينجحون فى فرض إرادتهم على قيادة العدو الذى لم يجد مفرًا من أن يرحل ويعود إلى بلاده ويعترف بأن من يرتكز على القوة وحدها لن يكتب له الفوز والنجاح وان عصر قهر الشعوب مهما ضعفت قدراتها قد انتهت

وأثبت الرجال المصريون فى تعز ان ايمان الضعفاء بعدالة قضيتهم أقوى من كل الأسلحة وأشد فتكًا من أرقى التجهيزات والمعدات والتخطيط الذى يعتمد على القهر وان ايمان وتماسك الضعيف لنزع عباءة الظلم عنه هى من أقوى الأسلحة السرية المضمونة الفاعلية وان ايمان الأخ بأخيه فى الوطن العربى الكبير وشفافية العلاقة وطهارة القصد ونبل الهدف المشترك لذلك كله كانت الكلمة الفاصلة والحاسمة ومنطوق الحكم من قضاة العلاقات الإنسانية بين البشر ورحلت قوات الاحتلال عن عدن بعد اليأس من توافر البديل.

فتحية لذكرى العمل المشترك .. وتحية للرجال المخلصين الذين آمنوا بربهم وبوطنهم .. ولم يهنوا ولم يضعفوا أمام آلة العدوان القاهرة.. فكتب الله لهم النصر ونجحوا فى إصدار شهادة وفاة للاستعمار البريطانى فى عدن.

الفهرس

صدر فى هذه السلسلة

٢٢ـ نظرات فى تاريخ مصر،
جمال بدوى، ١٩٨٨
٢٣ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ٢ ، إمام التصوف فى مصر: الشعرانى،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨ .
٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل، ١٩٨٩ .
٢٥ ـ المجتمع الإسلامى والغرب،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين،
ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩ .
٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعيد إسماعيل على، ١٩٨٩ .
٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ١ ،
تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩ .
٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ٢ ،
تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩ .
٢٩ ـ مصر فى عهد الإخشيديين،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩ .
٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عهد محمد على،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٠ .
٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى، ١٩٨٩ .
٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢ ،
لمعى المطيعى، ١٩٨٩ .
٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى، ١٩٨٩ .
٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،
د . يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠ .

٣٥ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٠ .
٣٦ ـ المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين، ترجمة : د . أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠ .
٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن،
تأليف : د . سليمان صالح، ١٩٩٠ .
٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠ .
٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد، ١٩٩٠ .
٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى، ١٩٩٠ .
٤١ ـ محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية ،
د . رفعت السعيد، ١٩٩١ .
٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غربال، ط ٢، ١٩٩٠ .
٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية ،
إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠ .
٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر، فى العصر العثمانى ،
د . محمد عفيفى، ١٩٩١ .
٤٥ ـ الحروب الصليبية جـ ١ ،
تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د . حسن حبشى، ١٩٩١ .
٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧) ،
ترجمة: د . عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١ .

٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث،
د. لطيفة محمد سالم، ١٩٩١.
٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى،
د. زبيدة عطا، ١٩٩١.
٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٧٩)،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦-١٩٥٤)،
د. سهير اسكندر، ١٩٩٣.
٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)،
أعدها للنشر: د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر،
د. إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢.
٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د. محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢.
٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،
د. محمد عفيفى، ١٩٩٢.
٥٥ - الحروب الصليبية جـ٢،
تأليف: وليم الصورى ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ١٩٩٢.
٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢.
٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢.
٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،
د. إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣.
٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١)،
د. عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣.
٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣.
٦١ - تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.
٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر جـ٢،
لمعى المطيعى، ١٩٩٣.
٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر: د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.
٦٤ - مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،
د. محمد نعمان جلال، ١٩٩٣.
٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧-١٩١٧)،
د. سهام نصار، ١٩٩٣.
٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى،
د. نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣.
٦٧ - مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.
٦٨ - الحروب الصليبية جـ٣،
تأليف: وليم الصورى
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ١٩٩٣.
٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦-١٩٥١)،
د. محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤.

٧٠- أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف : أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط ٢، ١٩٩٤.
٧١- مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤.
٧٢- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.
٧٣- تاريخ جامعة القاهرة،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.
٧٤- تاريخ الطب والصيدلة المصرية، جـ١، فى العصر الفرعونى،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.
٧٥- أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول،
د. سلام شافعى محمود، ١٩٩٥.
٧٦- دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الإحتلال البريطانى)،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥.
٧٧- الحروب الصليبية جـ٤،
تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ١٩٩٤.
٧٨- تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.
٧٩- تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر،
تأليف : فريد دى يونج، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥.
٨٠- قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢-١٩٠٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥.
٨١- تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزى ميخائيل، ١٩٩٥.
٨٢- مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٣- مذكراتى فى نصف قرن جـ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٤- مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ - القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.
٨٥- تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤-١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥.
٨٦- تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)،
د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥.
٨٧- مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ - ١٩٤٦)،
إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥.
٨٨- التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥.
٨٩- تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.
٩٠- معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.
٩١- تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦.
٩٢- الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦.

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،
د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.

٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية،
د. محمد سيد محمد.

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢،
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار، أ. د. محمد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى، أ. د. فاروق القاضى، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى، اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره
د. على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧ .
د. أحمد فارس عبدالمنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).
د. سليمان صالح

١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.
تأليف: نليب هيرو: ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.

١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤ .
سليم النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥ .
سليم النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.
د. البيومى اسماعيل الشربينى.

١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.
د. البيومى إسماعيل الشربينى.

١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى
د. محمد محمد الجوادى.

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)
د. عزالدين إسماعيل.

١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٣.
أحمد شفيق باشا.
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية
(١٥١٧ ـ ١٧٩٨)
عبد الرزاق إبراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام
د. البيومى إسماعيل الشربينى
١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى
١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد أحمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم .
١٢٨ ـ معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوى.
١٢٩ ـ الدين العام (وأثره فى تطور الدين المصرى) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر . (١٩٨٧-١٩٩٧).
سمير فريد.
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمر.
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ١ .
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ٢ .
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى.
بقلم/ عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية
(فى ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) د. محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والإرهاب فى مصر
السيد يوسف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥هـ : ١٨١١ ـ ١٨٤٨م.
طارق عبد العاطى غنيم بيومى
١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك.
لطفى أحمد نصار
١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩ .

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
١٤٧ ـ حسن البنا متى.. كيف .. ولماذا؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية
فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محاسن محمد الوقاد
١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)
د. عبد الحميد البطريق

١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الثالث
فى العصر الإسلامى
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الرابع
فى العصر الإسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
١٦٠ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش
١٦١ـ السيف والنار فى السودان
تأليف / سلاطين باشا
١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)
د. تمام همام تمام
١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
١٦٥ـ التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر
(فى القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم
١٦٦ـ مذكرات معتقل سياسى (صفحة من تاريخ

مصر)

السيد يوسف

١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الأخشيدية

د. صفى على محمد عبدالله

١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات

يسرى عبد الغنى

١٦٩ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)

د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)

مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر القرن التاسع عشر

تأليف / محمد رفعت

١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى)

الجزء الأول

تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى)

الجزء الثانى

تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م

د. أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودورة فى الحياة السياسية

عادل إبراهيم الطويل

١٧٦ ـ الملاحة النيلية فى مصر العثمانية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م

د. عبدالحميد حامد سليمان

١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية ازاء حروب الشرق الأوسط

لواء دكتور/ صلاح سالم

١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر

د. سحر على حنفى

١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)

د. عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس

بقلم / د. عبدالعظيم رمضان

١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)

ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى

١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)

ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى

١٨٣ ـ شاهد على العصر

مذكرات محمد لطفى جمعة

١٨٤ ـ المتولية فى القرن الثامن عشر

ياسر عبد المنعم محاريق

١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥م

د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦ ـ العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف

د. أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ١
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ٢
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهــود مصر منــذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ م
عرفه عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق (١٩٥١ ـ ١٩٦٣م)
د. عبد الحميد عبد الجليل احمد شلبى

١٩١ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى اوائل القرن التاسع عشر جـ ١
د. محسن على شومان .

١٩٢ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى اوائل القرن التاسع عشر جـ ٢
د. محسن على شومان .

١٩٣ ـ الامام محمد عبده بين المنهج الدينى الاجتماعى
د. عبد الله شحاته

١٩٤ ـ تاريخ الآلات الموسيقية الشعبية المصرية
د. فتحى الصنفاوى

١٩٥ ـ مجتمع افريقيا فى عصر الولاة
د. نريمان عبد الكريم أحمد

١٩٦ ـ تاريخ تطــور الرى فى مصر (١٨٨٢ ـ ١٩١٤ م)
عبد العظيم محمد سعودى

١٩٧ ـ القدس الخالدة
د. عبد الحميد زايد

١٩٨ ـ العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية
د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٩٩ ـ المعبد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية
(تنظيمه الإدارى ودوره السياسى)
د. بهاء الدين ابراهيم محمود

٢٠٠ ـ تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور
(أعمال الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية فى يومى ٢٢، ٢٣ ابريل ١٩٩٨م)

اعداد/ د. عبدالعظيم رمضان

٢٠١ ـ إمارة الحج فى مصر العثمانية
(٩٢٣ - ١٢١٣ هـ/ ١٥١٧ - ١٧٩٨م)
سميرة فهمى على عمر

٢٠٢ ـ المندوبون الساميون فى مصر
د. ماجدة محمد حمود

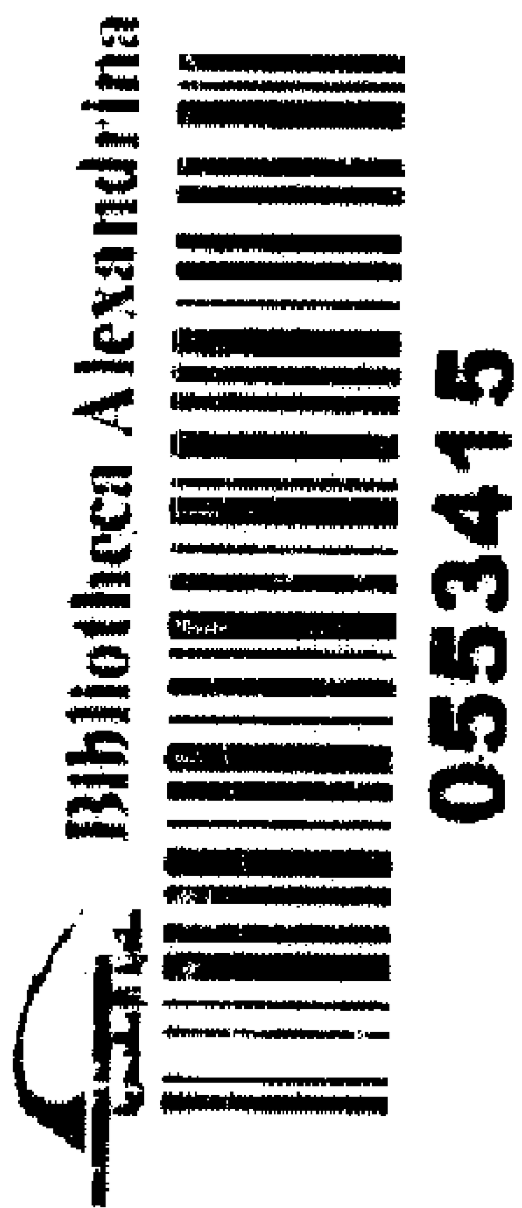
٢٠٣ ـ الصـــراع الدولى على عــدن
والدور المصرى
فتحى أبو طالب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥١١ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7181 - 6

يتناول هذا الكتاب الصراع الدولى على عدن، حيث تعرض لاحتلال بريطانيا لعدن وضمها لأملاك الإمبراطورية البريطانية، ونشأة المقاومة للاحتلال من الداخل فى منطقة الشيخ عثمان، واحتلال شبه جزيرة عدن الصغرى وأهمية عدن لبريطانيا فى الحرب العالمية الأولى، وموقف مصر من هذا الاحتلال، وتعرض لتجارة السلاح بين القبائل اليمنية وازدهارها بعد الاحتلال البريطاني لعدن، كما تعرض لأهمية ميناء عدن وحادثتى ردفان الأولى والثانية.



٧٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب